

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والنقد

رسالة دكتوراه
موضوعها

الدراسة البصرية وجهودها في نقاء النقد في القرن الثالث الهجري

مقدم من

أحمد عبد الفقار عيسى

المستشار

الأستاذ الدكتور / أحمد الشرباعى

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله"

وحمى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وطهرهم

"ربنا عيب لنا من لدنك رحمة وعيب لنا من أمرنا وشيئنا"

(المقدمة)

- ١ -

من تمام الجاه لتراثنا الأدبي وحرصنا على صيانته وحده بنا على بحثه
وأحيائه. أن توجه جهودنا لابرار الثارات الفكرية التي تنس إلى بيئاتنا
الثقافية الأولى والتي كان الهدف منها دراسة قضايا الأدب وتحليل ظواهره
وذلك حتى يثني لنا التعرف على طبيعة البحث النقدي عند العرب والكشف
عن ملاح الأمالة في آرائهم ونظرياتهم ..

ولمن تولى جهودنا في هذا المجال ثمارها إلا إذا التزمنا في ..
النهج الموضوعي وكانت مستعدة من حقائق ذلك التراث نفسه ونزها آرائنا
وأقلامنا عن سخط التعصب وريف الادعاء ونقض الأحكام التي تجنح إلى التعميم
وتتخذ الدقة وتنصب الأدلة والأسانيد ..

ولقد در التراث العربي في هذا المجال أن يدرس على هذه الأسس وتتصحب
في تجلياته وكشف جوانبه تلك الروح - لتفتح أعيننا على حقائق ناصعة ولخرجنا
بنتائج لها قيمتها ودالاتها ولاستطعنا بحق أن نعطي لتراثنا أبعاد الحقيقة
ونكتف عن معدنه الأسفل ..

وموضوع دراستنا هذه يتناول جانباً مهماً من جوانب تراثنا النقدي ونقدهم
بطريقة موضوعية جهود بيئة من أعرق بيئاته وهي " مدرسة البصرة في القرن الثالث
الهجري " .. وتتلخص فكرة الدراسة في أنها محاولة للتعرف على الأسس والهادي

(ب)

التي قودها علماء المدرسة البصرية حول مسائل النقد الأدبي وقضاياها وإبراز ما تنطوي عليه تلك الأصول من قيم فنية ونظرات ثقافية وذوق أصيل ، مع مقارنة هذه الأصول والآراء بنظائرها في النقد الحديث لمعرفة ما فيها من ومناجح ولا لقضاء الضرر على الجهود النقدية التي أسهمت بها تلك المدرسة الفكرية الرائدة في تاريخ الحضارة العربية ..

وتستند دراستنا قيصرياً وأهميتها من أنها تهدف إلى تنجي منابع التفكير النقدي الأصيل عند العرب وتبني بصفة خاصة بتسجيل مرحلة مهمة من مراحل تطور النقدي الضو على باكورة النتاج النقدي المنظم في تراثنا العربي وذلك عند حسن التصور الخاطيء الذي يحاوي أدعياء الثقافة الأوربية تقريره في الأذهان وهو أن العرب لم يمارسوا فن النقد ولم تكن لهم دراية بأصوله وأن آراءهم فيه غلطية وأسوأهم في بحوثه جد محدود .. وسوف يتكفّف لنا من ثنايا هذه الدراسة أن العرب كانوا على حق بمفاهيم النقد الأدبي وأصوله وأنهم فطروا إلى خبايا أدبيهم وحددوا قيمه وأشاروا إلى منوعات الجبال فيه .. وسيتبين لنا أيضاً أن الأدب العربي في عصوره الزاهرة كانت توافقه حركة نقدية ناضجة لا يمكن إغفالها أو التقليل من قيمتها ..

— ٢ —

والموضوع من حيث هو قضية أدبية محددة لم يسبق إلى بحثه أحد فإلى المؤلف والشعور أن المدرسة البصرية كانت لها الريادة في مجالات البحث اللغوي ووضع قواعد النحو والتصريف والذي يشهد إلى الأذهان من الحديث عن المدرسة البصرية أنها مدرسة النحاة البصريين في مقابلة نحاة * الكوفة * أونحاة * بغداد * أما مدرسة البصرة في النقد الأدبي فهي مالم يقف الدارسون بعد على حقيقتها أو تكفّف لهم جهودها ..

(ج)

والواقع أن هناك علاقة وثيقة بين مدرسة البصرة اللغوية النحوية ومدرسة
البصرة النقدية وليست هذه العلاقة كما قد يتوهم آتية من أن النقد في هذه
المدرسة كان قادرا على الثقافة اللغوية وإنما تشمل العلاقة في أن بحوث اللغوية
والنحو استلهمت جميع العصر القديم وتدوينه بحسبان السادة التي استقر فيها علم
اللغة والنحو أصولهم وتواعدهم وجميع هذا التراث أصبحت المدرسة مهابة أسسها
طائفة من العلماء تجاوزت اهتماماتهم حدود قواعد اللغة والأعراب لتتطروا في الأساليب
والبحاث وتناولوا بالاحياء والتقديم خصائص الشعر القديم وتقاليد الفنية وحسبوا
عصر كى شاعر واستغلوا السحات الخالية على فنه والفرقة السائدة في عصره وماقتهم
تلك البحوث الى الحديث عن وقائع الحرب وأيامهم ومبادئهم ومعتقداتهم فكان لنا من
ذلك كله فئتين من المعارف الأدبية والنقدية والتاريخية .. هذا بالإضافة إلى أن القرن
الثالث الهجرى كان من أزهى عصور الأدب العربي وأحلىها بالأمير والأدباء بهشاق
العصر والأدب ولم يقف نقاد البصرة ذلك النشاط الأدبي المتنوع الذى انقسمت من
حولهم فأولوه عنايتهم وأدلو فيه بأرائهم وحددوا للعصر والكتاب مقومات الجرامة
وهوامل السبق والاجادة كما نبههم على أسباب التردى ودوافع التخلف والتقصير
فى كل لون من ألوان الأدب ..

مع أن القرن الثالث كان الرعاية الثقافية /للعهداد فيه/ فان علماء البصرة - كما
سيصبح لنا - كانوا عار هذه الرعاية وأربابها وكانت آراؤهم وأقوالهم دائمة الصيحت
واسمة الانتشار ..

وإذا كنا نؤكد أن تراث المدرسة البصرية فى النقد الأدبى لم يحدث فى دراسة
مستقلة فان أعلام النقد البصريين الذين تناولنا تراثهم بالتفصيل وهم : الأعرجى
وابن سلا والجاحظ والمبرد ونقاد المتمزلة - وردت لشارات متناثرة لجهود بعضهم

في النقد الأدبي موزعة في بعض كتابات المحدثين . غير أنها بصفة عامة لا تلمس بالسهولة الأعلام من جهود رائدة في مجال البحث النقدي كما سنرى نحن في دراستنا هذه فالدعوة الشائعة عن الأعمى - خلافاً أنه كان من رواة الأدب واللغة وأن آراءه في الشعر والنحو مبنية على الاعتزاز بالتقديم والازدراء بالحدث - وسوف يتضح لنا من خلال عرضنا لقراءة النقدي أن هذا التصور غير صحيح وأن للأعمى أفكاراً نقدية ناضجة وأنه تذوق أديباً المحدثين وأثنى عليها وأنه فطن إلى تمييز من حقائق النقد الأدبي وكانت له آراء عالية وموازات شعرية دقيقة . .

ولعل ابن سلام هو المعلم الوحيد الذي كثرت كتابات المحدثين عنه وليس أساساً أنه أهدى من وضع مؤلفاً نقدياً في تاريخ النقد العربي . . وإن كانت آراؤه قد صدقت معارضة وانتقاماً من قبل الباحثين المحدثين . . وقد عرضنا نحن لبعض تيارات ذلك الناقد من معالم الأبهة وأمرنا إلى جهوده في ميدان البحث النقدي وأوضحنا مكانته بين نقاد المدرسة البهية وناقشنا آراء المحدثين فيه . .

وأبو عثمان الجاحظ على كثرة ما كتب عنه المحدثون لم يتناول أحد منهم تراثه النقدي والبحث والتحليل كما فعلنا في هذه الدراسة فقد لاحظنا أن فكرة النقدي لم يأخذ مأخوذاً له من البحث والدرس وقد كررنا كثيراً من الجهد لاستخلاص آرائه النقدية وإبراز اتجاهاته ونظرياته من ثنايا تراثه الكبير وأمرنا إلى صلب المسئلة بين فكره النقدي وما انتهت إليه الدراسات النقدية الحديثة من آراء ونظريات . .

وليس حظ المبرد في هذا المجال بأسمد من حظ رفاقه السابقين . . وقد حاولنا في تحليلنا لنهجه أن تبين ملامح الأصالة وسوابب النظر كما ألقينا إلى تأثيره على بحوث النقد العربي المعاصر طيلة . .

أما جهود المحترقة في مجال النقد الأدبي فهي عالم يمتد لها أحد من قبل أو يتناولها بالبحث والتحليل كما تناولناها نحن في هذه الدراسة فهي أيضا استمرار لجهود هيئة من الهيئات الفكرية في البصرة وتحديد لتأثيراتها الهمة في بحوث النقد العربي وقبة آرائها فيه .. وبهذا أن نوضح باديء ذي بدء أننا لانقصد من إطلاق اصطلاح " المدرسة النقدية في البصرة " أن الحركة النقدية في هذه البيئة كانت صادرة عن مطلق واحد أو أن هناك أسسا مشتركة وباديء واحدة انشعب اليها النقاد البصريون مما يشكل مذهبها نقديا متميزا كما هو الحال في مدارس النقد الحديثة وأنا علينا " بالمدرسة البصرية " كل ما صدر عن هيئة البصرة في القرن الثالث عشر من آراء نقدية أو أئمة أعلامها من كتب ومناهل تتناول قضايا النقد من قريب أو بعيد فالمراد الذي يجمع بين هؤلاء الأعلام هو هيئة البصرة التي كان لها بذلك تأثير ملحوظ على فكرهم وثقافتهم وكان لها سمات واضحة برزت في تراثهم النقدي أيضا ونحن نقرر ذلك لأن الاتجاهات النقدية لهذه البيئة كما سيتضح لنا - ارتادت درجتها متجهة وتجمعت في أودية شتى ..

- ٣ -

وقد وجدنا لزاما علينا ونحن ندرس ثراث المدرسة البصرية في النقد الأدبي نسير أن نشير الى معالم الحركة الثقافية في تلك البيئة بصفة عامة وإلى تنوع الدراسات الأدبية فيها بصفة خاصة .. ومن ثم أفردنا في بداية الباب الأول فصلا للحديث عن " البيئة البصرية " ونلجج النشاط الثقافي بها " واتضحنا سياق الحديث أن تعود مع الزمن لنتميز على مدينة البصرة ونلجج إلى تعاليمها وإلهامها الممران بها ثم عن الأجناس التي تكون منها شعبها .. وحرصنا كذلك لخصائص العقلية البصرية والسمات التي أثرت فيها وكان ذلك كله بمثابة الخلفية التي لابد من الاستعانة بها لتبليغ الصورة وجمالها ببراعة النسيج وأغحة الغيمات .. وأما في هذا الفصل إلى جهود المدرسة البصرية في وضع

قواعد اللغة والنحو وسالم منهجها في ذلك اسيدان يتشدد علمائها في قبول واحد
واللغة وتوسمهم في تدقيق سداً القياس وتلافة ذلك كله بالحقية البهيرة الشحرزة .

ثم عقدنا بعد ذلك فصلاً بحثنا فيه " الانتقاء بالشعر وتنوع الدراسات حوله " .
وأبرزنا جهود علماء البصرة في ذلك المعلى ورفقنا في ذلك الفصل جوانب ثلاثة : جميع
الشعر وقد وحه والدراسات المتعلقة بالشعر والشعراء والدراسات المتعلقة بالرواية
وتحقيق التراث ، وحللنا في أثناء ذلك مؤلفين من ثراث الدراسة البصرية وهم :
" سماني الشعر " للأمناءاني و " طبقات فحول الشعراء " لابن سلام وكلاهما من علماء
البصرة في القرن الثالث الهجري . ثم عقدنا فصلاً ثالثاً بحثنا فيه " نقد الكتابة النثية
في القرن الثالث " أمرنا فيه الى أن الكتابة غدت في ذلك العصر لوناً أدبياً ذاتها
وأنها نالست الشعر بقوة وزاغت في مجالات متعددة وقد عرنا لن واقع هذه الماعرة
وأبائها من اقتران صناعة الكتابة بأخبار وظائف الدولة وأعمالها ومن الوزارة السسي
تبدل الذوق العام في المجتمع الجديد الى سهولة الكتابة وخلوها من قيود السكون
والثقفة وسقنا في ثانياً ذلك الفصل بعضاً من كتابات القرن الثالث لمحمدين
الى علمائهما وعرنا بالتفصيل والتحليل مؤلفين في نقد الكتابة في ذلك القرن وهما
" الرسالة المذراة " لابن المديرو و " أدب الكاتب " لابن قتيبة . .

وفي الفصل الرابع من الباب الأول تحدثنا عن أنوار النقد في عصر ما قبل
الاسلام والقرنين الأول والثاني وتبعنا السراجل والأنوار التي قطعها التقسيم
المصري في مسيرته الزمنية منذ بدأ ساذجاً على أسنة الشعراء والحكام في عصر ما قبل
الاسلام الى أن نما وازدهر في البيئات الأدبية التي برزت بوضوح في عصر صدر
الاسلام وعندها نضع وثائق في بلاط الخلفاء ومجالس الأدباء والشعراء في القرن الثاني

وكان ذلك كله ترجمة للحديث عن جهود المدرسة البصرية في وضع قواعد النقد الأدبي والتأليف فيه في القرن الثالث ..

لم يكن حديثنا في ذلك الفصل تأريخاً للنقد العربي بقدر ما هو تتبع للتأريخ التي انحدرت منها النكرات النقدية عند العرب وإشارة إلى الجذور البعيدة لتلك التيارات النقدية التي تبلورت بوضوح في بيئة البصرة في القرن الثالث .. ومن ثم كان اهتمامنا في هذا الفصل موجهاً إلى إبراز المقاييس النقدية التي صدر عنها النقد في كل مرحلة والمؤثرات المختلفة التي تأثر بها النقد العربي في أطواره الأولى ..

وفي الباب الثاني درسنا أعلام النقاد البصريين كل علم في زمن مستقل وبحثناهم حسب توالي نسخ وفاتهم فبدأنا بالأعشى فتحدثنا عن شخصيته وثقافته وأطوار حياته وأسرنا إلى صلته بالرهد وأثر انتقاله إلى بغداد في آرائه النقدية ثم تحدثنا لتراثه النقدي وبيننا أعماله اهتماماته وجهوده وعرضنا أيضاً للمقاييس النقدية التي صدر عنها في أحكامه على الشعر والشعراء ثم شكلنا عن بعض مظاهر التأليف في نظراته النقدية وحللنا لها ..

وفي القسم الثاني تناولنا شخصية ابن سلام الجعفي وعرضنا لتراثه النقدي المبني في كتابه "طبقات فحول الشعراء" وحللنا مقدمة ذلك الكتاب تحليلاً مفصلاً على أساس أنها تركزت فيها آراء ابن سلام الخاصة وتطورت فيها جهوده في بحث قضية أساسية من قضايا النقد في مدرسة البصرة وهي قضية تحقيق التراث الشعري ثم عرضنا بعد ذلك منهجه في ترتيب الشعراء ونظام الطبقات الذي سلكه في كتابه كما أسرنا إلى المقاييس النقدية التي راعاها في ترتيبهم والأسبقيات التي اعتمد بها .. وفي النهاية وقفنا على ما أخذ المحدثون على منهجه وحددنا موقفنا منها ..

وفي الفصل الثالث بحثنا شخصية الجاحظ وادقته في نقد الأدب وعرضنا
 نواحي مختلفة من جهوده النقدية وأشرنا إلى سببه وريادته في كثير من المجالات وقد
 نأكد لنا من خلال استعراض تراثه النقدي أنه تراث حافل بصفات الحيوية والخلود
 وأنحنا إلى أنه فطن بذوقه المرحف وحبه اللهاج إلى كثير من نظريات النقد
 وأصوله وأمرنا إلى تأثيره بالنزعة العقلية التي سادت بيئة علماء الاعتزال * * وأوضحنا
 بالتفصيل حقيقة الأمر في دعوى تغضيله للألفاظ على المعاني وعرضنا أيضا بالتفصيل
 لمذهبه في اللفظ والمعنى وبحثه في اعجاز القرآن ورأيه في التحرر اللغوي ووقته
 من القديم والحديث * *

وفي الفصل الرابع عرضنا تراث الجاحظ في النقد الأدبي وأمرنا إلى منهجه
 في تحليل النصوص والقطع الأدبية واستخدمنا أمثلة الفوايا النقدية التي يحطها في
 كتابه الكاس وأوضحنا ما تنطوي عليه بعض تحليلاته اللغوية من قيمة نقدية * كما
 درسنا رسالته في الهائفة والتي ضمنها رأيه في مختلفات الشعر والرمائل والخطيب
 وعرضنا لبحثه في التشبيه وأدراكه لخصائص تلك الوسيلة التعبيرية المعينة من وسائل
 البيان العربي وتفسيره للتشبيه من حيث القرب والحمد وأوضحنا موقفه من القديم
 والحديث وأعاراته حول الشمال الشعر وضبطه إلى غير قائل * *

وخصصنا الفصل الأخير من هذا الباب لدراسة تأثير حركة الاعتزال على الفكر
 النقدي للدراسة البصرية وعرضنا أهم البادى التي أرساها علماء الاعتزال وأوضحنا
 أن لمذهبه جانباً أدبياً متميزاً له صلة وثيقة بالجانب العقدي في دعوتهم
 وسقنا عوا من جهود المتمزلة في محاربة العرافات والأوهام وسحاولاتهم لتحرير عقل
 العامة ووضع بذور التفكير العقل السليم فيما يتعلق ببحوث النقد والبلاغة درسنا
 رسالة " بشر بن المعتز " في الهائفة والتي أوردنا الجاحظ في " البيان والتبيين "

عرضنا أيضا تحليل " الشكوك " للشعر المنسوب إلى الجن والقيلان * ثم عرضنا مذهب المعتزلة في تفسير القرآن الكريم واعتمادهم على مدلولات النصوص نفسها على ضوء استعمالات العرب اللفظية ثم تحدثنا في الختام على أشهر أعلام المعتزلة البصريين ومكانتهم الأدبية ..

وأفردنا الباب الثالث من دراستنا هذه للحديث عن جهود المدرسة البصرية في النقد الأدبي فدرستنا في الفصل الأول حالة النقد في القرن الثالث بصفحة عامة لنتسنى لنا تفهم جهود المدرسة البصرية فيه ولا حزننا أن التيارات النقدية فسيح ذلك القرن بدأت من المدرسة البصرية التي أثرت فيما جاورها من البعثات الثقافية وكان حديثنا في هذا الفصل موجها لبحث الأنماط النقدية التي ظهرت في تفسير البيئة البصرية ومرشدة بدي تأثرها بنقد النقاد البصريين .. وقد عرضنا لثلاثة من أشهر نقاد القرن الثالث غير البصريين وهم : ابن قتيبة صاحب " المعتمد والمنتقى " و " أدب الكاتب " ..

وأحمد بن يحيى صاحب " قواعد الشعر " ...
 محمد بن الممتز صاحب " طبقات الشعراء المحدثين " و " البديع " ..
 وحظنا مؤلفاتهم الممار إليها وأبرزنا الاهتمامات النقدية لكل منهم وأثرنا إلى علاقة مناهجهم النقدية بالفكر النقدي للمدرسة البصرية ..

وانتقلنا في الفصل الثاني تحدثنا فيما يشبه الخلاصة عن جهود المدرسة البصرية في نشأة النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري * فأوضحنا سبب هجرة المدرسة إلى الخليل في فن النقد وسالحتها لكثير من قضاياه بشيء من التوسيع

والتفصيل وأحصينا مختلف القضايا التي عرض لها نقاد المدرسة المصرية وآراءهم
بصددها فأبنا مرقمهم من قضايا تحقيق التراث ، والموازنات الأدبية والسوق الشعرية
ونقد الكتاب والخطابة ، والقديم والحديث والتعليق للظواهر الأدبية ، وتصحيح
النظم والتقييم الشعرية ..

وفي الفصل الأخير من الباب الثالث بحثنا صلة النقد في مدرسة البصرة
بالنقد الحديث حيث عرّفنا أصول النظريات النقدية الحديثة في تراث المدرسة المصرية
وتبين لنا أن نقاد البصرة قد سبقوا إلى تقرير كثير من حقائق النقد بالفهم الحديث
وأبنا لهم كلاما حول عبق التجربة الشعرية وعن الأمانة في المذهب المصري وعن حرية
الناعر ... إلى ... وأبنا لهم أيضا كلاما حول طبيعة العمل النقدي وكون النقد
قاصرا عن تحديد أسرار الجاني تحديدًا قاطعا .. ووجدنا للجاحظ آراء حول "الصدق
الذي" وفكرة الخواطر الشعرية وعن القيمة الفنية للشعر وعن التكلفة والطبع ووجدنا
له أيضا كلاما حول لغة النكاهة والنادرة يشبه فيها كثيرا كلام المحدثين حول
لغة السجع الحديث .. ووجدنا للمبرد كلاما يمارس فيه المغالاة في الخيال والغباط
بالتشبيهات والصورة ما يقترب من آراء المحدثين حول تلك القضايا ..

٤ -

ونحن حينما وضعنا هذه القضية على بساط البحث لم نكن نهدف إلى مجرد
المرور التاريخي أو تقرير الحقائق وتعميد الظواهر وإنما كانت غايتنا أن نطوّر ملامح
الأمانة في الفكر النقدي للمرب وتعرف على مكانتهم في ذلك الفن وقيمة آرائهم
فيه ، وقد اخترنا المدرسة المصرية في القرن الثالث ليكون حديثنا مقصودا على هيئة
متميزة من هيئات المرب العلمية ولأن الأمانة بكل التراث النقدي للمرب يتطلب أكثر
من دراسة نرجو أن تتجه إليها عم رفاقنا من الباحثين ..

يمكن أن تلخص النتائج التي أوصلتنا إليها هذه الدراسة في النقاط التالية :

أولا : إذا كان للمغرب تراث الأدبي الغالد الذي هو نبض حياتهم وأحاسيسهم وسجل مآثرهم وتطلعاتهم وصحيفة مناقبهم ومناط اعتزازهم - فإن لهذا التراث أهمية النقدى الذى يسجل انطباعاتهم بصور ذلك الأدب وقد وقهم لغثوثوا غداهم الى شحات الاجلادة فيه ..

ثانيا : أن النشاط العلمى الذى حلت به بيئة البصرة إبان اضطلاح علمائها بجمع تراث المغرب اللغوى ووض قواعد النحو والتصريف قد أعقبه نشاط أدبى متنوع كان من نتائجه استخلاص كبير من أصول النقد الأدبى ومناهجه وبرز فى هذه البيئة نساء مثقفون تفرغوا على بحث قضايا النقد وأفردوا لصاغته الكتب والرسائل فكافوا بذلك أسبق البعثات الفكرية التى عرفت فى النقد بصورة منتظمة وبحثت شواهد بصفة مستقلة ..

ثالثا : أن تلك الحركة النقدية التى نعت فى بيئة البصرة قد شملت الفن الأدبى من زوايا مختلفة وهرفت فيه وناقشت قضايا وكانت متواصلة شاملا مع طليعة ذلك الأدب راصدة لتجارته قيمة على سيرته ومن ثم فلا وجه لانتقاص التراث النقدى للمغرب أو اتهامه بجهل حقائق النقد والقصور عن إدراك مفاهيمه وليس لنا أن نطلب من علمائنا الأوائل أكثر مما فعلوا فى ذلك الميدان ..

رابعا : كان من أهم ما كشف لنا من خلال استمرارية نظريات وآراء النقاد البصريين نفس القرن الثالث أن أولئك النقاد قد لطنوا الى كثير من الحقائق الأساسية للنقد الأدبى سواء ما يتصل منها بطبيعة العمل النقدى نفسه أم ما يتعلق بالخصائص والقيم التى تتشك فى النص الأدبى ذاته والتى يحكم عليه مسس من أجلها الم بالجوذة ولما بالرداءة .. وقد ميز النقاد البصريون فى تلك الناحية

كثيرا من الأسس والأصول وعمقها نتائج النضال والأدباء ناقدين وحلّالين وحدودها معايير الجمال وقيمتها ونهوها على الأسس التي ينبغي للأديب أن يراعيها في مختلف الأغراض والفنون وحذروا من أساليب التردى في التمهيد الأدبي وقدوا الكثير من المقارنات والموازات التي يتضح منها مدى باعثهم إلى من حسن نقدي مرموق وذوق فني لمصالح ..

خامسا : وقد انتهينا من ذلك كله إلى حقيقة لا يتطرق إليها الشك هي أن الانتقاد إلى حقائق النقد ونظرياته ليس وثقا على جند من الأجناس أو قسما على حضارة مصب من الشعوب دون من عداء وإنما هو من نتائج المنطق المستنير والذوق الحقيق في أي عصر كان وفي أي جنس من أجناس البشر وجد . وقد اكملت لطلبة المدرسة البصرية في الثمن الثالث مقدمات البحث النقدي السليم من ذوق متحوس بأدب المرب إلى ثقافة واعية استرشدت بفكر الأمم الأعظمى التي دخلت في نطاق المجتمع البصري في ذلك العصر ..

سادسا : وكان من دلائل نضج الفكر النقدي للمرب في مدرسة البصرة أننا وجدنا تشابهها قويا بين مجموعة من آراء النقاد البصريين ونظريات النقد الحديثة بما هو كسب أن هؤلاء الأعلام قد سبقوا النقاد الحديثين إلى تقرير كثير من أصول النقد ونظرياته وذلك قصارى ما نريد أن نلفت الأنظار إليه ..

سابعاً : كان ما لاحظناه ونحن ندرس حالة النقد في القرن الثالث أن نقد المدرسة البصرية كان ناهيا من الأدواق العربية السليمة ومرتكزا على الثقافات الأوربية والعلمية التي أتاحتها النهضة البصرية للنقاد ولم نر في تراث تلك المدرسة ما يدل على تأثيرها المباشر بفلسفة اليونان أو لفظها لمنطقهم في التقييم والتفريق كما رأينا بهذا الاتجاه في تراث ابن قتيبة وخاصة في الشعر والشعراء ورأيناه أكثر ظهورا في " قواعد الشعر " لثعلب ..

ذلك الملاحظة لها أهمية كبرى إذ هي دليل على أن التراث النقدى للدراسة
الهدوية يعد صورة نموذجية للنقد المسمى الأصيل الذى لم يتأثر بفكر اليونان أو تختلط به
عناصر دخيلة ...

- ٥ -

ولم أهرز مؤشرات الضمنية في دراستنا هذه ، إنما نسرد فيها عن آراء سابقة
أو نجعلها حجة لتقرير أفكار شائعة من جاءت في يومئذها جولة فكرية شائعة وسياحية
أدبية شائعة . جعلنا مرتقانا إليها ما نطق به مكتبتنا العربية من كنوز تراثنا في الأدب
وانتقد تلك المصادر التي كانت واعتزال تبعها متدققا بالمطالع ، ومن ثم كانت استنتاجاتنا
مدعومة بأبيانها وتحليلاتنا منبهة على شواهد من أسرار كتب التراث ، ولم نرتب بعض
لأنفسنا أن نحتد في أى ما قردناه على ما سبقنا به غيرنا من الباحثين المحدثين
لا أعرفنا عن مؤلفاتهم أو أغفالنا لها ، إنما لأن شأنا وظلمهم كعالم الآثار الذى يتحتم عليه
أن يضرب في نجاج الأرض ليمائن بنفسه آثار القديما ، ونقوشهم غير مكث بها تنقله لسه
الكتب أو ثوبه ألباء الصور ...

ومن البينات التي لا تخفى على من يتصفح هذه الدراسة أننا لم نقف عليها
كثيرا عند القضايا التي اتضحت أهمادها من كثرة ما أثر حولها من بحوث ودراسات
وكنا نستعرض بعض الشيء في الظواهر التي هي من استنتاجنا نحن أو التي لم نسر
أحدا عرّف لها من قبل . . . ولم نقف من آراء المحدثين موقف المعارض أو التمسك
كما يحلو لبعض المبتدئين . . . يقينا ما بأن مثل تلك القضايا ، تتمحور حول الآراء وتقبل
بعض الاتجاهات وبعض الحكم الفصل في النهاية لن يشفع آراء بالأدلة
وترتكز استنتاجاته على الحقائق الموضوعية وحدها . . .

(ن)

ولا يلحظنى فى نهاية هذه الموعظ أن أشير الى ما أفدته من أستاذى
الدكتور / أحمد الصبّاغى فقد كان اعرف فضيلته على هذه الدراسة
كسما كبيرا لى ولها وكانت لملاحظات فضيلته وتوجيهاته آثار جوهريّة فى
انجاز هذه الدراسة على الصورة التى تت بها .. واننى اذ أسجّل
لفضيلته ذلك أتوجه الى المجلس بين يديه أن يثمنه عنى وعن المحسنت
المجلس خير الجزاء ...

كما لا يلحظنى أن أذكر بالذكر والمرفسان فضل أستاذى الدكتور
محمد عبد النعمان خناجى - أستاذ اللغة فى عصره - فقد كان - حفظه الله -
هو الذى أوضح لى أهمية هذا الموضوع وشجعتنى على درسه والكتابة فيه
فله مبنى الشكر منه ومن الله تعالى الجزاء ...

تمت

بأبلى أنصحه الجهد الذى بذلته فى هذه الدراسة فى تجلية أثر من
آثارنا الفكرية العالدة وملت أنظار زملاى من الدارسين الى صفحات
مضيئة بن صفحات تاريخنا الميمدة عسى أن تسرى فيهم روح الاكابر لقرائنا
وتشبعهم منها للوفاء بحقوقه علينا وأجباتنا نحوه ...

والله الموفق وهو نعم المولى ونعم النصير .

المسار الأول

* البصرة ودورها في الدراسات الأدبية والفنية *

- الفصل الأول : البيئة البصرية ولاح النشاط الثقافي بها
- الفصل الثاني : الاهتمام بالبحر وتتم الدراسات حولها
- الفصل الثالث : الكتابة الفنية وضع القواعد النقدية لها
- الفصل الرابع : أطوار النقد في عصر ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثاني

((الفصل الاول))

البيئة المصرية وملامح النشاط الثقافي بها

شهدت بيئة المصرية في القرنين الثاني والثالث للهجرة نهضة ثقافية رائدة ونشاطا علميا متفعلا وكانت من أسبق الهيئات الإسلامية التي تجمعت علوم العربية وأدبها وفكر الإسلام وثقافتها .. ففي بيوتها بدأت خيوط لجرنا الحضاري الزاهر ومن مجامعها وحافلها استظفت أعيان العرب وتوارثهم وثقافتهم ولهجاتهم وهواهم وتقاليدهم .. وهي مهد ما بين أكابر العلماء وفي مدارجها تفرخ أساطين المفكرين ومن عهدها تتابع مد التيارات الثقافية على حواضر الإسلام وأمازه وظلت لبقية طويلا مبعلا للفكر الحر ومثارا للمعلم والمعلمين ورمزا للجهد المخلص في النضال على تراث العرب في اللغة والأدب والتصدي لخصوم الإسلام وأعدائه المتربصين ..

وإذا كنا نهدف من هذه الدراسة إلى تفهم الجهد الذي أسهمت به مدرسة البصيرة في وضع قواعد النقد الأدبي في القرن الثالث فقد وجدنا لزاما علينا أن نبذل لذلك باستعراض أبعاد النشاط الثقافي بالبيئة والمثيرات التي أثرت فيه وذلك يستلزم بالضرورة أن نلج إلى جذور الحركة العلمية ونستعرف على طبيعة البيئة المصرية وخصائص عقلية المفكرين بها .. كما اتضح لنا من نتائجهم وتمثلت نفس المؤلفاتهم .. وذلك كله - بالطبع - يقتضي وقفة مستأنية مع أطوار النشاط العلمي بالبيئة فيما قبل القرن الثالث .. وتبدو أهمية هذا التصعيد من الحقائق التالية :

أولا : أن أية نهضة فكرية لا توجد من العدم ولا تظهر بدون سابق مقدمات بل هي نتاج جهود متصلة وحصول قرائح متعددة وغائصة ثقافات شتى ..

ثانيا : أن للبيئة بمناخها البشرية وانحاضارية تأثير ملحوظ في توجيه النشاط الثقافي بها وتلهم الحياة العلمية حسب مقتضياتها فلا بد إذا من الحاجة إلى البيئة هذه البيئة ووصف مدى تحضرها ورصد المواصل الفعالة في حركة الفكر الإنساني المزدهر في بيوتها ..

ثالثا : أن النقد الأدبي لم يصبح مادة للبحث والدراسة إلا بعد أن جمعت اللغة ووضعت قواعدها وجد أن دونه دواوين الثمراء وجمع تراث الأدباء وكثرت تعليقات المتأخرين والنقاد وطال جدلهم حول التراث الأدبي من ناحية وحول المصنوع

الذين ازدخعت بهم الحياة الادبية منذ منتصف القرن الثاني وتحت نزعاتهم
واتجاهاتهم من ناحية أخرى .. رحلة القبل أن التصيد ببيان هذه الجوانب
يعد بمثابة الخلفية التي توضح الصورة وتكملها بارزة التام ينسب
القصص ..

مدينة البصرة :

تذكر المصادر التي أرخت للحضارة وال عمران في العالم الاسلامي والآخرى التي
تعرضت للفتوحات الاسلامية .. أن مدينة البصرة أنشئت في خلافة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه .. في السنة السادسة عشرة للهجرة على الأرجح .. وكانت العاصمة
من انشائها في أول الأمر أن تكون مركز تجمع للجيش الاسلامي التي حلت عسك
الفتح في بلاد فارس واجاورها .. يقول السعدي :

* "ذهب كثير من الناس منهم الدائن وغيره أن عمر أخذ عتبة بن غزوان
في سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها وصنعها .. وذهب كثير من الناس أنها صرت في
ربيع سنة ست عشرة وأن عتبة بن غزوان إنما أخى إليها من الدائن بعد فـسـراغ
سعد بن أبي وقاص من حرب جلولاء وتكريت وأن عتبة قدم البصرة وهي يومئذ تدعى
أرض الهند وبها حجارة بيض .." (١)

ويذكر ابن الاثير ضمن مقالة السعدي التي اشتملت على الروايتين المتقدمتين
حول السنة التي صيرت فيها البصرة (٢) الا انها تستطيع أن توفق بين الروايتين بـسـان
المسلمين تجمعوا في البصرة لأول مرة في السنة الرابعة عشرة ثم رحلوا عنها للقاء الاعداء
في "تكريت" و "جلولاء" و "الأهلة" وغيرها كما يذكر ابن الاثير (٣) ثم بدأوا في الاستقرار
بالبصرة في السنة السادسة عشرة بعد أن غصمت المنطقة المتاخمة لها ..

ومنى ذلك أن البصرة مدينة عربية اسلامية مستحدثة لم يكن لها وجود من
قبل الا أن هناك جماعة من الباحثين يقررون - استنادا إلى أدلة تاريخية متعددة - أن
مدينة البصرة قديمة وأن لها سابقة في الحضارات العالقة وأن المسلمين
بنوها على أنقاض الديانة الوثنية .. حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن اسمها
نفسه مأخوذ من التسمية القديمة للمدينة :

(١) بروي الذهب ج ٢ ص ٢١١ .

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٤٠ .

١ "بصر" بالكلدانية الجزء الضعيف و "بصرا" و "بصرى" الاقضية
و "بيت صرى" و "باصرى" و "باصرا" محل الاكسوخ .. ونا تلمح شدة قرب الكلمة
القديمة من الاسم المسمى ... وبقي الاسم لاصقا بالديانة .. واذاهى باللسان
الفارسي "بهره" أى الطريق الكبير (١٥).

وقد استند أولئك الباحثون الى أن اقليم الصراق شهد ميلاد حملة حضارات
قديمة فضلا عن أنه تعرض للشو الرومانى وفتحهم الاسكندر المقدونى فيها فتح من اقاليم
الشرق وأسس فيه دولة واتخذ من طريقه الجنى على مدخل الخليج المسمى - حاليا -
مركز تحكم للسيطرة على الاقاليم الشرقية والجنوبية والهيئة على الطريق التجارى المسمى
بين وسط وشرق آسيا وهو الشوط وأمرها فقد :

"بنى الاسكندر مدينة "Charax" على ملتقى نهر كارون بدجلة واسكنها اتباعه
وجنوده ومواطنى المدينة الملكية .. كما بنى مدنا أخرى منى خلفائه مدنا جديدة فى الشرق
وكذلك من أخذ تراثهم من اليونان والرومان وحمل الفرس عددا من أسرى الروم واسكنوهم
فى سواحل الخليج وفى سواحل أخرى" (١٦)

وأما كان السبب فى تسمية المدينة بالبصرة وسواء كان مأخوذا من أصل قديم
أم أنها تسمية عربية كما ذكر المقدسى حيث يقول :

"وقد خرب طريق البصرة البرى واشتق اسمها من الحجارة السود قيل لا بل حجارة
تخرب الى البياض قال قطرب : من الارنى الفليضة" (١٧)

(١) ذهب الى ذلك الامتاز يعقوب سركيس فى مقال نشره بمجلة "سور" التى تصدرها
مديرية الآثار بالصراق فى عدد كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ص ١٢٦ - ١٤١ . وقد
ذهب الباحث فى مقاله الى أن كثيرا من اصناف الصراق ودواغره بقيت اسمائها القديمة
وأدخل عليها الصرب تعديلات يسمونها فى النطق واستند فى رأيه حول كون البصرة تسمية
قديمة الا أن المؤرخين لم يتفقوا على معنى اللفظ فى اللغة العربية وساق الباحث أقوال
العلماء التى ذكرها ياقوت وغيره وهى تزيد على عشرة أقوال مختلفة ولا يستبعد الباحث أن
تكون كلمة بصره أرامية أو كلدانية بدليل أن اسم بغداد الأصح تقلب على مدينة الناصرية
وهما سى البصرة بغداد - صران اسلاميان وتاريخ تخطيطهما وتصويرهما أشهر من تاريخ طمس
علم وكذلك الحال بالنسبة لبحارتهما ومجدهما ..

(٢) تاريخ الصرب قبل الاسلام وجواد على ج ٢ ص ٣٧٤ ..

(٣) أحسن التقاسيم ص ١١٢ ..

أيا كان سبب التسمية واعتقاد الاسم فالذي لا مراء فيه هو أن موقع مدينة البصرة وكونها محورا مهما من محاور الطريق التجاري الكبير بين الشرق والغرب ووقوعها على شاطئ الخليج وكونها حلقة اتصال بين أقاليم الشام والعراق وفارس وجزيرة العرب وتوسطها المنطقة زخرت قديما بعدد من الحضارات العريقة التي تزعت بين هائل وأشهر غيرها كن ذلك يجعلنا مطمئنين إلى أن لمدينة البصرة أملا حضاريا سابقا على نشأتها الإسلامية في القرن السادس الميلادي ..

وستكتف لنا هذه الحقيقة أكثر وضوحا عندما نعرض لأنشطة الثقافات التي كانت دائمة في أوساط البصرة أبان ازدهار النهضة العلمية بها وسيتأكد لنا أن العصر الإسلامي الناشئ قد ورث ثقافات غنى ومعارف متنوعة ولم يكن تخصصا في الثقافات العربية وحسب بل كان ملأ بشيرات الفكر الإنساني التي توارثتها الحضارات على مر السنين ..

وعلى أية حال فإن الدلائل تشير إلى أن المنطقة التي أنشئت بها البصرة .. الإسلامية عرفت المصان من قبل واستقرت بها من قديم الزمن طوائف مختلفة من البشر وخضعت المنطقة كلها لتفرد دين مختلفة وسكنها خليط من الشعوب .. فلنتجسس هذه السألة لنحدث عن حضارة البصرة الإسلامية لأنها هي التي تمهنا بالدرجة الأولى ولأن لها تأثيرا مباشرا على النشاط الثقافي بها ..

المصان في البصرة :

بدأت البصرة كما قلنا عسكريا يقيم فيه الجيش الإسلامي .. غير أن المصان مالبث أن أخذ ينمو بسرعة غريبة ولعل السبب في ذلك هو كثرة الانتصارات التي أحرزها المسلمون في الأقاليم الشرقية وقضائهم نهائيا على دولة الأكاسرة .. فأصبح لزمامهم وقد دانت لهم أقاليم شاسعة من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر وسط آسيا وحول بحر قزوين أن يفرقوا بين في إقليم العراق خاصة وأنه يتأخر عهد الجزيرة العربية التي كان العرب يسمون بالحنين الدائم إليها وهو في الوقت ذاته يعد شتاج الأقاليم الشرقية كلها وهذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإن تنوع النشاط البشري في بيئة البصرة على وجه الخصوص كان من أهم أسباب ازدهار المصان بها .. فهي تجمع بين ميزات الأقاليم البحرية أو الساحلية وميزات الأقاليم الزراعية والبدوية .. فأهلها منهم التجار الذين يجوزن الأصناف المختلفة يصدرون التمور والخز وغيرها ويجوزن مختلف السلع منهم الزراع الذين يتصدون الاقطاعات الشاسعة ذات النخيل الكثيف والكرم المستمد

ومنهم الصالح الذين يعملون في نسج الثياب وغيرها من الصناعات ومنهم من اشتغل
بصيد السمك أو اللؤلؤ الذي يهر البصريون في استخراجهِ وتصنيعهِ . .

وبما لا شك فيه أن هذا التنوع الواسع في النشاط السكاني كان سببا في ذلك
الثراء المرمي الذي تمت به مدينة البصرة منذ بداية انشائها . .

قال المقدسي مشيرا إلى تنوع النشاط السكاني في بيئة البصرة - وهو يتحدث
عن إقليم العراق . . قال :-

" ولا بأس بالتجارات فيه - أن لم تسمع بخز البصرة هزها وطرائفها ما أنعمها
- هي معدن الجواهر واللآلئ - وقرعة البحر وبلوج البر بها يمنع الواضخ والزنجفر
والزنجار والمراسنج وفيها تحن السم إلى الأطراف والمحناء ولهم خز وفتح وسارود
والأبلسة تعمل ثياب الكتان الوفيفة على عمل القصب " (١)

وأذا فلققنا به في الأزدهار العمراني الهائل الذي تحدثنا به الروايات عن
مدينة البصرة . .

يقول المقدسي في وصف مدينة البصرة وساحتها :

" . . . وهي شبه طيلسان قد شق إليها من دجلة نهرا ن : نهر لابلع ونهر سفل
فاذا اجتمعا عدا عليها وتتصطب إليها أنهار من ناحية عبادان وناحية الفزار فطولها
مستد على النهر وديورها في البر إلى البادية ولها من هذا الوجه باب واحد وهي مسكن
النهر إلى الباب نحو ثلاثة أميال " (٢)

وقد أورد ياقوت في معجم البلدان خبرا طويلا في مدح مدينة البصرة
تحدث فيه عن نخاساتها وسهولة السور فيها وجسمها مزايها المدن البعيدة والمناطيس
جميعا وذلك على لسان أحد البصريين ونحن ننقل هنا جاعا من هذا الخبر
نظمه في التحضر والرخاء الذي تغلب في أقاليم البصريين . . قال ياقوت :

(١) أحسن التقاسيم ص ٣٣ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ١١٢ .

" وقد خالد بن صفوان على عبد الملك بن مروان فوافق عنده وقد جميع الاصهار
 وقد اتخذ سلسلة صانع له فقال عبد الملك أن يأذن للوفد في الخروج معه إلى تلك
 الصانع فأذن لهم فلما نظر إليها سلسلة أعجب بها فأقبل على وفد أهل مكة فقال :
 يا أهل مكة هل فيكم صانع مثل هذه الصانع ؟ فقالوا : لا .. إلا أن فينا بيت
 الله المستقبل .. ثم أقبل على وفد أهل المدينة فقال : يا أهل المدينة : هل فيكم
 مثل هذه ؟ فقالوا : لا .. إلا أن فينا قبري الله الرسل ثم أقبل على
 وفد أهل البصرة فقال : يا أهل البصرة : هل فيكم مثل هذه الصانع ؟ فتكلم خالد
 ابن صفوان فقال : أعلج الله الأمير أن هذا قد أقروا على بلادهم ولو أن عنده
 من له بلادهم خير لا جارك منهم .. قال : أفصلك في بلادك غير ما قالوا في بلادهم ؟
 قال : نعم : .. أصف لك بلادنا : .. فقال : هات .. قال : يفتد وفانصتا فيجىء هذا
 بالشريط والشهم وحيى هذا بالطيب والظلم وحن أكثر الناس ساجا وهاجا وخزا وديهاجا
 يوردنا علجا وخردة مضاجا ^(١) بيتنا الذهب وظهرنا المجب أوله الرطب وأوسطه
 المنب وآخره القصب ... " (٢)

وقال ياقوت أيضا عن البصرة :

" وقد صنف عمر بن شبة وهو يحيى زكريا الساجي وغيرهما في فضائلها كتابا نسي
 جلدات " (٣)

" وقال الأصمى : سمعت الرشيد يقول : نظرتنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه
 الأرض لا يبلغ ثمن ثمن ثمن البصرة " (٤)

هذه صورة موجزة للسران في البصرة يتضح منها أن المدينة التي بدأت معسكرا
 صغيرا لتجس الجيوش الفاتحة لم تلبث أن عارت في بضع سنوات موقلا لبيئة حضارية كبرى
 تنطق بمظنة النهضة الإسلامية وتؤكد قوة المجتمع الجديد الذي آخى الإسلام بين أعضائه
 فانتلقوا بعيدون وثلاثون وساهقون الزمن في شتى ميادين الفكر والفن ..

(١) الشريط حبل دقيق الذنب عرض الرمح لمن صغير الرأس . والشهم نسج
 من السبك (الظهور والبردون الهملاج المدلل المتقاد . والخردة المضاج : البجارية
 الملوحة المينين ..

(٢) معجم البلدان مادة (بصر) وقال ياقوت في ترجمته للبصرة : وهما بصرتان العظيمتان
 بالعراق والأخرى بالشرب والأولى هي التي ذكر ياقوت أن عمر بن عبد ... صنف في

وفي اعتقادي ان انشاء الاصار الاسلامي في الاقاليم المفتوحة على الاخص اقليم العراق - كان له اثرهم في توجيه النهضة الثقافية والحركة العلمية بصفة خاصة .. ذلك بأن هذه الاصار الناشئة استلزمت بحكم الاجنالي المختلفة التي كونت غميتها وامتزجست في روحها - استلزمت انماطاً خاصة من العلوم ووجهات الحركة العلمية وجهات مبنية تلبية لضرورات البيئة وحاجة المجتمع الجديد ..

وانه لمن غريب الظواهر في تاريخ الحضارة الاسلامية أن هذه الاصار المتشعبة في العراق على رأسها البصرة حلت أمانة الحفاظ على التراث العربي والاسلامي وكان نصيب الحواضر الاسلامية في قلب جزيرة العرب في هذه النهضة باهتا ان لم تفعل ان اثرها في العلوم العربية خاصة علوم اللغة وآدابها كان عندما .. هذا بالاضافة الى أنها رقت موقف النقد منها في علوم الحديث والتشريع وغيرها .. وعلى أية حال فالمستبعد لنشأة علوم اللغة وقواعدها بصفة خاصة بعد أنها نعت في اقليم العراق في مدينة البصرة أولاً ثم تلتها الكوفة بعد قرابة قرن من الزمان .. وقد كان الدافع الى البحث في هذه العلوم مرتبطاً بالكيان الاجتماعي في هذه الاقاليم والذي كان يضم خليطاً من العرب وغيرهم من لغتي الاسم وقد نتج عن امتزاج هذه الاجناس ببعضها ظواهر لغوية خطيرة دهن لها العرب الخلف فشحروا للحفاظ على كتاب الله ومنه بهبه عليه السلام وأهفقوا من تسرب اللحن اليها وجرحهم ذلك الى جمع اللغة من مصادرهم الخالصة ثم البحث في قواعدها ومعجماتها ومن ناحية أخرى وجد المسلمون من غير العرب أنفسهم مضطرين الى معرفة العربية - لغة العقيدة والدولة - استكمالاً لدينهم واستشرافاً لتولي الاعمال في الدولة الجديدة ووسيلة للتفاهم والتعايشة في الوسط الجديد الذي ارتبطوا به وكل من الدائمين كما يبدو مرتبط بالبيئة الجديدة وتصلب بها أرق المسئلة فلم تكن الحواضر العربية في قلب الجزيرة بحاجة الى مثل تلك البحوث أو الغوص فيما خاض فيه اهل العراق من علوم النحو واللغة والرواية أو على الاقل لم تكن في حاجة الى الاسراع في تدوين هذه العلوم كما فعلت اصار العراق ..

المقابلة البصرية

وقبل أن نخوض في تفاصيل الحركة العلمية في البصرة أرى أن نلم أولاً بخصائص المقابلة البصرية ونلمس المراحل والدوافع التي كانت وراء هذا الازدهار الثقافي حتى نتبين من ربط كل ظاهرة من الظواهر بأصلها في المقابلة البصرية ونستطيع أن نفسر على هذا الاساس خمائس المذهب البصري في علوم اللغة ونستطيع لنا الصلة القوية بين ذلك المذهب وبين الآثار المختلفة التي أثرت بها بيئة البصرة في عقلية علمائها وفكرها ..

ذكرنا قبل أن مدينة البصرة تحضرت في زمن قليل وانتقل اليها فيمن من قبائل شبه الجزيرة العربية لما سموا برحائها وسهولة المعيش فيها منذ انشائها حتى أذاع القلدون فيها على عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أهلها بخير حال * وقد انشأت عليهم الدنيا فهم يهملون الذهب والفضة (١) وسرعان ما تقاطرت عليها الرغيد المهاجرة من قلب الجزيرة العربية ومن ناحية أخرى كانت المدينة يحكم يحكمها الجفرائي الرغيد مرثدا لكثير من الانقسام فقد استهوت القوم الذين وفدوا اليها واحتوطنوا لقربها من بلاد فارس ولكنهم رعاياها وكان منهم من اشتغل بمزاولة الاقطاعات المتدقة على جوانب الانهار ومنهم من زاول الاعمال التجارية ومنهم من اشتغل بالمعانة بالايافة الى العدد الكبير من أسرى الحرب الارقاء الذين كان عليهم أن يخدموا مواليتهم من العرب .

والى جانب العرب والفرس نجد أن المدينة كانت تضم فئات من اجناس أخرى مثل الروم والزرط والسيابجة * كما هو مقرر لدى الباحثين أن اقليم العراق شهد قبل الفتح الاسلامي بوقت قليل قدوم جماعات من الروم النساطرة الذين اضطهدتهم الدولة الساسانية الرومانية ففجعت لهم دولة الاكاسرة مكانا بها ثكافة في خصوصهم البيزنطيين واقامت هذه الجماعات في اقليم العراق وفارس وكثرت لهم مدارس لتعليم الطب والفلك والمنطق وغيرها من علوم اليونان (٢) .

ومن قبلت * حملت فتوحات الاسكندر والحروب التي وقعت بين الروم والفرس التي انشلت الفرق الادنى دما جديدا هو دم الاغريق ومن دخل في خدمة الاسكندر واليونان والرومان من الجند المنطوية والمرتزة من سواحل البحر المتوسط الشمالية واصاقها من اصقاع ارمينية * * * بطيحي أن يترك مكن هؤلاء في الشرق أمرا ثقافيا في الاماكن التي اقاموا فيها وفي نفوس من جاؤهم أدرك قبيته المشرقون المعاصرون (٣) .

وما لا يقبل الجدل أن مدينة البصرة غدت خليطا من اجناس مختلفة لهم مورثاتهم الثقافية والفكرية منهم العرب والفرس والهنود والبيزنطيون * * * هذه الاجناس المختلفة التي تألفت منها المجتمع البصري كانت بصاتها واضحة على النتاج الفكري للبيئة البصرية

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) وكانت الاماكن التي ازدهرت فيها العلوم اليونانية في المنطقة التي تتكلم الفارسية والبرمانية هي : الرعا ونصيرين والمدائن وجند يساهر في خوزستان بالنسبة للبيزنطيين (من بحث للمستشرق ماكس ماثرشف ترجمة عبد الرحمن بدوي في كتابهم التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ع ٥٢ .

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٢ ع ٢٧٤ .

غير أن تأثير العقلية البصرية بهذا الخليط البصري كان متفاوتا فلم يكن تأثير كل ثقافة من ثقافات السورب التي سكنت البصرة حساسية بل اختلف ذلك التأثير قوة ومقداراً حسب نوع كل ثقافة وخصائصها وما تمتع به من شعور وإلاحيثها للتأثير . إلا أننا مع ذلك كله لا نكون بعيدين عن السورب إذا قررنا أن عقلية البصريين أفادت من هذه الثقافات جميعها ..

ولم يطمع الثقافة اليونانية بنحتها خاصة التأثير الواسع في معظم الحركات الفكرية التي احتكت بها وشاعت معها . ذلك بأن ثقافة اليونان بنيت على أسس عقلية بحيث وكاد ينحصر فيها التأثير بالقوية اليونانية لذلك أصبحت صالحة لكل أمة وكل حضارة بخلاف غيرها من الثقافات التي بدت على صفحاتها سمات القوية التي تنتمي إليها

وإذا كانت تلك طبيعة الثقافة اليونانية فيمكننا أن نرتب على ذلك أن أثرها في العقلية البصرية كان فعلاً .. وهنا أثر إلى أن التأثير اليوناني الذي أقدمه كسان سابقا على عصر الترجمة في الذخيرة النحاسية ذلك بأن عصر الترجمة كانت السيادة فيه بغداد وكانت البصرة آنذاك هي الجامعة الراسخة التي أمدت بغداد بالمعلماء والرواد الذين أرسوا بها دعائم النهضة العلمية ..

ومن هنا فإن التأثير اليوناني الذي تحدث عنه هو ذلك التأثير الذي تعسفا حكراً من طريق الاختلاط والامتزاج بين الاجناس المختلفة وكان عدد غير قليل من هذه الفئات على صلة وثيقة بالثقافة اليونانية سواء منهم من كان من أصل يوناني أم أولئك الذين تنقلوا علوم اليونان وتربو عليها من مختلف الاجناس فلما صاروا أعضاء في المجتمع البصري أفادت منهم الحركة الثقافية في البصرة إبان ازدهارها ..

قالذي نظمنا اليه عرواًن الثقافة اليونانية وعلى الاخس علوم الفلسفة والمنطق ومعنى المعارف الطبية كانت بمثابة المعلومات المتاحة للشخص المثقف في بيئة البصرة منذ بداية النشاط العلمي بها ..

ولعل النشأة المبكرة لعلوم الكلام وخاصة مذهب المعتزلة الذي تكون أول سبباً تكون في بيئة البصرة - تبدل بوضوح على صدق الاستنتاج الذي توصلنا اليه فيها سبق كما أننا نخلص أثناء بحثنا لخصائص المذهب النحوي البصري أن منطق اليونان كان أحد الرواد التي أمدت ذلك الصقل الخلاق ودعته في كثير من الأصول التي أرساها ..

والى جانب ثقافة اليونان نجد أن ثقافة الفرس - الذين كانوا يكرهون عنصرًا لا يستهان به من عناصر الشعب البصري - قامت هي الأخرى بدور خاص في الحياة العقلية للبصريين ولا جدال في أن كثيرا من بحوث علم الكلام قد تأثرت بالعقائد الفارسية التي كانت شائعة بين الفرس قبل الإسلام مثل السامية والزرادشتية والمزدكية وغيرها .. كما أن كثيرا من مبادئ الشنوية والدعوية كان مشهورا في بيئة البصرة وهي أوطان التشكليميين بصفة خاصة إذ علم الذين تصدوا لتلقي هذه التحل ومقارعة أنصارها بالحجج والبراهين ..

مبالاة إلى ما بين الثقافتين ترى أن البصرة تأثرت أيضا بثقافة الهند وانتفعت بحكمتها وأدائها وعارفها في علوم الفلك والحساب وغيرها ...

ولعل في مؤلفات أبي عثمان الجاحظ ما يؤكد حقيقة التأثير الثقافي المتنوع الذي أفادته البصرة من الثقافات المختلفة فكثيرا ما يورد أبو عثمان في ثنايا موضوعاته آراء أصحاب المنطق^(١) - يعني أرسطو - وغيره من فلاسفة اليونان وأحيانا أخرى يعرض لمبادئ زرادشت وينقضا .. وفي مواضع أخرى يتحدث عن عقائد الزنادقة وتعاليدهم ويتلفظ بمصيهم^(٢) ..

وإذا فان هذه الثقافات الثلاث كانت أبرز المؤثرات في العقلية البصرية .. وأرائي يختلف في الرأي مع جماعة من الباحثين المحدثين أولئك الذين يفتقرون بالحديث عن تأثير العلوم والحضارة المصيرية بثقافات وحضارات الأمم القديمة ويرون في ذلك غفلا من قيمة الدور الذي قام به العرب في تلك المجالات وانتقاصا من إسهالهم وأهم إنجازاتهم وحضورهم مثل هذا القول تحاملا على الجنس العربي هدفه زعزعة التقدير في نفوس العرب والسيون من شأنهم في ماضيهم وحاضرهم ..

كما أنني ومنشئ الدرجة الخرافة براءات الباحثين الذين استمروا بفكرة التأثير الثقافي فراحوا يمحسونها في كل قضية ويدخلونها في كل مسألة وبالعقرون في الدور الذي لعبته الثقافات الأجنبية في علوم العربية خاصة ما يتعلق منها بالعلوم الأدبية من اللغة وبيان ونقد .. والتي هي مجال بحثنا أساسا .. حتى ليزعمون أن كثيرا من علوم العرب منقول بجملة من أمم أخرى .. الخ

(١) قال الجاحظ في الحيوان ج ١ ص ١٨٣ : يزعم عايب المنطق أن اعتناقا لغيري من السباع المتزاوجات التلاحقات مع اختلاف الجنس والصورة .. وقال : وبين الحيوان الذي يسمى باليونانية (طافريش) وبين الكلب تحدث عنه الكلاب الهندية ..

(٢) الحيوان ج ٤ ص ٤٥٨ -

ذلك لان التأثير الثقافي الذي اقضاه لبحرنا قد يتوهم غفلا لاجزاء بحينه مسحا من تراثنا من الاسم او استمارة طعم من ملحها - وانما هو ثمن من الانتاج الثقافي الذي مارسه العرب واثارها عن طريق من غشى الثقافات فتخللها واستوعبها جوانبها مسحا ومزيجها بثقافتهم وفيهم حتى استحال خلقا جديدا له صفاته الميزة ولباعه الخاص ..

وفي اعتقادي ان هذه الظاهرة السمة تعد شاهة فخرو واعتزاز للعرب وليس لغيرها ما يدعوا اليه الذي او الانتقاص .. وحسب العرب فخرا أنهم في ايام حضارتهم الزده عسكرة فطنوا الى أهمية الاغارة من على وثقافات الاسم الاخرى فالحضارة الانسانية والفكر البشري ما عيان قداما عند الآحاد البعيدة وهذا لا يعرفان الحدود ولا يبيد ان بانتهاء الاسم وسقوط الدين .. ولن تستطيع أية ثقافة تتطلع الى مستقبل مشرق ان تلفس في اوتهمس حين يتوصل اليه العقل البشري من صاف ونظريات لتبدأ هي من نقطة الانطلاقة ان لمثل ذلك فلن يسهلها الزمن ولن يوقف لها المركب النطلق الى اجزاء الفكر وساعات المعركة ..

ولعل فيما هو متقرر بين الباحثين في تاريخ الحضارات (١) ان انكسار حضارة الرومان أمام الحضارة اليونانية على الرغم من سيطرة الرومان على اليونان واخضاعهم من الناحية السياسية - لعل في ذلك ما يدعونا الى الاشارة بحرف العرب من الثقافات الاخرى وبدلتنا على مدى اسلمتهم الفكرية .. فالرومان حينما انتصروا على اليونان هبطوا سلطانهم على بلادهم لم تستطع حضارتهم ان تصمد أمام حضارة اليونان العريقة فما لبثت ان ثلاثت وتقهقرت مغلبة لحضارة اليونان المبدان حتى اصبح الرومان أنفسهم يتعلمون على اليونانيين في مختلف العلوم والفنون .. فقد انتصر اليونان من الناحية المعنوية ولكن ثقافتهم وحضارتهم وصارتهم انهزمت امام اطمالة اليونان الراسخة في تلك الميادين ..

(١) هذه الحقيقة قديمة اكرر من باحث في تاريخ الحضارات العالم حديثه بحسب عن تأثير الحضارة الرومانية بحضارة اليونان .. في نهايته يقول المؤلفون : وذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني في آن واحد انقاذ ما أمكن انقاده من الماضي وانصرا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل في الشرق لان الحضارة اليونانية التي استلمت برزطه ارضها فيما بعد لم يحافظ عليها الا في الجزء المتوسط من فتوحات الاسكندر .. ولكنهم حضروا في الغرب ايضا بصورة اكرجلا لان العالم الهليني بسبب تنوع حضارته الفكرية والفنية مما قد قد ا مهدى روما (تاريخ الحضارات العالم ص ٥٤٢) ..

أما الحضارة المصرية فعلى الرغم من امتزاجها بالحضارات الأخرى فقد احتوت هذه الحضارات وشخصها وظلت على الساحة حضارة جديدة ذات سماتها وطاقاتها وأهميتها التي تجعلها مختلفة عن غيرها من الحضارات ..

وعلى أية حال فالذي يهبط أن تركز عليه هو أن مدينة البصرة ما لبثت أن أصبحت موقعا لثلاثي المزارف ومختلف الثقافات وشهدت ميلاد واحدة من أعظم الحضارات الفكرية في تاريخ الحضارة المصرية .. تلك الحقيقة تنبئنا كثيرا عندما ندخل في تفاصيل مناهج العلوم بالبصرة ونفسر على أسسها كثيرا من المظاهر والملاح ..

هذا الازدهار السمراني الذي نعمت به البصرة ، وذلك الحشد الكبير من البشر الذي تقاطر عليها واستهوتته الإقامة بها ، وتلك الثقافات المتنوعة التي كانت متاحة لاهلها بحكم طبيعة التكوين الاجتماعي فيها - كل ذلك يفسر لنا تلك النهضة العلمية وذلك النشاط الثقافي الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الفكر العربي ..

ونعود فنلجأ أثر الاسلام الحنيف في هذه الظاهرة الفذة ، ذلك بان الدين الجديد كان هو الجامعة التي خرجت هذا المدد الهائل من العلماء والباحثين ونصني بذلك أن الحركة العلمية في البصرة قامت - كما أسرنا من قبل - تخدم الدين وتنافي عن المقيدة وتصور التراث .. فكانت بحوث اللغة ووضع قواعدها وتسجيل آدابها ثم دعوت الضرورة الى نشأة علم الكلام ودوايها محاولة للدفاع عن الدين بأسلوب جديد يستخدم أساليب الخصوم وبريهم بنفس السلاح الذي رموه به ..

خصائص العقلية البصرية :

ولعلنا بعد هذه المقدمات التي قد سلّمنا تستطيع أن نحدد ملامح وسمات العقلية البصرية في النقاط التالية :

أولا : ربما كانت أهم سمات العقلية البصرية هي بروزها في آثارها بوضوح هي نزعة التحور الفكري والتمسك في النظر الى الاشياء وقد اكتسبت العقلية البصرية هذه الخاصية من البيئة التي انتبت اليها فهي ملتقى أمم شتى ومقعد جبايات متباينة بها سوق المرید الذي كان ملتقى عرب البادية بأهل الحاضر وهو السوق البيرة للمدينة في مقابلة السوق البحرية بقرى الأهلة الذي كان ملتقى التجار من مختلف الاجناس .. وقد أقامت عقلية البصرية من هذه البيئة انسابات

كثيرة وأطلع أهلها على معارف مختلفة وثقافات متنوعة . فالقراءة اذا في أن تسير عقليتهم بشحرة محضة تغلب الامر على وجوده ولا تقبل الا ما يسيقه العقل . . . ومن هنا ندرك مصدر نزعتهم التي تحس على كل ما هو خاف للعقل او بعيد عن ادراك الحس فعقليتهم ناقدة مستنيرة لا تقبل كل ما يقال لها ولا تصدق ما يسمع على السنة الموروثة من خرافات وأساطير وذلك نزعة أصيلة . . . وقد كانت من غير شك هي الدعاية في ارساء الاساس القوي للشبهة العلمية في بيئة البصرة إذ الفرق الوحيد بين العلم والخرافة ان العلم يعتمد على العقل ويحكم الى المنطق ولتكن الدليل ظواهر الدليل والبرهان اثر البرهان ليستند بها قضايا . . . وفيها نظائره على عكس الخرافة في كل ذلك فهي لا تحتاج الى اكثر من السماع والتناقل والاستراحة الى شطحياتها وتوهيناتها . . .

وليس ما أشرعني الى شأن الجاحظ يعد من أكبر الأدلة على تأصل الروح التحررية الناقدة في العقليّة البصرية فقد حسن الجاحظ على الخرافات وشنع على اصحابها ونقدها من أساسها وتبهمها في كل قضية يمرض لها وكل مسألة تذكره بشئ منها عوارج حسنة واستادف النظام بشرح دوافع هذه الخرافات واسباب ظهورها والعوامل المؤثرة في ذلك بأسلوب على شمعق ونظر عائب متبصر .

ولنقف عند مثال من تلك الامثلة الكثيرة التي حفلت بها علفات الجاحظ وكلها تسخر بالاراء البهية والمعتقدات التافهة وتزري بالوكك الذين يلقون عقولهم ويمسكسون لا وهام لا أساس لها من الصحة ولا وجود لها على التحقيق . . . قال ابو حسان عازمنا بالاعراب الذين يزعمون أنهم يرون الجن ويتحاشون قتلها حتى لا يصيبهم مكروه بتأثيرها . . . " و قتل الجن عندهم عظيم ولذلك رأى رجل منهم جانا في قمر بشر لا يستطيع الخلق منها فنزل على حذر شديد حتى اخبرها ثم ارسلها من يده فانسابت ففض عتبه لكيلا يرى مدخلها كأنه يريد الاخلاص في الثقب الى الجن . . . قال الازني : فأقبل عليه رجس فقال له : كيف يقدر على ذلك من لم يتقده من الأذى غيرك ؟ . . . " (١)

هذا الأسلوب في الزرابة بمعتقدات السذج والدعوى كان أحد دعائم العقليّة البصرية وكانت تلك النزعة سببها السباحة لهم في كل علم عالجه . . . وفي كل مسألة تمرضوا لها وتلك بالاشك لمحة أصيلة من لمحات العقليّة البصرية الناضجة في القرون الاسلامية الاولى ولعله ما يزال بيتنا في عصرنا هذا من يؤمن بخرافات ويسلم بخاريق تقارب تلك التي يروونها الجاحظ ويصفه احلام المؤمنين بها . . .

على كل فتكون لنا - بإذن الله - حققة طويلة مع هذه الظاهرة عندما ندرس

الباحظ في فصل مستقر ..

تلك هي النزعة التحيرية في العقلية اليهودية وهي بالرب إحدى دوائر التوسيع
العلمي القيم الذي يهبط الفكر بالواقع ويضع كل القضايا لمعطيات العقل والتطبيق
وقد كان لهذه النزعة دور في النكاح العلمي في بيئة البصرة وتأثير هذه النزعة
شهدت بيئة البصرة قيام حركة شاذة تزعمها البصريون ضد المحدثين والمفسرين الذين
كان جل همهم الاعتماد على نص من نسخة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى الصحابة
أو إلى أهل الكتاب من الأديان الأخرى دون التفرغ في هذه النصوص ومعرفة صحيحها
من زائفها والوقوف على مقدار نوازعها مع السبيل الإسلامي والنصوص القرآنية . فكان
البصريون أول من فطن إلى الظاهرة البصرية التي تسلك إلى التأثير عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهي الماهرة التدليهي والوضوح ما لا يتفق مع أصول المفسرة
السليمة ولا يمكن أن تسيء عقول ذوي الآداب وأولى البصائر . كما كان البصريون أول
من حرص على تفسير القرآن بأسر غيبية بعيدة عن مدلول النص القرآني فريبة على
أصليب العرب وبهم لا تربطها بالمعنى الطبيعي من الآيات رابطة مقبولة ..

قد روي الباحظ عن استاذ النظام قوله :

" لا تستعملوا إلى كثير من المفسرين وأن نصبر أنفسكم للمساءلة واجابوا عن كسل
مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكذا كان المفسر لغرب كان عند عرس
أحب إليه وليكن عندكم عكرمة والكلي والسدي ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصرى في بيت
واحدة فكيف أثق بتفسيرهم واسكن إلى عواهم وقد قالوا في قوله عز وجل " وأن المساجد
للله " ان الله عز وجل لم يهين بهذا الكلام مساجدنا التي نصلى فيها بل إنما عني الحياة
وكن مساجد الناصر عليه : من يدور وجهه وأنف وثغته . وقالوا في قوله تعالى
" أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت " انه ليس بمعنى الجمال والنفق وإنما بمعنى
السطح .. وجملوا الدليل على أن شهر الموم قد كان فرضا على جميع الأمم وأن الناس
غيروه قوله تعالى : " كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم " وقالوا في قوله
تعالى : " هل للمطغفين " البول : ولد في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك البرادى . ومعنى
الويل في كلام العرب معروف .. وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر
كلامهم (١)

ومن ناحية أخرى اتاحت خاصية التحرر الفكري والتمسق في البحث للبصريين فرصة -
البحث في علم الكلام ذلك العلم الذي نشأ في بيئة البرية .. ولقد يهدولنا صدق هذا
الاستنتاج ان نحن تذكرنا ان هذا النوع من البحث كان مجرد الانارة لقضايا يحد خروجها
على التقاليد الموروثة في أوساط العلماء فقد كان السلف يكرهون الخوض في مثل هذه
المسائل وكانوا يتحاشون الحديث فيها بكل ما يملكون .. فما كان للملوك ان يتكلموا فيها
أقارب فيعلموا الكلام من مسائل حرية الارادة وخلق الافعال وحكم مرتكب الكبيرة
والغير والشر .. وكلام الله عز وجل .. الى غير ذلك من المسائل - فكانت الطبيعة
المتحررة لعقليات البصريين هي التي أكتسبوا من خوض هذه الدمار وركوب هذه المسهل
المنطوية ..

ولهم أدخل في الدأ - حسبما أعتقد - من الزهر بأن الفوضى في مسائل علم
الكلام قد أضربا المقيدة الاسلامية وأمس تلك الروح السقطة النقية التي كان السلف
يلبسون الدين على عديدها .. الخ .. ذلك بأن تلك الطبيعة الذرية لم تكسب
لتمسك أن عتق في وجه التيار الجارف للتفكير الديني الذي تلاطت ابواجه في بيئة
البصرة وكان شارا للجدل والنقاش بذلك بحكم التكوين الاجتماعي للمدينة ومورثها
المقايدي .. فقد انتقل الى البصرة كثير من الجدال الديني بين المسيحيين واليهود وبين
السايب المسيحية فيما بينها ما كان معروفًا في المدارس التي كونها النساطرة -
البيزنطيين في اقاليم المراه فارس والاندلس والتي اثرتا اليها منذ قليل - هذا فضلا
عن عقائد براهمية الهند وسجوس الفرس وغيرها ..

ومن هنا فان في اعتقادي أن الجهد الذي أسهم به علماء الكلام وخاصة
المعتزلة الذين كونوا مذهبهم في البصرة ومنها اكتمل وانتشر في شتى البقاع
كان هذا الجهد من أجل الأعمال الفكرية التي بذلت في سبيل الدفاع عن الاسلام ..

ثانياً : تميزت العقلة البصرية بخاصية أخرى وهي سهولة النزعة الجدلية على فكرها
وطاقتها وقد انعكس أثر هذه الخاصية على النتاج الفكري للمدرسة البصرية
والبصريون في هذا الجانب تأثروا بالثقافات المختلفة التي اطلعت وخالطت
في بيئتهم وكانت البحرين الذي استقروا منه وشملوا من فقهه كثيرا من المصارف
والانكار .. ولا جدان في أن تنوع الثقافات وشملها وشجع المصارف المختلفة
وانتشارها يخلق سعة في التفكير وسعة في الادراك الذمعي وسهولة المسهل
أما الجدول فيفتح الابواب للتفاني ويهدي الى سالك الاحتجاج وأساليب الحوار ..

وذكر المصادر كثيرا من نوائج هذه النزعة الجدلية عند البصريين فروي
أن النظام الممتزى مثل وحرثاب صغير في إهان تحصيله للملوك أن يصسف
أحدى إواني الزواج فقال للسائل أفيها يمدح أم يذم ؟ وأخذ يصف الزواجسة
مرة يمدح فيقول عنها : " تترك القذى وتنج عنك الأذى " .. ودمها فقال : " ...
سبح كسرهما بطن " جبرها " ... الخ " .. روي عنه قريب من هذا في وصف النخلة (١)

وفي ذلك دليل على أنه قد ظهر في بيئة البصرة نوع من الجدول أشبه
ما يكون بالجدول السفسطائي الذي يترن فيه التعليل على الاحتجاج للشيء -
ونقيضه .. وسفرى منهج الجاحظ في التأليف كثيرا من أشلة هذه النزعة الجدلية
فقد كان ملما بإيراد وجهات النظر المتخالفة وأوضح تلك النزعة خاصة في
كتابه " الحيوان " إذ عين لكل نوع من أنواع الحيوان التي تحدث عن بعضها
مخصصة يهدو أنها وخمية .. بعضها الاحتجاج لهذا الحيوان وإبراز مزاياه والاشادة
بفوائده وتسويره بصورة تجعل من المصير الاستغناء عنه لاعميته البالفسيحة
وفي الجانب الآخر شخصية أخرى تتفق من هذا الحيوان بمينه .. وتهدى معاليه
وتجسم ماله هو صاحب كذا وصاحب كذا ... الخ ..

وجدر هنا أن نثبت هنا نموذجاً من نوائج الجدول عند الجاحظ وهو
من نوع آخر غير جدول أصحاب الحيوان .. يدل في جلته على مبلغ تأصيل
نزعة البدن والاحتجاج في العقلية البصرية التي تشكلت بوضع جديد في آثار
أبي عثمان الجاحظ .. قال الجاحظ في معرض حديثه من بطلان السحر ومسل
السحرة :

" ... وإذا صو (يقصد الساحر) شممين وخرطهما على مشكال
انسانين ودفنهما دفناً مكانهما وقاب بين جوهريهما تقابلاً بالسودة وأن دأبر
بينهما تدابراً بالسودة .. قل من يتولى له هذا ؟ ومن يقوم به ؟ ومن يتطهرون
به عليه ؟ فان قلت الشيطان .. فلم نعم له هذا ؟ وأول شيطنته أن لا يظلم
من هو فوقه ؟ فان قلت بالمعزائم التي لا ترد والامان التي لا تدفع فقد عز الله
عليه بالقرن والثروة والانجيل فلم يجدد .. يحض بذلك ولا يكثر له ولا يراء سبباً

(١) شرح السبوت ص ١٢١ وسأني هذه الروايات بعضها في الفصل الذي يتحدث
فيه عن المعزلة ..

وأخبرني ما عده المزمعة التي إذا سمع بها أجاب ؟ وإذا ظهرت له أثاب ؟ ومن أين عرف الانسان هذه المزمعة ؟ وأين وقع عليها ؟ ومن له بها ؟ أهو صنعها ؟ أم صنعت له ؟ فان يكن الشيطان الذي ابتدأ بها فقد ابتدأه اذن بتعليم ... المزمعة قبل أن يصرف عليه ؟ وقد تطوع بأعظم الامر فما الذي يحوجه الى المزمعة في اصفرها ؟ فقل في هذا وان زعت ان المازم صاحب دون الشيطان والمآزم سلم وان كان سلبا - ولذلك أجاب المزمعة وعظم الاخلاق - فلم يغبيل له الاسحا ؟ يمتن المرضي ؟ ولم يحب ويغنى ؟ ولم يغرب بين النور وأعله ؟ ومن الولد البار رأسه ؟ ولم يجتلب المفايف الى الزنة ؟ ولم يصذب ويقتل ؟ وهذا تناقض (١)

وبكذا نجد أننا أمام عظمة من نوع جديد لم يكن للمعرب عهد بها من قبل .. عظمة جدلة وأمية تستقصى الامر وتنقها وتحلل القضايا وتهبها بالتفصيل وثقف امام كل جزئية من جزئياتها مناقشة نافذة وتوجد امام الخصوم كافة السهل وجن الداخل ولا تدع لهم سبيلا من الاسباب او برهانا من البراهين الا نقضه من أساسه وقلته رأسا على عقب كل ذلك في تفصيل منظم ونهيج قوي وينطق لا يدخله زيف او تعوجاج .. ولعلنا لانعد والصواب اذا قررنا ان نزعة الجدل كانت أشبه ما تكون بالرياضة الدعوية التي اطلع بها المصريون واقرها بمارستها فكانت حديثهم في مندياتهم وجالسهم .. حتى أنهم لم يكفوا بجاذبية بعضهم بعضا بل اهتم بعضهم أن تتاح له فرصة مجادلة السامعين من الانبياء أو كبار القاد قوال الزعماء الذين كان لهم دور أساسي في الصراع السياسي في بداية الدولة الاسلامية .. وهذه رواية تؤكد ما تشير اليه وتوضحه : " ذكر عمر بن عبد العزيز عن خالد بن يزيد عن يونس النخعي قال : ثلاثة والله اشتهى ان اكن من مناظرتهم يوم القيامة .. آد عليه السلام فأتوا له : قد مكثك الله من الجنة وحرر عليك شجرة فقصت لها حتى أقيمت في عذا الكرو .. يوسف عليه السلام : أقول له : كنت بصير وأهلك عليه السلام بكتمان بينك وبينه عشر مراحل يركى عليك لم لم ترسل له : اني في عاتيه وتوجه ما كان فيه من الحزن ؟ .. واللحمة والنزير : أقول لهما : علي بن ابي طالب عليه السلام باحشاء بالمدية وغلغلتاه بالمراق لم ؟ أي شيء أحدث .. (٢)

(١) مجموعة رسائل الجاحظ - رسالة التبريع والتدوير ص ١٤١

(٢) اخبار التحسين البصريين .. للجبرائي ص ٢٢

والذى يبيننا أن نظريته يحدد هذا الموضوع هو أن النزعة الجدلية التى كانت
سببها من سمات العقلية المصرية قد أفادت البصريين فى تأسيس نهجهم العلمى
على أسس عقلية راسخة . فلم تكن المسائل مأخوذة من زاوية واحدة ولم يكن أسلوب
البحث متلحيا ساذجا . بل كانت كل قضية تثار تبحث من جميع جوانبها ونظر إليها
من كافة زواياها . وتلك هلافتك ميزة لها قيمتها فى الحيلولة الفكرية للأمم . .

ولسوف ذهبنا لتتبع مظاهر النزعة الجدلية لعقلية البصريين لوجدنا أنها
كانت ظاهرة لمعظم النشاط الفكرى فى بيئة البصرة . فعلم الكلام وقوانين الجدل
والمناظرة وشكاد كن قضائيا . تكون شارا لاختلاف موضوعات مختلف وجهات النظر
وليس فيها أن ترى شيلا من الآراء . والنظريات فى كل مسألة فلكل جماعة قسول
يرأى ولكن فرقة حجب مرأين وما أكثر الجاهات وما أعد تباين الآراء . والأقوال
فى علم التشريع وضحت أيضا النزعة الجدلية وصاحبت الفقهاء فى مختلف القضايا
التي عرضوا لها ونفى عن ذلك تلك الأقوال المدونة فى آثارهم والنسبة إلى زعمائهم

ولم تعلم علوم اللغة وقواعد ما من التأثير بهذه النزعة فكانت بحوث النحو
والصرف وشواهد اللغة واستعمالاتها شارة دون نقاش احتد بين البصريين فيها
بينهم أولا ثم بين البصريين والكوفيين ثم ذاع أمره بعد ذلك ودشت فيه المدونات التى
حفلت بنقاد من جدد النحاة وأعمالهم فى المناظرة والاحتجاج . .

ثالثا : أما الخاصية الثالثة من خصائص العقلية المصرية فهى خاصية التحليل والتفسير
فهي عقلية لاحقة راعية تستوجب ما تعرض له من القضايا وتنمقها وتنبى التحليل
لها . والاشاح لجوانبها . . فكل ظاهرة فى العلوم أو الفنون تفرع على أسس
عقلية واقعية مبنية . . وقد هدت هذه النزعة أيضا فى النتائج الفكرى للدراسات
المصرية فى حتى فروع الثقافة . .

برزت نزعة التحليل والتفسير فى علوم اللغة وقواعد ما فقد بنى البصريون
أسسهم النحوية على أسس محللة ومبررة . . فلفرغ الفاعل ونصب المفعول تحليل
نقح ومنطقى وكذلك لغيره من الأصول النحوية على مبرره وموضحة . . السبع
وكذلك للظواهر اللغوية أسباب وتفسيرات وللظواهر الأدبية إيضاحات وتحليلات
كل ذلك انتهى بسطها ابن سلا الجصى فى كتابه " إلهات الشعراء " وظل فى ثناياها

لمدة الزاهر اديبة في تاريخ العصر العربي مثل كثرة الشعر في بعض القيسري
وقته في قري اخرى ... الخ . ماثل كانت هذه النزعة وانحدر في بحوث علمية
الكثير علم التنوير وغيرها ..

وهنا كانت آثار الجاحظ أحسن ما تكون بالاشارة لهذه الظاهرة فهو فمضى
كتاب الحيوان فيلسوف واستاذ يشرح الظواهر المختلفة بتأمل ودقة ومقد نظير
حتى ليلى من غرط تأله في طباق الحيوان وتعليقه لها حدا يستوجب الدهشة
والاستغراب فهو على سبيل المثال - يحلل لعنصر من الظاهر السلوكية للكسب
ويحلل فرائزه بهوى شاقه واحتجاج صيب يقول :

" ... ولا تراء (يقصد الكلب) يرمى بحجر ايها ايدا الا رجع اليه فمضى
عليه . لانه لما كان لا يكاد يأكل الا عيشا رميا به اليه صار يرمى لغرط شربه وقلبه
الجفع على بطنه .. ان الراى انما اراد عقره او قتله فيظن كذلك انه انما
اراد اطمائه والاحسان اليه ... " (١)

وجملة القول ان نزعة التمليل والتفسير كانت احدي الملامح السيرة للعقلية
البصرية والتالى كانت حصة من لغى صات النشاط الفكرى في بيئة البصرة . وهى تدعى
الخصائص الاخرى للعقلية البصرية وتجعل منها نموذجاً فريداً في تاريخ النهضة العلمية
في العصر الاسلامى الزاهرة ..

تلك بايجاز ملامح العقلية البصرية وخصائصها المثلة في ثناياها الفكرية
وسوف نعود في القسوم القادمة الى بسط هذه القضية ونجملها متلفتها في تفسير
واضح كثير من الظواهر الفكرية في التراث النقدي لدراسة البصرة ..

وقبل أن ندخل في تفاصيل الحديث عن نشأة علم اللغة والادب وأطوارها وماهيتها
أرى أن نشير الى ظاهرة مهمة تتعلق بالنشاط الثقافى في البصرة . تلك هى
أن الازدهار الثقافى الذى تحدث عنه كان نتيجة لجهود طبقات من عامة الشعب
وماها من أوساط كادحة فكانت الحركة العلمية في بيئة البصرة مرشطة بالجهود
الذاتية لجماعة من علماء البصرة ودارسها ولم تكن الدولة تنجح هذه الحركة
أو تعف من مرائها .. ولم ترصد لها الاموال أو تنفق عليها النفقات أو تنشأ لها الجاسى

والنداء بل كانت في جبلتها - جهدا شعبيا خلاقا - ولمحظا نستطيع أن نعد
 الاخفاق السياسي الذي ضيق به بيئة العراق - والبصرة كبرى مدافعه وأسبقها نهوضا
 .. لمعه أحد الأسباب الرئيسية في الازدهار الثقافي في الاقليم .. فقد أحسن أهل
 بأن أهل الشام قد استأثروا دونهم بالمجد السياسي وظلت الدولة لهم قرابة قرن ونصف
 من الزمان كانت البصرة في اشدته تمكك على الملوك المختلفة وضع بذور النهضة
 المحلية الحربية ..

هذا الارتباط بين الطبقات الشعبية وبين النتاج الفكري في بيئة البصرة
 يدعونا الى الاعباب بهذه النظم القوية التي تجاوزت حدود النخبة القريبة وسعت
 الى تغليب آثار الحربية وصيانة تراثها .. ولننظر الآن كم تكرر الاسم في سبيل
 نهوضها العلمي وكما تبدل في الترويج لهادئها وثقافتها .. هذا أدخل في
 المحجب والقرابة - كم من فرق بين جهود علماء اللغة في البصرة في تلك الآونة مثلا
 بين جهود الساجيع اللدوية في مصر الحديثة ؟ وكيف استطاعت هذه الجامعة
 من العلماء يرمونها بالحدودة وبكائناتها الضيقة أن تقيم هذا الصرح الشامخ من قواعد
 اللغة ومجتمعاتها وهي لا تعتمد في ذلك على صادر مدونة او موسوعات متاحة بل جعل
 اعتمادهم على الرواية وشافة الناطقين باللغة واستنباط القواعد بأسلوب استقرائسي
 .. وبلايكل ولايمل شيء الا هم من ذلك كله الجبرأة في وضع الاصول النحوية التي تهيمن
 استعانة أسلوب ما من الأساليب والقياس عليه وفي الناحية الاخرى الحكم بنوع القياس
 على أسلوب آخر والحكم بشذوذه والافتقار على ما سمع منه كل ذلك حتى يمتلئ للغة
 أكبر قدر من التنظيم والدقة ...

هذه الجهود الرائعة في ميادين العلوم كانت الايدي المحركة لها هي جماعات
 من مراد العميد البصري تحت هدايتها وتطلعت الى تثبيت دعائم النهضة العلمية
 لحضارة العرب ..

ولم نلاحظ على الفئات التي ينتمي اليها جلة علماء البصرة وثقافتها يؤكسد
 تلك الحقيقة البقاء في تاريخ النهضة الفكرية بالبصرة .. فقد كان اساتذة العلوم
 رواد النهضة من طبقات شعبية من عامة الناس ودعائهم الا أن نهوضهم اللغوي وطرحهم
 الخلاق هما اللذان كتبنا لهم الدخول على سبيل المثال .. كان والد ابن نواس الشاعر
 المشهور الذي نشأ في البصرة وثقف في ربهها وذاع صيته بعد ذلك في بغداد - كان
 والده حاكما ..

... وكان أبو هشار طياراً وكان الاخفش النحوي من أسرة تعمل في قصر الشباب فلما انتقلنا الى المتكلمين قلنا نجد متكلماً الا وقترون اسمه صناعة من غلة المنامات التي تنير الى ليلته مثل واصل بن عطاء الفزاري وأبي الهذيل الحلاف وأبي اسحق ساق النظام وأبي جعفر الاسكافي وأبي حنيفة الحداد وداود الجواليقي وحشاش النحوي وأبو ذر الصيرفي وفرض الحداد * (١)

علم اللغة والادب

ربما كانت بحوث اللغة من أوليات الأعمال التي أسهمت بها هيئة البصرة في الحركة العلمية العربية منذ بدايتها ... ولمس البحث في علم اللغة وتوابعها كان الأسرع في نضجه واكتماله من البحث في الملوك الأخرى. حققت هيئة البصرة في هذا الميدان نجاحاً رائداً في فترة وجيزة * ففي مدى ما يقرب من نصف قرن طلعت علينا من هيئة البصرة هواكير الأسس والأسول التي بنيت عليها قواعد العربية وصيغت من الاضطراب وحفظت من الضياع ..

ولمس الملوك قد أحسوا بالضرورة الطحة التي تغرق عليهم الأسراع في إنجاز هذا العمل الدليل فأنطلقوا بجيوش الهوادي وبرنادون مواطن العربية الفصحى يجعلونها ودون أساليبها يحققون أصولها * يسمون من العرب الخلفين ومائلين يسمون أخبارهم وأسماءهم وحكمهم وأدائهم ومعتقداتهم ومعارفهم

ولعل من المشهور والمنتشار عليه أن نشأة علم النحو مصفة خاصة وعلم اللغة مصفة عامة بدأت من الاحساس بالخطر الذي يتهدد لسان العرب وينذر بتشويهه نواحيه الدنيى الهائل الذي كان سبباً في سيادته ودعائه لسلطانهم وأساساً للتكسب لهم في الارش - فسارع المسلمون الى وضع قواعد اللغة والبحث عن مدلولاتها وتربيتها ... إلخ ..

والإضافة الى شدة الضرورة الدينية كان البحث في علم اللغة ضرورة قوية بعد أن غشى العرب ضياع كيانه وفقدان شخصيته وسط هذا الغضم الأخير من القويات الأخرى .. ولمس أولئك الذين كانت تجري في عروقهم الدماء العربية

(١) الجاحظ حياته وآثاره الادبية للحاجري عن ١٢٠

قد أكد لهم حصار اليه أمر العربية في الاقطار المفتوحة .. وشور لنا هذا الشعب
ماتذكرة بمعنى المصادر من أنه :

* مرخالد بن عفران يقول من الموالي يتكلمون في العربية .. فقال : ليس من
تكلم فيها لأنتم أول من أقصد بها .. (١)

وبما كان تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان استجابة لهذه الضرورة
القوية أيضا .. فقد كانت الدواوين حتى عهد عبد الملك كما يذكر المؤرخون - تكتب
بلفات أصل الاقطار المفتوحة بخلافها أناس من أهل كل إقليم .. * .. فالدواوين
المصرية كان يكتب بالقبطية ويتولى أعمالها جماعة من قبط مصر .. والثامن كان
يكتب باليونانية وأما يدي أناس من نصارى الشام .. والعراقي بالفارسية وكتبه
بعض أهل العراق .. فأمر عبد الملك أن تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها إلى
المسلمين * (٢)

هذه الدواوين والضرورات حفزت المخلصين من أهل البصرة على التصدي لتلك
الظواهر المدمرة وحاولوا وضع قواعد وأسس يرجع إليها من يريد تعلم العربية وتطويع
إلى اتخاذها لسانا له .. وقد سعى أولئك الرجال إلى التخلص بالصغار من التوراة
من مصادرها الحقيقية مناهجها الاعمى التي لا تشوبها غاشية من عجمة أو انحراف في
اللسان .. والحق أن علماء اللغة قد احتاطوا للأصول التي وضعوها بها لا يجعلوا للشك
مدخلا إليها وظهرت في هذه الناحية أعمالهم العلمية وهجوم لنهج البحث القديم ..

فقد استنصر العلماء الخطر الذي أحرق بلغة العرب في بيئة العراق فأدركوا
بأدى ذي بدء أن أصول اللسان العربي يجب أن تؤخذ من موطنها وتستقى من منابعها
فلما وبههم خطر هادية العرب ليضافوا العرب الخلق وأما في الحيلة والحدود
نحائى العلماء الأخذ من القبائل التي تتألف أقاليم الشام أو العراق أو اليمن أو مصر
والتي يخشى أن يكون الفساد اللغوي قد تسلل إلى لسانها .. فكانت القبائل
التي اتفق على أخذ العربية منها - كما جاء في الزهر - * هم قبيل قيس وبنو أسد
فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومطعمه عليهم اتكن في التدريب في الانحسار
والعزيم وهديل ومعنى كناية معنى الطائفة ولم يؤخذ عن حمير قط ولا عن

(١) بهجة المجالس - ابن عبد البر القرطبي - قسم أول : ص ٦٦

(٢) تاريخ المتدين الأسلامي .. ج ١ ص ٦٢

حكان البراري من كان يمكن اطراف بلادهم المجاورة لساكن الامم الذين حولهم فانه
لا يوجد لاسن لخم ولا من جذاء نجاوتهم افس مصر والقبط ولا من قضاة وسان وايضا
لجارتهم اهل الشام وكثرت نصارى يفرأون بالسريانية ولا من ثعلب واليمن فانه كانوا
بالجزيرة مجاورين للموت ولا من بكر لجارتها القبط والفرس ولا من عبد القيس وأزد عمان
لخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف
لخالطتهم تجار اليمن الفيمون عندهم ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغمة
عاد قوام حين ابتداءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وسدت ألسنتهم
والذين نقل اللغة واللمان العربي عن هؤلاء هم اهل البصرة والكوفة فقط من المسلمين
أصار العرب. (١)

ونكدا تنفي لنا أن نظرة الملوك الأول الى تحقيق الأصول اللغوية والتشخيص
في التقى بلغت هذا المبلغ من الفهم والوعي .. فكان يلزم لأخذ اللغة أن تكون القبلية
ذات بنية اجتماعية متماكة لا اختلاط بينها وبين غيرها من القبائل غير الغالبة العربية ..

ولم يزل هذا الأصل مائزان مرعبا في الأبحاث اللغوية الحديثة إذ يعتقد دارسون
اللهجات على القبائل البدائية المنعزلة والمغلقة على نفسها من الناحية الاجتماعية حتى
يفسروا نظرياتهم واستنتاجاتهم العلمية أكبر قدر من المنهجية والواقعية ..

نفذا السعي الدائب وراء اللغة الصحيحة وذلك الجهد العلمي الخالص
الذي بذله علماء اللغة استتب تفيد اللغة وقد وثقها لتبقى مصونة بتداولها الدارسون
ورجع اليها الباحثون .. وقد كانت البداة اللغوية التي جعلها علماء اللغة من
السمة والكثرة بحيث أتاحت لكثيرين منهم أن يفكروا في تدوين ما جمعه وتبويبها ليكن
أكثر اتساعا وأبقى أثرا على الأيام .. ومن هنا فقد بدأت مرحلة أخرى من مراحل البحث
اللغوي في لغة العرب وقوامها جمع التراث اللغوي وتبويبها حسب الموضوعات التي
يتعلق بها فكتاب في الخيل وآخر في الشاء ثالث في الكر والنخل رابع في الأنساب
والغيات .. وقد أسهم الاعمال بهذه الجهود كبيرة في هذا الميدان ومثلها الرسائل
التي خلفها من هذا النوع وشاركه في ذلك جماعة من اللغويين أشار ابن خلدون
الدومري وابن السكيت وغيرهما ... ثم حدث بعد ذلك التكرار في جمع فردات اللغة
بطريق الحصر والاستقصاء والمعهور أن الخليل بن أحمد البصري كان رائد هذا الميدان
اذ فكر في طريقة تجمع بها الألفاظ صحيحة معانيها وألف في ذلك كتابه " المعين "
وشبه على مخارج الحروف مبتدئا بحروف الحلق وبدأ بحرف العين غير أنه لم يكمله ...

الا أن كثيرا من الباحثين أنكروا نسبة كتاب العين إلى الخليل لأن الكتاب
 - كما يقولون - " ظل متواريا بعد الخليل نحو مئتين عاما حتى قد به راي من خراسان
 سنة ١٤٨ هـ . فخلصه في البصرة خمسين دينارا ويقال أن الخليل عمل الكتاب ورجح ،
 فخلفه به خراسان فكان في الشرائع المطبوعة حتى وجه به إلى العراق وقال ابن التميمي
 في فهرسته انه لم يرد لهذا الكتاب ذكر في الأغنياء ولا عند من ذكر آثار الخليل قبل ظهوره
 على يد عبد الوافي ، ويرى جماعة من اللغاة أنه موهوم . منحول بدليل أن ما فيه من قواعد
 النحو إنما ورد على مذاهب الكوفيين والخليل بصرى . . (١)

وعلى أية حال فلعل أحد تلاميذ الخليل أخذ عنه فكرة المعجمة ألفه ونسبه إليه
 أول من الخليل أملى على تلميذه بهذا الكتاب فجمع أحدهما جميع سمات به ونسبه إليه
 وأيضا يحتمل أن يكون هذا التلميذ كوفيا وهذا تخمين ما يوجد بالكتاب من قواعد كوفية
 إذ المشهور أن الخليل كان أمثالا لمؤسسي المذهب النحوي في الكوفة فلعل هذا
 التلميذ لم يأخذ عن الخليل سوى فكرة المعجم ومخالفة بعد ذلك في بعض الأصول
 النحوية فأورد لنا حسب مذهبه . . . ويوجد ما ذهبنا اليه هنا أن الخليل بن أحمد
 - كما يشتمل على مبررات وشبهه - أحد مستطريعي علم النحو العربي في البصرة رغم أنه لم يترك
 في ذلك كتابا مدونا ويقال أن سببه نقل معظم آراء الخليل في مؤلفه " الكتاب
 فالخليل كما يبدو لم يكن يميل إلى التأليف والتعريف بقدر ما كان يميل إلى بث آرائه
 وشتم مذهبه بين تلاميذه وأتباعه . . . نلاحظ إذا في أن ينقل أحد تلاميذه آراءه في حصر
 اللغة ونسبها إليه لأنها فكرته وهو صاحب الفص فيها . .

وقد كان الخليل كما يقول عنه ابن المعتز : " أعلم الناس بالنحو والنحو سبب
 وأكثره دقايق في ذلك وهو أستاذ الناس وواحد عصره . . " (٢)

وأجدني لأش الحدوث عن روضة النحل الذي بذله علماء اللغة في هذا الميدان
 فلم يكن السبيل أمامهم مهيدا ولم يكن البحث يسيرا . . . كان منهم من قلبي وكابد وتحصيل
 شأن الشعر والنجاسة من أجل لفظة واحدة وكان منهم من حرص على تسجيل كل ملاقاة
 في الذاكرة وإسمه من الأعراب فلما نفذت القراطيس التي معه جمع يكتب ما يصادفهم
 على ذراعهم حتى لا يفوتهم شيء من هذه الكنوز الثمينة . . . وفي ذلك دلالة قوية

(١) محاضرات في ثقافة البحث . . د . طه حسين حسن ربي . . (ص/ ٥)

(٢) طه حسين " لاهن المعتز " (ص ٩٦)

على عدة احسان عيسى ولا المصنف الاجل بقية النسخ واللغز وأهمية السخرات
الادبي بصفة عامة ..

فأى روح تلك التي أرحمت الى أهلها بهذا النسخ الطيب النبيل ١٩ وكما من
هون بينها وبين الروح السائدة في أوساط كثيرة في عصرنا الحاضر تشبهين بلغة المبرور
وتزهر عن التراث الأدبي وتتذكر له وتملك في قيمته وجد واه وقيمت هذه النظرة الخاطئة
سيطرة على كثيرين حتى ظنحت عيونا على جهود جماعة من المستشرقين في المصنف
الحديث - راجعوا يسطرون اللغز عن لغة من كنز التراث العربي ويهرون اليها ويهون
أصالتها وقيمتها في التاريخ للحضارة العربية فأخذنا عنهم هذه الروح المستعمرة
وان كان ذلك بين أوساط الدارسين المتخصصين دون عامة المثقفين ..

فإذا تركنا بحوث اللغة وانتقلنا الى علم النحر العربي وجدنا أنه يعتبر بحثا
جديدا على العربية كل الجدة وهو الى التقنين والتوضيح أقرب منه الى الجمع والتبويب
لذلك فهو أعمق من بحوث اللغة وأكثر أعالة وأدنى على مقدار الاسهام الخلاق الذي
بذلته هيئة البصرة في صيانة التراث العربي .. وقد برز في هذا العلم تأثير الثقافات
الاجنبية خاصة علوم الفلسفة والمنطق ..

ولا شك في أن بحوث علم النحو مثرية على بحوث اللغة ومتمدة عليها غير انها
كانت بمثابة تسجيل للظواهر اللغوية وتحليل لأسلوبها وبيان النظر التي تسير عليها ...
وحاولت استخلاص الأصول المشتركة بين الاساليب .. وقد نقل صاحب المزمهر
عن عبد اللطيف البغدادي قوله : ب

... اعلم أن اللغز شأنه أن ينقل ما نطق به العرب ولا يتعداه واما النحوي
فتأنيب أن يتصرف فيما ينقله اللغز وقيس عليه وشالها الحديث والفقيه فتشأن
الحديث نقل الحديث ثم أن الفقيه يلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه ظله وقيس عليه
الاشان والاشياء .. قال أبو علي فيما حكاه ابن جني يميز لنا أن نقيس مثونا على
مشورهم ومعرنا على مشورهم .. (١)

وإذا كان حديثنا في هذا الفصل دائرا حول ملامح النشاط الثقافي في البصرة فحجبنا أن نلصق من قريب ملامح هذه النهضة ولا نضرب عليها إذا تركنا الدخول فسي تفاصيل نشأة هذه العلوم وأول من عالج البحث فيها ما هو أشهر من أن يشار اليه لانه ذائع وفرد في اوساط المشتغلين بعلوم العربية ..

وهيما يتعلق بنشأة علم النحو فتكفينا الإشارة الى أنه رغم اختلاف الروايات وجباينها في الحديث عن الأسباب الباهرة لوضع القواعد النحوية فانها تكاد تتفق على أن أبا الاسود الدؤلي - وهو من سكان مدينة البصرة وتوفي بها سنة ٦٤ هـ - هو أول من قالج القول في مسائل تعتبر بدايات للبحث في علم القواعد ..

ومما كان اسهام أبي الاسود في نشأة علم النحو لا يعتمد على محاولته وضع أساس للنطق اللغوي السليم عن طريق رسم علامات على الحرف تبين كيفية نطقه كما يرى من أنه قال لكاتبه الذي استعان به في وضع ما وضعه من القواعد :-

... إذا رأيته قد فتحت فم بالحرف فانقط نقطة فوقه وإن غمست فم فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فم فجمع النقطة تحت الحرف لأن اتبعت شيئا من ذلك فمسة فاجمع مكان النقطة نقطتين * (١)

ذلك ما يمكننا أن نعلم به لابي الاسود في ميدان البحث في علم النحو - فجهوده كانت كما أشرنا بداية لوضع الأسس وتبني النظام الذي درج الناطقون بالعربية على الالتزام به في أساليبهم .. وعلى أية حال فالرواة والمؤرخون متفقون على أن علم النحو نشأ أول ما نشأ في بيئة البصرة ولم تدخل الكوفة الى هذا الميدان الا بعد نحو قرن من الزمان كان البصريون في اهبته قد أفاضوا في البحوث والمسائل اللغوية تشملن بقواعد العربية والتي عرفت فيما بعد بعلم النحو والصرف ..

فقد كان من أهل البصرة - كما يقول السيرافي - " جماعة انتهى اليهم علم اللغة والصرف وكانوا نحويين منهم الخليل بن أحمد وأبو عبيدة ميمون بن القتيبي التميمي والاصمعي عبد الملك بن قريش وأبو زيد سديد بن أوس الانصاري فهؤلاء المشاهير في اللغة والصرف ولهم كتب صنفه وكان بالبصرة جماعة غيرهم قبلهم وفي عصرهم كاهن في الخطاب الاخفش وكان قبل هؤلاء في عصرهم خلف الاخضر وأبو مالك عمرو بن كركميرة

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ١١٣ ..

الاعرابى وأبو زيد منى المجلس وغيرهم .. وقال أن الاسمى كان يحفظ ثلث اللغزة
وكان الدليل يحفظ نصف اللغزة وكان ابراهيم بن عمرو بن كركرة يحفظ اللغزة كلها * (١)

ونخلص احدى الروايات تسلسل الزعامة فى ميدان الدراسات النحوية منذ عهد ابي
الاسود الدؤلى - فى بيعة البصرة - على الترتيب التالى :

* قال ابو الصهامى محمد بن يزيد قال أبو ميمونة : اختلف الناس الى أبي الاسود
يتعلمون منه النحوية فكان أبي اصحابه عنده من مدان النحوى واختلف النحاص
الى عنده فكان الباقى من اصحابه يميون الاقرن فكان صاحب النامى فخرى عبد الله بن
اسحاق الحضرمى ... وذكر محمد بن سلام قال : كان بعد عنده وروى الاقربون
عبد الله بن اسحاق الحضرمى وكان فى زمان ابن ابي اسحاق عيسى بن عمر الثقفى وابو عمرو
عمر بن الحلاء واثاب ابن ابي اسحاق قبلها وقال ان ابن ابي اسحاق كان أحد تجریداً
للقيامى وكان أبو عمرو أرسى علماً بكلام العرب ولغاتها وغيرها وكان يلابى بن ابي بكر
جمع بينهما وهو على البصرة يومئذ علمه عليها خالد بن عبد الله القسرى أيام هشام * (٢)

ولعلنا بهذه الوثيقة مع نشأة النحو ودر المدرسة البصرية فيه نستطيع أن نتفقد
الى قضية أخرى اعتقد أنها أهم فى موضع بحثنا ونرى الحديث عن طهيمه المذهب
النحوى البصرى والمالغى اسيرة له وملة هذا المذهب بالمقلية البصرية التى تحاول
رسم صورة لتأجها الفكرى فى علوم اللغة والادب ونقد فى دواستنا هذه ثم نصبر
بعد ذلك للفرق بين مذهب البصرة ومذهب الكوفة فى علم النحو ..

ونمل من أهم سمات المذهب البصرى فى النحو الاعتداد على القياس فى تأصيل
القواعد وهو أسلوب علمى يهدف الى تنظيم اللغة وأرساء الاسمى التى يجب أن تكسرون
دعائم لها فى المستقبل .. وقد بدأ فى هذا الجانب أثر المقلية البصرية فى علم النحو
ذلك أن الاخذ بهذا القياس كان نوعاً من البرأة على اللغة - خاصة تلك الاماليه
القليلة والعادة - ولكنها جرأة منطقية ومرتبة .. وإذا كان البصريون قد اهدروا جانباً
من الاساليب المتأداة أو التى لا تبرر على قياس مطرد - فقد خدموا العربية خدمه
جليلة بأبحاثهم هذا الاماس القوى الذى كان سبباً فى نمو العربية واستيعابها
لحاجات الفائقين بها وتمييزها عن متطلبات الحضارة الجديدة .. ولا يزال هذا السبيل
أساساً للجهود التى تهذل لادوارد نمو العربية وسأيرتها لمتطلبات العصر والثقافة وما يجد
فى الامم والحضارات ..

وبدا القياس يفتح في اعتباره ان كل ما قيس على كلام العرب فهو منه ومن هنا
 عرفت مدى الاتساع الذي اتاحته العربية من هذا المبدأ فلم يكن البصريون جامدين اسما
 السوي من اللغة بل قاسوا ما لم يجمع على ما جمع مادام هذا المصراع حذيفة ومثلا لسلطة
 لشوية عند الناطقين بالعربية .. وعليه فان لغة العرب استطاعت أن تفتح صدرها
 لكن جديد وان تساهل التقدم الحضاري والثقافي في العالم الاسلامي .. ولم يجد المسلمون
 في بداية نهضتهم الحضارية أية سموات لشوية أو عوائق تقف في طريق الحركة الثقافية
 الرائدة التي تنابت تياراتها واعتزجت روافدها وتآلفت لتفتح للأجيال ذلك السبيل
 الخالد في تاريخ الفكر البشري .. والفضل في ذلك يرجع الى جهود علماء اللغة والنحو
 وأرسائهم لمبادئ القياس وغيره من الاصول ..

وفيما يتعلق بمبدأ القياس نجد أن البصريين رأوا أنه لا ينبغي أن تقتصر على
 ما روي عن العرب من الاساليب بل لنا أن نأخذ وحذرون ونعبر على طريقتهم في تصرفهم
 في اللغة سواء في الجمع أو النسب أو التصغير أو غيرها ... الخ .. وكانت وجهة
 البصريين أن الناطق باللغة من حقه أن يجد فيها مادام ماثرا على سبيلها وقوانينها
 وأن العرب لم تنطق بكن شيء فقد جددت في محيط الناطقين بالعربية أشياء لم تكن
 موجودة في بيئات الناطقين باللغة من قبل ولم تدعهم الضرورة الى التعبير عن مثلها
 أو دعاية مشتقات لها .. فلما جددت الاسباب التي تدعو الى ذلك وجد حاجة البصريين
 أنه من المعت أن تقف في وجه الاطراد اللغوي والتوسع والتفريع بل علينا أن نساير
 حاجة الناطقين باللغة لتكون مصيرة عن الجملعات التي تنحصر فيها ..

ولقد اتسمت العربية اتساعا كبيرا من هذا الباب وبرزت فيه العقلية البصرية
 التي تحلل وتمثل وتسط القضايا وتفرغ المسائل لتفتح الباب على صواعق التوسيع
 والاتساع .. وكان من نتائج ذلك أن رأينا ذلك التقليد الذي لقم به النحويون وفصل
 جانبها ليس باليسير من محوهم وتوافقي المسائل فيأخذ النحوي بمد تقرير الاجمالي
 في باب ما من الابواب حقوقا بالبراد الاثنية له - يفرغ احتمالات لم يهتد للمرب النطق
 بها قياسا على ما أثر عنهم فيقول اذا أردت أن تصنع من مادة كذا على مثال كذا قلت
 كذا والشئ في ابواب الجمع والتصغير والنسب وغيرها .. وهذا مبدأ مهم وقد عمل
 كثيرا من مسائل النحو والصرف وهو يشبه من بعض الجوانب مسائل الفقه في علم
 التصريح الاسلامي كان الهدف منها جميعا التوسع والاستقصاء وتدل في مجموعها على تسخير
 العقلية البصرية وخلقها بخلقها كبيرا من انفسهم والهي ..

ولم أتح للمربية أن يسر أسلوب البحث فيها على هذه الأسس الراسخة لما حدث طامس من البحر وامتد به من بعد وضيق وبالأحظ من تخاذل العلماء بها فحسب الباحة الاستعمالات والتعابير الجديدة التي يمكن التماس وبنو القيد بينها وبين استعمالات وتعابير عربية صحيحة ..

.. أما الدلالية الثانية من خصائص المذهب النحوي البصري فهي خامة التمثيل لتصل أو القاعدة بهذا التحليل ثمة لنظرة عميقة لدلالات اللغة وطبيعتها أعلامها ومزاجهم وأكثر المجتمع والبيئة في اللغة التي نطقوا بها والتقاليد الأسلوبية التي التزموا بها .. قد ظهر في هذا الجانب تأثير النحاة البصريين بالثقافات المختلفة خاصة نظم النحاة والمناطق إذ كانت تميلاتهم للنحاة التحوية أقرب لما تكون النحوي تميلاتهم للاحاء الكلام لسائل المصيدة وشكلاها تلك التي تتركز أساسا على العقل والمتعلق ..

ثم أشار المصنف الأريب ابن جني إلى هذه الظاهرة حيث عقد - في الخصائص - مقارنة شريفة بين مخرج النحوي الثقفة علم النحر وطم النطق وطم الكلام .. وتحسن نالح من هنا هذه المقارنة على النحو التالي :

قال ابن جني : " أعلم ان على النحويين - ولعن بذلك حذاتهم المتقنون لا الفاتحين المستمعون - أقرب إلى على المتكلمين منها إلى على المتقنين وذلك انهم إنما يحيلون على المحس ويستجرون بتقن الحال أو حقتها على النفس وليس كذلك حديث طل الفقه وذلك انها إنما هي أعلام وإشارات لوقوع الاحكام ووجوه الحكمة فيها خفية عنا غير مادية الصفحة لنا ألا ترى أن ترتيب مناجج الحج وفرائض الطهور والصلاة والطلاق وغير ذلك إنما يرجع في وجوه إلى ورود الامور بصله ولا تصرف على جمل الصلوات في اليسوس والليلية خمساً دون غيرها من العدد .. وليس كذلك طم النحويين وما ذكر طرقاً من ذلك لتصح الحال به .. قال أبو اسحاق في رفع الفاعل نصب الفعل إنما فعل ذلك للفرق بينهما شئ سأل نفسه فقال : فان قيل فهلا عكست المسألة فكانت فرقاً ايضاً ؟ قيل : الذي فعلوه أحزن وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد وقد يكون له بفصول كثيرة فروع الفاعل لقلته ونصب الفعل لكثرة ذلك ليقول في كلامهم ما يستقلون ويكره في كلامهم ما يستغفون " (١)

ثم قال ابن جنس في موطأ آخر من الخصائص :

" اعلم ان محصل مذهب اصحابنا وتصرف اقوالهم مبنى على جواز تخصص العلم وذلك انها وان تقدمت على الفقه فانها اولا كبرها اما تجرى تجرى التخفيف والفرق ولو تكلف تكلف نقصها لكان ذلك ممكنا - وان كان على غير قياس ويستقلا الا تراك لو تكلفت تصحيحها ميزان وسداد لقد ريت على ذلك فقلت موزان وموزان وان نفى القياس تلك الحان . وليست كذلك على المتكلمين لانها لا قدرة على غيرها الا ترى ان اجتماع السواد والبيان في محل واحد متعلا مستكره وكون الجسم متحركا ساكنا في حال واحدة فاسد لا طريق الى ظهوره ولا الى تصويره وكذلك ما كان من هذا القبيل فقد ثبت بذلك تاخر علم النحويين عن علم المتكلمين وان تقدمت على المتكلمين (1) "

ومن هنا تبدلنا أهمية الدور الذي اسهمت به نزعة التحليل والتفسير اللغويين اسلفنا انها كانت احدى مكونات العقلية البصرية في التقنين لعمل النحو العربي الذي كان البيئة البصرية اليد الطولى في وضع قوانينه وأصوله . . . وان التمتع لظاهر نزعة التحليل والتفسير في أبواب النحو العربي ليجد نفسه أمام من فكرى هائل أقل ما يوصف به أنه فلسفة للغة وفهم دقيق لجزئياتها وقياس منطقي منظم يعتمد على مقدمات منهجية وينتهي منها الى نتائج مدعومة بالبراهين والأدلة وذلك كله بلا مراء جهد عقلي خلاق . . .

وربما تظهر لنا ضخامة هذا العمل الذي هلت بيئة البصرة عبيد التمدد - لانجازهم اذا تأملنا حجم أبواب علم النحو العربي والتي استقامت الى حد كبير نفس المؤلف سيويه البصري " الكتاب " ودرسنا أشهر ما أنتجته بيئة البصرة في علم النحو حينئذ كان " الكتاب " . . . لشهرته وفله علما عند النحويين فكان يقال بالبصرة : قسرا فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيويه . . . وكان محمد بن يزيد السيردي اذا أراد مرسل أن يقرأ عليه كتاب سيويه يقول له : هل ركب البحر ؟ ثم يثبته له واستمعها لياقته . . . وكان النازني يقول من أراد أن يحصل كبرا في النحو بعد كتاب سيويه فليستح (2) "

فكم في " الكتاب " من أبواب ؟ وكم فيه من قواعد ؟ وكم فيه من قياس ؟ وكم فيه من تحليل وتفسير وتنظير وتحليل ؟ . . .

(1) الخصائص ج 1 ص 145

(2) اخبار النحويين البصريين في ص 38 . والفهرست : ص 83

وربما - أيضا - يظهر لنا من المقارنات التي عقدت بين مذهبي البصريين والكوفيين ووجه الخلاف بينهما - مقدار الجهد الفكري الهائل الذي بذل في هذا الميدان . فقد ذكر ابن الأنباري - على سبيل المثال - في مؤلفه " الانصاف في مسائل الخلاف " اثنتين ومائة مسألة والرجوع اليها يتضح أن كل فريق كان يلتزم لرأيه كافة الأدلة ويستقصى البراهين العقلية التي تدعم مذهبه وتؤيد وجهة نظره .

ذلت حاصل في مسائل الخلاف فضلا عن مسائل الاتفاق وهي كثيرة ولكنها - منية على استدلالات عقلية ومقارنات دقيقة .

فلنتذكر إذا أننا أمام عمل فكري وجهته إنساني هائل لا يمكن التقليل من قيمته في تاريخ الفكر العربي . . أجل إنه تأسيس لمن جديد غايته صون التراث اللغوي وتحديد معالم الطريق القيم للأجيال الخالفة للقبور لعائنه وتصلح من نطقها . .

ولمراء في أن التمليل للقاعدة يمنحها قوة وجعلها أدنى إلى القول وأدعى إلى الاقتناع ولعمري على فهم الطائفة اللغوية وقياس الأشباه والمناظر عليها مادامت الأسباب الداعية اليها قائمة والبررات موجودة . .

ولعلنا بعد أن عرضنا لأهم سمات المذهب البصري في علم النحو نستطيع أن ندعم ذلك بالإشارة إلى أهم الفروقات بين مذهبي البصرة والكوفة في علم النحو - لتضح لنا معالم تأثير النحو في البصرة بعقلية البصريين ومزاجهم ونهجهم في البحث وطريقتهم في عرض القضايا العلمية . .

وقد ذكرنا منذ قليل أن من أهم سمات المذهب البصري الاعتماد على القياس ودقة التمليل للأصون . . وإذا نحن حاولنا التعرف على موقف الكوفيين من هاتين الخاصيتين لوجدنا أن أسلوب الكوفيين كان مائلا لأسلوب البصريين . . فالكوفيون يكترون من القواعد ويتهافتون على الشاهد حتى ولو كان مشكوكا فيه أو قليلا لم يبلغ مبلغ القاعدة المضطربة . . ولذلك فهم كلما وجدوا شاهدا جعلوه أصلا في بابهم وقاسوا عليه . . أما البصريون فكان منهجهم أدخل في الترتيب والتنظيم وأكثر دقة وتحريرا ولمل عقلية كل من المصنفين كانت وراء هذا التباين في المنهج في كليهما : " والواقع أن البصرة والكوفة ما كان لهما أن يلتقيا إذ كانت كل منهما تشل واحدا من هذين سببين الظاهرين المتقابلين بمعنى أنه كان أغلب عليها وأقوى أثرا فيها فالبصرة تشل الظاهر

العقل والكوفة تشل الطابع الباطني أو السري فعلى قدر ما بين هذين الظاهريين من خلاف كان الأمر بينهما في شتى نواحي الحياة العقلية .. فذلك هو تأويل الخصومة المنهقة الدائمة المتمثلة بين البلدين وهو تأويل يجد صداقه في جميع الاتجاهات العقلية لها فلم يكن الأمر للصدفة حين كانت البصرة مهد الاعتزال وللدستور المستقلة في حين كانت الكوفة مهد التشيع ولد السرافضة ولم يكن الأمر للصدفة أيضا حين كانت نشأة النحر في البصرة على ذلك الأسلوب التنظيمي الدقيق (١)

وهنا كان قرب البصرة من البادية الفصحى وتأخذه سوق المهد لها وهو الذي كان يوده الاعراب الخلى .. هنا كان ذلك أحد الأسباب التي أتاحت للبصريين رقة في المادة اللدنية وكثرة في الشرائع السجدة ما جعلهم لا يأبهون بالقليل أو الباعث على عكس الكوفيين الذين كانوا يميلون إلى حد ما عن البادية وكانت مادتهم اللدنية مغيرة .. وطمعون عليها وإلى ذلك يشير الراس البصري في قوله : صرنا بالكوفيين منتقمين من قبيحة مادتهم اللدنية .. " انما أخذنا اللدنية من حرقة الضباب وأكله اليرابيع وهذا " أخذوا اللغة من أهل السواد أصحاب الكواهج وأكله الثواريز " (٢)

قد يكون السبب في سابقة الكوفيين للبصريين وظلمهم إلى الدنية عليهم نفسى مسائل النحر راجع إلى أسباب سياسية واجتماعية وليس له أساس موضوعي يستند اليه فقد تعصب البنداديون للكوفيين بعد انشاء بغداد وسيادتها العلمية في المصير المباني إذ كانت العاصمة الجديدة محط رحال الملأ من البصرة والكوفة لما يهذه خلفاؤهما من عتاييا ومنح سخية .. وذلك لان الكوفة كانت مهد التشيع فيها بدأت .. الدعوة المباسية سرا كما أن علماء الكوفة كانوا ذوي نفوذ في بلاط الخلفاء المباسيين فصاروا يمدوا أياد الخلفاء وكبار رجالات الدولة وأمرائها ..

ومن هنا ندرك السبب في تأييد المباسيين لنشأة الكوفة وقوفهم إلى جانبهم في المظاهرات التي دأبت في بلادهم بين الكوفيين والبصريين كالمسألة الزنوبية المشهورة التي تساجل فيها الكسائي وسيبويه في مجلس الرشيد وكان ما ذهب إليه سيبويه فيها موافقا للقباضي والواقع ولكن البنداديين مالوا إلى قول الكسائي لعلمهم بأنه ذو حظوة عند الرشيد ..

(١) الجاحظ للحاجري ص ٤٦ ..

(٢) الفهرست ص ٩٢ ..

وقد يكون في هذه المسألة التي ننقلها من " الانصاف في مسائل الخلاف " ما يؤكد الذي ذهبنا اليه من دقة واستقصاء النظرة البصرية الى الاسل والقياس واستنباطهم للغة وتحليلهم لظواهرها في حين تمسك الكوفيون بظواهر الشواهد ولم يتعمقوا في فهم دلالاتها أو قياسها على نوازلها ما استعملته العرب . .

قال ابن النجار :

" ذهب الكوفيون الى أن " إن " الشرطية تقع بمعنى ان وذهب البصريون الى أنها لا تقع بمعنى ان . . أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : اما قلنا ذلك لان " ان " قد جاءت كثيرا في كتاب الله تعالى وكلام العرب بمعنى ان قال الله تعالى : " وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا " أي وان كنتم في ريب لأن " ان " الشرطية تفيد الشك بخلاف ان ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول ان قامت القيامة كان كذا لما يقتضيه من معنى الشك ولو قلت ان قامت القيامة او اذا قامت القيامة كان جائزا لان اذا وان ليس فيها معنى الشك . . واذا ثبت أن " ان " الشرطية فيها معنى الشك فلا يجوز أن تكون هاهنا شرطية لأنه لا شك أنهم كانوا في شك من ذلك على أنها بمعنى ان وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله " فذروا ما بقى من الرأيا ان كنتم مؤمنين " أي ان كنتم مؤمنين لأنه لا شك في كونهم مؤمنين ولهذا خاطبهم في صدر الآية بالايان فقال يا أيها الذين آمنوا . . فدل على أنها بمعنى ان وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : أجبنا على أن الأصل في " ان " أن تكون شرطية والأصل في " اذا " أن تكون ظرفا والأصل في كل حرف أن يكون دالا على ما وضع له في الأصل فمن تمسك بالأصل فقد تمسك باستصحاب الحال ومن عدل عن الأصل بقي مرتبنا بالدليل ولا دليل لهم يدل على ما ذهبوا اليه وأما الجواب عن كلمات الكوفيين أما احتجاجهم بقوله تعالى : " وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا " فلا حجة لهم فيه لأن " ان " فيه شرطية وقولهم أن " ان " الشرطية تفيد معنى الشك قلنا : وقد تستعملها العرب وان لم يكن هناك شك جريا على عادتهم في اخراج كلامهم من الشك وان لم يكن هناك شك ومنه قولهم ان كنت انسانا فأنت نفس كذا وان كنت انثى فأنت معنى وان كان لا شك في انه انسان وأنه انثى ومنه ما أن من كان انسانا أو انثى فهذا حكمه فخاطبهم الله تعالى على عادة خطابه فيهم بهذا وهذا هو الجواب عن جميع ما استشهدوا به من الآيات . . (١)

فالكوفيون كما يتبع من هذا الشأن يتسكون بظواهر الآيات والموارد ولا يتمفنون
في تحليلها تعمق البصريين الذي ان دل على شيء قاننا يدل على تأصل الروح العلمية
لهم وقد اكتفاهم بتسجيل الظواهر المختلفة والاعول البتامة بن كانوا بمحصنون
البحث في كل مسألة تعرضهم ويبحثونها من كافة الجوانب ولتضمنون لها العمل والنظام
ويقتضون عنها تعمق واستقيا . .

تلك بايجاز مالمع المذهب البصري في النحو والفروق بينه وبين المذهب الكوفي
قد يكون من الحق أن نقول أن البصريين اعتمدوا على أسس علمية ومنهجية رائجة
كملت لمذهبيهم السبرورة والذريع وخرقت على الجميع احترامه وتقديمه ولمل أبرز هذه
الأسس هو الدقة والحذر الشديد في الأخذ بالشاهد النحوي فلم يعتمدوا على
أصولهم الا على الروى عن العرب الفصحاء والذي يبلغ مبلغ التواتر ولم يكن ممن
فأنهم القنات على الشاهد أيا كان الروى عنه كما كان يفعل الكوفيون . . ثم ان
اتصال البصريين الوثيق بالهادية عوا عن طريق الرحلة اليها أم عن طريق الالتصبا
بالاعراب الذين كانوا يقدون على " المرء " ضاحية البصرة من جهة الهادية
هذا الاتصال جعل البصريين يفضلون القياس المستند الى دليل وأعرفوا عن القياس
النظري الذي لا يعتمد على شاهد ممن كما كان يفعل الكوفيون وذلك لظرة السادة
للشوية في بيئة البصرة كما سبق أن أشرنا . .

وقد لخص الرحوم الشيخ محمد الطنطاوي الموازنة بين المذهبين البصري
والكوفي في كتابه " نشأة النحو " بقوله :

" ما من الفريقين عند التقريب الا كشل الطبيب والمتطب غالبسون كالطبيب
الذي عانى السهنة حدثا وحذقها بذكاء فأحكها وأفاد المجتمع عن طول مدة ودققة
خسيرة والكوفون كالمطبيب الذي قد اكمل ونظر الطبيب وما يديه فوجد عليه
ثم تصرف منه وقارعه فان الكوفيين ما منهم الا من أخذ عن البصريين أرباب هذا
الشأن بينما لم يخلق أحد من البصريين عن واحد منهم . . قال السيوطي : " وكذلك
أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين وأهل البصرة يبتعنون من الأخذ عنهم
لانهم لا يرون الاعراب الذين يحكون عنهم حجة " (١)

(١) نشأة النحو ص ١١٤ . .

علم الأدب :

والقد عرضنا لجهد البصريين في علوم اللغة والنحو وأشرنا إلى أهم سمات المذهب النحوي البصري والفرق بينه وبين المذهب النحوي وأثر العقلية البصرية في هذا المذهب ودورها في منهج البحث في هذا العلم الجليل ... نقتل بهتد ذلك إلى الحديث عن جهد البصريين في دراسة فن الأدب العربي ... وقد كسان البحث في الأدب مرتبطا إلى حد كبير بالبحث في اللغة لأن جمع اللغة استيعاب جميع الأدب ولم يكن هناك بعد فصل بين بحوث اللغة والبحوث الأدبية وفي أنسـه كان هناك فيها بعد نوع من التخصص والاستقلال فإن قدرا كبيرا من البحوث اللغوية ظل يشكل عنصرا مهما من عناصر دراسة الأدب لوقت طويل ...

بدأ الاهتمام بالأدب والتراث الأدبي مع بداية حركة جمع اللغة وقد منها أن الأدب شعرا وفطامة وحكما وأمثالا ... كان من أهم الروافد التي أدت إلى البحث اللغوي والنحوي بالمعنى والدليل ...

وقد لا نكون متجاوزين للحقيقة إذا قلنا أن جمع التراث النحوي في بيئة البصرة وغيرها من أقطار العراق كان تلبية لحاجتين رئيسيتين : -
أولاهما : تدوين الشعر الذي يكون مرجعا للباحثين في علوم اللغة والنحو والتعريف ... وقد كان للشاهد الشعري قيمة كبرى في وضع القواعد اللغوية المختلفة لأن الشعر المنظوم يحتفظ بنفسه صيحيا وتادرا ما يدخله تحريف أو تغيير على عكس النصوص النثرية الأخرى التي لم تكن في قوة الشاهد الشعري ...

ثانيها : تدوين أكبر قدر من التراث النحوي والأدبي بصفة عامة وقد تشل هذا في جميع مختارات من الشعر القديم تتميز بالجودة والفخامة وتشد أنظار الرواة اليه ... لما تتمتع به من مميزات فنية وشكلية خلصت لم تتوفر لغيرها من الآثار ... ومنها تلح الفرق بين تدوين اللغة وتدين الأدب ... فقد اعتمد تدوين اللغة على الجس والاستقصاء لكن ما رى ^{من} يواظبها وحصر الأفراد اللغوية ومحاولة وضع المعاني بأراء الألفاظ كما أشرنا إلى ذلك ... ولم يكن ذلك الأسلوب هو الذي اتبع في جمع الأدب بل أن جمع الأدب اعتمد على تدوين مختارات منه فقط دون الحصر والاستقصاء كما حدث في تدوين اللغة وذلك بأن تدوين الأدب والشعر منه بصفة خاصة كانت كثيرة ومتنوعة ومتباينة ولم تكن جميعها

في درجة واحدة من الجودة والاعتقان فكان لزاما على جامعي الأدب أن يتخيروا ما يرونه
ذات سمات خاصة تجعله لأن يكون مادة للدرس الأدبي بين الأجيال التالية ..

وذكر ما يرى من البيئة الثقافية للبصرة على أن العصر المروى والحدود كسان
كثيرا كثره بفرقة وكان ناشئة البصرة بأشدون أنفسهم بتحصيل واستظهار أكبر قدر من
هذه الاعمار والأراجيز وكانوا يتبارون في ذلك ويمدونه بشهرة وعلامة على التمسك
والثقل .. والأشلة على هذه الظاهرة كثيرة ومتنوعة فبما ذكرنا نواس يحفظ قصرات
القائد وشات الأراجيز والمقطعات في أندية البصرة وتلقيا من مجالسها العلمية ...
والأعمى يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ... الح .. كل ذلك يدلنا على كبر
العصر النعمري الذي رواء أود منه علماء البصرة في فترة وجيزة .. هذا بالاضافة
الى أن البيئة البصرية شهدت حركة أدبية على نسط خاص في بيئة العهد تلك
البيئة التي كانت محورا لفن مصري يمثل ركنا مهما في التراث الأدبي عند المصري
وهو فن النقائض ..

هذا المدد الهائل من القصائد والأراجيز والمقطوعات النعمرية الذي كسان
دائما في بيئة البصرة منذ وقت مبكر .. لم يصل اليها بالتاء والكمال وإنما السدى
وصلنا منه مختارات منه ربما تكون أقله في حين غاب أكثره لأسباب مختلفة
ودافسج متعددة ..

ونستطيع أن نغير الى مسلكين في الدراسة الأدبية بهذا موضع في تلك المرحلة
الأولى من مراحل البحث الأدبي عند العرب .. وهما :

أولا : اختيار مجموعات من القصائد النعمرية القديمة تتأثر بالجودة والجزالة وتمتد أعظم
ما قيل في أبوابها كالمدائح الرائعة والمراثي المؤثرة والوصف الدليبي الاصيل
والفزل الرقيق والفخر المجلجل والحاسة المتقدمة .. وقد روى في هذه
المختارات أن تكون مادة للدرس الأدبي ينتهي عليها عمدة الأدب وتتفتح
عليها ملكاتهم الفنية ..

وبما كانت هذه المختارات من السهب في الشكوى للأسلوب التقليدي
للقصيدة النعمرية من ناحيتها الشكلية والموضوعية إذ فرغت هذه النماذج النعمرية
بما تميزت به من روعة وخشاعة .. على الجميع احترامها وتقديرها حتى أصبحت

أشلة عليها في أهرامها فتطرح الجميع إلى محاكاتها والنسخ على مثالها
وقد برز من هذه الاختيارات الشعرية التفضيلات للضيق والاصمات للأصمى
وعما من أوليات المصنفات الشعرية التي اختيرت من الشعر العربي ثم سار
الملاء والتأديون في هذا الطريق فظهرت مختارات شعرية أخرى مثل جمهرة
أعوار العرب وجماعة أبي تمام واستثنى وابن السجري وغيرهم * * وينتقد
في الفصل التالي عن المختارات الشعرية بتوسيع أكثر عندما تعرض للدواوين
الشعرية وتنوعها * *

ثانيا : أما السلك الآخر في الدراسة الأدبية فقد مثل في تحليل النصوص ودراساتها
بطريقة استطرادية تشاؤم كى ما يتعلق بالنس من لغة أو تصرف وما يذكر به من بهان
أو غريب ما ينسب إليه من قصة أو خبر أو تاريخ * * محمد الجرد المصري رائد هذه
الطريقة في البحث الأدبي عند العرب * كتابه الكامل شال مواد قويت لهذا
المسعى الذى ساد البحث الادبي عند العرب لعدة قرون * *

ويستند منهج الجرد في البحث الأدبي على تحليل النصوص الأدبية
من الناحية اللغوية وتفسير ما يكون فيها من الغريب وقد يعرض بالتفصيل لبحوث
نحوية وصرفية سالصة * * غير أنه ربما عرض في أثناء ذلك كله لبحث جوائسب
فيه تمتد في عصرنا هذا من جميع البحث الأدبي * *

ونحن نود هنا مثالا من الكمال للجرد لنقف على أسلوبه في البحث
ومنهجه الاستطرادى في دراسة النصوص قال :

* * * وكان عسرة بن أبى ربيعة ونظرا إلى أن عسرة بن مروان بن الحكم
وكانت عارت إليه بتشكيرة لراته وقضت من حادثته نظرا ثم انصرفت
للمسا رجعت من "منى" عرتها فعملت ذلك فبعثت إليه لاترفع هى عسرة
وأهدت له ألف دينار فاشترى بها عارا هزا وأهداه لها فأبت أن تقبله
فقال إذا والله أنهم فيكون أذبح لم غفلته وفى ذلك يقول :

وكم من قتيلى لا يبا * * * ومن فلق رهنا إذا غصمه * * *
وكم حالى عيني من شى * * * غيبه * * *
يجرون أذيال العروط بأسمى * * * خدال إذا ولين أعجازهم * * * روى
أو انس يلبين العليل * * * فدا * * *
فلم أركا لتجهر منظرنا * * * ولا كليا إلى الحبح * * * أثنى ذا * * *

قولهم : " وكم من قتيلى لايها " به د " يقول : لا يقاد به قاتله وأعل هذا
أنه يقاب أهلك غلانا بفلان ضاء به اذا قتلته به ولا يكاد يستعمل هذا الا والثاني
كها الأول فمن ذلك قول سهل بن زبيدة حيث قتل بغير من الحرث من عباد فقيل للحرث
ولم يكن دخل في حربهم ان ايضاً قتل فقال : ان ابني لأعظم قتيل بركة اذا أطلع
الله به بين ابني وائل فقيل له انه لما قتل قال سهل هو بوسع نعل كليب
فمنذ ذلك أدخل الحرث يد في الحرب وكان :

قرباً موطئ النمامية متى

.....

.....

وقالت ليلي الاخيلية :

فان تكن القلبي هواً فانكسر

وقال عمرو بن حبيب التذلي :

ألا تنهين عما طوك وتتقسي

وقال به فلان بذنبه أي بخج به وأقر قال الفرزدق لعمارة :

فلو كان هذا الحكم في غير طلكم

وقال به فلان بالسن من قول أو نعمل أي احتله فصار عليه وقال المفسرون في قول
الله جل و علا : " اني أريد أن تبوء بائسي وأثمي " أي يجتمعا عليك فتحتلها وأبديا
قوله ومن : " علق رهن " فمن جرفهم من قولهم رهن فليق فلما قد التمت انظر إلى هذا
من المنسوت ولوقان ومن علق رهنا فنسب على الحان من المعرفة بقى الاسم المنصرف في علق
وقوله " اذا غصمتي " ثانياً سميت مني لما يعنى فيها من الد ولمنى موضع
آخر يقال مني الله لك الخير أي قدر لك خيراً وقال مني الله أن ألقى فلانا أي قسده
والمنية من ذا يقال لقي فلان منيته أي باقده له من الموت " (١)

وهكذا يعضى السجدة على هذا النحو من التحليل اللغوي السهوب ويلاحظ أنه
أورد في أول هذا الشأن الذي نقلناه عنه - أورد حديثه عن الجوال العام للنص ثم أورد
يشرح به نرجحاً لغوياً مستقيماً يتبين فيه الألفة وضوحاً واضحاً منها اشتقاقها ودلالاتها
والمواضع التي تستعمل فيها مستنداً بالشعر والخبر والقرآن وأقوال النحاة

وقد يذكر قصة تتعلق بلفظة من اللفاظ كالذي أشار اليه من حكاية
موسى بن ربيعة وقته لجبر بن الحرث . . الخ . .

وقد اكتفينا بجانب يسير من تطبيق المبرد على الابهات التي اسلفنا
والتي أفادها هو في شرحها واستطرد كما دلت في دراسة النصوص التي يوردها في
كتابه " الكاس " . .

وقد بقي هذا الشئ الذي أرمناه المبرد في البحث الأدبي - سائدا حتى بداية
المصر الحديث عندما تعددت دراسة الأدب وتخصصت عن ذي قبل وأصبحت تدور حول عنصر
الأدب هيئته والمجرات المختلفة التي أثرت فيه سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو فكرية
والخصائص التي برزت في كل مرحلة من المراحل والاجناس الأدبية التي ازدهرت وأصبحت
ذلك كله ودوائمه . .

ولم يمس المبرد ونموه هذا الشئ التفسيري في البحث الأدبي ويخلى لـ
ويلتزم به - لعله كان صادرا عن أهميته الخاصة ووظيفته كأستاذ للأدب واللغة ومعلم من كبار
معلمي هذا العصر . .

ولعله في أن منهج المبرد هذا كان هو الصورة المائعة في دراسة الأدب المصري
في عصره والتي ذاعت في مساجد البصرة ومكاتبها ومجالسها الأدبية . .

والذي يلحق الذكر هنا هو أن المبرد كان أستاذا ومعلما في كل ما أورده - فليس
الكاس - من شئ وتعليقات حتى ليكاد القارئ يجد في تفسيراته إجابة على كل التساؤلات
التي ترد على ذهنه وهو يطالع النص المشرح لأول مرة فيجد حينها بعض مع مطالعة التفسير
والتفسير بياننا لكل مشكل وتحليلا مفصلا لكل احتمال غريب أو استعارة خفية . .

ولعلنا - بعد كل ما تقدم - نكون قد أعطينا فكرة عامة وسريعة لإعداد النشيط
الثقافي في بيئة البصرة وألحنا إلى النهضة الفكرية بها وحددنا خيالي المقتضية البصرية
وأمرنا إلى الأمر الذي ترتب على التقاط الملقى في شتى فروع الثقافة . .

كما أنه سيكون في مقدورنا أن نجعل من هذه النتائج التي انتهينا إليها قدسيات
ودعائم نمرض على أساسها ظواهر فكرية وحياتية جديدة أسهمت بها بيئة البصرة
في النهضة العلمية العربية الرائدة . . .

((الفصل الثاني))

الاهتمام بالشعر وتراثه

لا جدال في أنه لم يحظ أثر من آثار العرب بملاحظة الباحثين بالشعرى من
اهتمام وثابة .. ولما كنا نحاول أن نحصى تراث العرب الأقدمين في العصور
والفنون نجدنا أن الشعر يأتى في الذروة وتصدر القائمة على أساس أنه الفن
الذى أتقنه العرب والسيد الذى حفظ للأجيال مآثرهم وعقائدهم وفكرهم وشاعرهم
وطبقتهم ومعارفهم ومزاجهم ومواقفهم ..

وإذا كنا نذكر الفرع من أهرامهم ومعابدهم واليونان بفلسفتهم وفكرهم فمن
لا نجد للعرب الأقدمين أعظم ولا أسس من فنهم الشعرى إذا ما ذكرت المآثر
وأصيبت المناقب ..

واعتقد أن طبيعة الجزيرة العربية ومزاج أهلها وتكوينهم الفكرى ونظامهم
الاجتماعى - كانت سببا في التشكك للفن الشعرى بينهم .. ذلك لأن الحياة السقى
عاشها العرب في البداوة والتي تميزت بالسذاجة والسهولة والبعد عن التعميد والتحليل
من القيود - هذه الحياة الرادعة القطرية أثرت في شخصية العرب فطبعته على
المراحة والضحك .. فكل من في حياته واضح كمنحة السماء الباقية .. ذاتهم
بكل مكوناتها ومكوناتها واضحة أيضا في هذا الفن الجميل الذى نغم به وفنى علمى
إيقاعه أعذب الألحان ... رسم لنا فيه صورة شاملة لحياة بكل أبعادها
فى الشعر وقتنا العرب على أفراحهم وأتراحه .. رحلاتهم وغامراته .. فرسه وناقته
سيفه ونباله .. عرقه وحنيه وحبونه ..

ولأسرا في أن أهم عقبات الأصالة في الفن الشعرى تتمثل في أن يكون
الشاعر صادقا في شعوره أولا ثم أن يكون قادرا على الصياغة الفنية الجميلة ثانيا
وقد أتى للعرب بحكم النشأة والبيئة أن يكون عادلا في شعوره كما أتى له بحكم
الظطرة البهائية أن يكون أصيلا في شعوره وتصويره ..

ذلك في اعتقادى أهم عقبات الخلود للفن الشعرى وذلك هو السبب فى
تعلق العرب بالشعر واعتدادهم به واعتزازهم بالشاعر وفخارهم به يقول .. فقد كان

الشعر منهم في محالهم ومنتدياتهم قريبا منهم في حلهم وشرحالهم سلاحا في مشاركتهم
وخمولاتهم وسبلا أيضا لدواعيهم واحساساتهم ..

ولم يكن أبرز مظاهر الحفاوة بالثمن المصري عند العرب الأولين تلك المنتديات
الشعرية التي كانوا يعقدونها في أسواقهم السنوية فهي دليل على أن العرب كانوا
مؤمنين بالثمن المصري الذي لا فتن لهم سواء ..

ولنا أن نقرر أن انتشار الشعر في الأسواق لم يكن يقصد به الاستجداء أو
الكسب البادي بل كان تعبيرا عن نزعة فنية خلابة وتلبية لدواعي صنيعة .. ولنفسنا
أن نقرر - أيضا - أن أسواق العرب القديمة مثل عكاظ والمجنة وذى الجار وغيرهما -
لم يكن الهدف منها تبادل السلع والبيع والشراء فحسب كما هو حال الأسواق فسي
عسرا - وإنما كانت بمثابة مهرجان أو حفل سنوي تتوافد عليه القبائل من مختلف الأصقاع
وهي في طريقها إلى مكة لأداء الحج وتقديم القرابين - يحرضون فيه كل طريفة
ويظهرون كل جديد وتبارون في التمهير عن التأثير التي يحترقها السادة ويهروا اليه
نفسهم وتظلمون إلى أن يذكروا بها بين الناس .. يقول الراجز :

" وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على
الشعر الموزون والكلام العتيق وكان ذلك عود ديوانها وعلى أن الشعر يفيد فهمها
البيان على الشاعر الرقيق والمدح وفنيلة المأثرة على السيد العرفوب اليه والسديج به (١)

كانت هذه أهداف الشعرية إذا بصرفها لاظهار كل مبتكر ورائد في الفنون
المصرية وإذا كانت هذه المحافل الشعرية في عزمها قبل الاسلام - قد أضافت الشعر
المعرب غارفت به وبذوقه من ناحية وجملت به أداة للوحدة اللغوية بين القبائل
المختلفة من ناحية أخرى - فإن هذه المحافل أسهمت في القرون الاخيرة الأولى
مصدرا للتراث الأدبي واللغوي عند العرب بالانتماء إلى وظائفها التي كانت لها
في الماضي ..

وإذا كان حديثنا في هذا الفصل عن " الاعتناء بالشعر وتنوع الدراسات
حولها " فليبيننا أن نحدد المسائل التي سنمضي لها وهي تنقسم إلى علقين :

أولا : الاعتناء بالشعر وظاهر ذلك في بيئة البصرة ..

ثانياً : تنوع الدراسات المصرية وتنوع في أنواعها : رأينا أن الدراسات المصرية يمكن أن تكون منحصرة في نطاقها على :

- أ - جمع الشعر وقد ونسبه .
- ب - الدراسات المتعلقة بالشعر والشعراء .
- ج - الدراسات المتعلقة بالرواية وتحقيق التراث .

أما عن الاهتمام بالشعر في بيئة المصرية فإن نجد أمداً في الدلالة عليه من هذه الرواية التي يوردها صاحب الأغاني يقول :

... حدثنا الرياشي عن الأعمش قال : تقدم رجل من أهل البصرة من بني دارم إلى سوار بن عبد الله ليقيم عنده شهادة فزادته يثقل قول الأستاذ ابن عسفر :

ولقد طلت لو أن علي تافمسي	أن المهيل سيل ذي الأعفسود
ان السهبة والحتيف كلاهما	يولي الخمار يرميان سوسود
ماذا أومل بعد أن محسوق	تركوا منازلهم بعد السواد
أهل الخسوف والسديرو سارق	والشعر ذي الشرفات من السواد
نزلوا بأنقرة يقيش عليهم	ماء الفرات يقيش من السواد
جرت الرياح على محل ديارهم	فكاشهم كانوا على السواد

ثم أقبل على الدارس فقال له : أتروي هذا الشعر ؟ قال : لا ... قال : أنتروي من قبله ؟ قال : لا ... قال : رجل من قبلك لم يذم الشهادة وقد قال مثل هذه الحكمة لا تروها ولا تصرة : ... يا مزاحم " أثبت شهادته عندك فاني خفست عن قبله حتى أسأله ناني أظنه غمها ... " (١)

فقد بلغ الاهتمام بالشعر وروايته هذا الحد الذي يجعل من الجاهل بالشعر شخصاً غير مكتمل المدالة والأمانة وكأن الدراية بالشعر شيء أساسي وأمر مهم فيس الحكم على الرجال ومعرفة أقدارهم ...

ولما أن نقرر أن بيئة المهد - وهو ناحية البصرة سابقاً البادية - وما حطت به من مقتنيات شعرية وجالسي أدبية من أبرز مظاهر اهتمام المصريين بالشعر

ولعلنا ونحن نذكر الانقسام بالشعر - نريد أن نبدأ أنسب موضع للحديث عن المريد
ذلك الحقل المهم في تاريخ العلوم والصناعات المصرية والذي اضطلع به بعض
خالدسة في تحقيق ثرائه المريب والانتقال به من دور التلقين والتلقي الى طور
الجمع والتدوين ...

المريد :

قال ياقوت في معجم البلدان :

"... قال الأعمى : المريد كل من حبت فيه الابل ولهذا قيل مريد النمل
بالدينونة وهو من مريد البصرة وإنما كان موضع سوق الابل وكذلك كل ما كان مسمى
غير هذا الموضع أيضا اذا حبت فيه الابل ... ومريد البصرة من أشهر محالها
وكان يكون سوق الابل فيه قديما ثم صار حلة عظيمة سكناها الناس وهو كان
مخازن البصرة ومجالس الخطباء وهو الآن بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة
أميال (1) "

كان المريد صاحبة البصرة صايل الهاديمة وكان يفطخ بها مياها سياحية
واقتصادية وثقافية جليلة ... فهو مجاز القادمين من البصرة والراجلين عندها
يتزلون فيه لقضاء حوائجهم والتزود بما يريدون ...

شهد أعتق الصراعات السياسية في القرن الأول حيث كان ميدانا لحرب الجبل
الخشنة التي كانت بداية مرحلة من المدام الداس بين المسلمين (2)
وكان ميدانا للثورة على الظلم والقسوة في وجه ولاية بني أمية على العراق (3) والصراعات
القبلية بين المريب بتأثير الانقسام السياسي ...

وهنأني بحثنا أن نشير الى أهمية المريد الثقافية وتأثيره في الفن المصري
بصفة خاصة يمكننا أن نخلص هذه الأهمية في السطور التالية :

(1) معجم البلدان مادة (مريد) ...

(2) خبر مقبرة الجبل المذكور بالتفصيل في مراجع كثيرة ومن صاحب العقد الفريد على أنها
كانت بالمريد جا ٢١٠٠ وكذا في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨ (طبعة الانتفاضة

١٩١٩) ...

(3) الكامل للمريد ج ١ ص ٨١ ...

شهد العريد في النصف الأخير من القرن الأول الهجري تحريقة شمسية لم تشهد لها
محافل الحضارة قصة ... إذ من المصهور أن الأميين بعد أن أمسكوا زمام الأمر
حرصوا على غفل عامة الشعب عن التفكير في مسألة الخلافة بوسائل مختلفة وأساليب
متعددة كان منها أذكاء نيران الصبغة القبلية التي كانت يراكمها قد خمدت في عصر
النهضة والغلبة العديدة ... وكان العريد أحد خيرات الصبغة وطبقاتها فشبها
الأميون العسراء وأطلقوا لهم العنان للتأخر بأثر الجاهليين ورفائهم وأيامهم
وبز لكن صبغة عامر - أو أكثر - يدافع عنها ويعدد مآثرها ويذكر شائب قبيلة الناعمر
الصارى وتناوله وجماعته بأخص الصفات ويرميها بأحد الصواب ... هذا بالإضافة إلى
التحريض المتعمد والوقيدة بين كبار العسراء ... كل ذلك كون حركة شمسية صاعدة
انتجت لنا تراثا شمريا هائلا في فني الهجاء والفخر عرف باسم " النقائض " بين
عائلة العريد في العصر الأموي جرير والفردق والأخطل والرأعي وغيرهم ...

وقد اتخذت هذه الحركة " من " العريد " وسيلة لاذاعة أشعارها ونشروها بين
الناس على أوسع نطاق ... روى ابن سلام في طبقاته قال :

" قال سلمة بن محارب كان الفردق في عهد أبي في مشربة لم يدخل رجل فقال :
وردت أسير " العريد " قصيدة لجرير تناهها الناس فانتقم لكون الفردق قال ليس عليك
يا أبا فراس قال : ففيم ... قال : في ابن لجأ النخعي ... قال أحفظت منها شيئا ؟ قال :
نعم علق منها بيتين ... قال : عابا ؟ قال :

لئن عوت تيم زمانا بهـ	لقد حدثت تيم حداً بهـ
لأخف من اللبس عكلا بهـ	وعكل يضمن القويح البنيـ

قال الفردق : ناعه الله ؟ إذا أخذ هذا المأخذ لا يبق له (١)

في غير ملول عن سبب الهجاء بين جرير والرأعي نجد نصا على أن شعراء النقائض
كانوا حرصين على الذهاب إلى العريد وكان الناعمر منهم يجهد نفسه ويحمل قريحته
فإذا تلاوه القريش ولانت له القوافي خرج لتوه إلى العريد ليذبح ما أكله من الشعر
في محافلهم ...

يقول ابن سلام " ... كان الذي حال الهجاء بين جرير والرأعي ... أن الرأعي
كان يسان عن جرير والفردق فيقول : الفردق أكرمها وأعصرهما فلقبه جرير فاستمعاده

من نفسه وطلب اليه ألا يدخل بينهما ... ثم بلغ جريرا أنه عاد في تفضيل الفرزدق
فلقبه بالبصرة ... فعاتبه ... قال والرأي يحذر اليه وأتبع ابنه جند - وكان نيسه
خطن وعجب فقال لأبيه اني لأراك تعذر الى ابن الأتان - نعم والله لنقتلن عليك
ولغيرين شيئا من تلحقنا أنفسنا ... قال :

الم تر أن كلب بنى كليب
أراد حياض دجلة ثم عابها

فأنصرف رير محذرا منضبط ... وكان جرير جرى نداء بينهما بالبصرة نارا
على امرأة من كلب فبات في عليه لها ومن في من دارها فقالت المراتبات ليلته
لا يثا يتردد في البيت حتى ثلث أنه قد عرس له جنى أو سنج له هلا حتى فتح له :
أعلى اللوم عادل والمتاب ... وقول ان أصبت لقد أصابها

حتى قال :

إذا قضيت عليها بترتيب
حسبت النام كلهم غداها

ثم أصبح نغدا الى المرید فقال : يا بني نيم قيد وا قيد وا أي اكبر فلم يجبه
الرأي ولم يجبه جرير بقهرها ... (١)

وما لاشاء فيه أن هذه الحركة الشعرية كانت في جملتها صورة للمصراع السياسي
والاجتماعي بين المصراع المهيبة في تلك المرحلة المضطربة من تاريخ الاسلام السياسي ...
ولم يزل المرید لم يستقر هذا في الاعتدال بهذه السهبة السياسية مؤا في مسورة
فن النقائس الذي ذاع وانتشر من رجاها في سيرة الخثاني والندوات السياسية التي كان
السيد ميدانها ... بعد أن المرید ظل لمرحلة طويلة منذ بداية الدولة المباسنية
مصدرا لتطور من تراث الحرب العربي واللغوي والتاريخي ...

وانطلق المرید بهمة خالصة بعد أن أصبح المجتمع الجديد مستقرا الى حين
كبير بعد أن خلت عتات العميلة البغينة وضدت نيرانها ... فقد كان للشهيد
الثقافي الذي ازدهر في بداية المصراع السياسي تأثير كبير على المرید أحدث به
تحولا فاصبح يقر بهمة جديدة تتلاءم مع المرحلة التي يعيشها الجيل الجديد
ذلك الجيل الذي ضم أعدادا كبيرة من أجناس غير عربية شاركت طائفة منهم في الحياة
الكريمة العربية ولم يكن لهم سابق معرفة بحياة الاعراب أو عاداتهم أو لهجاتهم
أو لغتهم ومعارفهم ... ولم يكن لهم أن يتحدثوا في ذلك على الحواضر الجديدة

فهي لا تشي حياة العرب الأولين بكل ما فيها فكان العرب بالنسبة لمهولا - وغيرهم - من العرب الذين نشأوا في الحواضر - بمثابة " بيئة ميدانية " اذا سمع هذا التفسير يحايض الفلاح فيها العرب الفلاحين ومنهم من تعرضون على لهجاتهم وشائجهم في الاداء الشعبي وهذا هو في القوم . . وقد تخن في هذه البيئة كثير من شائج البصرة - تخن فيها بهار وأهونواس والجاحظ وأبو عبيدة والبرد وغيرهم من كان لهم أكبر الأثر في الحركة الثقافية البصرية في بيئة البصرة . .

وفيهم من كان لهم شأن الجاحظ أن تناهوا طائفة من رواة الشعر كانت تغرد على العرب تأخذ منه مادتها البصرية وتمتد عليه في جميع الشعر حتى غلبت عليهم النسبة إلى العرب كما ساء الجاحظ " المديين " (١)

ويمكن أن تلحق المهمل التي اضطلع بها محض العرب والمراحل التي سر بها منذ ظهورها فيما يلي :

المرحلة الأولى :

بدأت في عصر صدر الاسلام وكان العرب فيها سرحا للهل فحسب كسبا أنار إلى ذلك ياقوت في الشعر الذي ثقلناه عنه في بداية حديثنا عن العرب . .

المرحلة الثانية :

منذ منتصف القرن الأول ثورها وحتى نهاية العصر الأموي وكانت السياسة أغلبية من غيرها حتى يمكن أن نعد الشعر الذي راج في روجه في تلك المرحلة لونا من النشاط السياسي الذي كان الشعر قالبا له . .

المرحلة الثالثة :

منذ بداية العصر عباسي وحتى اختفاء النشاط الثقافي في العرب فسي القرن الثالث بعد أن فقدت مدينة البصرة زعامتها الفكرية واتقلت الزعامة إلى بغداد وبعد أن دشت العلوم وجمع التراث - وكان نشاط العرب في هذه المرحلة يتش في أخذ اللغة والشعر عن العرب الذين كانوا يتراقدون عليه - وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أسماء جماعة من رواة الشعر واللغة كانوا يقدون على البصرة وكان رواة الشعر واللغة أمثال الاعشى وأبي عبيدة يروون عنهم

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٤ ط ٢ (السند ص)

ومنها " أبو البهاء الرياحي " (١) و" أبو سواد اللخوي " (٢) و" شهاب بن يونس " (٣) و
 و" أبو سعيد الأعرابي " (٤) و" البهلولي " (٥) و" ربيعة البصري " (٦)

وكان واد السرد في هذه المرحلة ذوى آرب شتى منها اللخويون الذين يقصدون
 الى جمع اللثة وصرفه فربها وبكفها ومنها الرواة الذين يجمعون المسترك
 اللخوي ومنها النصاراء والمتأدبون الذين يجمعون الأعراب ويقرنون على فنون
 القريش ومنها النسابون والمؤرخون الذين يدونون أخبار العرب وأنسابهم
 وقائدهم ..

ذلك هو وصف السرد ذلك هو السهام التي انطلق بها في حياة العرب السياسية
 والثقافية ولا يغوتنا أن نسير الى أن السرد كان الى جانب تلك السهام التي ذكرناها
 يمد سترها للبصريين يقضون فيه أوقات فراغهم ويهيمون اليه من مديتهم ذات البصرة
 الخاضعة والمنتاح المهيمة (٧) وكان السرد يضي قدورا فخمة وشرفات جيلة ..

" كان جعفر بن سليمان الهاملي : العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق
 والسرد عين البصرة ودارى عين السرد " (٨)

وهي القاعة البصرية لهدى الزمان الهفاني ما يدل على أن مشروعات السرد كانت
 تحتم ما يشي من خيالات الأدباء عن هذه الداحية المهمة من غواحي البصرة بلقون البديع :

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | الفهرست ص ٦٦ (ط المكنة التجارية) .. |
| (٢) | الفهرست ص ٦٧ .. |
| (٣) | الفهرست ص ٦٧ .. |
| (٤) | المرجع السابق ص ٦٦ .. |
| (٥) | المرجع ص ٧٠ .. |
| (٦) | المرجع ص ٧٠ .. |
| (٧) | ذكرنا في معجم البلدان في باب ما جاء في ذم البصرة أنها كانت غنية فخر طيبة
الهواء وأورد أشعارا لبعض النصاراء في ذمها - معجم البلدان مادة (بصر) وكذلك
نص على هذا المعنى القديس في أحسن التقاسيم ص ١١٨ (ط هريز بلدين ١٩٠٩) |
| (٨) | المقد الفريد ج ٦ ص ٢٤٩ .. |

"..... حدثنا عيسى بن شعاع قال : دخلت البصرة وأنا من سبي في قسامة
من البري في بصرى وروى من القتي بقرىشا فأتيت المريد مع رفقة تأخذهم الميسمون
ودخلنا غير بعيد في بعض تلك المستقرات وسبنا في تلك المستقرات" (١)

في شرح المملكات لابن الأنباري رواية عن الغزدي يقول فيها :
"أما هذا مطر جيد فلما أصبحت .. وكنت بخلة لي وخرجت نحو المريد فبأذا
بأثار دواب قد خرجت نحو البرية فظننت أنها خرجتوا يختزنون وفي خلقة أن تكون
مهمرة صفرة ورواب فأتيت آثارهم الخ" (٢)

وفي الرحلة فقد بقي المريد ملقى لعدد من البراري فيه أنفاس شبيهة
وكان يستهوي نفسه وجذبهم إليه بما فيه من لوائح جمعة ونافع عذبة فهو سوق لمن
أراد البيع والشراء ودراسة لمن وفي في العلم والمعرفة وتنزه لمن أراد الاستراواح
والاستجماع ..

جميع الشعر قد وند :

إذا كنا قد أمنا في ما سبق إلى أهمية الشعر بالنسبة للمرب ولأدبه وسببه
واجتماعه حوله في أدبيته ومعالجته - فإن تدوين الشعر وجمعه لم يكن معهودا من
قبل ولم يعرف عن المرب أنهم دونوا أي أعمار - قبل تدوين الشعر في المصنف
المباني - إلا ما يرى من جمعهم للمملكات التي لم تلق الروايات على عدد لها والمستى
فمن أنها كتبت وولفت في أثار الكعبة (٣) - ولا ما يرويه صاحب الأغانى حيث يتناول
في غير طهر :

"نهى عمر بن الخطاب الناس أن يشاءوا شيئا من مناقضة الأعمار وشركي غرض
قال : في ذلك عثر الحق بالبيت وحديد الضائق وقد هد الله أمر الجاهلية بها
جاء من الإسلام ، فقد هد الله بن الزمري السهمي وضرار بن الخطاب القوسري
في المحاربي فنزلا على أبي أحمد بن جحش وقال له : نحب أن نرسل إلى حسان حسنتي

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١١٦

(٢) شرح ابن الأنباري ص ١١٤ ج ١ جريدة أعمار المرب ص ٩٠ ..

(٣) ذكر صاحب المقد الفريد (ج ٢ ص ٢٩٦) أن المرب كتبت المملكات بها الذئب وولفتها
بين أثار الكعبة ، وفي مجمع الأدباء ج ١ ص ٢٦٥ ما يلي : "وذكر أبو جعفر النحاس أن
خلدا بن الذي جمع السبع الطوائف لم يثبت ما ذكره النحاس من أنها كانت معلقة على
أثار الكعبة .."

بأثباته فتشددت وينشدنا ما قلنا له وكان لنا : فأرسل إليه فجاءه فقال له : يا أبا الوليد
 هذا ان أشوانك ابن الزبيرى وشرار من الغلاب قد جاءنا أن يسمعاك وتسمعها ما قلنا لك
 قلت لهما .. فقال ابن الزبيرى وشرار نعم يا أبا الوليد ان سمعناك كان يحتفل في الامصار
 ولا يحتفل بمصرنا وقد أحيينا أن نسمعك وتسمعنا فقال حسان أنتبدان أم أبدأ ؟ فقال :
 نبدأ نحن . قال : ابتدئا فأبداه حتى صار كالمرجل غنما ثم استويا على راحلتيهما
 يريدان مكة فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب فقرأ عليه قصتهما وقيته فقال له
 عمر : لن يذهب عثاك بهي . ان شاء الله وأرسل من يريد فجا . . فردنا اليه فدعا لهما
 بحسان وعمر في جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحسان أنتدعها
 سأقلت لهما فأنتدعها حتى فرغ ما قال لهما شوق . فقال عمر : أفرقت ؟ قال نعم
 فقال له : أنتدع في الخلعة وأنتدعها في الملأ وكان (عمر) لمن حزمه
 انى كنت قد نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للثغافين
 عنكم وبث القبيح فيما بينكم فأما اذا أبوا فاكبوه واحتفلوا به فدونا ذلك عندكم
 قال خالد بن محمد : فأدركه والله وان الانصار لتجدد به عندها : اذا خافت هلا .
 فاذا تجاوزنا هاتين الروايتين واشبعهما وجدنا أن تدوين الشعر لم يبدأ بصورة منظمة
 الا في بيئة العراق وعلى الأخص في مدينتي البصرة والكوفة منذ حوالي منتصف القرن الثاني
 قريبا . . يقول ابن سنان :

" وكان أول من جمع أنصار الصرب حماد الراوية . . . (١) فاذا علمنا أن حماد
 حماد كان سنة خمس وتسعين للهجرة ووفاته سنة خمس وخمسين ومائة كما يذكر ابن خلكان (٢)
 لا استطعنا أن نحدد الزمن الذي بدأ فيه جمع الشعر وتدوينه وهو كما قلنا مع بدايسة
 الازدهار الثقافى والعلمى فى الدولة الميمنية . .

والحقيقة أن مسألة تدوين الشعر وتحديد المرحلة التي بدأ فيها التدوين شمسار
 خلاف ولم تنف على كلمة الباحثين المحدثين . . وعلى سبيل المثال نرى أحد الباحثين
 المحدثين وهو الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه " الحياة الأدبية فى البصرة " يذهب
 الى أن تدوين الشعر قد بدأ يقول :

- (١) الاقانى ج ٤ ص ٤٠ . . .
 (٢) طبقات فحول الصرب ص ٤٠ . . .
 (٣) وفيات الاميان ج ١ ص ٤٥١ . . .

" أما تدوين الشعر فهو قديم وبعنا رجع ذلك الى الجاهلية .. ولكن حركة تدوين الشعر في الاسلام تستطوع بسهولة أن تجعلها في الوقت الذي وضع عربون القديس فيه ديوانا لأحباء أسماء القبائل والبنود وكانت الأفعار تسجل في ديوان نسبها وأيامها وأشعارها وقد أحصى الآدي في كتابه " المؤلف والمختلف " ستين ديوانا ونلاحظ أنها كانت في أغلبها ترجع الى رواية الطبقة الأولى في البصرة من أشال أبي عبيدة ممر بن النضر وذلك يكاد يكون من المحقق في الاسلام معرفة تاريخ ممر بن النضر ومعرفة تاريخ لأول ترجمة لكتاب على والتاريخان يأتيان في حيز السنين الستة عشر الأخيرة من القرن الأول " (١)

والذي أميل اليه هو أن تدوين الشعر في زمن عمر لم يكن قصورا به جمعي الشعر وانراده بحضانه تراثا أدبيا تجب المحافظة عليه والمصلحة عمر لا يمد وأن يكسرون استعانة بالشعر لتحديد نسب القبائل والتمييز بينها .. ثم أن المؤلف يذكر أن الآدي أحصى ستين ديوانا ولاحظ أنها في أغلبها ترجع الى رواية الطبقة الأولى في البصرة أشال أبي عبيدة ناذرا كان أبو عبيدة متوفى سنة ٢١٠ (٢) وهو الذي دون هو وطبقته هذه الدواوين لما التفتة بين الفترة التي حدها المؤلف لتدوين الشعر وهي السنين الستة عشر الأخيرة من القرن الأول بهذه الطبقة من الرواة ؟ ثم أن الآدي لم يشر الى ستين ديوانا كما ذكر المؤلف ولكن ما أشار اليه الآدي لا يتجاوز عشرة دواوين نرى على أن أصحابها لكسب منهم ديوان غزوة منهم أمسي ربيعة (٣) وأعشى هذان (٤) والأعشى الثقفي (٥) والأعشى البربري (٦) والفتان الكلابي (٧) والقلاج بن حزن (٨) والكهت بن الأخنس (٩)

ومن الباحثين المحدثين من أنكر رواية الشعر مشافهة على الألفاظ وذهب الى أن الشعر العربي مدون منذ الجاهلية وهو الأستاذ نجيب مد البهيتي يقول في كتابه " تاريخ الشعر العربي " ما يعضده : " ان رواية الشعر فسن المراق جاءت عن أصول

(١) الحياة الادبية في البصرة ص ١٦١ باختصار ..

(٢) الفهرست ص ٧٩ ..

(٣) المؤلف والمختلف ص ١٠ (ط النشرة ١٩٦١ بتحقيق عبد الستار احمد قراي) ..

(٤) المروج السامي ص ١٣ ..

(٥) المروج ص ٢٠ ..

(٦) المروج ص ٢٧ ..

(٧) المروج ص ٢٥٩ ..

(٨) المروج ص ٢٥٣ (٩) المروج ص ٢٥٧

مكتوبة وأن المراك في الذين انتهى على أن رواية المراك الجاهلي في العراق كانت شفوية لا يعتمد على أساسين ولا يقوى للتحقيق الملقى ٠٠ ويحتد المؤلف على ذلك ببيان الرواية لو كانت شفوية لاستوت في ذلك خطوط الاقطار الاسلامية جيبا ولم يكن نصيب العراق اكبر من نصيب الخيبر أو الشام أو مصر ٠٠

ويذكر المؤلف أمة السرب ويذكر أنهم مرشوا الكتابة ونقل آراء المستشرقين تلمذ ذلك حتى بالخبر الذي أورده صاحب المقد القديم من أن السلفات كتبت وطلعت بأقطار الكوفة ٠٠ وينتهي الى أن الأمة في السرب أسطورة والرواية الشفوية متفسدة أسطورة ويروي عن صاحب الطبقات - ابن سناء - رواية تذكر أن النعمان بن النضر كسان عنده ديوان فيه أعمار الفحول واحد به هو وأهل بيته نصار ذلك الى بني مروان ٠ ويحتج بما روي من أن المختار بن عبيد في أثناء حروبه بالعراق عثر على أعمار مدونة فبسي القصر الأبيض بالكوفة ٠٠ ويرى أن الكوفة لما قامت على أنقاض الحيرة فقد ورثتها ووقع لها من العمر أكثر مما وقع لغيرها من مدن العراق كالحيرة مناسبتها ٠٠ (١)

هذه خلاصة رأي البهيتي وهو رأي متطرف يعتمد على وقائع غامضة وروايات جزئية يجعل منها المؤلف قاعدة كلية ويطبقها على جميع ما يروي من العمر وهذا بالاعتماد على عقم الجانب النظري من استدلاله ٠٠ إذ يحتج بكثرة التدوين فس العراق وثقته أو ربما اعتمادا في الأعمار الأخرى على أن العمر القديم كان مدونا وسويذا في بيثة العراق - فباب عنه أن بيثة العراق حلت عباء الحفاظ على السريية وتدوين علومها في اللغة والقواعد والأعمار لحاجة أهلها الى ذلك ولأنها كانت قيمة على التراث السري عكفت على عيائنه في زمن بني أمية حين أهدت عن المشاركة في الحياة السياسية ٠ ولدت التاجين في زمن بني العباس حين أصبحت مولانا للسلطان ٠٠ أما ما يذكره المؤلف من روايات عن معرفة العرب للكتابة وتدوينهم للعمر فممن لا شك في ذلك ولا ندفعه ولكن لا سلم بأن العمر القديم كله كان مدونا ومجموعا والذي نراه أن ما دون من العمر قبل العصر العباسي كان أقل الظن وأن التدوين المنظم لم يبدأ الا في العصر العباسي في القرن الثاني الهجري ثم بلغ التدوين مداه في القرن الثالث الذي هو موضع بحثنا ٠٠ حيث وجد جماعة من رواة العمر في بيثي البصرة والكوفة أمثال الاصمعي وأبي زيد وابن الأعرابي والمفضل الخبي وأبي حاتم وأبي حميد السكري وغيرهم ٠٠ فهذه هي رواة العمر مدونه الذين جمعوا دواوين الشعراء وأعمار القبائل ورثوها ورووها ٠٠

وقد أورد يا قسوت في مصنف الأدباء في ترجمته لأبي سعيد الحسن بن الحسن
 السكري المذهب المعتزلي سنة خمس ومئتين ومائتين (١) - قائمة بأسماء الأصمعيين
 والقبائل التي جمع أشعارها يقول :

" ومن أشعار جماعة من الأصمعيين منهم : أبو القيس ، النابغة الذبياني
 والنابغة الجهمدي ، زهير ، الحارثية ، لبيد ، حمير بن مقبل ، دريد بن الصمة ، الأعشى
 صهلون ، مقيم بن نيرة ، أعلسى ، النضر بن قيس ، النضر بن أبي حازم ، النضر بن
 الراعي ، النضر بن الكيت ، ذو الرمة ، الشمر بن ذر ، بشر بن أبي حازم ، النضر بن
 وكل ، علي بن أبي حمزة ، في نحو ألف مرقعة . . . وأما أشعار القبائل لانه عمل فيهم
 أشعار بني هذيل ، أشعار بني شيخان ، بني ربيعة ، أشعار بني يربوع ، أشعار بني طي
 ، أشعار بني كنانة ، أشعار بني ضبة ، أشعار بجيلة ، أشعار بني الصبيح ، أشعار بني
 يشكر ، أشعار بني حنيفة ، أشعار بني محارب ، أشعار الازد ، أشعار بني نهشل ، أشعار
 بني أشجع ، أشعار بني نعيم ، أشعار بني جعد ، أشعار بني معد ، أشعار بني سعد ،
 أشعار بني الحارث ، أشعار الضباب ، أشعار فهد ، ودوان ، أشعار خزاعة " (٢)

فهذا عالم واحد يكاد يكون قد أحاط بقرات العرب الشعرى كله جمعا وشرحها
 وتوضيحها وذلك في بيئة الهجرة ورواية عن علائها . . . ذلك هو ما قصدته قد وندنا
 للأصمعيين وهو تدوين مقصود ، هدفه جمع التراث والمحافظة عليه . . . أما تدوين
 بعض الطوائف للأصمعيين كما يرى عن النضر بن النضر وهو فقد كانت أصلا فردية
 وعلى نطاق محدود ومحدودا - ان صحت - تخليد مآثر المدح والابقاء عليها
 ولعن عدا النبي من القديين والذي تش في جهود أبي سعيد السكري لم يكن هو
 المحاولة الأولى في طريق تدوين الشعر . . . فقد سبقته محاولة أخرى لم تدمع الشعر
 بأسلوب الحصر والاستقصاء بن قسوت جهدها على جمع مختارات منه وعرفت مؤلفات
 العلماء في هذه الناحية بكتب " الاختيارات الشعرية " . . .

ونحن الآن لنورد من كتب الاختيارات الشعرية أحدها مختارات الفضل
 الضبي التي عرفت باسم " الفضليات " ومختارات عبد الملك بن قريظ " الأصمعيين "
 التي عرفت باسم " الأصمعيات " . . .

(١) معجم الأدباء ج ٨ ص ٩٤ وانها الرواء ج ١ ص ٢٦١ خارج ابن كثير ج ١ ص ٥٤ . . .

(٢) معجم الأدباء ج ٨ ص ٩٨ . . .

أساس الفضليات فقد عليها الفضل للمهدي كما يذكر ابن القديم يقول :

وللمهدي على الأشعار المختارة السيادة الفضليات وهي مائة وثمانية ودارون قصيدة
وقد تزيد وقد تنقص وتتقد القوائد وتتأخر بحسب الرواية منه والصحيحة التي رواها
عنه ابن الأعرابي (١)

وتعد الفضليات أو ما وصف اليتا من كتب الاختيارات التسمية وهي مهتة على
أساس اختيار القوائد التي تتميز بالجودة في صياغتها وضمونها وتستطيع أن تقر أن الفضل
جمع في مختاراته عيون الشعر القديم وأما لنا عن ذلك وحسن بصره بالشعر فجاءت
مختاراته أمثلة عليها للشعر القديم تتشبه فيها غمائمها واتجاهاته والأغراض التي قيل فيها
وتعد الفضليات مندرجا فيها لهذا النظم الشعرية التي ما كان لها أن تهبط وتصلح
لولا تدوين الفضل لها .. وقد حظيت الفضليات باعتماد كبير منذ القدم حيث تصدى
لها العلماء بالتبرج والتعليق في القديم وحسن المحدثون على نشرها والتعليق عليها ..

شرحها من القدماء خمسة من الأعلام * هم أبو محمد القاسم بن محمد بن بشير
الأنباري (- ٢٠٥ هـ) وأبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي المصري
المعروف بابن النحاس (- ٢٢٨ هـ) وأبو علي أحمد بن محمد العزقي (- ٢١١ هـ) وأبو بكر
يحيى بن علي بن الخطيب التبريزي (٤١١ - ٥٠٢ هـ) وأبو الفضل أحمد بن محمد بن
أبراهيم السدائي صاحب مجي الأشال (- ٥١٨ هـ) (٢)

واعتمد بها من المحدثين جماعة من العرب والمستشرقين منهم المستشرق توركس
والمستشرق لياي .. وطبعها من العرب عبد الفتاح الندي وحسن السند هي ثم نشرت
بتحقيق وشرح الاستاذين أحمد محمد فاكر وعبد السلام دارون في جزئين وهي أعظم
الطبعات وأسرها ..

والذي يلفت النظر في مختارات الفضل أنها قوائد كاملة ليست بحوة أو قصيرة
وكان الغالب على السجع من الشعر في زمن الفضل قبل زعمه أنه أجزاء من قوائد
أو مقطوعات بعضها ورد في مواضع النحر واللفظ بعضها ذكر في مجالس الأدب والبيان
فكانت مختارات الفضل بداية لاتجاه جديد في جمع الشعر وقد وثقه عدتها بمائة
الترات المعنى وانتقاء أكثره أمثلة وأحفظه بقية الجودة والبراعة ..

(١) الفهرست ج ١٠٨ ومجمع الأدباء ج ١٩ ص ١١٢ ..

(٢) الفضليات ج ١ ص ٢١ ..

وقد كتب الطريقة الفضل في جن البحر وقد وصفه - الانتصار والدين فارغلي
مشوجه جماعة من العلماء وأهل الأدب في القديم والحديث ..

ومعد الأسمى البحرى أول من قلده الفضل وبجاءه في طريقه فجمع مختارات من
البحر القديم وسماها الأسميات .. وهي على نظم الفطليات من حيث التشخيص
القائد والنقطيات وتضمن اثنتي عشرة قصيدة لخواص ومجتمعات شاعرا .. منها تسع
عشرة قصيدة مكررة بينها وبين الفطليات ..

والنارى الوحيد بين " الأسميات " و " الفطليات " أن الأسميات لم يلتزم
فيها بجمعها بإيراد القائد كاملة كما فعل الفضل بل كثيرا ما يورد الأسمى البيت
والثلاثة .. فما عو معدود من مختاراته .. على سبيل المثال - قوس الحارث بن عباد :

" قها منط الثمانية ميني لقت حربا وائل من حبال
لم أكن من جناتها علم اللـ واني بحر بها اليوم مكان
لا جبر أفنى قتيلا ولا رة ط كليب تزار روا عن فسلال (1)

وهي أبيات طويلة مذكورة في مصادر مختلفة أوردتها صاحب أخبار العراقيين
ضمن مائة وثلاثين بيتا .. (2)

ولا شك أن منهى الفضل في اختيار القائد كاملة أقوم من الناحية الفنية وأصبح
من منهى الأسمى .. وبدون عن الفضل على أنه كان ينظر إلى القصيدة على أساس
أنها أثر فني متكامل يحسن تفحصه ككل ليطلع القارى على مبلغ ما فيه من قيمة ويستفيد
به استفادة كاملة ..

وقد بقي منهى الاختيار في البحر ساكنا لوقت طويل حتى العصر الحديث
فقد ظهر بعد الفطليات والأسميات " جمهرة أشعار العرب لأبي محمد بن أبي
الخطاب القرشي ، ومختارات شعراء العرب لأبي السعادات بن الشجرى .. ومن كتب
الاختيار البحرى ضرب آخر بدأه أبو تمام بديوان الحماسة جرى فيه على نهج
سماى الاختيار وهذا جذبه البحرى والخالديان وابن الشجرى وأبو هلال العسكري

(1) الأسميات ص ٢٠ ..

(2) أخبار العراقيين ص ٢٥٤ ..

والأعلم المشتري في حساباتهم وأهم دلائل المسمى في ديوان المعاني وغيرهم
كبير * (١)

وفهم من كلام ابن طباطبغا الحلبي أنه حين كتابها فيه مختارات شعرية
ليتمكن شدة الأدب من الامتنان بها على عقل شاعريتهم وقد ريب ملكاتهم
يكون :

* وقد جمعنا ما أخذناه من أعمار السراء في كتاب سمينا * تهذيب
الطبع * يرتان من جملة قوس الشعر بالتدريج وملتصقاتها الذي ملكه
السراء .. وتناول المعاني اللطيفة كتناولها أياها فيحتذى على تلك الأنظمة
في الشعر التي عرفت أقوالهم فيها واقتصرنا على ما أخذناه من غير نفى لما تركناه
بل لا متحسان له خصنا به دون سواه * (٢)

فهذا اعتراف صريح من ابن طباطبغا بأن الهدف من جمع المختارات هو
تهيئة الذوق الأدبي لدى من يطمحون قوس الشعر وما يزالون في بداية الطريق
فيكون وضع هذه الطاقات الأدبية بين أيديهم تهيئة للكتابة وهذا ما ناعتبه
وأنسدا أعيننا لطاعتهم المبررة سواء في المفاضة أم في تناول الفنى
والأدب ..

وهذا الشهر لدم الاختيار المسمى والهدف منه جعلنا نعتق
أن العرب اعتدوا منذ القدم إلى أهمية الإطلاع على النماذج الشعرية
وضروة الاستفادة الدارسين من تجارب النابيين وأثارتهم الأدبية على أساس
أنها تبنى الركيزة التي تعتمد عليها كل محاولة للإبتكار والتجديد ولا يستغنى
عنها المتأدب بأي حال ولما هذا العصر المعاصر لا يزال مرعوباً
ومائداً في أماليها الثقافية وناهضنا القويمة وجهودنا الإصلاحية
في العصر الحديث ..

(١) الفضليات ج ١ ص ٨٠

(٢) عيار الشعر ص ٧٠

أما الدراسات التي تتعلق بالشعر والشعراء فقد تركزت في الكتابات
في معاني الشعر وطبقات الشعراء وفصائلهم المصنوية والاسلمية وكان هذا النوع من
الدراسات كثيراً كثره غرطة في القرن الثالث .. إذ وجد العلماء الذين تأسسوا
لدراسة الشعر معني الضموم في أوزان كثيرة من نسبه بعضها يرجع إلى غموض
المعنى وخفاء الجواز ومضها يرجع إلى الجهل بالخاصة التي قيل فيها التفسير
وأسماء الأماكن والأحداث التي يدور حولها .. كل ذلك دفع العلماء إلى البحث
في حياة الشعراء وحياتهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم والوقائع التي كانت لهم
لأن ذلك هو المفتاح الذي يمكن من طريقه ارتياد هذه المسارب وولوج تلك السدروب
التي ذهب فيها الشعر العربي وغالجا الشعراء ..

وقد كان لنا من ذلك البحث ثراء تاريخي غني يعد سجلاً لتاريخ التعبير
السياسي والاجتماعي .. وإذا كانت هذه المعارف قد تناقلها العلماء بالشعر
والدارسون لعلى بداية النشاط الثقافي العربي فإن الحاجة دعت إلى التصنيف فيها
وقد منها يتدبر من الأسماء القديمة ذاتها فدونت هذه الدراسات لتكون بمثابة بيمكان
ومرجع لأشجار الشجرية المدونة ..

وقد ذكر أستاذي الدكتور محمد عبدالمشعر خفاجي في مقدمة "قواعد
الشعر" لأحمد بن يحيى ثعلب بتحقيقه - أن العلماء عتوا " منذ مطلع القرن الثالث
الهجري بالتأليف في الشعر والشعراء وأخرجوا في ذلك الكثير من المؤلفات .. ويمكننا
أن نعرض عليك أسماء هذه المؤلفات الآن التي لم يحاول أحد معرفتها والاعلم بها
من قبل وبها هي ذي :

- (١) كتاب الشعر والشعراء لأبي دعابة المبرسي أحد من انقطع إلى البرابكة ..
- (٢) كتاب الشعر والشعراء لأبي عبيدة ..
- (٣) طبقات الشعراء لأبي النعمان ..
- (٤) كتاب الأريمة في أخبار الشعراء وكتاب صناعة الشعر لأبي عفان السهري ١١٥ هـ ..
- (٥) كتاب الشعراء لصبيد الله ابن أبي حميد الوراق ..
- (٦) كتاب الشعر للأصمعي وله كتاب معاني الشعر ولابن أخيه عبد الرحمن كتاب معاني
الشعر والمفصل الضبي كتاب معاني الشعر وكذلك لابن كاسية وابن الاعرابي
والأشعري .. وكذلك ابن السكيت وابن قتيبة ..

- (٧) أخبار الشعراء للدائني ٢٢٥ هـ .
- (٨) طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لمحمد بن سلام الجعفي ٢٢١ هـ .
- (٩) طبقات الشعراء لاسماعيل بن يحيى بن المبارك البزدي .
- (١٠) كتاب طبقات الشعراء وكتاب القاب الشعراء لأبي حسان الزبدي ٢٤٣ هـ .
- (١١) كتاب الشعراء وأنسابهم وكتاب الشعراء وطبقاتهم لأبي جعفر محمد بن حبيب ٢٤٥ هـ .
- (١٢) طبقات الشعراء لدعبل ٢٤٦ هـ .
- (١٣) الشعر والشعراء لمحمد بن عبد الله الخشعي وندوة شعر عامر البختري .
- (١٤) كتاب الشعراء للقاسم بن سلام .
- (١٥) عدة رسائل في أخبار الشعراء للزبير بن بكار ٢٥٦ هـ .
- (١٦) عدة رسائل في الشعر والشعراء لحامد بن اسحاق السجلى .
- (١٧) كتاب الشعر والشعراء لابن المزيان .
- (١٨) كتاب الشعر والشعراء وكتاب طبقات الشعراء وكتاب الاغانى لمصر بن شبة (١٢٢-٢٦٢ هـ)
- (١٩) كتاب الشعر والشعراء لأبي جعفر بن محمد بن أحمد البرقي ٢٧٤ هـ .
- (٢٠) كتاب الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦ هـ) .
- (٢١) كتاب أخبار الشعراء لابن أبي خثيمة ٢٧٩ هـ .
- (٢٢) كتاب الشعراء القدماء والاسلامية لأبي الحسن علي بن يحيى النخعي ٢٧٥ هـ .
- (٢٣) أخبار الشعراء لمحمد بن يحيى بن أبي منصور النخعي وهو أخو علي بن يحيى النخعي .
- (٢٤) الجامع في الشعراء وأخبارهم لأحمد بن أبي طاهر طيفر (٢٠٤-٢٨٠ هـ) .
- (٢٥) الشعر والشعراء لأبي حنيفة الدينوري ٢٨٢ هـ .
- (٢٦) الروضة والكامل وقواعد الشعر والبلغة للبرد (٢١٠-٢٨٥ هـ) .
- (٢٧) معاني الشعر للبحتري ٢٨٤ هـ وشمس ٢٩١ هـ وشمس قواعد الشعر أيضا .
- (٢٨) كتاب البارع وهو اختيار شعر المحدثين وكتاب اختيار الشعراء الكبير لأبي عبد الله هارون بن علي النخعي (٢٥١-٢٨٨ هـ) .
- (٢٩) طبقات الشعراء لابن نجيم .
- (٣٠) الشعر والشعراء لعل بن مرشد .
- (٣١) الشعر والشعراء لمحمد بن أحمد الحروري .
- (٣٢) طبقات الشعراء المحدثين وكتاب أشعار الملوك لابن الممتر ٢٩٦ هـ وله رسالة في نقد أبي تمام .
- (٣٣) الشعر والشعراء وكتاب الأريضة وكتاب البرقة وكتاب من سقى من الشعراء عرا لأبي عبد الله محمد بن داود بن الجراح (٢٤٣-٢٩٦ هـ) .

- (٢٤) كتاب الباهر في أخبار شعراء مصر من ماضي إلى الحاضر (٢٢١-٢٣٠ هـ)
- (٢٥) كتاب الأمانة في أخبار الشعراء لمحمد بن عبد الله بن طاهر (٢٢٢-٢٣٠ هـ)
- (٢٦) طبقات الشعراء لابن أبي خليفة الفضل بن الحباب الجعفي ٢٣٥ هـ.
- (٢٧) مناقبات الشعراء لابن سناء ٢٣٦ هـ.
- (٢٨) الشعر والشعراء وكتاب عيار الشعر لابن طباطبغا العلوي ٢٢٢ هـ.
- (٢٩) كتاب صناعة الشعر لأبي زيد البلخي ٢٢٢ هـ.
- (٣٠) الشعر والشعراء لابن السراج ٢١٦ هـ.
- (٣١) كتاب الباهر في الاختيار من أعمار المحدثين عارض به روضة البرد والشعر والشعراء
وحاسن أعمار المحدثين لجعفر بن حمدان البجلي (٢٤٠-٢٢٢ هـ) (١)

وقد حقت على عدد آخر من المؤلفات التي تدور حول معاني الشعراء وأخبار
الشعراء بالاضافة الى التي سبق ذكرها وهي :

- (١) معاني الشعراء - لأبي المصنوع - عبد الله بن خليل ٢٤٠ هـ (٢)
- (٢) معاني الشعراء - لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الطائي بالأخفش المجاشعي
وهو بصرى - ٢٢١ هـ (٣)
- (٣) معاني الشعراء - لأبي ذكوان القاسم بن اسماعيل (٤)
- (٤) معاني الشعراء - لابن درستويه (٥)
- (٥) أخبار الشعراء المصنفين : لأحمد بن يحيى بن علي بن يحيى - ٢٣٢ هـ (٦)
- (٦) معاني الشعراء - لأبي عمر بنديار بن لسرة الكرخي (٧)
- (٧) معاني الشعراء - لأبي ثروان المكي (٨)

- (١) قواعد الشعر صفحات ١٣١-١٤١-١٤٢ باختصار وتصرف طفيف .
- (٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٨٠.
- (٣) الفهرست ص ٨٤.
- (٤) الفهرست ص ٩٥.
- (٥) الفهرست ص ١٠٠.
- (٦) معجم الأديباء ج ٥ ص ١٤٢.
- (٧) المؤلف والمختلف ص ٢٤.
- (٨) الفهرست ص ٦٩.

وتعرضت لنا لنموذجين من الدراسات المتعلقة بالشعر والشعراء أولهما في معانيس
الشعر والآخر في طبقات الشعراء وكلاهما من نتاج البيئة البصرية في القرن الثالث ..

أما النموذج الذي يدور حول المعاني الشعرية فهو كتاب "معاني الشعر" لأبي
عثمان حميد بن هارون الأشعري البصري (١) ٢٨٨ هـ - الذي رواه عنه أبو بكر
محمد بن الحسن بن يزيد البصري المولف والمذهب ٣٢١ هـ (٢)

وهو كتاب فريد من نوعه يهتم فيه المؤلف بشرح أمثلة من الشعر معان فيها مسن
غريب أو مجاز أو مثل وقد تعرض للمناسبة التي قيل فيها الشعر أو يذكر بعض المسلمات
والمعتقدات التي يدور عنها الشاعر الذي يشرح نتاجه يدل الكتاب في جلته على معرفة
معارف المؤلف وأحاطته بكثير من أصول العربية وفهمه لرامي القول وأخطأ البيهقي
والذي يلفت النظر في الكتاب أنه يميز على منهج ثابت لا يكاد يتغير فهو يورد النموذج
الشعري وقالها ما يكون مكونا من بيتين اثنين ونادرا إذا أورد ثلاثة أبيات أو
أورد بيتا واحدا .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نقالية الأسماء المشرحة من السرائر
القديم والقليلة القليلة من الشعر البحت ..

وإذا حاولنا أن نضع إطارا لأنواع المعاني التي يشرحها المؤلف ويركز عليها لا نستطعن
أن نلخصها في النقاط التالية :

(١) فقد يذكر الأشعري المعاني الشعرية من غرض واحد حتى ليصعب على من يصنع
الشعر لأول مرة أن يعرف المعنى الذي قصد الشاعر إليه شال ذلك هذان البيتان
اللذان أوردهما المؤلف وهما :

أسقى ما أسأرت الأكمسا	ان عيشا أن ترى علسا
كيف لا تفري بسيرة مسن	عاد طفلا بمد ما صرعا

ثم شرحها بقوله :

"هذا رجل كان في مفارقة فخطب نفسه فقال (أسقى ما أسأرت) في يمسرك
الأكمر أي أعل بهذا الهمير الأكمر في طلب الماء فكان اتعابه لهميره بين الأكمام
سقى لها ما أسأره في الهمير لأنه لم يكن أنصب بهيمه قبل غلظه فكانه أسار فيسه

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء جماعة من العلما تحت عنوان " من علماء البصريين " وهم
منهم الأشعري ص ٤٤ وتوجد ترجمة للأشعري في معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٣٢ .

(٢) طبقات الأدباء لابن الأنباري ص ٢٣٢ .

(٣) معاني الشعر للأشعري ص ٢٥ .

بمعنى الحقيقة فسقى تلك الحقيقة الأكمل وليس هناك حق أعطى هو مثل قوله ان عيشة
 أن ترى علما من أعلام الماء فحياتك فيه وقوله (عاد طفلا بعد ما هربا) بمعنى القصر
 كأنه سار في أول الشهر والقصر في تمامه علما تأخر طوع القصر رجوع إلى النقصان
 عاد طفلا أي صغيرا بعدما كان كبيرا - وقوله كيف لا تغوى أي تغفل من الضلالة * (١)

(٢) وقد يصرح المؤلف التورج الشمرى ليبين ما فيه من مجاز وهو في هذا الجانب
 يقدم الدليل على عمق ادراكه لحقيقة المجاز وفيه لأبناء الاستمارات وان كان
 لم يطلق على هذا النوع من المجاز ذلك الاسم الاصطلاحي وانما كان يفتش مثل هذا
 "بالش" وهذا تورج من شرحه للمجاز ..
 أورد قول الشاعر :

* تمطى الخلقة فترعى مغموضا ويصد عن غث الخالب جانيبي
 وإذا عصت فللشرار سواعدى وقد رحت فلا بك الماصيب * (٣)

وعلق عليها بقوله :

* قوله (تمطى الخلقة هذا مثل : يقول انك تتخضع وأصل هذا الرجل يأتي البهر
 وفي يد الخلقة من التبت فيه أياها فإذا عطف رأسه ليأكلها وضع الخطأ في رأسه
 ويرجع خلوي خداع وفي الحديث (الخلابة) أي لا خداع * وقوله (إذا عصبت)
 هذا مثل أيضا وأمله أن الناقة إذا منعت دبرها عصبت فكذاها لتدبر وهذا
 المعنى أراد الخطيئة :

قد روى أن شد المصاب عليكم ونأى إذا شد المصاب فلاندر
 يقول :

فأنا لا أعطى على المصاب والقصر والشرار : قلة اللين * والسواعد جداري
 اللين إلى الضرع * (٤)

(٣) وقد يظهر من شرح التورج الشمرى الذي يورد المؤلف أنه يقصد إلى شرح ما فيه
 من الغريب وتفسير معتقدات العرب التي يحتوى عليها التورج مثال ذلك هذان
 البيتان :

* قال أبوحنان وأشدني التوى لرجل من بني سعد جاهلي :

أد يسماني لا أخالك مروييا صدأى إذا سارحت والبرك طليل
 ولا حاجما إلا على ظهر دمنة مسائل غث الأقربون وحسب

(١) معاني الشعر ص ٢٥ ..

(٢) معاني الشعر ص ٦١ ..

(٣) معاني الشعر ص ١٦ ..

وعلق عليها بقوله :

" يذاذب ابنه وعود يصير والد يصير زحوا أنه الدب واشتقاقه من الدسم والدسمة
غبرة فيها كدرة وديس ليس اليا فيه زائدة * وقوله (مريا عداى) كانت العرب تسمى
الرجال ذرية تقوى أن التريص اذا قتل فلم يثأر به من من شاته طائر يسمى العدى فيجمع
اللين * (استقوى استقوى) فاذا ثأر به سكن حوته وهذا من كلام أهل الجاهلية
والجرك ابن أهل الحوا بالذة ما بلغت فيثون اذا حفلت اهلك وشجعت لم تالمى بد مى
وتركت عداى يستبقى * وقوله : (ولا تبا يوما الا على شهر دنة) فهو من والد دنة الحثيد
يقال فى قلبه عليه دنة * يقول فانت لا تهيت الا مفضلنا فهو يسألون عن أخبارك وانست
تأمن ما فعلت يثأرك * (١)

(٢) وقد يكون تفسير الشعر الذى يورده الامثال داني فى معانيه متوقفا على معرفة
حادث تاريخى كهذا انما الذى يورده * *

" بين تالير بالايمان مخلصه متى تلى جائها منها تلى تشبهها
فاجمل نصيبك منها ان كنت بها ان كنت تراب بين المود الهريسة * (٣)

وعلق عليها بهذه الحكاية * * قال :

" قال أبو عبيدة : أصب هذا أن يملى بن منية وهو رجل من بني تميم
حليف لقيش كان عثمان بن عفان ولاء اليمن فلما قتل عثمان أقبل بها عظيم فمضى
الى مكة وباشقة وطلحة والزبير بها يندبون الناس الى قتال على عليه السلام
فصب الدراهم بالأطح ودعا الناس الى البراءة من على عليه السلام وأخذ المال
فتشاج الناس على ذلك فقال الشاعر : (بين تطاير) يعنى الدراهم يقول : فمن
تالها نال نصيبا أى غنى ثم أقبل على نفسه فقال : اجمل نصيبك منها الهريسة
ان كنت تغاف يوم المود لانك ان اخذتها برئت من على * (٤)

وبكذا ينهلنا من هذا الصرح لمحتويات كتاب " معاني النضر " لاشفاق داني

ان الدراسة الشعرية فى بيئة البصرة فى القرن الثالث كانت غلبة وأقية تتمسك
بالوضوح وتجنب الى الشرح والتبيان وتظهر المعانى التى يقصدها الشعراء ولا يمكن
ناحظ أن المؤلف أثر الاشعار القديمة تلك التى تتميز بالجزالة وتحوى معنى
الغريب ولم يورد للمحدثين الا أمثلة قليلة منها هذا الشأن الذى لم يصرح به



" قال ابن دريد ولأنه دعى أهرقشان وأحببه مولدا :

ولي صاحب ما كنت أشقى اقترا به فلما التفتا كان أكرم صاحب
عزير على أن يفارق بهد مسما تنبت دجيرا أن يكون مجانبسي (١)

وعلق عليه بقوله :

" يعنى الشيب يقوى : لم تكن أنتهى اقترا به فلما حل كان أكرم صاحب على سب
ولم أحب دجيرا لأنه لا تلاي جانب إلا بالموت " (١)

وهذا المعنى يدل حقيقة على أن الشاعر مولد بدلين مافيه من تمسق والشاعر
وكانه أحجبه من الأداجي التي يقتدر بها الملأ في هذا السور * * وقد أشار ابن
دريد روى " الممانى " إلى أن الشاعر مولد ونحن نؤكد أنه مولد بدليل المعنى
الذى أمرنا إليه * *

هذا وقد أثبت همتى الذي في تحليل هذا المؤلف لاقتناده بأنه ليس
يبحث من قبل ولم يصرح له أحد بالدراسة لأنه نمرق من الدراسات المتعلقة
بممانى النصر يتضح فيه خصائص هذا النوع من الدراسة وأبعادها * *
وأغبروا لأنه ظهر في بيئة البصرة وفي القرن الثالث فهو من عصر بحثنا * *

أما المؤلف الذى يتعلق بدراسة طبقات الشعراء والذي سنمضى له هنا فهو
طبقات الشعراء لابن سلام الجعفى البصرى * وسنحاول منه الجانب المتعلق بالشعراء
وخصائصهم وحياتهم والتأريخ للفن الشعرى عند العرب وسنتركه مالى المؤلف من دراسات
نقدية لائنا سنمضى لها فى فصل مستقبلى * *

وأهم ما يختلفت التارخى طبقات ابن ماذ أنه أول بحث فى تاريخ الشعر العربى
وطبقات الشعراء يؤلف بطريقة منهجية وتسمى لقنابا غاية فى الأهمية لابن سلام هو أول من
قام بهذه المحاولة التى تفهم الشعر القديم وتسبب خباياها وتفتح النزعات الشعرية
للشعراء والمذاهب التى جرت أعمارهم عليها والذي لوسط على ابن سلام أنه قصص
طبقاته على الجاهل والمختومين والاسمين ولم يصرح لأحد من معاصريه وكان فى موقفه
هذا بحث وجهة نظر الخالصة من علماء عصره الذين تسببوا للنقد ونظروا إليه على أنه
الشئ الأعلى فى الفن الشعرى * *

وبهذا - كما فعلنا في تحليل معاني الشعر للاشتغال في - أن نحدد ملامح القضايا التي بنى عليها ابن سلام مؤلفه لأنها هي التي تبين لنا دائرة المؤلف إلى المستويات الشعرية * * وتوضح طبيعة الدراسة الشعرية في بيئة البصرة في الفترة التي نتحدث عنها ونحن نلخص القضايا الأدبية التي بحثها ابن سلام في طبقاته في النقاط التالية :

(١) يعد ابن سلام أول من درس الشعر العربي على أساس تاريخي وحاول وفي تصور عام لطبيعة الشعر العربي والخواهر التي تتميز بها كما أنه أول من قسم التاريخ الأدبي إلى مراحل زمنية متميزة لها تأثيراتها في الفن العربي يقول ابن سلام في بداية طبقاته :

" فصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلاف والمخضرمين فنزلناهم منازلهم واحتجبتنا لكن شاعر جاور دناهم من حجة واثقال فيه المصنوع * * * (١)

هذا التقسيم للتاريخ الأدبي والشعراء القدماء إلى جاهليين واسلافيين ومخضرمين له ثروته عند أحد من كتّابي الشعر والشعراء قبل ابن سلام وقد يكون البعد الوحيد الذي كتب حول الشعر وشعر الشعراء والذي قيل أنه أسبق من من حيث تأليفه وهو - تحول الشعراء للأصمعي (٢) - لا يفتن على الإطلاق لما لظن له ابن سلام من تقسيم وتنظيم * * بل لا يحد وأن يكون أحكاما يعدها مؤلفه على جماعة من الشعراء القدماء ومنصوص لهذا المؤلف ونحن نتحدث عن المذهب النقدي للأصمعي * * هذا يدل مؤلف ابن سلام محتلا لفكرة لكونه باكورة المؤلفات المنبثقة في تاريخ الشعر العربي ونقده * *

(٢) كان ابن سلام أيضا أول من تنبأ الدوائر الأدبية التي أثرت في الفن الشعري قديمة وكثرة كتمثيله لفئة الشعر بالذائف حيث يقول :

" وبالذائف شعر وليس بالكبير وإنما كان يكر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج أو قور يفترون ويشار عليهم والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الذائف (٣) وهكذا يفتن ابن سلام إلى تلك الحقيقة السهية وهي أن الشعر يكر إذا توافقت الدوافع ووجدت الشرائع وأتمها بالنسبة للمرب القدماء الحروب والغزوات والصراع القبلية والفتن والفتن * * أما أولئك الذين عاشوا حياة وادعة مستقرة فلم يكر الشعر بينهم * *

(١) طبقات تحول الشعراء ص ٢١١ * *

(٢) فحول الشعراء ص ٨٨ بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي طه الزين ص ٢٠٠ * *

(٣) طبقات تحول الشعراء ص ٢١٢ * *

(٢) د من این سلام ثلج النصاراء وتفهمه واستخلص منه احكاما اذهية ونزعاً شعرياً
لجماعات من النصاراء وما نحن نراه يسبح تلك الذائبة التي برزت في الأمم
جماعة من النصاراء والاسلامية بقوله :

" كان من النصاراء من يتألم في جانيته ويتعفف في نفسه ولا يستبهر بالفواحش
ولا يشبه في الهجاء ونحوه من يتسهر ولا يهش على نفسه ولا يتدثر .. "

منهم امرؤ القيس قال :

وملك حبل قد طرقت به
قال :

دخلت وقد ألفت لغير ثيابها
وقال :

سموت اليها بعد ما نام أهلها
منهم الاعشى قال :

فأملت أرواحها وكن يحولها
قال :

وأقرت عيني من الخائبات
قال :

قد أغني الكادب النصاراء
قال :

ورادة بالليل عفره عند نسا
قال :

قد أذال رب البيت غفاته
وكان الخرد في من أقوم أهل الإسلام في هذا الفن :

قال :

هذا الثاني من ثمانين قصيدة
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
فقلت أرفسوا الأسباب لا يخلتوا لنا
وأصبحت في القوم البلهوس وأصبحت
كما النفس بارأ قتم الریش كما
أهي يرجي أم تئين نحن
وليت في أعجاز ليل أهدره
مذلة دوني عليها وكاسه

(١)

وكذا يلحظ ابن سلام تلك الناعرة وثابتها بدقة في أخبار أسرى القيس -
والأعشى من الجاهليين ثم في أخبار الفزاري من الأسلميين ..

والأشلة كثيرة في أدقات ابن سلام على مثل تلك الملاحظات الأدبية وهو على حسن
سبيل الشأن يقارن بين جميع وكثير فيقول :

* وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر وجميع قد عليه وعلى أصحاب النصيب
جميعاً في النصيب وله في فنون الشعر ما ليس لغيره وكان بين عادي الصباه وكسان
كثير يتقربون ولم يكن عاشقاً .. * (١)

تلك ملامح دراسة الشعر والنصير عن ابن سلام وهي تمتد كما رأينا على ملاحظات
جزئية تشلق بقصر حاضر محين تصف خصائصه البارزة وتقارن بخصه بين نظرائه مسبقين
النصير وهي ملاحظات مبنية على استعراض تراث الناعر وفحصه وقد يثمر ابن سلام
لسائل تشلق بالحياة الأدبية عامة كتحليله لقلعة النصير بالطائف وكثرة في أماكن
أخرى ..

وكذا نقف على أن الدراسات التي تشلق بالشعر والنصير منذ أواخر
القرن الثاني إلى نهاية القرن الثالث كانت تدور في مدارها حول تسجيل ظواهر شعر
عامة تحكم التاريخ الأدبي أو تصف خصائص شعرية أو فنية لشاعر واحد أو مجموعة مسبقين
النصير وقد رأينا أن الجمرة كان لها مكان الصدارة في هذه الدراسات فغلب عليها ظواهر
أول بحث من هذا النوع وهو طبقات النصير لابن سلام الجمحي ..

وقد أنتجت هذه الدراسات الكثيرة المتعلقة بالشعر والنصير ثروة أدبية كبيرة
وفيها في الأخبار والمعلومات الأدبية ما دفع بعنى النملباء في القرن الرابع إلى محاولة
استقصاء أخبار النصير وتصنيفها بطريقة جامعة أقرب ما تكون إلى جمع اللذة منها
على سبيل الشأن * معجم النصير * للمزياني والذي تتبع فيه المؤلف أخبار عسدد
كثير من قال الشعر بلغ حوالي خمسة آلاف شاعر من الجاهليين والإسلاميين
والعباسيين (٢) ومنها * المؤلف والمختل * للحسن بن بشر الأدي الذي جمع في نفسه
أخبار عدد كبير من الشعراء ونماذج من أشعارهم .. (٣)

(١) طبقات فحول النصير ص ٤٦١ ..

(٢) معجم النصير بتحقيق عبد الستار أحمد فراج ط ١٩٦٠ وقد ذكر محققه في ص ٤٠ من

المقدمة الرق الذي ترجم له المزياني ..

(٣) المؤلف والمختل للأدي ..

الدراسات المتعلقة بالرواية وتحقيق التراث :

انتهينا في حديثنا عن تدوين الشعر وجمعه إلى أن القدمن بدأ في منتصف القرن الثاني الهجري وبلغ بده في القرن الثالث .. وإذا علمنا بأن أقدم ما نسب إلى العرب من شعر يرجع إلى ما قبل الإسلام بقرنين من الزمان على أكر تقدير كما عسان الجاحظ حيث قرر في الحيوان ذلك بقوله :

" أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن وأول من عهد سليله وسهل الدرس إلى امرؤ القيس بن حجر وسهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا نسبة إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام فإذا استظهرنا بداية الاستظهار فطابقا (١)

إذا علمنا بذلك علمنا نجد أنفسنا أمام حقيقة شبه يقينية مؤداها أن الشعر القديم أو الجزء الأكبر منه - بقى أحر من شاة قرون يتناقله الرواة بطريقة الحفظ والرواية من الذاكرة ولم يدون إلا في بداية العصر المباسي ..

ولقد أثارت هذه الحقيقة كثيرا من الشبهات والتكوك حول صحة التراث العربي المنسوب إلى الأقدمين وذلك لاعتبارين أساسيين :

أولهما : أن الاعتماد في رواية الشعر على الذاكرة وحدها لعشرات السنين كهل يسر أن يحدث به قدرا غير قليل من الخلط والاضراب ..

ثانيهما : أن مكانة الشعر في حياة العرب وتأثيره الكبير في صراعاتهم وحروبهم كانت سببا في اهتمام الشعراء في العصر الإسلامي ونسبته إلى القدماء تأييدا للمصيبات واختلافا للمآثر وأدعاء للهذلولات ..

ومن اعتقادنا بأن الشك في التراث العربي كانت له جرراته ودواعيه فالتساؤل متناقض أسباب الشك فيه ونهين إلى كم ينهض أن نتحفظ في قبول الشعر القديم ..

ولما يتعلق باعتماد الشعر القديم على الرواية من الذاكرة فطمنا نطمئن إلى أن ذاكرة العرب الذي كان يضيء في البادية حياتها النازجة الفطرية بميسدا عن شوق الحساسة وتيودنا ورسقات الدينية وطهياتها أدعى إلى أن نطمئن إليها

وثبت في قدرتها على الاحتياط والحفظ .. وليس من السواب في شيء أن نقيس ذاكرة شخص يعيش في مجتمع بدني مشحون بقيود ومرتبات التي تمنح الفكر وتزعج العقل بحزين من الأمور بعيد من انقياد ولا تترك له فرصة لالتقاط أنفاسه أو المكثف على ذاته .. ليس من السواب أن نقيس مثل ذلك الشخص بشخص آخر يعيش في مجتمع بدني محدود لا يكلفه شيئا من الفكر ولا تتطلب حياته سوى قدر يسير من العمل ..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن رواية الشعر في الشرق كانوا متفرقين لهذا السبب ولم تكن لهم شواغل فكرية أخرى فلنكن ناعز رواية يختص به وذيخ تنافسه في النسيان وقد يكون من أسباب الثقة في هؤلاء الرواة أنهم كانوا ذوي عيول أدبية وكان الواحد منهم يمد مرشحا للنهي في الفن الشعري وله امتيازات أدبية واضحة .. وقد كان كبار الشعراء أنفسهم يقومون بمهمة الرواية كما ورد أن الحطيثة كان رواية زهير وابنه كسب^(١) وكان جميل رواية الحطيثة وكان الأعشى رواية المسيب بن علس^(٢) ... الخ ..

أما وضع الشعر على أمتة القدماء لتكثير التراث والفخر بالماضي فقد كسبان حقيقة عرضها القدماء وأحاديثها بدوافعها أحاطة كاملة .. وما كان ابن سلام الجعفي أول من أثار هذه القضية وعرضها في بداية كتابه طبقات الشعراء حيث يقول :

"... فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أياها وآثرها استغنى بعض العشائير شعرهم بها وبما ذهب من ذكر وقائهم وكان قوم قلت وقائهم وأسماءهم وأرادوا أن يلقوا بمن لم يلقوا ولا شاعر فقالوا على ألسن عشائيرهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأسماء وليس يمكن على ألسن السامع زيادة الرواة ولا ما وضع المولدون"^(٣)

فإنه من المصحح في بداية كتابه بأن الشعر المسموع فيه موضع كبر وبين أنساب أصحاب الوضع بدوافعه .. وهو أن كان هون على العلماء بالشعر مشكلة الانتحال الذي أحدثته الرواة والمولدون فإنه أوضح لهم أن هناك جانباً من الوضع يتمسك به تبيينه يخفى وجه السواب فيه يقول في هذا الشأن :

"... وليس يمكن على ألسن السامع زيادة الرواة ولا ما وضع المولدون وأنسابهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولد شعراء

(١) خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٤١١ (ط ٥ بولاق) ..

(٢) الموضح ص ١٧ ..

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٢١ ..

فيه لكن ذلك ليس الا مكان (١)

والحقيقة أن مشاعر الاضطراب في رواية الدمر كانت كثيرة وشديدة تبعاً لاختلاف
المراسل التي تسببت في وجودها .. وشعور نيبالي لهم هذه الظاهر وشوشة
ادراك العلماء لها وتبينها عليها :

من هذه الظاهر :

أولاً : وضع كلمة مكان أخرى ..

كالذي يشير اليه الجاحظ في الحيوان حينما روى عن ذي الرمة قوله لعيسى بن
عمر " اكتب بحري فالكتاب أحب الي من الخط. لأن الأعرابي ينسى الكليلة
وقد سمع في طلبها ليلة فيض في موضعها كلمة في وزنها ثم ينسها النسيان
والكتاب لا ينسى ولا يهدن كأنما يكر .. " (٢)

ونحن مهما كانت ثقتنا في قوة حافظه المرسى وقدرته على الاستيعاب فلن
نستطيع أن نكرر احتضان الشبان الذي من هذا النوع .. وكثيرا ما يحدث لمن
تسرع بحفظ الدمر أن ينسى الكلمة أو الجملية .. أو ربما البيت .. مع ذكره
للمقيدة الشعر ..

ثانياً : اصلاح الشعر وتقيحه :

وهذا نوع من التحريف التمدد أحدثه الرواة تلقياً لأخفاء مبنية وهي فيهم
الشعراء فكانوا يملحونها بحسن نية .. روى صاحب الموضع قال : " .. حدثني
عيسى بن اسماعيل قال : سمعت الأعمش يقول : قرأت على خلف ممر جريمر
فلما بلغت قوله :

ومر كاهن القطاة محسب	الى نواه غالب لي باطله
ورقنا به السجد الشرير ولم نكن	كن نبله محرومة وحباله
فيالك يوحا خيره قين شمسره	تسبب واءيه وأخسر عاذله

فقال وله : وما ينقصه خير يؤول الى عمر ؟ قلت له : هكذا قرأته على أبي عمرو
فقال لي : عدت هكذا قاله جرير .. وكان ثلث التنقيح منرد الألفاظ وما كسبان
أبو عمرو ليقرئ الا كما سمع فقلت : فكيف كان يجب أن يقول : قال : (فيالك يوحا
خيره دون شمسره) ..

(١) طبقات نحول الشعراء ص ٣٩ ..

(٢) الحيوان ج ١ ص ١٤١ ..

فأمره هكذا فقد كانت الرواية قديما شائعة من أعمار القديما . . . فقلت : والله لا أرويه بعد هذا الا عكسا . . . (١)

ثالثا : الاغارة على شعر الآخرين :

وهذا نوع من الانتحان منبهة حرص الشعراء على التكرار بالشعر الجيد وهو يؤدي الى الخذلان في النسبة أى الى نسبة الشعر الى قائله الحقيقي وقد حلت كتب الأدب بأشلة من هذا النوع واعتقد الشعراء أنفسهم بذلك يقول الأخطل " نحن معاشر الشعراء أسرق من المفاة " (٢)

وقد اعتبر الفرزدق بهذا النوع من السرقة فكان يسرق من القديما ومن شعراء عصره وذكر صاحب الموهج أنه سرق أفعارا لذي الرمة والسرور البصري وابن ميادة وجعيل والراعي والأعلم العبدي والمعلم (٣) . . .

وهذا مثال من سرقة الفرزدق رواء صاحب الموهج قال :

" مر ذو الرمة فاستوقفه أصحابه فوقف ينفذهم قصيدته التي يقول فيها :

أحين أعاذت بن تميم نساءها وجرودات تجريد اليماني من الفم

وبدت يهيمى الربيعيات ودار وجاشت رامت من ورائي بنو سبيد

فقال له الفرزدق : أياك ان يسميها منك أحد فأنا أحق بها منك فجمعت
ذو الرمة يقول : أنت ذاك الله في شعري فقال : اقرب : فأخذهما الفرزدق فحسما
يصرنان الاله وكف ذو الرمة عنهما " (٤)

" قال أحمد بن أبي طاهر : كان الفرزدق يصل على الشعراء يقتحمهم
أفعارهم ثم يهجوهم ذكر أن غيثا انتحله أو ادعاء لغيره . . . وكان يقول : فحسوا
الشعر أحب الى من فصول الأهل وخير السوقة عالم تقاع فيه اليد " (٥) وعلى الرغم
من أن صاحب الموهج قد أورد هذه الروايات التي تنسب السرقة الى الفرزدق فقد
حاول أن يبين جانب المبالغة والتحامل الذي اشتمت به فقال : بعد أن أورد
غيرها منوها الى الأعصم يزعم فيه أن نسمة أفعار شعر الفرزدق سرقة . . . قال :

(١) الموهج ص ١٩٨ ، زهر الآداب ج ٤ ص ١٢

(٢) الموهج ص ٢٢٥

(٣) الموهج ص ١٦٩ . . .

(٤) الموهج ص ١٢١

(٥) الموهج ص ١٦٩

" وهذا تحاسن شديد من الأسمى وتقول على : فرزدق لهجائه بأهله
ولمنا نعلم أن الفرزدق قد ألقا على بعض الشعراء في أبيات معروفة فأما أن نالحق
أن تسمة ألقا شعره سرقة فهذا محال * * .

* وذكر كثر جديلاً فقال : أمثال له ألف عافية * يقول سرقتها فقلبت عليها (٧)

وقيل ابن قتيبة وهو يتحدث عن جميل بن ميمر الدؤري :

"سابق اليه غلخه منه قوله :

تري الناس ما سرنا يسرون خلفنا * وان نحن ألقانا إلى الناس وقسوا
أخذم الفرزدق وأدخله الرواة في شعره * (٨)

راهما : التصحيف :

وهذا نص آخر من مظاهر اضطراب الرواية * وإذا كنا نمانى من اعتصام
المصر القديم في روايته على الذاكرة فلان التدوين في بعض مراحله كان أحسن
أسباب الاضطراب والتشوية * فقد كانت الكتابة في بداية العصر الاسلاني لا تزال
في طور متخلف ما عيب للعلماء معيولاً حتى أخذوها صاحب وفيات الأعيان
في هذه الرواية التي نقلها عنه قال :

" حكى أبو أحمد العسكري في كتاب " التصحيف " أن الناس غلبوا
يقروون في صحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفاً وأربعين حنة إلى أيام عهد
الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالمراق ففرغ الحجاج بن يوسف الثقفي
إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتهرة علامات فيقال أن عمر بن عبد
العزيز قد كان يضع النقط لأفراد وأزواجاً وخالف بين أماكنها فغير الناس بذلك زماناً
لا يكتبون الا مشطراً فكان من استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثت
الاعجاء فكانوا يتبعون النقط الانحط فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم يوف حقها
اعترى التصحيف فالتسوا حيلة فلم يقدروا عليها الا على الأخذ من أفواه الرجس
بالتلقين * (٩)

وأكثر من ذلك ما نقله ابن خلكان عن حماد الرواية في ترجمته له من أنه
" كان قليل البضاعة من المصيبة قبل انه حفظ القرآن الكريم من الصحف لصحفي
نيف وثلاثين حرفاً * (١٠)

* الموشح : ص ١٦٧

(١) الموشح ص ٢٣٥

(٢) الشهر والشعر ج ٢ ص ٤٤٢

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٤

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥١

وقد أعادت هذه الظاهرة الشعر فوفى فيه التمجيد وكانت سببا من أسباب
الاضطراب فيه روى صاحب الأغاني قال :

" أخبرني محمد بن يحيى قال : حدثنا الحزن قال : كنا عند ابن الأعرابي
وحضر معنا أبو علفان فأنشدنا ابن الأعرابي عن أنشد : قال :

قال ابن أبي سبرة السبلي :

أفاني المدام قتلني كـ... وقتلي بكوبة لم ترصدني

فحضر أبو علفان وجلا وقتلي له : قتلني : ما معنى "كذا" قال :

يريد كرتي . لما قلنا قال أبو علفان : أسمت إلى هذا المعجب الرقيق

صحف اسم الرجب . هو ابن أبي سنة فقال ابن أبي سبرة : وصحف في بيت واحد في

موضع فقال : قتلني كذا وهو كذا ، وقتلي بكوبة وهو بكوبة . ولعلنا على من السبلي
أنه يفسر تصحيحه بوجه واضح . (١)

خامسا : التكسب برواية الشعر :

فقد استغن بعض الرواة حاجة العلماء إلى الشعر ومضيه للحصول عليه
فكانوا يضعون لهم الأشعار ليحصلوا في قائل ذلك على النافع المادية روى ابن
سلا في طبقاته قال :

" أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن ميم بن ثوبه قد البصرة في بعض
ما يقدر له انبدهي من الجلب والمهرة فترى النحيت فأنتيت أنا وابن نج فمألتسماء
عن مصر أبيه متم وقتنا له بحاجته وكيناه نيمته فلما نفذ : مصر أبيه جعل يزسد
في الأشعار وضعها لنا وإذا كلاً دون كلام متم وإذا هو يحذى على كذا فيذكر
المواضع التي ذكرها متم والمواضع التي شهدها فلما توالى ذلك علنا أنه يقتله " (٢)

سادسا : الشخصيات الخيالية :

ومن مظاهر الانتحال اختلاق شخصيات لا وجود لها في عالم الواقع ونسبة
الأشعار إليها مثال ذلك ما روي عن صاحب الأغاني عن مجنون بني عامر يقول :

" أخبرني هاشم بن محمد قال : حدثنا الرياشي قال : سمعت الأسمي يقول :

رجلان ما عرفنا في الدنيا قط إلا باسم : مجنون بني عامر وابن الخربة وأنا وضعهما
الرواة " (٣)

(١) الأغاني ج ٤ ص ٣٤٢

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠

(٣) الأغاني ج ٢ ص ٣

وأورد عن ابن الكلبي قوله :

"حدث أن حديث المجنون ونحوه وضعه قتي بن بنى أمية كان يهودي ابنة عم له
وكان يكره أن يظهر ما بينهما وبينه فوضع حديث المجنون وقال الأشجار السستى
يروونها الناس للمجنون وشبهها إليه" (١)

فهذا مما في فاض البحر نفسه وانكار لوجوده أصلاً ..

سابعاً : أفعال نسبة الشعر إلى قائله :

وقد أحدث هذا المسلك خللاً كبيراً في رواية الشعر وانظراباً في نسبة
الأميات والقوافد إلى الشعراء رأينا جانباً كبيراً يروي دون معرفة قائله وجسرت
عادة العلماء على أن يوردوه في كتبهم سهواً بحسبارة قال الشاعر "أو" فبالحال
بعضهم "أو" قال أعرابي "أو" الخ .. وأدى عدد من معرفة قائل الشعر إلى
ادخال شعر كثير ضمن مرويات شعراء بأعيانهم لمجرد التماهي في الموقف
أو الأشخاص الذين مدحهم أو انشأه الثلاثي شبهوا بهم ..

يقول أبو عثمان الجاحظ مشيراً إلى هذه الظاهرة :

"بما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلى إلا نسبوه إلى أنس بن مالك ولا شعراً
منه سبيله قيل في ليلى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح" (٢)

ثامناً : التمهية :

وهذا النوع من الانتحان مدغم الانتقاس من العرب والزيادة بمأثرهم -
والاستغفاف بترائهم ولما كان الشعر مقام اعزاز العرب وفخرهم فقد عمد
مخوضهم الذين عرفوا في التاريخ باسم التمهية - إلى وضع الأسماء التي تؤيد
وصفتهم في التمهية من شأن العرب وإبراز مزاياهم وقصور باعهم حتى في التمهية
الشعرى ذاته ..

وهذه رواية أوردها صاحب المونج عن أبي عبيدة زعيم التمهية (٣) تؤكد
ما ذهبنا إليه .. قال أبو عبيدة :

(١) الأغاني ج ٢ ص ٤ وخزانة الأدب ج ٢ ص ١٧٠ ..

(٢) الأغاني ج ٢ ص ٨ ..

(٣) ذكره صاحب الفهرست في ترجمته لأبي عبيدة ص ٧٩ أنه كان يسميها وجيل كتبها لسمي

لما كان ذو الرمة :

أيا غريبة الوشا بين بئراجل
فميناك حينها وجيد في جيدها

هين النقا أنت أم أم بالسي
ولوئك لولا حشة في القواشي

أجابه جنى من حيث لا يراه :

أنت الذي عبيت الية قفسرة
وقرنا أنا يعلقات يتركسا

لها ذنب فوق استها أم بالسي
هجنك يا غيلان مثل المراسي

قال : ولما قال نصيب :

أجابه جنى من حيث لا يراه :
أتحزن أن أرتاع دعد تغرجست
وأهون على وعد يفقدك أن تسرى

غيا حزني من ذا يوريم بها يمسدي

وأنت عدي بين الحفاش في اللحد
علا يتربها على هامة القسدي

قال ولما قال جرير :

طرقته عائدة الذلوب وليسيذا
أيا بهجني فقال :

وقت الزيارة فارجمس يسيلا

لقد قال رأى ابن المرافة إذ مسرى
فقال له من قرط لوهم وخمسيرة
فألا وأساب الجبال كاسيرة

اليه غزان في عسدي وطلبيلا
أيا طيف ذا المزمار بن يسيلا
ثقون أقم يا طيف غير مقسلا

قال ولما قال الفرزدق :

مباد لقاني من ثمانين قاسيرة
أجابه جنى فقال :

كما انقضى باز أقتم الرير كاسيرة

فلو كنت حرا يا فرزدق لم تسيح
قاصح منشوا من السرما انطوي

بمكون مالا قيت والليل ماسيرة
والأم قاصون على السرنا ماسيرة (١)

ويتضح لنا من هذه الرواية تداول أبو عبيدة وتلقيه لهذه الأبيات المزمومة
وليس الجنى الذي اخترعه أبو عبيدة وجعله يجيبا لهؤلاء الشعراء سوى خرافة
تروية أرقعه فيها ما شاع بين الملوك من اعتراعات على بعض هذه الأبيات
بسبب ما شابهها من قصور في معانيها فاستخدم هو هذا الأسلوب الهدام في نقد
الأبيات وتمسك الشعراء ما يجلنا لانشق في روايته ولا تلقى لها بالا ..

ونلاحظ من هذا الشأن مقدرة الرواة على وضع الشعر وتزويده فهم هذه
الأهيات الموثوقة محكمة كما نرى وصيرة عن المحدثي المقصود في صياغة متينة
وهذا يظلمنا على ما أحدثه الرواة من فساد وأغراب في روايتهم للشعر
التدريج ..

ثامنا : تأييد الأخبار والشعر :

ومن مظاهر الانتحال وضع الشعر في ثنايا السير والقصص كالذي أشار
إليه ابن سلام في طبقاته حيث يقول :

" وكان من أفسد الشعر ومخجنه وحصل كل غناء منه محمد بن اسحاق
بن يسار مولى آل مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف وكان من علماء التفسير
بالسير فقبل الثامن عنه الأسمار وكان يستدر منها ويقول : لا علم لي بالشعر إنما
أوتي به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا فكتب في السير أسمار الرجان الذين لم يسم
يقولوا شعرا قط وأسمار النساء فضلا عن الرجان ثم جاوز ذلك إلى عاد وشجر
فكتب لهم أسمارا كثيرة " (١)

عاشرا : عهد الرواة واستهتارهم :

وهذا الخطر مظهر من مظاهر الانتحال . لأن جماعة من كبار الرواة لم يكونوا
يقدرون أهمية العمل الذي يخططون به فانساقوا في تيار الوضع والانتحال لأسباب
شتى منها اليأس والحرص على ابتزاز المطايا بأية وسيلة ومنها ترقية الخلفاء
والأمراء ومن في سابقهم ومنها الرغبة في الشهرة والاستطالة على الآخرين واعتبر
من كبار الوضعيين حماد الرواية (٢) أنكفى وخلف الأحمر (٣) البصري وأغاني الملقاة
في الحديث عن ويصا للشعر وهشما بالرواية ..

(١) طبقات نحوي الشعر ص ٨٠٠

(٢) ذكرت مصادر كثيرة أخبار وضعه للشعر وكونه مشهما في روايته منها نزهة الألبان

ص ٩٦ + معجم الأدباء ج ١٠ ص ٢٦٥ وطبقات نحوي الشعر ص ١١

(٣) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٨٩ والمزهر ج ١ ص ١٧٦ + المنذ الفريد ج ٥ ص ٣٠٧

والوشح ص ٣٩٢

" قال الفضل القمي : سلط على الأحمر من حبله الراوية ما أقصده فلا بد لـ
 أبا فقيس له وكيف ذلك ؟ أهبط في روايته أيلحن ؟ قال : ليه كان كذلك
 فان أهل العلم يرون من أنشأ إلى الحواب ولكنه ربح عالم بلفظ التفسير
 وأسماءها وهذا هو المصرا " وحاشيها : فليزان يقول الأحمر يشبه مذهب رجس
 ويدخله في مصره ويخص ذلك عنه في الآثار تشذبط أعمار القديسا
 ولا يتوز المحيى منها الا عند عالم ناقد وأين ذلك " (١)

ويذكر صاحب المصرا أن خلفا كان : " يقون القمائد الضرويد لها فلي
 دواوين المصرا فيقال ان القصيدة المنسوبة الى المتفري التي أولها :
 أقبوا بني أبي صدور ماليكيس فاني إلى أروى سواكم لا ميل
 من له . . . وقال أبو حاتم : كان خلف الأحمر شاعرا وكان وضع علي
 عبد القيس شعرا منوها عنها منه ثم تقرأ فرجع عن ذلك حيث . . . وقال أبو حاتم
 سمعت الأعمش يقول : سمعت خلف الأحمر يقول : أنا وضعت دلي النافذة في
 القصيدة التي فيها :

خين عيا وخين غير صائد سعة تحت المصرا وأخرى تحلف اللجسا

وقال أبو الطيب في مراتب النحويين : أخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا محمد
 ابن يزيد قال : كان خلف الأحمر يضرب به المش في عن الشعر وكان يعمل على السنة
 الناس فيشبهه كمن يحرقوله بشعر الذي يضمه عليه ثم نكس فكان يخدم القسمران
 في كل يوم ليلة فلما نكس إلى أهل الكوفة فمروهم الأسمار التي أدخلها
 في أعمار الناس فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أودق منك الساعة
 فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم " (٢)

وقال دعلج : قال لي خلف الأحمر وقد تجارنا في شعرنا بطرا وذكرنا قوله :
 ان بالشعب الذي دون طلع لقتيلا دسه ما يـ
 أنا والله قلتها ولم يقلها تأبط شعرا " (٣)

" وقال أبو حاتم / ولما قد الأسم من بغداد دخلت إليه فسأله عن هذا
 من رواية الكوفة . . . قال : رواية غير متحجج أنشدني أرمين قصيدة لأبي داود الأدي
 قالها خلف الأحمر فموجعهم كثر الرواية إليها يربحون بها يفتخرون " (٤)

(١) مجمع الأدباء ج ١٠ ص ٢٦٥ والأغاني ج ٥ ص ١٦٢ . .

(٢) المصرا ج ١ ص ١٧٦ . .

(٣) طبقات ابن الجوزي ص ١٤٢ . .

تلك في إيجاز مظاهر الاضطراب في رواية النمر والسموات التي اعترفت طريق تحقيق التراث المصري * وتبادر لنفوس أن هذه الظاهر لم تخف على العلماء بالشعر في بيئة البصرة في النمر الذي ندرسه من انتهى فالتوا لها وشبهوا عليها وبرزوا صحيح النمر من زائجه واستعملوا في تقديم لرواية النمر منها قريبا من مائة نقد رواية الحديث حتى ليغلب عليهم نية أن رواية النمر عامة أهدى من رواية الديلم * * بناءً في الزهر نقلًا عن ابن سالم الجعفي أنه قال : * حدثني يحيى بن سعيد القطان قال : رواية النمر أهدى من رواية الحديث لأن رواية الحديث يروون منها كثيرا ورواية النمر ساعة يشد ون المروءة ينقدونه ويقولون هذا معنى * (١)

وإذا كان الانجلاء المائد في بيئة البصرة أن رواية الشعر علم ودراسة ولا ينبغي أن يتصدر لرواية النمر إلا من حسن مؤهلاتها وفي أسرارها وقد أكد ابن سالم الجعفي على هذا المعنى في قوله :

* وروانا رواية العلم يملطون في الشعر ولا ينبغي النمر إلا أخصه *
قد تروى الماسكان المعنى كان ذا علم بالشعر وأيام العرب * * * وروى عنه

شئ * يحسن على لبيد :
باتت تملكي إلى الشعر مجتلسة وقد حطتاه فبها بعد سبعين
فإن تمشي ثلثا تلهي أملا وفي الثلاث راء للثلاثين

ولا يختلف في أن هذا معنى تكرره الأحاديث ويستعان به على التفسير عند المأثرة والمطوعة لا تستغنى * (٢)

ويستطيع أن نقرر أن ابن سلام قد عالج مسألة اهتمام الشعر وحقق كثيرا من مسائلها وأثبت بها أيضا انتفاء أن كانت أول القبايل التي فاجها في كتابه طبقات الشعراء فلا يزال القارئ للكتاب يتجاوز كلمة الانتفاع حتى يجد نفسه أمام هذه الحقيقة المهمة التي ينبه عليها ابن سلام بقوله :

* وفي النمر المصنوع بفتن مؤثر كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا معنى يستخرج ولا شئ يضرب ولا مدح رائج ولا هجاء مقذع ولا فخر متعيب ولا تعيب مستطرف وقد تدأله قوس من كتاب إلى كتاب لم يأخذ به عن أهل البادية ولم يصرفه على العلماء ولهم لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شئ منه أن يقبل من محينة ولا يروى عن محض * (٣)

(١) الزهر ج ١ ص ١٢٥

(٢) طبقات نحون الشعراء ص ٥٠

(٣) طبقات نحون الشعراء ص ٥٥

وليس ابن سنان تنقبه للمصر الممنون وهو يتحدث عن شعراء طليقاته ولم يكف بهذا
 قومه في بداية كتابه فراح ينص على المصر الممنون يحذر من التمويل عليه . يقول :
 (ولأبي « غيان بن الحارث » مصر كان يقول في الجاهلية فسقنا ولم يمل إلينا منه
 إلا القليل ولنا بعد ما يرى ابن سنان له ولا لشبهه شعرا ولا يكون لهم مصر أحسن من
 أن يكون ذاك لهم » (١)

محمد فإذا كان العلماء قد نهوا - كما رأينا - على مظاهر الوضع والانتحال وأوضحوا
 ما في الشعر الممنون من افتتان وذلك في عصر الجمع والتدين - الذي ارتبنا أنه يسند
 بالنسبة للمصر في بداية العصر السياسي - فليس من القبول أن نذهب إلى ما يقال عن قسوس
 انتحار والاضطراب في عصر العصر السياسي . ذلك بأن هذا المصر كان عصر حضارة
 ولم يمت فيه أعمار القدماء وذوت ذرايعهم فحينئذٍ هو من تراشيد . . . ولم يمت
 لعصر الوضع والافتتان الشعر التأثير الذي كان لها من قبل فقد ذاب الصراع بين العناصر
 المهمة في المجتمع الجديد ولم يجد لنفمة الاعتزاز بآثر القبيلة والباطنة بأجاد هــ
 مكان في دولة بني عباس التي تلامح فيها سلطان السرب ولم تكن مثاليه الأسس
 خالصة لهم . . .

وإذا كانت قضية الشعر في الشعر الجاهلي قد خلقت أكبر الصارك الأدبية في الشعر
 الحديث فإن الشعر الجاهلي - من هذه الحركة قويا - لها وكشف الباحثون عن مصادر
 تدقيقه وأزالوا الجهات التي أحاطت به وحامت حوله . . .

واعتقد أن هذه القضية قد أخذت حثها من البحث وأفاض فيها جماعة من خـ
 الباحثين في الأدب العربي في العصر الحديث . . .

ومع ذلك فإن أحد الباحثين الحديثين (٢) حاول أن ينقل حركة الشعر الجاهلي
 إلى العصر السياسي لأن الشعر السياسي تعرض - في رأي الباحث - لـ وامل - نهاية لتلك
 التي تعرض لها الشعر القديم والتي أحدثت به ما حدث من تخطيط واقتمال . . . ونحـ
 تعرض فيها على خلاصة لرأيه ثم نقاسه ونبين موقفنا إزاءه :

يرى الدكتور علي الزبيدي في كتابه عن الأدب السياسي - أن القضية السياسية
 والمصيرية المذهبية كانت من أسباب انتحال الشعر في العصر السياسي كما كانت من أسباب

(١) طليقات فحول الشعراء

(٢) هو الدكتور علي الزبيدي في كتابه " في الأدب السياسي "

الانتحان في العصر الجاهلي ويذكر أن الهجرة كانت في أواخر القرن الأول مركزا للدراسات الدينية والفقهية كما كانت مركزا لرواية الشعر والفخر والتاريخ وقد استقرت فيها قبايس من مخالفة تؤقت على المدينة في أخماس فتوزعت المسيحية القبلية على تلك الأقسام كما تسلمت في البرد وفي الأوساط اللغوية والأدبية عصيات قبلية أخرى . . . وذكر المؤلف أنه لم يكن يفتي وقت طويل على الفتح الإسلامية حتى استمدت المشائفة بالملوية واحتككت البصوات المحايدة بالمشاعر المتحيزة حتى إذا أشراف القرن الأول على الانتهاء رأينا الرواة يتوزعون على المصنجات المختلفة . . . فلما نظمت الحركة العلمية ظهر المختزلة الأوائس واتفحت شذونات أخص الرأي وفي الوقت نفسه كان الفرعون ينقلون تراثهم فيتمسك به بعضهم ويظهر المسيحيون والزنادقة وشاهرا آثارهم في هذا في رواية الأدب القديم . . . حتى إذا كان القرن الثاني ظهر شعرا وكتاب آخرون وقصص أخبارهم وأخبارهم تمت تأثيرهم على كل تشابهة وشذوحت لبعض الرواة أيضا (١) وذكر المؤلف من أسباب وضع الشعر في العصر السياسي - الصراع بين الزنادقة والاشاعرة والشيعة والصراع بين تلك المذاهب والنحل كالشيعة واليهودية والمختزلة والحنابلة . . . وقد ضلح قسم كبير من النتاج الثري والشمس بهذه المماراة الدينية والسياسية فأدب الزنادقة من شعر ونثر طردته الدولة وأثلثت به لا في زمن المهدي والهادي والرشيد فقط بل في أثناء القرون التالية لهم . . . فالمحركات الدينية قد غصت الأخبار فزادتها دولا ومرضا حتى أصبح الباحث في حيرة وأربس ساك لا يفرق بينها غير الحذر الشديد . . . ثم يقول :

" ولا أهاج إذا قلت ان للباحث الحق في الحق إذا شاربوا روى بكل مسند "
 الأخبار والأشعار في سلة السمات " (٢) ٢٢٢

ويعد الزبيدي - ضياع بعض العصر الشيعي مشكلة ضخمة تحتاج إلى بحث كبير ويستدل بما يروى عن كثرة شعر السيد الحميري وينقل مقالة الجاحظ عنه وكونه من الداهيين الذين لم يستطع أحد أن يجمع شعرهم لكثرة . . .

وقد تمسك باحد آخر - هو الدكتور محمد مصطفى هدارة - آراء الزبيدي ونفسه مزاعمة - وقال حمد أن أورد مجمل آراء الزبيدي الذي لخصناه آنفا :

(١) في الأدب السياسي وعلى الزبيدي (بتصرف واختصار) من ١٢٢ . . .

(٢) المرجع السابق من ١٤٢ . . .

* هذه آراء الزبيدي التي يورد من ورائها مد فكرة الشك الى المصنف المصباسي بالرغم من تعدد بين المصنفين وبالرغم من أن شعراءه كان أغلبهم - إن لم نقل كلها - يفسرون ويكتبون ويسجلون أفعالهم * * والكاتب نفسه يؤكد ذلك ويقول أن بهمار بن برد كان لسانه رواية اسمه يحيى بن الجون المهدى ولأبي نواس راويان هما علي بن الفضل وأبو هاشم وكان أبو المتاهية يستخدم أحد الكتاب المتهنئين لكتابة أشعاره تحت إشرافه - ولكن الباحث على الرغم من ذلك يظن في هذه النسخ المكونة ونسب إليها التخليط والمبطل^(١) ويرد المؤلف على الزبيدي بما مضمونه :

* أن عوامل الشك في الشعر الجاهلي والاسلامي قد زالت تماما في القرن الثاني * فالشعر لم يعد يعتمد على الرواية والرواة اعتادا كلها بل كانت الرواية وسيلة من وسائل إذاعة الشعر ونشره فحسب أما الوسيلة الأهم فكانت تدوين هذا الشعر أما بأيدي الشعراء أنفسهم وأما عن ريق كتاب يمدد اليهم الشعراء بهذه المهمة وكذلك انتشرت الكتابات وكان كثير من المذاهب والأمراء يأثرون بتدوين الأسماء التي تروىهم * وعلى ذلك فقد كان الشعر في القرن الثاني محل عناية أوساط كثيرة في المجتمع وليس محل عناية علماء اللغة وحده * * الخ * (٢)

والذي نراه نحن في هذه القضية أن الزبيدي كان متجاهلا على الشعر المصباسي في معظم ما قاله فهو على سبيل المثال يقرر ضياع كثير من الشعر القديم ويعتد في ذلك على رواية صالح فيها حول كثرة شعر السيد الحنبري وقلة ما بأيدي الرواة منه وهذا من أن يتحفظ الباحث في قبول هذه الرواية على ما هي عليها نتائج متشككة طاعنة وثاء طريقة تروى الى التيه لا الى اليقين * * ثم ان ضياع الشعر شيء وانتحاله والمبطل فيه شيء آخر فإذا كان بعض الشعر المصباسي قد ضاع فلا ينبغي أن يكون ذلك سببا في أن تشكك فيها بين أيدينا منه ولعل الباحث نفسه لا يستطيع التذليل على بقا شعر شاعر واحد من شعراء المصباسي كما لا غير منقول * * فإذا كان الزبيدي يقرر ضياع كثير من شعر الشيعة والحنابلة والمعتزلة والزنادقة فلا عجب - في اعتقادي - بين هذه المسألة وبين الشك في شعر المصباسي * *

أما مسألة المصبات السياسية والمذهبية فلانوافق الزبيدي على أنها تسببت في انتحال الشعر كما حدث بالنسبة للشعر الجاهلي * لأن المصبات السياسية والمذهبية تسببت

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري * د * محمد مصطفى هدارة ص ١٢٢

(٢) اتجاهات الشعر ص ١٣١ (باختصار) * *

المصر المباسى كان لكن منها شعراء يتبنون آراءها ويدافعون عنها . . . فللمباسبين شعراءهم وللملوكيين شعراءهم وللمخوان شعراءهم وللمشعبيين شعراءهم وكذلك الحال بالنسبة للفرق الدينية . . . فما الداعي الى اتحدال المصر وافتحاله ؟ مادام الشعراء كثيرة ومادات الحريات مكفولة لهم لا اختيار المذهب الذى يبيلون اليه ؟

و فرق كبير بين وضع الشعر على ألسنة الجاهليين بفعل المصنوعات السياسية وبين ما يدعيه الزهيدى من وضع الشعر فى العصر المباسى . فالمصنوعات السياسية فى عصر صدر الاسلام وضعت الشعر ونسبته الى الجاهليين لما استقلت الشعر الروى لهم ولم يسمفها فى تحقيق دعاؤها السياسية . وقد كان ما ذكره الدكتور طه حسين عن هذه الظاهرة لصح ما فى بحثه عن الشعر الجاهلى وأقره الى الصواب . فيما أرى . فقد قرأ أن المصنوعة السياسية " كانت من أدم الأساليب التى حلت العرب على نحل الشعر للجاهليين " (١) ويقول : " ونحن لا ننفق عند استخلاص هذه النتيجة وشيئا يلزمنا وإنما نستخلص منها قاعدة علمية وهى أن ملوح الآداب مضطرب حين يقرأ الشعر الذى يمسى جاهليا أن يشك فى صحته كلما رأى شيئا من شأنه تقوية المصيبة أو تأييد فريق من العرب على فريق هوجب أن يرداد هذا الشك كلما كانت القبيلة أو المصيبة التى يؤيدها هذا الشعر قبيلة أو مصيبة قد لمبت . كما يقولون . د روا فى الحياة السياسية للمسلمين " (١)

فما وجه التشابه اذا بين عصبيات صدر الاسلام التى وضعت الشعر ونسبته الى الجاهليين وبين عصبيات العصر المباسى التى قالسها الزهيدى عليها . . ؟

وأخيرا فلعلنا نكون قد رسمنا صورة واضحة للدراسات الشعرية فى القرن الثالث واسهام بيثة البصرة فيها . . ولعلنا لا نكون مبالغين اذا قررنا ان الاهتمام بالشعر قد بلغ غايته فى القرن الثالث الهجرى وعلى الأخص فى بيثة البصرة . وكتب الباحثون كثيرا من المؤلفات فى طبقات الشعراء وكانت بيثة البصرة مصدرا لجانب كبير من هذه الدراسات سواء عن طريق تأليف البصريين أنفسهم أم عن طريق من تلقوا العلم على أيديهم واعتنقوا مذهبهم . .



فن الفن المعنى حقيقة مطلقة متأثرا بمكانة مادية في نفوس العرب وقسسى
لأسد حميد أداة طيعة وقالها أثيرا لانفعالاتهم البياضة ومواقفهم المستارة فانكاه
بحوض لمن له منهم من ملكة الهيان حظ - أمر يشغله أو حادث يوقه حتى يقن السيسى
الفرانى يشبهها ما يبدد ويحدها ما يحس لبيد ما شمس في حاجته وتبانه ما يبدد ...
وكانت هذه المكانة التى يلبسها الفن المعنى بين العرب متواضعة من حياتهم ومزاجهم
وتتميز به متميز من عذابة وظلمة ..

وسن أن العرب اعتدوا على الكتابة في كثير من مشغولهم بعد أن شرفهم اللبس
بالأدب فكان لهم في الأوان ودانت لهم السالك وتدللت لسلطانهم الدول - فسان
المكانة التى احتلها الفن المعنى بقيت كما هى ولم يستطع فن الكتابة أن يطاول فن الشعر
الا في القرن الثالث الذى يدخل بحثنا في نطاقه ..

وجع اعترافنا بأن الاهتمام بأمر الكتابة بدأ منذ عهد بنى أمية وأن عهد الطليح حسن
مروان استحدث ديوان الانشاء وأن أمر هذا الديوان عظم في آخريات دولة بنى أمية
من فيه طائفة من غيرة الكتاب أشهرهم عبد الحميد الكاتب الذى يقول عنه صاحب المقد
الفريد أنه " أول من نشى أكام البهقة وسهر طريقها وله رقاب المصر " (١) مع اعترافنا
بذلك كله فاننا نرى أن الكتابة الفنية انتقلت الى طور جديد في القرن الثالث ظلم
تعد محصورة في نطاق الديوانيات أو دائرة حول المسائل السياسية فقط بل غدت
الوسيلة السهلة في التعبير عن المواقف والمشاعر وأصبحت تعبر عن مختلف الأغراض
وشتى المآرب وحظيت باهتمام العامة والخاصة ..

ولمنا ندرك منزلة الكتابة في المجتمع في القرن الثالث من المكانة التى بلغتها
طبقة الكتاب فيه فقد كان الانتلاء في ديوان الرسائل أمنية الأدباء والمثقفين
في هذا العصر وحسبنا أن تشير الى أن لها عسان الجاحظ تطلع الى شمس هذا
المنصب واستغرق له وأسمه : " عسر في ديوان الرسائل لها العاشر ثلاثة أها

ثم استعملوا قاعلي^(١) وجاروا بسبب عدة اقامته بهنداد من بيده للكتب والرسائل المستق
يصنعها للخلفاء والأمراء تأييدا لهم وانكارا على خصومهم يقول أحد المستشرقين
تمليقا على تكسب الجاحل بالرسائل والكتب :

" وهذا أمر لا يخلو من الأهمية في تاريخ الآداب العربية إذ تعلم أن الصلات
والجوائز كانت تتدفق على الأمراء عند مدحهم الطوك والكبراء لا على أصحاب النشر
فبدون ذلك إذا على أن النشر كان حينذاك على وشك أن يقف على الشعر في بعض
الأحوال فالشاعر لا يزال يمدح ويهجو ولا تزال قبايده تروى وتند وتنفذ إلى أقبسدة
الناس وأما الظاهر فيلزم الكتب ويحور الرسائل انهما لموافق السلطان وانحامها
لخالفيه فيملها التركبان - كما يخبر انبساط - وتسير في الآفاق تشتد إلى الأذهان^(٢)

يلخص الدكتور طه حسين حالة كل من الشعر والنثر حتى القرن الثالث الهجري
بقوله : " . . . في القرن الأول للهجرة لم يكن هناك شرط للنشر وكان الشعر هو اللسان
الذي يدير عن الأمة العربية في حياتها السياسية وفي السياسة في القرن الثاني
ظهر النشر وكان الكتاب يحارون أن يكتبوا لأنفسهم مكانة فلما انتهى القيسرون
الثاني كان النشر قد وصل إلى ما يريد واستطاع أن يزاحم الشعر وأن يقف معه جنبها إلى جنب
وفي القرن الثالث أخذ يشق عليه فلم يبق الشعر هو اللسان الوحيد الذي تضطرب
الأمة إلى أن تتخذ من رجائه لحياتها انصاة وإنما شولسان من لسانين أحدهما
النثر^(٣)

ازدهرت الكتابة الفنية في القرن الثالث ماضى ذلك شك فإذا أردنا أن نلتم بعض
أسباب هذا الازدهار ودوافعه أمكننا أن نلخص أهمها فيما يلي :

أولا : اقترنت وظيفة الكتابة بالخطر وظائف الدولة وأرقاعها وهي الوزارة وذلك منذ بداية
الدولة المملوكية فقد كان أبو سلة الخلال الذي لقب " وزير آل محمد " ^(٤)
يقول بحسب الكاتب^(٥) : " بلغت شهرة جعفر بن يحيى البرمكي في الكتابة
والتحقين القاية^(٦) " وفي القرن الثالث نجد محمد بن عبد الملك الزيات يذيع
عنه ولمن تبعه ويصل إلى مناصب الدولة لأنه كاتب من أشهر الكتاب قال عنه
ابن النديم في رسالته المذراة :

(١) مصب الأديب ج ١٦ ص ٢٨

(٢) أمالة الجاحظ - ج ١ ص ١٤

* وفي القلم خاشع الطرف مشير الذمار لثيم الجندى من عز التجار وشا
بين النكبان والبرزان كيف أشالت (١) البهجة بدهميه ورفعت من ناظره حسنة
هائمت به عنان السماء ورفعت بقاء فوق البهاء حتى ظلم الراكب قدس سمعه
الطالب وخامست له الرببان ولحظته السيمون بالوقار وشكن من الصنائع ومدت نحوه
الأصابع تنكرت منه اللطافة ورجعت اللطافة كحسد بين عبد الملك والزيات وفيه
يقول علي بن الجهم :

أحمد من عار بن بيتا سدي	جمعا صناديق في بيتا
ما أحمى الملك إلى قلبه سيرة	تفلس هذه وضرا الزيات
لأبواه محمد بن عبد الملك :	
رقبت في النور إلى خطه سيرة	قدرك فيها قد تعد بيتا
غير ثم الملك علم تنق سيرة	حتى فطنا القار بالزيات (٢)

وكان محمد بن عبد الملك الزيات ينسب إلى أسرة من قرية يقال لها
الدسكرة يربى منها الزيت هذا حياته يتجر في الزيت مع والده ثم ما إلى الأدب
ورغب في الكتابة فترك على العنبر وانصرف إلى مطالعة العلماء والأدباء حتى
بلغ مكانة سامية أبلغته للوزارة ويرى صاحب خزانة الأدب في سبب توليه للوزارة
ما يدل على سعة ثقافته وكان أدهم يقول :

* كان أحمد بن عمار الهجري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض
الاعيان فقرأه الخزيوطيه فاذا في الكتاب ذكر الكلافان له المعتصم ما الكلافان
فكان : لا أعلم . . فكان المعتصم : خليفة أمي وزير عاصي قال أسروا من الباب
من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك فكان له ما الكلافان هو المصعب على الانلاق
فان كان رطبها فهو الخلال واذا يمس فهو الحفصين ونوع في تقسيم أنواع النباتات
فعلم المعتصم قبله فلاستوزره وحكمه وسط يده (٣)

ثانيا : تعدد الذوق الماه في المجتمع البعدي الذي تحضر ودخلته عناصر أجنبية لهما
لشونها التي برقت فيها وحذقتها فلما ثقف هؤلاء لسان العرب وتخلوا بجانهم
واستوعبوا بنفوسهم وجدوا في الكتابة المرسله وسيلة ميسورة للتعبير عن أنفسهم

- (١) في القاموس المحيى : أشالت الناقة بذنبها . . شولا بضم لا وأما أنه رفعت به :
والفهم أن المعتصم ألقى البهجة أرغمت بها من الزيات وأمكنه إلى مكانة سامية
(٢) الرسالة العذراء عن آغا نصر وتحقيق د . زكي مبارك .
(٣) خزانة الأدب ج ١ ص ٢١٥ ط ٠ بولاق . .

وتأدية المعاني التي تجيش بها مدونهم . . . وتجدد عنا الإشارة السلي
أن أشهر الكتاب الذين أرسوا دعائم فن الكتابة في الأدب العربي
من أمثال أبيهية أمثال عبد الحميد الكاتب وابن القلي وغيرهما يقسمون
أهل هذا المسمى في شأن عبد الحميد مشيرين إلى استفادته من معرفته
بأصول الكتابة في اللسان الفارسي :

" ومن عرف ترتيب المعاني واستصان الألفاظ على وجهها بلغة ميسرة
اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تبيا له فيها من غنمة الكلام مثل ما تبيا له
في الأولى ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استغنى أشد الكتابة التي رسمها لسان
بمنه من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي " (١)

ثالثا : استطاع الكتاب بمالهم من ثقافة واسعة ومعارف متفيزة أن يجعلوا من كتابتهم
فنا شرفا فيه متعة للمفسر ورياسة للذوق وارفاء للمواظف والهاب للمشاغرين
وحسبنا أن تعلم أن الذين تصدروا للكتابة كانوا على قدر كبير من الفهم
والذوق والعلم والدراية وكانوا ذوي ثقافة أدبية من نوع خاص يقول أبو حسان
البياض منها بالكتاب مشيرين إلى حسن فهمهم للشيء ودقة معرفتهم بالمعاني . . .

" . . . ولم أر غاية النحويين إلا أن شمر فيه أعراب ولم أر غاية رواة الأخبار
إلا أن شمر فيه غريب أو معنى سمح يحتاج إلى الاستخراج ولم أر غاية رواة الأخبار
إلا أن شمر فيه السامع والثل رأيت عايشهم فقد طالت مشاهدتي لهم
لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المتشعبة وعلى الألفاظ المذبة والمضار
السهلة والديهاجة الثريسة وعلى الطبع المتكبر وعلى السبك الجيد وعلى كل
كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في المدون مرصتها وأصلحتها
من الفساد القديم وفتحت للسان باب الهلقة بدلت الألفاظ على مداهن الألفاظ
وأشارت إلى حسان المعاني . . . رأيت العصر بهذا الجوهر من الكلام فسمي
رواة الكتاب أم وعلى نسخة خذاق العصر " (٢)

وأما : سهولة الكتابة وخلوها من قيود الوزن والتقييد والمواظف للتمهيد من مختلف الشعائر
والأحاسيس ، وقد أتاح لها هذه الزايا الذيع والانتشار وضعت لها
البيان فصيرت عن حاجات الناس وأصح من المؤلف أن يتوصل بها ذوا الحاجات
إلى الغلاء والأمراء والوجهاء بمد أن كان العصر هو الوسيلة إلى مثل تلك

(١) الصناعات ع ٥١

(٢) البيان والتمهيد ح ٢ ع ٢٥٥

المسارح * ونحن في هذه الحكاية الدقيقة التي رواها صاحب الرسالة المذكورة وهو يتحدث عن وجوب مراعاة حال المكتوب اليه في الكتاب ما يدل على لجوء الناس الى الكتابة والاعتداد عليها في العصور التي ما يردون * يقول ابن النديم :

" سألتني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاسي وكان أكتب لي قصة سهلة بليغة الألفاظ فقلت له دعني أكتب لك ما يصلح للقراءة فذهب وقال : ما أسأل أن تصليني شيئا وأنا أسألك هذا المعنى الرخيص فاحتلت عنده لئلا فكتبت له قصة لا تصلح الا أن تدعى لرؤية ابن الصبح يقرؤها أو الدارم - سام فلما حصلت بهذا الثاني أراد قراءتها فإذا هي بدالة عليه فقال له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم * قال : إذن أقرأها * فذهب ليقرأها فإذا هي بالسودانية استصعبا ما عليه فقال له أطلع الله القاسي * أنا أقرأها في بيتي فقال له ناطل السب حاجتك إذن في بيتك * فرجع الى غصيان أسفا يمتن ويؤذي وسألتني أن أكتب له قصة على ما أرى فكتبت له كتابا يسميه أن يكون من مثله الى القاسي فقرأه وقنعني حاجته وطمأن أنه لن يكتب واحدة منها * (١)

وهناك تصورات كتابية كثيرة من القرن الثالث عشر على استخدام فن الكتابة في مختلف الأفراس ونسبها في نبي الناسبات ..

كتب الحسين بن الحسن بن سهل الى خديج له يدعو الى مجلسه ومفاد له العترة الجميل الذي ينظره فيه قال :

" نحن في مأدبة لنا تشرف على رؤيتك فمأدبة الفصحى حسنا قد باتت السماء تملأها فبين شرقا بائنا حالوة بنوارها فأريتك فينا لتكون على سراء من استعجابنا بمضنا بهمين * فكتب اليه عديقه : " هذه مفة لوكنت في أقاصي الأرض لوجب انتجاعها وحث العطن في ابتضاها فكيف في موضع أنت تسكنه ووجع الى أنيسق منظره حسن وجهه وطيب معائك وأنا الجواب * (٢)

وهذا نرى آخر يد على أن الكتابة في القرن الثالث أصبحت فنا أدبيا يصير عن الأفراس الوجدانية التي كان النصوصم الطالب الوحيد لها من قبل * روى صاحب معجم الأدباء بسنده عن " عبد الله بن جعفر الزكي قال : كنت يوما عند إبراهيم ابن النديم فقرأت بين يديه رقعة يردد النظر اليها فقلت له ما هذا هذه الرقعة ؟

(١) الرسالة المذكورة ص ٢٨ بتحقيق الدكتور زكي مبارك ..

(٢) المعقد النريد ج ٤ ص ٢٢٥ ..

كأنه استصحب عليك شيء منها ؟ فقال : هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ وكذا
يحبيني وأنا أردده على نفسي لذة أعجباي نقلت : هل يجوز أن أقرأها ؟
قال : نعم وألقاها إلى فاذ فيها :

" ما شاء لي نهار ولا دجالين منذ لم أرقتك إلا وجدت الشوق إليك قد حزنني
كبدى والأسف عليك قد أسقطني يدي والنزاع تحوّل قد خان جلدي فأنا بمسكين
حدا مخافة ودعة مهراقية ونفسي قد ذهبت بما تجاهد وبها واتج قد أبليت بها
تكايد وذكرت وأنا على فراش الارتقاء من لذة الأغاني قوس بنار :

إذا كنت القصرى تازعنى المهرى يأسوق قلبى أملاء دموعى من الوجع
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكما كاه الزمن شبيب من الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما كان بين الصبر والمنبر السود

فانتقام وصف ما كنا نتعاشر عليه ونهوى في مودتنا إليه في شعره هذا وذكرت
أيضا ما راني به الدمر من نركة أعزائي من اخواني الذين أنت أعزهم ويحتضني بمن
تأى من أحمائي وخلصاني الذين أنت أحصهم وأخلصهم ، ويجر عبيده من مسرارة
نأيهم وبعد لقائهم وسألت الله أن يقرن آيات برورى بالقرب منك ولين عيشي
بسرعة أو يترك أهباقا تقصر من سنة وجدى وكنت ما بينه منى قلبى وبلى :

يخدى من قطر الدمع ندى وب والقلب منى منذ تأيت و يسب
ولى نفسى حتى الدجى يهدى الحدا ورجع حنين للتلواد بديسب
ولى ما بد من ضر نغم ومقصد يخبر عنى أنى لكيسب
كأنى لم أضج بفرقة صاحسب ولا غاب عن عيني عواك حبسب

.. نقلت لابن الدبر هذه رقعة عاشق لا رقعة خاد ، ورقعة غائب لا رقصة
مأضر فضحك وقال نحن نبحث مع أبي عثمان إلى ما عوارق من عذا والطف نأى
النيهة فأننا نجتمع في كل ثلاثة أيام وتأخر ذلك لئلا نعرض لى فخطأهنى مغالاة
الغائب وأقام انشغال المادة مقام النيهة " (١)

ولمن عذا النص يظهر لنا بوضوح ارتقاء الذوق والترق الفنى السدى
أصبحت الكتابة مخرم له ..

والكتابة أقدر لتمكن الأدب على الخفاء بحاجات العقول والضمير عمن
دقيق الفضاها واستقصاء الأفكار . وقد تكون هذه الرسالة التي وضعها أبو عثمان
الجاحظ في معنى الزمان أنسب مما قد لنا على ما نقل فان ما فيها من استقصاء
لأفكار وفهم براه المعاني ما يجعل من الحصر على الشعر أن يجر من محتواها
بعض الحق والاستقصاء الذي عبرت الكتابة عنه إذ من المعروف أن الشاعر
لا يستقصى الأمر وإنما يلخصها عن بعيد ويحور حولها دون أن يدور في تفاصيلها ..

يقول أبو عثمان فيما كتب به إلى بعض الخوادم :

" بسم الله الرحمن الرحيم - حدثك الله عظم من وقته للقطاعة واستعمله بالله العسة
كتب إليك وحالي حال من كانت فيه وأحكمت عليه أسره ، وأثبت عليه حال دهره
وبغني أموه من عنده من يشق بوزنه أريدك منة أخاك لا متحالة زمانا
وساد أيا ما ودلة أنذا لنا وقد ما كان من غدي الحيا على نفسه وحكم المديق في قوله
وأثر الحق في أسره ونهد المستعربات عليه من شقونه به تمت له السلامة . فإن هو حبط
المرقية وحده منية مكروه العاقبة فنلونا إذ حال عندنا حكمه . وقد كنت ولتسه
فوجدنا الحيا متصلا بالحرمان والمديق آفة على العال والقصد في الدليل
..... دأبلا على سخافة الرأي ثم نلونا في تعقب المتعقب لقولنا
والكافر لحجبتنا فأقمنا له علما وأنها وما عداها قاتبا ونارا بينا إذ وجدنا من غيبه
المفوية الواضحة والمثالب الباضحة والكذب البهرج والخلف المصير والجهالة
الخطرة والركالة المستنفة وضمف اليقين والاستبانت وسرعة الغضب والجراءة - قد
استحسن سروره واعتدلت أسره وفاز بالسهم الأغلب والحظ الأوفر والنقد الرخيص
والجوار المباح والأمر الفائق . ان زل قبل حكم وان لخدلا قبل أعاب وان هسدى
في كلامه ومو يقظان قبل رميا صادقة من نسبة مباركة . فهذه حجتنا - والله -
على من زعم أن البهل يخفى وأن النوك يردى وأن الكذب يضر وأن الخلف يزرى
ثم نلونا في الوفاء والأمانة والنس والبنية وحسن المذهب وكمال السيرة
وسمة الصدر وقلة الغضب وكرم الذميمة والفائق في سمة علمه والحاكم على نفسه
والتألب له سواء فوجدناه فلان بن فلان ثم وجدنا الزمان لم يتصفه من حقه
ولا قال له بوظائف فرمه ووجدنا فدا له القائمة له قاعدة به فهذا دليله

فهذا الاعتناء للفكرة والتمسك بها لا يؤديه حق الأدب إلا هذا الجنس الأدبي الذي يشكك الأديب في خالقه أن يحدث في النفوس الأثر الذي يريد به هذه الأنماط من التوازن والمزاوجة ويقابل بين المتناقضات ليدلنا على عمق احساسه بالألم من هذا الزمان المريب المبني على المفارقات الصارخة والأوضاع الممكنة ..

سادس : اختل الكتاب مكانة مرموقة في الدولة فحرموا على الاحتفاظ بهذه المكانة وذلك في سبيل حفظ هذا الفن جهدها كبيرة وأغلبوا لصناعة القلم فارتفعت بهم السسلى إلى الدرجات ولم يبق في هذه الحكاية التي يروونها صاحب معجم الأدباء عن إبراهيم بن الهيثم الصولي أحد الكتاب المبرزين في القرن الثالث ما يستدل على ثبات الكتاب في مناعتهم وأغلبهم لها اختلافا يقارب حد التقديس . يقولون :
يقولون :
يقولون :

" قال أبو الهيثم : كنت عند إبراهيم بن الهيثم وهو يكتب كتابا فنقطت القلم نقطة فمدته فمسحها بكفه فمجهت فقال : لا تصوب العال فرع والقلم أصل ومن هذا المولد جاءت هذه التباين والأصل أحيى إلى العناية من الشر " (٢)

تلك هي الدوافع التي نعتقد أنها ساعدت على شيوع فن الكتابة واتساع مجالاته في القرن الثالث .. ويهبط في دراستنا للكتابة أن نلج إلى أهم سماتها وميزاتها كما ثم نعرض لأصول التقديس التي وضعها النقاد في القرن الثالث، لها بحسبانها تمكس الاهتمام العام بفن الكتابة والاحساس بضرورة وضع الأسس السليمة له لتكون بمثابة يهتدى على نموها المالكون ..

ونحن إذ نحقق حقيقة يجب أن نشير إليها قبل أن نعدد خصائص الكتابة لا اعتقادنا أنها بأنه ينبغي عليها ونشئ منها مجال ما يتخلله : تلك الحقيقة هي أن الارتقاء الثقافي والنهضة الفكرية والحضارية التي وصلت إليها الدولة الهامسية في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والتي تمثلت في التعرف على ثقافات اليونان والفرس منسجمين طريق الترويسة والامتزاج بين الأجناس المختلفة .. هذه النهضة لم تظهر نتائجها

(١) جبهة رسائل العرب ج ١ ص ٥٣

(٢) معجم الأدباء ج ١ ص ١٦٦

(١) التعمق والاستقامة من ناحية الأفكار ..

(٢) البروح وهدم التكلف من ناحية الأسلوب ..

وتعد نصوص هذه النخبة في عوالم الملوك في هذا العصر هي كتاباتهم
وسايلهم بكل ما أفرغهم وعنده آثار الجاحل وابن خيبة وابن المعتز وابن سلام والأصمعي
وفيه لا تكاد نجد فيها أثرا للتكلف أو الفوضى أو غير ما دعا على التواء الفكر
أو إثار الحلية اللفظية على حساب المعنى كما ناع بعد ذلك في كتابات القرن الرابع
وما يليه من القرون على أيدي مناق الممنعة اللفظية الذين كانوا ينحون بالمعنى من أجل
اللفظ ينحون المنحون من أجل الشكل ..

كانت الكتابة في القرن الثالث إذا خلقة اتصال بين طريقتين من الطريقتين
الكتابة في الأدب العربي إذ كانت قبل القرن الثالث محدودة في نطاق شيق هو نطاق
الديارات في القرن الثالث اتسع نطاق الكتابة وعظم أثرها فصارت تعالج مختلف
الموضوعات وتدخل في شتى المجالات مع الاهتمام ببسط المعاني ووضوح الأفكار والنجاسة
استقامة وأشجان الكتاب على ذلك بتكرار الجمل المتوازنة والمعارات المتبادلة التي
تؤكد المعنى وتقرره وتكسب العبارة جرسا ووسيقى رقيقة بحيث تستلزم أن تقسم
أن الكتابة في القرن الثالث كانت متوافقة من حيث الشكل والموضوع فالعبارة على قدر المعنى
الذي هو الأساس وإن تكررت العبارة ليقصد إيضاح المعنى واستقامة الفكرة والاهتمام
باللفظ لا يدل على المنحون ولا يعد وأن يكون إثارة للمعارات الجزلة والألفاظ
المتعدية الملائمة للمعنى ..

محمد القرن الثالث بدأت يدعة الزخرف اللفظي تتأثر باهتمام الكتاب ولم يكن
هناك من يأمر به ذلك على الكتابة الفنية لو أن الكتاب كلهم كانوا على ما كلفه صاحب
أول ابن السيد في البراعة والتشويق الصناعة وفي سعة الثقافة والتخوف على كنه الميسر
ولكن غالبية الكتاب كانت الحلية اللفظية هي كل اهتمامهم في هذا الميدان ولهذا
الانحدار الذي عانت إليه الكتابة وانتقلت عدواه لتعمل مختلف العلوم والكتابات ولم
يشكك الأدب العربي من التعلل منه إلا في العصر الحديث ..

(١) بهذا جانب من رسالة أبي عثمان الجاحظ في الحاسد والمحبين نفس فيه وضوح

النكرة واستدراكها واستدانة الكاتب على ذلك بتكرار الجمل القصار السبني

يراني بينها ويظهرها بالترادفات لتأكيد المعنى وتوبيخه يقول :

"... متى رأيت حامدا يهرب لك رأيا وإن كنت صديقا أو يرمدك إلى مسلوب

وإن كنت مخلقا أو نسيج لك في غيبة عنك أو فسر من عيبك لك هو الكلب الكلب

والنمر الحرب والسم النقيب والنحن القوم والسين السمر إن ملك قتل وسيسبي

وإن ملك غيب ونفى : حياتك موته وجوره وموته عرصة وسروره يصدق عليك كل ما همد

زور ويكذب فيك كن عدس سرعى لا يحب من الناس إلا من يهضرك ولا يهضم من الناس

إلا من يحبك : عدوك يذائنه ومد يقاته عدوته وأنتك ريبا غاديت في أمره لما يظهر لك

من بره :... وما أرى السبعة إلا في قطع الحاسد ولا السرور إلا في اقتقاد وجهه

ولا الراحة إلا في صدق عباراته ولا الوبح إلا في ترك عافاته فإذا فعلت ذلك

فكن غنيثا والحرب مريثا ومن رغبنا ومترقى السرور مليا ونحن نأل الله الجليل

أن يعطينا كد رقلونا ويغنينا وإياك دنائنا الأخلاق ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق" (١)

وبدأ رسالة في "الشكر" للحسن بن حرب تلمع فيها أيضا وضوح النكرة

التي يبرع فيها الكاتب في أسلوب الجمل لا تكلف فيه ولا غشوى يقول :

"من شكر على درة وثمنه الجها أو شجرة أقدته عليها فإن شكرى له على

مهجة أحببها وحداثة أبقينها ورمى أسكت به وقت بين التلغ فيه للكر نعمة

من نعم الدنيا حد ينتهي إليه مدى يحرق عنده وفاة من الشكر يسمى اليوم

الدوق خلا هذه النعمة التي قد نأقت الجحف والتالكر وتجاوزت قسده

وأنت من وراء كى غاية رددت عنا كيد المد وأرغبت أنف الحسد فنحن نندب منك

إلى ظلى ظلمين وكف كرم فكيف يشكر التاكر وأنى يبلغ جهد البهتد" (٢)

(٢) اعلم الكتاب في القرن الثالث بتقدير كبير بالعناء الذي يقام به مع طاعة

مسهل لما يأتى في طلب كبير ومائلهم من أبو عثمان الجاحظ في استعمال

قراءه بظك التبتداعات الدعائية والجمل الدماوية التي يكثر فيها في أثناء الكلام

فيداعب بها ما يمر من يكتب اليوم مهدهم حناياهم هتلى مدائحهم ويستغنون

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٠١

(٢) المعقد الفريد ج ٤ ص ١٣٣

أن الكون عندنا من التسمي إلى تزيي الصفة . فيجوز أن يكون له صفة .
قال عبد الوحد بن حسان بن ثابت :
ولن امرء أسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لنفسه

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى نفسه ذموا بالحق وبالطريق
فإن كنت اجتريء عليك - أصلحت الله - فلم اجتريء - إلا لأن دأب هذا لك
عنى فيه بالانسان الذي يورث الافتان (١)

(٢) انتهى الكتاب بمراجعة المقامات المختلفة من حيث الإيجاز والأدب . وكانوا يعملون
في الغالب إلى الإيجاز لا اهتمامهم بالفكرة . وحرصهم على إيضاحها والتعمير فيها
بألفاظ مقاربة ودرء رسالة الأمن الزيات كتبها على لسان الخليفة لبعض المسائل
يقول فيها :

* أما بعد فقد انتهى إلى أمر المؤمنين (كذا) فأذكركم ولا تملكون أحدي
مؤلفين ليس في واحدة منها مذكر بوجوب حجة ولا بيزيل لائمة : أما تفسر في
ملك دعائه لنداء بالحق والتفريط في الواجب وأما ما امره لأهل الفساد
وداعته لأهل الرب وأية هاتين كانت تلك حجة النكر به ووجبة المقومة عليه
لولا ما يلقاه به أمر المؤمنين من الأناة والندار والأخذ بالحجة والثقة في الأعداء
والإندار على حسب ما أقلت من عليهم الحثرة يجب له شاهدك في تاذن التفسير
والإبادة والفساد (٢)

هكذا أن نقول بمضة عامة أن لجوء بعض الكتاب في هذا السمر إلى
الافتاب كان يأتي في الغالب تأهلاً للمنى بتميق الاحساس به وقد اتسم
أسلوب الجاحظ بهذه الخاصية فهو كبيراً ما يطن ويستلوه ويكرر الجسد ليهز المصنى
ببؤسه ويقرر في النور ..

(١) زهر الآداب ج ٢ عن ١٠٨

(٢) المعقد الفريد ج ٢ عن ٢٤١

..... ومن يتسبح فاضل أن يذكرك أو يأنف عريف أن يفسد وتيسرك
 أو يخشى عالم أن يأنف منك ومن غاية الجليل إلا ومنك ومن من البليغ إلا من حسنك
 ومن يأنف الذميرف إلا اصطفاك ومن يقدر اللطيف إلا غياضك ومن للظنون ومن مستساك
 ومن للنفوس من غيرك ومن للمادج رجز إلا فيه ومن يحد والحادي إلا يذكرك ومن عمل
 تقع الأعمار إلا عليك ومن تعرف الأثارة إلى اليك ومن علي شهيدها جميل
 حسب أو عالم أديب إلا والله أكبر من مخيمه وظلك أكبر من علمه واسمك أفضل من معناه
 وحلمك أثبت من نبوءه ومشتك أفضل من نبوءه . (١)

"أدب الكاتب لابن قتيبة" (١)

أما أدب الكاتب فقد أشار مؤلفه في مقدمته إلى أنه تمتد من سيم الدراسات النقدية لنقد الكتابة ثم مضى في عاصمة كتابه يشرح جماعة الكتاب بمعارف تقي وثقافات متنوعة في مختلف العلوم والفنون مركزاً على الجوانب اللغوية والأدبية وقد بدأها بـ "طوبى لمن يتكلم في يد" فصل فيه كما لم يوجد في مؤلف قديم . الطريقة الصحيحة لرسم الكتابة العربية وما يحدف من الفروق في الرسم وما ينبغي حذفه . . . إل . .

وقد أصرنا ابن قتيبة في "فناء" ذلك كله أنه يقصد إلى إرشاد الكتاب وتبصيرهم بالبادي الأساسية لنقد الكتابة .

ولو أننا نظرنا إلى مؤلف ابن قتيبة من هذه الزاوية لكان علينا أن ندخله في جملة المؤلفات النقدية التي وضعت لنقد الكتابة في الأدب العربي . وأن كان الجانب الأكبر من الكتاب يدور عن المعارف والثقافات التي ينبغي إتقانها في الأدب عامة والكاتب على وجه الخصوص فأدب الكاتب لابن قتيبة أقرب ما يكون إلى النقد الدلالي لنقد الكتابة ذلك النسخ من النقد الذي يهتم فيه الناقد بإيضاح المقولات الأساسية للجنس الفني الذي يدور حوله دون أن يهتم لثبات من الثبات الفني أو يشرح على ضوءها ما يمس إليه من نتائج . .

ونحن نقر هذه الحقيقة هنا لأن أحد الباحثين المحدثين وهو الدكتور زكي مبارك ذهب إلى دراسة حوث "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" إلى أن "الرسالة الصادرة" و "أدب الكاتب" .

(١) ابن قتيبة عوف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدخري النخعي اللخمي المالبي ولد ببغداد وشأبهما وأدب وأقام بالدخري مدة فتنسب إليها وكان دينا فاضلا ومعتبرا تصانيفه أدب الكاتب وطيقات العصور وجمع الأخبار والمعارف وغيرها توفي سن ٢٢٦ هـ (انباء الرواة ج ١ ص ٢٤٦)

بما أسهبهما ليس من المؤلفات النقدية . فقد ذكر الباحث في مصر عن حديثه عن نقد الكتابة أن النقاد انتصروا بالشمس ونقدوا أكثر من اهتمامهم بنقد الشعر واعترفوا بذلك بأن هناك مؤلفات كثيرة وضعت في نقد الشعر منها :

" نقد الشعر " لقدامة بن جعفر و " المذهب في البائعات " لابن المصنف وغيرهم ثم قال :
 " ... ولنفيد أن نقد الشعر الذي انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفنون الذي عرف بأدب الكاتب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها " الرسالة المذراة " ...
 " ... و " أدب الكاتب " لفهولي و " كتاب الكتاب " لابن درستويه وما إلى ذلك من الدراسات التي تتصل في الأغلب بأحوال الكتاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية وأهم كتاب فحسب هذا الباب هو " صبح الأعشى " الذي يمد أنف مناصف في أدب الكاتب على أن هذا النوع من التأليف حائل بالملاحظات الفنية التي تقره من النقد الأدبي وإن لم يمس به إلى المصنفات المستعارة التي قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء " (١)

ونحن نشير " أدب الكاتب " لابن قتيبة و " الرسالة المذراة " لابن المصنف من أهم الدراسات النقدية لفن الكتابة في الأدب العربي لأنها تمرنا لكثير من الميسر في الفنية التي تشتمل الكتابة وأرشاد الكتاب إلى أسباب الاجادة ومقومات السبق ووضعها لهم أصولا لاغنى عنها في الارتقاء بالكتابة والأخذ بأيدي الزايدة وتذليل العقبات المستعصية تستعرض طريقهم . . . وتلمس خلال المصنف الفصل لك من " أدب الكاتب " و " الرسالة المذراة " الصلة الوثيقة بينهما وبين فنون النقد الأدبي والنظرات النقدية التي تدور حول الجوانب الفنية الدقيقة في فن الكتابة . .

بدأ ابن قتيبة كتابه فحمل في مقدمته على اهتمام الكتاب بالمظهر من حسن الخط وتقوم الحروف دون الاعتناء بالمضمون والأسلوب جاء ذلك ضمن حديثه على المظهرية في مختلف شئون الحياة في عصره والتي غلبت فيها المظهرية في الكتابة بقوله :

" فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف " . . (٢)

ومضى ابن قتيبة في مقدمته يسفح أحلام طائفة من أدعياء الكتاب يعرفوا اشتغالها المسمى بحصول كتب الفلسفة والمنطق والتطريف وسطوحاتها والزراية بماعداتها من المراسم والثقافات في حين أنها لا تثنى عن شيطا في كتابتها ولا يفيدون منها سوى السمن والحصر والخشاعة والتعمية . يقول ابن قتيبة ناعيا على هؤلاء الأدعياء وشيبرا إلى سواد الثقافة الأميلة التي تفيد ملكة البيان وتزورها :

(١) الشعر الفني ج ١ ص ١٨ " هامش "

(٢) أدب الكاتب ص ٢ ط . مجي الدين عبد الحميد . .

• ونحن نستحب لمن قبل عنا واقتر بنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه
ويهدب لسانه قبل أن يهدب ألفاظه ويصون مودته عن دناءة الشبهة وسناعاته عن شجون
الكذب ويبتاع قبل مباحته اللحن ويغسل القول شنين الكلام ويثبت المزج • (١)

ويشارك ابن قتيبة في ذكرنا موقفه من المزج والرعاية ويبين لنا أنه يؤثر المزج
المهدب والدعاية البريئة التي لا تنحط إلى التسفل والوضاعة يقول :

• كان رسول الله على الله عليه وسلم ولنا فيه أسوة حسنة .. يعزج ولا يشون الا حقا
مازج عجزا نقال : ان الجنة لا يدخلها عجز • • وكانت في علي عليه السلام دعاية وكان ابن
سيرين يعزج ويضحك حتى يسيل لعابه وسئل عن رجل نقال تولى البارحة فلما رأى جسر
الساكن قرأ (الله يتولى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في مناسها) • وازج معاوية
الأحنف بن قيس لما روى ما زحان أقر منها قال له معاوية يا أحنف ما لك • السلف في البراد ؟
قال : السخينة يا أمير المؤمنين • أراد معاوية قول الشاعر :

إذا مات ميت من قومك	نسرك أن يحيط فحس •
بغير أو تضر أو تنص	أو أوالس • السلف في الهجاء
تراء يظوف الآفاق حرصا	ليأكل رأس لقمان بن عيسى

(والسلف في البراد) وطب النبي • وأراد الأحنف أن قرنا تضر بأكل السخينة
وهي حناء من دقيق يتخذ عند غلاء السمير ويصف السال وكلب الزمان •

فهذا ما أشهره مزج الأعراف وذوي السرورات نأما السباب وشتم السلف وذكر
الأعران بكبير الفواحش نبالا تراء لخصام السيد ويغار السلدان • (٢)

وابن قتيبة بتوبيخاته هذه يتناسى بهينة الكتابة وسناعة القلم ويحتأملها
على التزام السمت الوقور والبطون المهدب ومن جهة أخرى يخلصنا على ذوقه وبقائه وتسامحه
وحرصه على اقتفاء أثر السلف الصالح فزيادته على أهل البدع المتأجنين •

وأخذ ابن قتيبة بعد ذلك في ذكر عيوب الكتابة وبعد منها الاغراب فحس
الألفاظ والتعقيد في المعاني ويورد بعض الأمثلة السقيمة بعضها فيه غريب • •

يقول بعض الكتاب في كتابه إلى الممان قوله (ولما محتاجي إلى أن نتفد إلى جيشا
لجها عزمنا * (١) وحسنها فيه تمفيد لقول بعض الكتاب :

* عصب عارس ألم ألم نأهيته عذرا * (٢) ثم يعقب على المثال الأخير بقوله :

وكان هذا الرجل قد أدرك عذرا من الزمان وأنتى بسطة في العلم واللسان
وكان لا يمان في كتابته إلا بتركه سهل الألفاظ وحسن المعاني ..

ثم يشير ابن قتيبة إلى حقيقة نقدية غاية في الأهمية ولعلها أخذت عينا
كبيرا من غاية علماء البيان في عصره وهي ضرورة مراعاة مقامات الكتاب إليهم واعطاسا
من منحه حقه بايراد التعبير المناسب له وقد عالج أبو عثمان الجاحظ هذه المسألة
وأكد عليها عارا في كتاباته ومنرى في بحثنا للرسالة العذرا بعد قليل أن مؤلفه
ركز أيضا على هذه القضية ونبه عليها وشرحها ..

يقول ابن قتيبة :

* ونستحب له (أي الكاتب) أيضا أن يحزن ألفاظه في كتب فيجعلها على قدر
الكتاب والكتاب إليه وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكتاب ولا رفيع الناس ونسج الكتاب
غنى رأيت الكتاب قد تركوا عنقه هذا من أنفسهم وغلوا فيه فليس يفرقون بين من يكتب
إليه (فرأيتك في كذا) ومن من يكتب إليه (فان رأيت كذا) ..
(وأريك) أنا يكتب بها إلى الأكفاء والسامين لا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء
والاستاذين لأن فيها معنى الأمر ولذلك نسبت .. ولا يفرقون بين من يكتب إليه و (أنا فطنت
ذلك) ومن من يكتب إليه (ونحن فعلنا ذلك) ونحن لا يكتب بها من نفسها
إلا أمراء ونساء لأنها من كثر الطون المظلم .. قال الله عز وجل (أنا نحن نزلنا
الذكر وانا له لحافسون) وقال : (أنا كل شيء خالقناه بقدر) ..

وهنا عذر الكاتب كتابه (بأمرك الله) و (أيقاك) فإذا توسل كتابه بعد فطن
الكتاب إليه فدنا له قال (فليمنك الله وأخوانك) فكيف يكرسه الله وليدنه ويخزيه
في حال ؟؟؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب * (٣)

ويحق ابن قتيبة كلما لأبريز قاله لكتابته وهو * أنا الكلام أرحمة سؤالك الشين
وسؤالك عن الشيء وأمرتك بالشيء وخبرتك عن الشيء فهذه دعائم المقالات ان التمس

(١) أدب الكاتب ص ١٧ ..

(٢) المرجع ص ١٧ ..

(٣) المرجع ص ١٩ ..

اليها خاص لا يوجد . وان نقول منها رابع لم تتم فاذا خلت فاصح . واذا سالت فافهم
واذا امرت تأخركم واذا اخبرت فحق . وثان أيضا واصح الكثير ما ترد في الدليل ما تقول . . .
يريد الايجاز " (١) . ثم يقب ابن قتيبة على كلام أبريز عن الايجاز بقوله :

" وهذا ليس بمحمود في كل موضع ولا يستثار في كل كتاب بل لكل مقام مقال . ولو
كان الايجاز محمودا في كل الأ . وان اورد الله تعالى في القرآن ولم يعمل الله ذلك ولكنه
أعطى مرة للتأكيد وحذف تارة للايجاز وكثرة للافهام وليس يجوز لمن قسأ
مقالا في تحريض على حرب أو حالة بد أو صلح بين عمائر أن يطن الكلام ويقتصر
ولا لمن كتب إلى عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يبرز . ولو كتب كاتب إلى ابن بلد
في الدعاء إلى الداعة والتحذير من المصيبة كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه
تلكه في بيته (أما بعد ثاني أرائي تقدم رجلا فتوخر أقرى فاعتمد على أيهما شئت
والسلام) - لم يصل هذا الكتاب في نفسها عمله في نفس مروان ولكن السواب أن يطيل
وكبر صيد صيدى وحذر وينذر " (٢)

فهذا التقيب على كلام أبريز وإشاح حقيقة كل من الايجاز والاطناب هيانه
المقامات التي يحسن فيها كل منهما - يصل ابن قتيبة إلى ختام تقديمه لكتابه قائلا :

" هذا منشئ القوم فيما تختاره للكاتب فمن تكاملت له هذه الأدوات وأمدت
الله بأدب النفس من اصناف والحلم والسير والتواضع للحق وسكون الطائر وخفسي
البحر فهدا التناسل في الفضل المالي في ذي المجد الحار صلب السبق الفائر بخسبر
الدارين ان شاء الله تعالى " (٣)

وبدأ بعد ذلك يلب الكتاب الذي قسمه مؤلفه إلى أربعة أقسام هي كل قسم
منها كتابا :

أولها : كتاب المصرفة . .

وثانيها : كتاب تقيم اليد

وثالثها : كتاب تقيم اللسان

ورابعها : كتاب الأبنية

وليس من غرضنا التمرس لأبواب الكتاب بالتفصيل وإنما غايتنا أن نقرر أن ابن قتيبة
جس في كتابة شرة ثقافية على درجة عظيمة من الأهمية لكن متادب وكاتب ولمن ابن قتيبة

(١) أدب الكاتب ص ١٩ . .

(٢) المرجع ص ٢٠ . .

(٣) المرجع ص ٢٠

لصن ادمية . هذه الممارى بالنسبة للكاتب نفعها وحرصها على جماعة الكتاب فسى
تسمى بدين و ترتيب ميسور وقد أشار دى الى ذلك فى مقدمة كتابه فقد عمل على هذه
الاسباب * لئلا التأديب . . . وأعفاء من الشوى والثقل لينشطه لحنظله
ودراسته ويقيد عليه بها بالهن من المراجعة * (١)

ذلك هو أرب الكاتب لاهن غنية و طنة فكانت فى النقد الأدبى لهن الكتابة
وطنسا نمرى فنؤكد ما قلناه من أن صاحب أدب الكاتب تناون فى مقدمة كتابه
أهم القضايا النقدية المتعلقة بفن الكتابة فى القرن الثالث وأدار مؤلفه حصول
مائل تسمى اتصالا قويا بين الكتابة سواء من ناحية الشكل أو الرسم أهم من ناحية
الضمون والمحتوى فهو فى أبواب المراجعة وتقوم اللسان والأهنية يتسوس
أرب الكتاب ويصح معارضى وبين لهم الأخذاء الغالبة فى استمالاتهم ويرشدهم
الى السواب فى أساليبهم . . . وفى باب تقوم اليد يدلهم على المارقة الصحيحة
لرسم الكتابة وما يحدف من الحروف وموضح حذفه . . . الى غير ذلك من
التأليد التى ترى عليها العرب فى كتابة لغتهم . *

الرسالة المسدرة :

وهذه رسالة مهمة في نقد الكتابة ومنها أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن المدير المتوفى سنة ٢٢٩ هـ (١) والذي يقون عنه صاحب معجم الأدباء :

" الأديب الفاضل الشاعر الجواد العتوس صاحب النظم الرائق والنثر الفائق تولى الولايات الجليلة ثم عهد للمعتد على الله ٠٠٠ مات في سنة تسع ومهجرين واثنتين وهو يشغل للمعتد ديوان الضياع ببغداد " (١)

يقون عنه صاحب الأغاني :

" أبو اسحاق ابراهيم بن المدير شاعر كاتب متقدم من وجوه كتاب أهل المسراق ومتقدميهم وذوى النبلاء والمشرقين في نهار الأمان وذكر الولايات وكان التركماني يقدمه ويؤثره وفعله " (٢) ٠٠٠ وصيف صاحب الأغاني قوله :

" كان ابراهيم بن المدير يتولى البصرة وكان محبنا إلى أهل البلد احسانا يصحبهم ويحسن جماعتهم نفعه ٠٠٠ فلما هرب عن البصرة شجع أهلها وشجعوا لفراقه وساء لهم صرفه " (٣)

ولما رحل عن البصرة عزولا أخذ أبو شراة القيس سيفته وأندده :

ليت شعري أي قواجد بسـ	فأغشوا بك من طول المجـ
فوز النرجب من الله بهـ	وحرماتك لذئب قد طـ
أنا أنت ربيع باكـ	حيثما مرته الله انصـ
يا أبا اسحق مرني دعـ	حيثما شئت فـ بك غـ

وأندده أبو صفوان الثقفي :

أها اسحاق ان تكن الليالـ	عطفن عليك بالمزول اللـ
فلم أر صرف هذا الدهر يـ	بكروه على غير الكـ

والرسالة المسدرة ومنها ابن المدير لم يدق له لم يمين اسمه وقد بحثها شرحها مسجها لأعوان فن الكتابة وأودعها خلاصة ما يصدق من أسسها وطلق القواعد التي تسمى فن الكتابة تحليلًا دقيقًا وشمًا كما أشار إلى التقاليد الفنية التي ينضى على الأديب

(١) معجم الأدباء ص ٢٢٦

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٥١ ط ٠ بيروت ٠

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨

(٤) ديوان الصائفي ج ٢ ص ٢٢٩ (٥) المرجع السابق ص ٢٣٢

دراستها وترتيب مقامات المؤلفين وما يحسن في كل منها من الكلام ونحوه على الأختصاصات
التي هي فيها بهذا الكتاب والتي تهبط بكثيرهم وتقل من قيسها ..

ومن ثم الرسالة تمد وثيقة غنية مهمة توضح من خلالها نظرة نقاد القرون
الثالث إلى فن الكتابة كما تنس على مؤلفها مدى ما تشتهى به هذا اللون الأدبي من مكانة
بين أئوان الأدب الأسوي وأما في ابن الدبر على مؤلفه " الرسالة المذراة " لأنسبه
اعتمد على نواحي ومطلوبات وأصول لم يسبقه إلى تقريرها أحد - حسب ادعائه - فالرسالة
على حد تمييز ابن الدبر سميت " مذراة " لأنها بكرمضان لم تفرغها باللغة الناطقين ولا -
ليستها أكف المشرعين ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ولا سبق إلى الفاعلها أحد من
الناطقين (١)

ويبدو هنا في هذا النقاد أن دور إلى أن معظم مؤلفات العلماء ومناظرهم
في العصر الذي ندرمه كانت موجهة إلى الرؤساء والأسراء والوجهاء أما ردا على
اعتقاد حول حقيقة أدبية أو تاريخية أو فكرية كهذه الرسالة التي منها وكما ذكرنا رسائل أبي
عثمان الراجز التي حفظ لنا التاريخ قدرا كبيرا منها - وأما شهادة أساسا إلى ذوي -
الجاه والدولة من أعيان في القوافل أو توصلا إلى منصب واستمرانا للولاية - ومن
هذا الفن الأخير .. أدب الكاتب .. لابن عتيبة الذي علمه للوزير أبي الحسين
عبد الله بن يحيى بن خاقان .. كما أشار في خدمة كتابه (٢) ومن هذا النوع
أيضا من مؤلفات الراجز روى ياقوت في معجم الأدباء قال :

" قال يمين بن عارون : قلت للراجز : ألك بالهرة ضمة ؟ فهم وقار :
انسا أنا وجارية نخدسها وغادى وحمار . أهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن
أبي دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والتدول إلى إبراهيم
ابن الصبان الصولي فأعطانى خمسة آلاف دينار فأهديت إلى الحميرة ومحمد
ضمة لاحتاج إلى تجديد ولا تسجد " (٣)

فالرسالة المذراة ليست كتابا عاديا من عديدي إلى عديقه ولكنها بحث نقدي
مفص يتناول فيه مؤلفه قضايا أدبية مهمة تغيد الكتاب وتقفهم على حقيقة
لحن الكتابة وتوجب على تساؤلات كثيرة حول مقامات الإجابة فيه ..

(١) الرسالة المذراة ص ٤٨

(٢) أدب الكاتب ص ٦٠٠

(٣) معجم الأدباء ص ٧٤ ج ١٦

وإن نحن أولاء نبدأ في تحليل الرسالة وبيان ما فيها من قواعد نقدية ..

يبدأ ابن الدبر رسالته على النقط التقليدي فيفتحها بالدعاء للمكتوب اليه
ولفت نظرنا لأول وهلة إلى أنه يحدد التمرين لسائل دقيقة تشمل الفن الكتابي
وذلك بتحديد المحتويات الرسالة التي فيها الرد على تساؤلات المكتوب اليه يقسمون
ابن الدبر :

" ومن إلى كتابك السجيب الذي استقصيتني فيه بجوامع تلك .. جوامع
أسباب البقرة واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة : سألتني أن ألق بك على
هذه الفظة وحازمت وحدود فصاحة المعنى وجزالة براقة نظم الكتاب وما كلفه
سرده وحسن افتتاحه وختمه وانتهاء فصوله واعتدال وصوله وملاستها من الزلل وسددها
من الشلل متى يكون الكتاب مستحقاً لاسم الكتابة والبلغ منها له معاني الباطنية
في إشارته واستمداده وإلى أي أدوات هو آحين وإلى آلاته هو آحين إذا صح
الحديث إلى السبق فبهتته وأنا راسولك - أريدك الله - من ذلك ما يجمع أكتسبه
عرائطك ومبهر من جملة سؤالك وإن عرفت في الكتاب عرفت وأظننت في التوسل
وأصبت مستقى على نفسي في الجواب على قدر استقراءك في السؤال " (١)

وحرص ابن الدبر في بداية رسالته على أن يؤكد لقراء نزاهة صناعة الكتابة
وقداسة مهنة القلم ويشير إلى قلوب الآداب النفسية التي ينبغي على الكاتب أن يتحلى
بها ويذكرنا بما قاله ابن قتيبة في هذا الشأن .. يقول ابن الدبر :

" اعلم - أيدى الله - أن أدوات ديوان جيب المحاسن وآلات العكارم - الفاضلة
منقادة لهذه الصناعة التي غلبتها وتالية تابعة لها .. فان تقاضت نفسك علمها
ونازعتك همتك إلى طلبها فاتفذ البرهان دليلاً ثابتاً والحق أماناً قائداً .. وأميل
الصواب في قولك وتعلك ولا تكن إلى حدود قيد السابق بالنجاح ولا تنس إلى النسيان
حق الصيب بالمماندة والانكار ولا تستخف بالحكمة ولا تصغر بها حيث وجدتتها تفرح
نائرة عن سوانحها من قلبك وتظلمن شاردة عن مكانها من بالك وتتمنى بحد الصبر
من قلبك آثارها وتنداس بحد الوحي أعاليها " (٢)

(١) الرسالة المذراة ص ٥٥

(٢) الرسالة العذراة ص ٦٠

وهن ابن الدبر بعد ذلك في عرض انقضائها التي قد بأن يوضحها في مقدمة رسالته فيذكر أن المهارة في الكتابة ليست أمراً فطرياً أو ملكة موهبة وإنما هي اكتساب ودأب وخلق ودراية بعد أن يكون لدى الكاتب استعداد أدبي وملكة بيان جيدة ويصير ابن الدبر جميع الصفات التي يجب على الكاتب أن يتسلح لصناعته بها فيقول :

" وأعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف وأول الاختلاف إلى الملاءمة ودراية كتب الحكماء فإن أردت خوض بحار البلاغة وطلبت أدوات الفصاحة لتتضح من رسائل المتقدمين ما تمتد عليه ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك واستنباح بهجتك ومن نوادر كلام الناص ما تستعين به ومن الأسمار والأخبار والسير والأمصار ما يفتح به منطقك ويغذي به لسانك وطول به قلبك وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات الصرب وسانى السجى وحدود المنطق وأثال الفوس ورسائلهم وعبودهم وسيرهم وقائدهم وكايدهم في حروبهم - بعد أن تنحيط في علم النحو والتصرف واللغة والوفاق والسير والشروط ككتب السجلات والأمانات فإنه أو ما يحتل إليه الكاتب " (١)

وبعد ابن الدبر من كان الخفاء لصناعة الكتابة أن يظن الكاتب إلى المواطن التي يحسن فيها الاستعداد بالقرآن الكريم والأثال السائرة والأمصار الفاهرة يقتسبون ؛ " فهو في نزاع أي القرآن في مواضعها واجتلاب الأثال في أماكنها فليسان تضمن الشئ السائر والبيت الفاهر البارح ما يزين كتابته ما لم تخاطب خليفة أو ملكاً جليل القدر فإن اجتلاب المصروف في كتب الخلفاء والجللة والرؤساء فيجب واستهجان للكتب إلا أن يكون الكاتب هو القارئ للمصنف والمصنف له فإن ذلك ما يزيد في أهيتك ويدن على براعتك " (٢)

وبعد ابن الدبر فينبه على أهمية الاستعداد الأدبي الذي يعد الركيزة التي تعتمد عليها المهارة في فن الكتابة فالكاتب لابد أن يكون " صحيح القريحة .. دقيق الفهم خفيف الروح حاذق الحس محنكاً بالتجربة " (٣) ثم ينتقل ابن الدبر إلى تقرير حقيقة أخرى وهي وجوب مراعاة أحوال المکتوب إليهم والتوجه إلى كل ما يناسبه من السقال وقد عرض ابن الدبر لاهتمامات المکتوب إليهم فقسمهم ثمانية أقسام شريفة ورتبهم من حيث الرفعة والقيمة على نحو من التفضيل والاسهاب لم يسبق إليه يقول :

(١) الرسالة ص ٧٠٠

(٢) الرسالة ص ٧٠٠

(٣) الرسالة ص ٨٠٠

" وإذا احتجبت الى مخاطبة الملوك والوزراء والملوك والكتاب والخطباء والشعراء
وأوساط الناس وسوقتهم فخطاب كانا على قدر أهيتهم وجلالتهم وعلومهم وارتفاعهم وشفطتهم وانتباههم
واجتمع طبقات الكثر على ثمانية أقسام : أربعة منها للطبقة الملوية وأربعة منها ولها -
طبقة منها درجة والطبقة الملوية : الدرجة التي أجل الله قدرها وأعلى شأنها
عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والتمسك والاهتمام
الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الغلفاء بمقولاتهم والمستقيم ويرتقون النشوق بأرائهم
ويتجملون بأدائهم والطبقة الثالثة : أمراء شعورهم وقواد جيوشهم فإنه يجب مخاطبتهم
كمن أمروا على قدره وموضعهم وحاله وفنائه وانطلاقه بما حصل من أعباء أموره
وجلائل أعبائهم والطبقة الرابعة القضاة فانهم وإن كان لهم تواضع الملوك وحلية الفضلاء
فليس لهم أهبة السلطنة وعيبة الأمر أما الطبقات الأربع الأخرى فهم الملوك الذين
أوجبت عليهم تعاليمهم في الكتب اليهم وأنما لهم تفهيمهم فيها والثانية وزراءهم وكتابهم
وأتباعهم الذين هم تفرغ أبوابهم وصنائعهم تشايع أسيانهم والثالثة الملوك الذين يجب
توقيرهم في الكتب لسرف العلم وطور درجة أهلهم والرابعة أهل القدر والجلالة
والترف والحدادة والبدانة والملك والأدب فانهم يضطرونك بحدة أذهانهم وشهواتهم
تتميزهم وانتقادهم وتصفحهم الى الاستقصاء على نفسك في مكانتهم واستغنينا عن
الترتيب للنفار والسوقة والسواى رتبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات واشتغالهم
بهماتهم عن هذه الأدوات " (١)

مع هذه الدقة التي عرّض بها ابن الدبر طبقات الكتوب اليهم في عصره
والترتيب المنظم الذي ملأهم فيه لنا نأخذ عليه تقسيمه للقراء على أساس المكانة
السياسية والاجتماعية لكل منهم وكان حسب أن يشير الى أن لكل طبقة أسلوبها يتناسب معها
وكلاما يليق بها وأن ما يكتب للملوك والوجهاء لا يصلح للمساءة والدماء بدلا من هذا
التقسيم الطبقى الكريم الذي يوحى بتسخير ملكة البيان في الترف الى الخلفاء
والأمراء والقواد والوزراء وكان مهمة الكاتب تنحصر في براعة في اطراء هؤلاء هؤلاء
والتشويق لكل منهم بما يناسب أهيتهم ويليقي بقامه - ولولا أن ابن الدبر أشار في صراحة
عقب مثاله السابقة الى ما يشمر به أدراكه لحقيقة ملاحظة أحوال المتعاطفين وراء سياج
حال الكتوب اليهم لما كان لنا أن نمرر تقسيمه السابق أدنى اهتمام يقول ابن
الدبر موضحا قوله السابق :

" ولكن طبقة من هذه الطبقات من شأن مذاهب يجب عليه أن تراعيها فسي
مراسلتك إليهم في كتبك فترى كثرة في مخاضهم بموازاة وتعليق قسمه وتوجيه نصيبه
فأنت متى أضلت ذلك وأضمت لم آمن عليه أن تمدد بهم عن طريقهم وتسلط بهم
غير سلكهم وتجرى شعاع بشتك في غير مديراء وتندلج بجوارك في غير سلكه " (١)

ثم يعود ابن المدير أمثلة من السبارات التي تحسن في مخالطة الطوك ولا يحسن
غيرها في موضعها يقول :

" فمن الألفاظ السخوف عنها والمصدر إلى توحش منها في كتب السادات والأمر
والملوك - على اتفاق المعاني - مثل أبقاك الله طويلا - جرك طبا وان كنا نعلم أن
لا فرق بين قولهم " أبقاك الله بقاءك " وبين قولهم " أبقاك الله طويلا " ولكنهم جعلوا
هذا أرجح وزنا وأنه قدرا في مخالطة الملوك " (٢)

ونحن نرى أن عبارة " أبقاك الله بقاءك " توحى بأن المخاطب قد مكن نفسه
له وأن ما سوفيه من الجاء والسلطان يفرض على الجميع الاحسان بوجوده فهو يود العباد
من الله دوام البقاء على هذه الحال .. أما " أبقاك الله طويلا " فهي لا تنصرف بالعمى
الذي أوجت به العبارة السابقة بل تدل على أن المتكلم يدعو للمخاطب بدوام العيشة
ودوام المصير ..

ويستمر ابن المدير في التقاليد التي جرت عليها افتتاحات الكتب منذ صدر الأسلاف
حتى القرن الثالث فيقول :

" وأما صدور السلف فأنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان .. كذلك جرت
كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاء بن الحضرمي وإلى أقبال اليمن وإلى كسرى
وقيسر وكتب أصحابه والتابعين كذلك حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع
الصدور واستنبطوا لطيف الكتب " (٣)

ومضى صاحب الرسالة المذراة غير كذا البدا الذي قرره حول وجوب مراعاة
أحوال المكاتب إليهم ومثل بشأن يدل على حسن بصره بدقائق الصانع وفطنته إلى الصواب
اللطيفة بين مقتضيات الأحوال يقول :

(١) الرسالة ص ١١

(٢) الرسالة ص ١١

(٣) الرسالة ص ١٥

* ولكن مكتوب اليه قدر وزن ينهني للكاتب ألا يتجاوز به عنه ولا يقتصر به دونه
وقد رأيتهم عابوا الأحوس حين خاطب الطوك بخطابة المواء لي قوله :

وأراك تفتن ما تشوق بعضهم
مدق الحديث يقول مالا يفهمه

فهذا مدق صحيح في المدح ولكنهم أجلوا أقدار الطوك أن يدحوا بها يدح به
المواء لأن مدق الحديث والتجاوز الموعود وإن كان مدحا فهو واجب على كثر الطوك لا يدحون
بالقروش الواجبة وإنما يحسن مدحهم بالتوافق لأن السادح لو قال ليحني الطوك انفسك
لا تنزي بدليلة جارك وإنما لا تتقون ما استجدعت وإنما تمدق في وعدك وتفي بمسئدك
كان قد أشنى عليه بما يجب ولكنه لم يصل بشائعه إلى مقصد وكان مالا يستحسن مثله
في السلوك * (١)

والذي يلفت النظر في هذا النص أن ابن الدبر أراد مثالا عمليا ليشرح على ضوءه
الحقيقة النقدية التي أراد تقريرها وقد كبر هذا السلك في مواضع أخرى من الرسالة ..

وسرى ابن الدبر أن على الكاتب مراعاة التقاليد التي جرى عليها السابقون
والرسوم التي نهجوها يقول :

* ونحن نعلم أن كل أمير متولى من أمر المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين
غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خليفة * (٢)

ويتفق ابن الدبر إلى شرح حقيقة نقدية مهمة تتعلق بدلالات الألفاظ
لدى الجمهور فيرشد إلى أن الكاتب لا يجوز له إغفال الدلالات الشائعة للألفاظ
والانطباع الذي تتركه العبارة في جمهور القراء فليس يكفي لأن يستعمل الكاتب
اللفظة في معنى ما من المعاني أن تكون موضوعة له في الأمل بل لابد له أن يلحظ
الاستعمال الداني ويفتقر به من دلالات قد تكون قريبة عن معناه الأصلي . يقول
ابن الدبر :

ومثل أن الكيس هو العقل إذا غفوا به عند الحق ولكنك لو وفقت
رجلا فقلت : " إن فلانا لعاقل " كنت قد مدحته عند الناس ولو قلت : " إنه كيس "

(١) الرسالة ص ١٥٠

(٢) الرسالة ص ١٥٠

كثرت قد قصرت به عن وصفه وصغرت من قدره الا عند أهل العلم بالغة لأن الممارسة لا تلتفت الى معنى الكلمة الا الى حيث يهت بها المادة في استعمالها في التأليف
اذ كان لاحتصان الصلة لهذه الكلمة مع الحداثة والبروز وخسارة النفس وصغر السن * (١)

ولا بد أن هذه النظرة النقدية الصافية تدعونا الى العودة باين الدهر والاقرار له بالسبق فقد فطن بحاجته النقدية للباحث الى تلك الحقيقة التي أكدتها دراسة اللهجات في العصر الحديث وفي أن الألفاظ تشتت بدلالاتها من بيئة السلي إلى أخرى ومن عصر إلى عصر ..

وتابع ابن الدبر عرشه لأشلة من تاليد الكتابة التي التزم الكتاب بها يقول : * ونعلم أن الصلة رحمة غير أنهم حرموا الا على الأنبياء وكان إبراهيم عليه السلام العزى قال في معنى ما طالب به داود بن خلف الأسعدي : وان كان قال كذا فقد غي من السنة والحمد لله فانقد عليه ذلك داود وقال تحمد الله على أن يخرى مسلم من الاسلام هذا موضع استرجاع وللحمد كان يليق به ونحن نقول على الصيغة انا لله وانا اليه راجعون * (٢)

وحاول ابن الدبر عرشه لمألة مراعاة العفاء والحرار والمبارات التي تملس في العوامي المتلفة وسرد بعض الاشلة التي توضح ما يقول وعادوا يردد الكتاب الى ما ينبغي تلويح أن يقلوه في كن موضع يقول : * وليكن ما نختتم به فصوله في موضع ذكر النوى مثل والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل وفي موضع ذكر التمسك بمسأل الله دفع الحسد وسان الله صرف السوء وفي موضع ذكر الصيغة مثل : انا لله وانا اليه راجعون وفي موضع ذكر النعم مثل والحمد لله خالصا والشكر لله واجب فاشرا مواضع ينبغي للكاتب تفقدنا * (٣)

ولمن من مظاهر ارتقاء الفكر النقدي في القرن الثالث ما أثار اليه ابن الدبر بشأن اتساق الكتب والرسائل وتنظيم محتواها بحيث تأتي متسقة الأفكار متسلسلة المعاني تلم كن هزلية فيها الى التي تليها في ترتيب في دقيق .. وبعد البصير في هذا الجانب من دلائل البراعة والشهرة في فن الكتابة يقول :

(١) الرسالة ص ١٦ ..

(٢) الرسالة ص ١٧ ..

(٣) الرسالة ص ١٧ ..

* وإنما يكون (الكاتب) كاتباً إذا وضع كل معنى في موضعه وخلق على كمال
التمشية على دليقتها من المعنى فلا يجعل أول ما ينهض له أن يكتب في آخر كتابه
ولا آخره في أوله فإني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول : لا ينهض للكاتب أن يكون
كاتباً حتى لا يستأنف أحد أن يؤخر أول كتابه ولا يقد آخره * (١)

ويقول ابن المدبر في موضع آخر من رسالته حين البدء السابق :

* ولو كن في صدر كلامك دليل واضح على مرادك وانتاج كلامك برهان تام
على مقصدك حيثما جئت فيه من فنون العلم ونزعت تحوم من مذاهب الخطب والبهات
فإن ذلك أهنون لسمناك وأحسن لاسنان كلامك * (٢)

ويوضح ابن المدبر أن عاد الباطنة في الرسائل هو الوضع والسهولة والتبسيط
عن المعاني بحارة مطابقة له فلا يصح أن يقيس الكاتب ما يكتبه على ما جاء في أسلوب
القرآن الكريم من الأيمان والحرف ومخاطبة العاصي بالعلم والعلم بالخاسر ومثل ذلك
بقوله : " لأنفسه سبحانه وتعالى إنما مخاطب بالقرآن أنوال فصحا فبهما عنه جعل
تساوئه أمره ونهيه ورواه والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلوا على اللذة لا علم لهم
بلسان العرب وكذلك ينهض للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى المتشبه لأنفسه
أن لا يرب على مثل قوله تعالى وأما القرية التي كافها والعمر التي أقبلت نهبها
وقوله تعالى : بل مكر الليل والنهار - احتج أن يبين أن عماء أسأل أمم القرية
وأما العمر من مكرهم بالليل والنهار ومثله في القرآن كثير * (٣)

يفرق ابن المدبر ما يجوز في الشعر من التقديم والتأخير والحذف وبين ما يجوز في
الرسائل ويوضح أن الشعر يباح فيه ما لا يباح في غيره يقول :

* ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع اضطراب لغته
فيه الاغراب وسر النظم والتقديم والتأخير والانهيار في موضع الانهار... * (٤)

ثم يصرح ابن المدبر لأدوات الكتابة فيقول في وصفها وبين بالتفصيل أنواع الأقسام
وطريقة بررها وكيفية تحرير العبر وتجهيف الكتب... إلخ * (٥)

(٢) الرسالة ص ٢٢

(١) الرسالة ص ١٧

(٤) الرسالة ص ١٩

(٣) الرسالة ص ١٨

(٥) ص ٢٣ ، ٢٤

ثم يشير إلى أهمية العناية بالدلائل :

" وأما حسن الخط فالحمد له قال علي بن زيد النخرائي الكاتب : أعلمك الخط في كلمة واحد : لا تشبه حرفاً حتى تستغرق مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره " (١)

ويذكر ابن الدبر من رسوم الكتابة التي ينبغي للكاتب ألا يغلطها - الصلاة على النبي على الله عليه وسلم - وضرورة ذكر تاريخ الكتاب فانه يدل على تحقيق الأخبار وقربها ومعدنها وشرح كيفية كتابة التاريخ بقوله :

" وانظر إلى ماضي من الشهر وابقى منه فان كان العاشر أقل من نصف الشهر قلت لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قلت لكذا أيضاً بقيت " (٢)

وقد يكون في هذه الرواية التي أوردها صاحب زهر الآداب دليل على احتياج العلماء في هذا العصر بتاريخ كتبهم ورسائلهم وحرصهم على ذلك على أساس أنه يفيد في معرفة الرسالة أو الكتاب والمناسبة التي كتبت فيها والبلدان التي أحاطت بها . . .

" قال السجلى : كانت لها خليفة في أمور أرادها فأغلقت التاريخ بنهرها في كتابين فكتب إلى بعد تفوذ الثاني : ومن كتابك - أعزني الله - بهم الأمان - المكنان قادي غيرا ما القرب فيه بأولى من الحمد فاذ كتبت - أكرمك الله تعالى - فلتكن كتبك مودعة بتاريخ لأعرف أدنى آثارك وأقرب أخبارك إن شاء الله تعالى " (٣)

ويشير ابن الدبر إلى وجوب مراعاة الدقة في اختيار الألفاظ ووضعها في المواضع المناسبة لها والاستمرارية في ذلك بقواعد التعريف ومعايره يقول للكاتب :

" وإن حاولت صنعة رسالة وأنشأ كتاب قرن ألفاظه قبل أن تخرجها - بميزان التصريف إذا عرفت والكلمة بمعياره إذا عشت فيها مريبك مؤنس يكون مفسق الكثر فيه إذا حب (أنا فاس) أحسن من (أنا أفضل) و (استظمت) أحسن من فعلت . . . " (٤)

(٢) الرسالة ص (٢٨)

(١) الرسالة ص ٢٥

(٤) الرسالة ص ٢٩

(٣) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٥٤

يؤكد ابن الدبر على أهمية توافق الألفاظ وتناسقها ولطائفاتها في مواضعها بقوله :

" وأدر الألفاظ في أماكنها وأعرضها على معانيها وقلبها على جميع ورواها حتى تقع مقصدا ولا تجعلها قلقة نافرة فتنبى بارتكازك هجنت الموضع السدى أردت تحسبه وأفسدت المكان الذى أردت إصلاحه وأعلم أن وضع الألفاظ في غير أماكنها والقصدها بها إلى غير مكانها كتحريف الثوب الذى إذا لم تتشابه رقاعه ولم تقارب أجزاؤه غنى عن حد الجودة وتغير حسه " (١)

وقد ابن الدبر أن الكتابة صناعة فنية وجهد ذهنى ينبغي أن يكون الكاتب مهيبا له مستمدا لأدائه ونظما بضمونه . نهي ليمت جهدا ليا يسهل على الكاتب أن يوليه متى طلب منه ذلك كما عهد يتولى بعض الناس . . يقول ابن الدبر :

" وأرصد لكاتبك فوال قلبك وساعة نشاطك لتجد ما يمتنع عليك بالكسب والتكلف لأن ساحة النظر مكنونها وجود الأذهان بخزونها إنما هرب مع الشهادة الشرطية للفن . والجهة الغالية فيه أو المضى الباعث منه ذلك " (٢)

ويشير ابن الدبر إلى أن تلك الساحة البانية التى أشار إليها قصرة على من له من ملكة الأدب حظ ومن عومر البيان بسبب يقول : " وهذا كله أن جرمست من البلاغة على عرق وشهت منها على حظ فأما أن كانت غير خاصة لولمك ولا واقعة شهوتك عليها فلا تنفس مطوتك في التماسها ولا تتعبد بدتك في ابتذالها وأصرى عنائك عنها ولا تطمع فيها باستعمارك ألفاظ الناس وكلامهم فإن ذلك غير مشر لك ولا مجسد عليك ومن كان مرجعه نيبا إلى لغتكم ألفاظ من تقدم والاستغناء بكوكب من سبقه وسحب نيل حطة غيره ولا يمكن منه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحر والسنى الجزل فلم يكن من الصناعة فى غير ولا يفر ٢٢٢٢ " (٣)

ويؤكد ابن الدبر الكاتب البندى إلى طريقة ذكية يصرح بها نتائجها على نقد الصناعة وحذاق الفن كى يختبر مكانته ويقف على رتبته ويشرح ابن الدبر هذه الطريقة مرحلة راجعا بقوله :

(١) ص ٣٠

(٢) ص ٣٠

(٣) ص ٣٥

* فإن عنت بحب الكتابة ومناستها وباللغة وتأليفها وجاهي مدرك بشمس
مشرق أو دعتك نفسك إلى تأليف الكذب المنشور وشيئا لك نظم فهو عندك معتدل وكسسه
لديك متسق فلا تدعوا النقطة بنفسك ولا تحب تأليفك أن تهيج به على أهل الصناعة
فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الولد لولده والعاقل إلى عقيقه كما قال حبيب :

ويش بالاحسان ظنا لا كسب هو يأنس وشعره يفتشسون

ولكن اعرض على البغاة والشعراء وأنكسها سزوجا بخيره فإن أعادوا اليأس
وأذنوا له واشتموا بالأبصار واستمادوه وذاجوه منك وامتنعوا لكف من تلك الرقعة والخطبة
والشعر اسم وأنسبه لنفسك وإن رأيت منه الأسبان منصرفة والقلوب منه لاقيسة
فاستدل به على تخلفك عن الصناعة وقاسرك واسترب رأيك عند رأي غيره من أهل
الأدب والبغاة * (١)

ويقول ابن الدبر أن تخبر الألفاظ واختارها واسطقها الأساليب وجودة سبكها
في غير تكلف أو اعتصاف هو آية البلاغة ودليل البراعة يقول :

* والكاتب المستحق اسم الكتابة والبليغ المحكوم له بالبغاة من إذا حاول صنعة
كتاب سالت على قلمه عيون الكاذم من يتابعها وظهرت من يعادتها هدت من موافقتها
عن غير استكراء ولا اعتصاف * (٢)

ويقول ابن الدبر تنبيه على أن الكتابة فن لا يقتضيه إلا من اجتمعت له أدراجه
وليس له قيادته يقول :

* والمعاني كلها متثلة والكلام مشي ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على
بهايته وفريانه أسراء الكلام يصرفونه كيف شاءوا * (٣)

ويحذر ابن الدبر تصوير الحقيقة البيان وأدراكه للقيمة الكبرى المستفادة منه
على أساس أنه هو الذي يظهر كوا من المعاني ويصور خلق الشاعر والانفعالات ويعد أيسر
الدبر البيان التقن والتمهيد الفهم هو الثمرة الحقيقية لكل ما تجيش به النفس الإنسانية
من معنى أو شعور يقول :

(١) ص ٣٤

(٢) ص ٣٤

(٣) ص ٣٤

* وانساني وان كانت كلمة في المدبر فانها مسموعة فيها ومخلة بها ومعدية كاللآلئ المنطوقة في أصدائها والتار المشهورة في أخبارها فان أظهرته من أكتافه وأبدانها فهو من جنه وان قدحت الفار من مكانها وأحجارها انطحت بها ولا بقيت مسموعة مشهورة وانما يستعار الكامن منها ويقتضي المستعبر من أخبارها بقدر حديق المستنطق ومواب حركات المستعبر وقد عارته ولطف مذايقه* (١)

ويحتلر ابن المدبر فيبين وماني الدلالة على الساني الكاشفة في المدبر والتي تهيئها بالآلئ المغمومة في أصدائها فيذكر أنها أربعة ألسنة : " لفظ وإشارة وقسط وفسط* (٢) وأوضح هذه الدلائل عتقان وشما : " اللسان والقلم* (٣)

وحتى ابن المدبر للقلم فيفعله على ما أثر أنزل الدلالات ويسهب في يستبان لحيته وتعدد ماثره في بارة رائحة واحتمال قوي يقوى :

* والخط مسموعة مسموعة وحلية موزونة وقبيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف لأنه ينوب عنها في الأفعال عند الشهيد وفعلها في الضيق ولأن التنب تقرأ في الأماكن المتباينة والبلدان المشرقة وتدرس في كل عصر وزمان وكل لسان... واللسان وان كان زائفاً فيحا لا يحدو سامعه ولا يجاوزه إلى غيره * وكل في فضيلة القلم والقسط قس الله عز وجل (الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) وأقسم به كما أقسم بشيئه ثم أقسم بما يكتبه القلم انما أحاطت حاله وأعماله لأن الله وتبينها لذكره نقان (جاسطرون) من فضيلة القلم أنه لسان اليد وهو أنصير دليل الإرادة والتألق عن السؤال والسر وغير المشوب وروح الذكر وسبح المعرفة وحادثة الأخلاق على التناهي وأنس الأخلاق عند الفرقة وصنوع الأسرار وديوان الأمور وتربيعان القلوب والمسير عن النفوس والخير من المشوار والموت الآخر مكان الأبي والتألق إليه مآثر العاني والمغلة له حكمته وعلمه وأسماء لفمين بحر القلب والمخاطب عن التانيك والعباد عن الماك... والنفيع عن الأهم والفتك عن الأخرس... الذي تعهد له آثاره بفضائله وأخباره بشاقبه* (٤)

ويحتلر ابن المدبر على فنانا الكتابة بذكر تأثيراتها المظلمة في جلال الأسرار وارتفاعها بأقدار الكتاب فيذكر ما فعلته بخفة ابن المقفع صاحب ابن عبد القدوس وجعل ابن يزيد في احتفاله أبي سلم العراماني وكيف (احتالوه بحرف الظاهر...)

صانعة أقدانهم حتى نزل من باني عزه وجاهه مبادرا حتى وقع في الدرك العنوب لـه
تفرق بمعه وانحلفا نوره ودار ففرا سائرا ورجعا دائرا " (١)

وذكر ابن المدير ارتفاع الكتابة بأقدار الكتاب وثنى بمحمد بن عبد الطيب
الزيات بها نقباء منه في بداية هذا القسم ...

ونحن ابن المدير إلى تقرير أن الاختلاف لا يقع في حرف الكتابة وفيتمسك
بها في كل لغة البانقة ولحقتها ثم يتقل أقولا لجماعة من العلماء حول مفهوم البانقة
عند كل من ثم يختار ابن المدير رسالته بهذه البانقة التي توضح عن سبب تسميتها
بالرسالة المذكورة يقول :

" وهذه الرسالة مذكورة لأنها بكر ممان لم تفرغها بانقة الناطق
ولا استبرأ أحد الطوبى ولا غابت عليها فطن المتكلمين ولا سبق إلى الناطق
أذهان النفاقين نابعها مثلا بين عينيك ومروية بين يديك وصامرة لك في ليلتك
ونهارك ترحل عليك ما يربى منها وما يربى منها وكذلك منها بركاتها وشهودك مناهل بالفتحة
وتدس على موهب رندشا وتندرك وقد نقي المسوك بيناهي بحر احسانها ... " (٢)

الفصل الرابع

أطوار النقد في عصر ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثاني

ليس من قصدنا أن نؤرخ للنقد الأدبي عند العرب أو نتبع أقوالهم في هذا الفن منذ أقدم العصور فقد تفرغ على بحث هذا الجانب جماعة من الباحثين المحدثين (١) وإنما قايضنا أن نتلخص نتائج الفكر النقدي عند العرب في مراحله المختلفة ونتمسك على الأسس التي بنيت عليها الأحكام النقدية في كل مرحلة وذلك حتى يسهل لنا تتبع نتائج النقد في المدرسة البصرية والوقوف على مقدار ما أضافته للفكر النقدي عند العرب ومدى إسهامها في وضع قواعد ونظريات ..

نبدأ بعصر ما قبل الإسلام ذلك العصر الذي اصطاح فيه الباحثون علمي سميت به العصر الجاهلي وهي تسمية ان صدقت وطابقت الواقع في مجال العقيدة أو السياسة فهي غير صحيحة في مجال الآداب والأنسنة والمثل العربية فقد كسبان للعرب في ذلك العصر أدبهم الناضج وكانت لهم أخلاقياتهم التي اشتهروا بها من رعاية الجوارح وضمة الظلوم وكوم الضيافة والذود من الحسب ...

وسيكون حديثنا في هذا الفصل كله حول نقد الشعر لأن ما أثر من العرب في تلك المرحلة لم يمتد هذا الفن إلى غيره ولم تصلنا من العرب آراء نقدية لألسوان الأدب الأخرى إلا في القرن الثالث كما ذكرنا في حديثنا عن نقد الكتابة الفنية ..

وأول ما يستعري نظرنا ونحن نعرض للنقد في عصر ما قبل الإسلام هو أن الروايات التي تناقلتها كتب الأدب حول هذا الموضوع قليلة جداً ربما لاتش حقيقة الاهتمام بالشعر في ذلك العصر ولا مقدار عناية العرب به . ونحن نعلم أن الشعر كان قد بلغ درجة كبيرة من النضج والارتقاء وكان شاعر اهتمام القبائل العربية لما له من أهمية بالغة في حياتها فهو السبيل إلى إذاعة مفاقيها وناغرها والسجى الذي يحفظ أنسابهم وآثرها والسلاح الذي ينافع به عنها مزارد يومها من حياضها . وكانت الفيلسفة من العرب - كما يقول ابن رشيقي - " إذا نبغ فيها شاعرات القبائل فهناكهن ... وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس وتباشير الرجال والجدان لأنه حياء لأعراسهم وذوب من أحاسيسهم وتخليد لآثارهم ...

(١) ظهرت مؤلفات كثيرة تؤرخ للنقد العربي لحل أعطالها وأجملها ما كتبه الأستاذة طه حسين إبراهيم وطه الحاجري وهدى طبانة ومحمد زغلول سلام وتعرض استاذي الدكتور عبد الرحمن عثمان باقتدار وبهजार لهذا الموضوع في كتابه " معالم النقد الأدبي " *

ومن المضحى أن يستحب هذا الاتهام الكبير بالاعمال والحفاوة البالغة بما يقصرون النظر في الشعر والماتعة بين الشعراء ..

وأعله من المشرق أن النقد في هذا الصنيع كان يعتمد أساساً على الاحسان والذوق الندي، ويبتدى عن طريقها إلى موانع الحسن والتبع ويشير إليها إشارات منموسة ويصدر على الأحرار أحكاماً غير مبنية أو مشروحة . وقد لا تصدو أن تكون محسنة استحقاقاً للشعر أو استحقاقاً له :

والعذيفة أننا نشاهد حين تعلق على ذلك النوع من النظر في الشعر اسم النقد ولو أننا رأينا الدقة فكان علينا أن نعد بمثل هذه الأحكام أحكاماً أدبية ذليلاً لأن نقد الشعر الصحيح يعتمد أساساً على تحليل النص الأدبي ثم الحكم عليه بالجودة أو الرداءة حكماً مشابهاً بالدليل . روحاً بالأشباب والدواعي ..

ولاحضنا في أن النقد بهتاء الأثر يتطلب في الناقد أمرين مهمين :
أولهما : أن تكون لديه السوية والاستعداد الأدبي اللذين يؤهلانه لتذوق الامكان الأدبية ..

ثانيهما : أن يكون ملماً بالثقافات المختلفة التي تدور على استنتاج الأحكام النقدية ..

وإذا أردنا أن نعرف مدى تحقق هذين الصديقين في نقاد عصرنا قبل الاستقلال لا نضرب لنا أنه قد توافرت لهم سادسة الأدواق ووفرة القرائح في حين لم تنجح لهم حياتهم الساذجة وممارسهم ابتدائية - الشائقة التي تتميز على التحليل والتفسير والشرح والتأثير

ونحن لا نريد بذلك أن نحكم على العرب بالتخلف في فن النقد أو نريهم بالقدرة وانا نقرر أنهم تطروا في الشعر وأدروا عليه أحكاماً تناسب مع عظمتهم وما أتيح لهم من ثقافة وعمرنة ..

- ١ -

قلنا أن الشعر كان محض غناية العرب في عصر ما قبل الإسلام وكان هو القالب الذي أنشأوا فيه كل ما جرت به بحثهم من دقات فنية ودقائق جمالية . وقد لمسه الشعراء في هذا الصنيع اهتمام الجهد بذلك الشأن الفني العنصر فمروا عناية بهم في

كلهني لهم يا أمة ناعسب وليل أفاويه بطس الكواكيب
 قال : فذهب نجفي * ثم قال لمعلقة : أنشد فأنشد :
 دحائك قلباني الحسان طروب بعيد الشباب مصرحان مشوب
 قال فذهب تصفي الآخر * فقال : لي أنت أعلم الآن ان شئت أن تنشد بعدها أنشدت
 وان شئت أن تسكت سككت فتشددت ثم قلت : لا بل أنشد * قال : هات *
 فأنشدت :

لله در عياضة نادمتهم	يوما يطلق في الزمان الأول
أولاد جنة عند قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم الفضل
يسقون من كأس البرص ^(١) عليهم	كأسا تصفى بالرحيق السلسل
يشتمون حتى ماتهروا كلابهم	لا يسألون عن السواد القبل
بين الوجوه كريمة أحسابهم	ثم الأتوك من الطمسراو الأول

فقال لي : اذنه اذنه لعمرى ما أنت بد ونسما ثم أمر لي بثلاثمائة دينار * وقال هذا
 لك عندنا في كل عام * (٢)

وفي رواية أخرى أوردها صاحب الأغاني أيضا أن الفسائي لما أنشد حسان الأبيات
 * * * لم يزل يضحك عن حواشي سرور حتى شاطر البيت وهو يقول هذا وأبيك الفطرس
 لما تطلاني به منذ اليوم هذه والله البشارة التي قد بهرت الدائم * (٣)

ونحن نلاحظ من هاتين الروايتين إعجاب الفسائي بمصرح حسان وثناؤه عليه
 ولا شك أن قصيدة حسان هذه من أجود ما قال وكذلك قصيدتنا النابذة وطفقة إلا أن إعجاب
 الفسائي بهذه الأسماء واستحسانه لها لا يقتصر على تحليل أو شرح ولما أننا حاولنا
 أن نستعمل مقاييسنا النقدية في عصرنا الحديث وننظر في هذه القصائد الثلاث على
 قدرتها لأمكننا أن نتحقق من وجود أسباب موضوعية وبنات بيانية رائعة امتلكت عليها
 هذه القصائد وجعلت الفسائي يفتد بها ويخبر بكانتها بدافع من ذوقه الفطرس
 وباحساسه الحماسي الأصيل الذي يهتز للجد الجيد والاطراء الذي يرضى نزعات السيادة
 ويتناسب مع مقامات الشرف والسؤدد * * * وهذا يؤكد ما قلناه من أن النقد في هذا العصر
 قد توانيت له الأذواق التي تدرك وتبرر إلا أن هذه الأذواق كانت تنظر إلى الثقافة
 التي تساعدنا على التحليل والتفسير * *

(١) البرص : مرض يدهش (القاموس)

(٢) الأغاني ج ١ ص ١٥٧

(٣) الأغاني ج ١ ص ١٥٨ وزجل عن مكانه : زان ونحو

كانت العناية الفنية والداهج الفدوى وراء نوع آخر من النقد ظهر في عصر ما قبل الإسلام وهو النقد المتعلق بموسيقى الشعر وتوافيق أنغامه .. فقد لاحظ أهل شرب على الناهضة مثلا في موسيقاه واضطرابا في أوزانه يقول ابن سلام في حديثه عن الناهضة الأولى من لدن الداهلية :

" ولم يقر (١) من هذه الطبقة ولا من أمثالها أحد الا الناهضة في قوله :

أمن آتى حية رائج أو مفتدى
عجلان ذا زاد وغيره ..

زعم البواريح أن رحلتنا غدا
هذاك خبرنا الخداف الأسود

بقوله :

مقط النصف ولم ترد اسقاطه
فتناولته وانتقنا باله ..

بخطيب رضى كان بنائبه
عمر يكاد من اللداسة يعفبه

نقد الحديث غريب ذلك عليه فلم يأبه له حتى أسماه أياه في غناه .. وأما أهل القرى ألطف نكرا من أهل البعد وكانوا يكتبون لجوارهم أبي الكتاب فقالوا للناهضة إذا سرت إلى القافية فرتلى غلما قالت " الخداف الأسود " و " يعقد " و " باليد " علم واتبه ولم يعد له قال : قدمت الحجاز وفي حمري ضعة ورحلت عنها وأنا أصرم الناس (٢)

" قال أبوهميدة كان نحازن من الشعراء يقفان الناهضة يهرين أبي خازن أما الناهضة فدخل يشرب لهما أن يقولوا له لحنك وأكبات فدعا قينة فأمرها أن تغنى في حمري ففعلت فلما سمع الناهضة " غير مزود " و " القراب الأسود " كان له ذلك في اللحن فطن لموضع الخطأ فلم يعد .. وأما يهرين أبي خازن فقال له لخصه حودة أنك تقوى .. قال وماذا ؟ قال : قولك

ونسب مثل ما نعت جدام

ثم قلت بعده .. إلى البلد الثاني .. (٣)

فقطن ولم يعد ..

(١) الأقوال : عيب عروبي يتخذ في اختلاف حركة الروي .. كما هو واضح من المثالين اللذين

أوردهما ابن سلام ..

(٢) بهات فحسن الشعراء من ..

(٣) الأغاني ج ١١ ص ١٠٠ ..

وتتقرب الأحكام النقدية عند عرب ما قبل الإسلام من المظهر الصحيح لكن التقسّد
وذلك في المعاني والأسواق الشعرية التي اعتاد العرب أن يمدوا فيها أشعارهم ويذيعوا
بين مختلف القبائل ما جادت به فرائضهم وليس الذين أركلت إليهم مهمة الحكومة بسين
الصحراء في هذه الأسواق وجدوا لزوما عليهم أن يوضحوا للجسم أسباب تقديسهم
لشاعر على آخر ويرووا "حيثيات" أحكامهم النقدية لتكون مقبولة وموضوعية + وتنشئ عنها
شبهة المبالاة أو المصيرية .. والثابتة الذهباني فارس هذه المرحلة المهمة من مراحل
النقد في ذلك العصر فقد تباينت الروايات على فضائه بين الصحراء في سوق عكاظ .. يرى
بأحباب النبش قان :

"... حدثنا عبد الله بن قريظ : قال : كان النابذة الذهباني تضرب له قبة حمراء
من آدم بسوق عكاظ لتأثبه الصحراء فتصوي عليه أشعارها + قال : فأول من أنشد له الأعشى
أبو بصير ثم أتته حسان بن ثابت الأنصاري :

لنا الجففات الممر يلحن بالدحي وأسائنا يقلون من نجد دسا
ولدا بني المثقا وهني محبب فأكبر بنا خالا وأكر بنا انسا

فقال له النابذة : أنت شاعر ولكنك أقللت بجانك وأسائناك وخبرت من ولدك ولم
تخبر من ولدك " (١) قال السولي : فانظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه كلام
النابذة وديباجة شعره قان له : أقللت أسائناك لأنه قان وأسائنا وأسائنا جميع لأدنى
انحد والكبر سيف والجففات لأدنى العدد والكبر جنان قان دعرت من ولدك لأنه
قال : ولدا بني المثقا وهني محرق فترك القدر بأياه بخبر من ولدك نسائه " (٢)

لهذه الرواية تالمتا على لون جديد من النقد في عصر ما قبل الإسلام وفيه يتلخص
النقد إلى النص الأدبي نظرة شائبة يهتدى من خلالها إلى ما فيه من تقصير أو عيب
مبين ذلك في عبارة موجزة وبيان مقتضب . وذلك بلا شك نسط راق من أساطير النقد الأدبي
وأدراك النابذة له لم يكن يتألم منه عنا كبيرا أو استمر نادا بثقافات منتجة انه تراء يصدر
فيه عن الروح العربية السائدة في عصره والتي تتطلع في مواطن الفخر والمطالبة السعي
المبالغة واحتفاء النصوص التي يترشح إليها الوجدان العربي وتميز لديه الاحساس
بالرفعة والجد " (٣)

(١) الموضح ص ٨٢ (٢) الموضح ص ٨٢

(٣) اعترض الأستاذ طه إبراهيم على الرواية المقدمة زعم أنها من إضافة الروايات بحيثان الجاهلي
لم يكن له ذهن علمي يفرق بين جمع الكثرة وجمع القلة + جدد في استاذي الدكتور عبد الرحمن
عنان هذا الاعتراض بأن الجاهلي وإن لم يكن له معرفتها اصطلاحات جمع الكثرة ونقله فليس
بلا شك كان يدرك بظهوره اللغوية ما يدل على الكثرة وما يشير إلى القلة وذلك يتضح بطلان
الاعتراض وساده . (معالم النقد الأدبي ص ٨٩) (تصرف واختصار) ..

وشبهه بنقد النابذة لعمان لما أوردته كتب الأدب حول احتكاك امرئ القيس وعلقته
ابن عبدة إلى أم جندب وقبائلها في نحرها .. روى صاحب المروج قال :

تأخر امرؤ القيس بن حجر علقمة بن عبدة وهو علقمة النخعي في الشعر أبيهم
أشعر .. نظن كل واحد منهما : أنا أشعر منك .. فكان علقمة قد رعبت بامرأتها أم جندب
حكما بيني وبينها فحكما .. فقالت أم جندب لهما : قولا فميرا تعفان ليه فريكم
على قافية واحدة وروي واحد فكان امرؤ القيس :
خليلي مرا به على أم جندب يقني لباتات القيس لول الميذب

وقال علقمة :

لجئت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا طول هذا التجسس
لأن دعايا جميعا القميدتين فقالت لأمير القيس علقمة أعمرك من قال : وكيف ؟
قالت : لأنه قلت :

فلكمور الهوب والسباق درة وللزجر منه وقع أغص مهسس
فبهدت قرومك بهنوك وريته فأصبته بهاقك وقال علقمة :
فأدركهن ثانيا من غنائسهم يوركن الرائع النحل
فأدرك غرسة ثانيا من غنائه لم يذوقه ولم يتسبه . (١)

فهذا نقد مبنى على المناخلة بين امرؤ القيس وقد فطنت فيه أم جندب إلى تقرير
امرئ القيس في غرسة غرسة من ثم قدمت عليه علقمة لأنه أباد في رسم الصورة النحس
للغرس المتيق .. ولما مع الذين يتشككون في صحة هذه الرواية يرجحون أنها
متملة (٢) . لا اعتماد أن يتحاكم شاعران ناهيان إلى من لم تشتهر بالتفوق في الشعر
أو الحكمة وسداه الرأي حينذاك ولأن الرواية جملة من أم جندب ناقدة مثالية تضع
قواعد الموازنة الشعرية باشتراطها الاتحاد في الموضوع والوزن والقافية ... لأن الإجمال
ينعقد على أن امرؤ القيس كان ولا يزال هو المقدر في وصف الخيل من بين الشعراء جميعا . (٣)

وردنا على الجانب الأول من الاعتراض يتلخص في أن الحكومة في الشعر في ذلك
المرور لم تكن تصمم على من لم حظ يسير من الذوق والفهم لتقارب الأذواق وتشابه
الثقافات بين النقاد والجمهور ثم أن التبحر في الشعر أو التبحر فيه لم يكن من خصوصيات
السيادة أو دعامات الزعامة والرياسة حتى يحتاط المتنافرون بشأنه وبالفدوا في الاختيار
الحكم .. وسنرى بعد قليل في خبر التقاء السخيل السعدى والزريقان بن بدر وسورين الأحمى

(١) المروج ع ١٨ (٢) ذهب إلى هذا الرأي أستاذي الدكتور عبد الرحمن حنا

(٣) معالم النقد الأدبي ص ٩٣ و ٩٤

وتذاكرهم للشعر - أنهم احتكموا إلى أول من يطلع عليهم فكان أول من طلع عليهم عمرو
ربيعه بن حذار الأسدي فحكوه في صرحهم فالمسألة إذا لم تتجاوز المصادفة والاتفاق
وأخيرا فان نقد أم جندب للذبيات التي مدنا لا يتطلب ادراكه عنا كبيرا أو إحاطة بجوانب
فنية دقيقة في الشعر . . .

أما الجانب الثاني من الاعتراض فيمكن دفعه بأن ما شرطته أم جندب على
الشاعرين من اتحاد الموضوع والوزن والقافية - أمر بدني يقطن إليه أي شخص توكل إليه
مهمة الحكم في أي زمان بين متساويين . . . فأول ما يفعله الحكم كي يتأكد من أحقية
أحدهما بالتقدم أن يطلب إليهما إنجاز عن تكون كي فرص التجاذب فيه متاحة لكليهما
بالتساوي . . . ثم إن المناقشات الشعرية كانت معروفة في عصر ما قبل الإسلام وقد قرر هذه
الحقيقة الأستاذ / أحمد الشاذلي في كتابه تاريخ النقائض في الشعر العربي وأورد مناقشات
لأمرئ القيس وبيد بن الأبرص منها المناقضة المشهورة التي يقول فيها امرؤ القيس :

ألا ياليف نفسي أثر قيس

هم كانوا الشفاء فلم يصاحبوا

وقام جددي ببنى أبيهم

والأعقبن ما كان المقصبات

وقد قال عبيد في نقضها :

يرجع حواد عتيقه الضراب

أثود أسرتي وشركت حبيبا

إذا تدبروا إلى حرب أجابوا (١)

أبو دين الطوك في نقضه

ويلاحظ اتفاق الشعراء في الوزن والقافية . . .

أما اجادة امرئ القيس في وصف الخيل فنحن لانعترض عليها ولكن الروايات متخافرة
على أن أنتم «مرا» الصرب للخيل ثلاثة هم : طفيل الفنوي وأبو داود الأيادي والناهدة
الجمدي . . . فان أبو عبيدة : طفيل الفنوي والناهدة الجمدي وأبو داود الأيادي أعلم
بالصرب بالخيل وأوهمهم لها (٢)

ويقول صاحب الأغاني في ترجمته لطفيل : " و قيل علم جاعلي من الفحول الممدوحين

. . . وهو من أوصاف الصرب للخيل ثم يروي صاحب الأغاني عن عبد الملك بن قريظ قوله :

قال لي ع : ان رجلا من العرب سمع الناس يتذكرون الخيل ومصرتها وانصروها

فقال : كان يقال ان طفيل ركب الخيل ووليها لأعلمه وان أبا داود الأيادي ملكها لنفسه

ووليها لغيره كان يليها للظوم . . . وأن الناهدة الجمدي لما أسلم الناس وأمنوا اجتمعوا وتحدثوا

وصفوا الخيل فسمع ما قالوه فأضافه إلى ما كان سمع ورف قبل ذلك في صفة الخيل وكان هو لا

نعمات الخيل . . .

على أية حال نحن لا نرى في رواية نقد أم جندب لأمير القيس جماعة ما عوفى عن مداليات عصر ما قبل الاسلام ومن ثم فلا نستبعد صحتها ..

• • •

وعنك نوع آخر من النقد الشهير في عصر ما قبل الاسلام كان الناقد فيه يمد رحمة على شعر الشاعر جملة أو على أشعار جملة من الشعر بناء على ما يتركه الشعر في نفس الناقد من انطباع وهذا النوع من النقد يدل على أن العرب في ذلك العصر كانوا ينظرون أحيانا إلى جزئيات من النتاج الشعري كما رأينا في نقد النابغة وأم جندب وأحيانا أخرى ينظرون إلى نتاج الشاعر كله فيجوزون السمات الخالية على شعره والنزعة التي تسيطر عليها وقد صاحب الأغاني قال :

* اجتمع الزبرقان بن بدر والمخيل السعدي وهدية بن الطبيب وصرو بن الأهتم فتمسحوا جزوا واشتروا خمرًا بهيمير وجلسوا يشربون يأكلون فقال بعضهم لو أن قوما طاروا من جودة أشعارهم لطرنا فتحاكموا إلى أوس من يملك عليهم فطلق عليهم ربيعة بن حذار الأسدي .. فلما رأوه سرهم وقالوا له أخبرنا أيها الشاعر ؟ قال : أخاف أن تصفوها فأمنوه من ذلك فقال : أما عسرو فشعره يروى يمانية تنشر وتلوى وأما أنت يا زبرقان فكانت رجسك أتى جزوا قد نحررت فآخذ من أطايبها فخلدته بهيمير ذلك قال : لقيت في خبره قال لسه ربيعة بن حذار وأما أنت يا زبرقان فتمسك كلهم لم ينفي هيميركن ولم يترك شيئاً فينتج به وأما أنت يا صهي فتمسك عرب من ناز يلقبها الله على بن يشأ وأما أنت يا عدة فتمسك كمزادة أحكم خبرها فليس يقطر منها شيء * (١)

والحقيقة التي تنتهي إليها من عرضنا للتطبيقات النقدية التي وصلتنا عن عصر ما قبل الاسلام تلخص في النقاط التالية :

أولاً : أن تعلق العرب بالشعر وأسميته في حياتهم استتبع منهم انماض النظر في نتائج الشعرية المبروزة عليهم والبنافعة بينها .. والذي لا ريب فيه أن أي فن من الفنون يقتسم بين جماعة من البشر لابد وأن يجذب الجماهير إليه فيسرون حوله الجدن والنفاس هؤلاء يفضلون شاعرا أو شعرا أو موسيقيا بحينه وألثاك يفضلون آخرين غيرهم وتاريخ الفنون من شعر وموسيقى وفناء ونصير سوى حلقات متتابعة من جهود المبرزين في كل فن واللغات التي أسهبوا بها في تثبيت دعائمه أو تشييد عروجه ..

ثانيا : دأب النقد في عصر ما قبل الاسلام حول الفن الشعري من عدة جوانب فكان منه نقد
للصانع الشعري غير المستحقة كما فعل النابغة مع حسان وكما فعلت أم جنيد
مع امرئ القيس وكان منه نقد للاستعمال اللغوي كما روي من نقد طرفه
للمتلقي في قوله :

وقد ألتبس الهم عند احتضاره بنج عليه الصيمرية مكسدا

نقد سخر منه طرفه وقال : استغرق الجمل * لأ الصيمرية سعة للشوق
فجعلها التلمس صفة للفحل (١) وكان منه نقد للاضطراب الموسيقي كما حدث
مع النابغة بشر بن أبي خازم ..

ثالثا : جاء الجانب الأكبر من نقد هذا العصر خاليا من التحليل والتحليل واقتصر على
مظم الأحيان على الاعجاب بشعر الشاعر أو الأثر به دون تحليل أو بيان
وقد نسينا ذلك بأن من عالجوا النقد في هذا العصر كانت تنقصهم الثقافة
التي هي الأساس في التحليل والاعتناء وخرج الأحكام صط الحجب والأدلة
وكان جل اعتماد النقاد في عصر ما قبل الاسلام على السليقة والذوق الطبيعي
الذي فطروا عليه ..

(١) المعقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٩ ..

(١) المعقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٩

التشديد في القرن الأول :

عندما مدح رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام بأمر به بتسامح العرب بدميته وبارت بأحاديثه الركبان تركت هذه الأحداث آثارا هائلة في وجدان العرب وبرزت نكروته من الأضواء فصاروا غير راغبين أن يكونوا يؤمنون به ويحذرون في حياتهم الروحية عنه يظهرون من أماسه بتهراوى أمام النش والعبادى التى جاء بها الامستسلاى واننى كان المقلا والحناء بن مرقون عرقا اليها وعرضون بزوى أنوارها من بين دياجير الجهل والظلمات الأياطين والأجسام .. كانت تلك الأحداث الكبرى مستحوذة على كل اهتمام العرب في المرحلة التى عاشت ظهور الدعوة الى أن كتب الله لها السيادة ولكن لها في الأرض وأثارت راياتها الجزيرة العربية كلها في زمن وجيز فأحدثت تحولا جذريا لى حياة العرب من عقائدهم وعاداتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ..

ومن البديهي أن تظل هذه الأحداث من عناية العرب واهتمامهم بأمر التشديد وتقدم من ذلك فليسنا نقف بأن العرب في هذه المرحلة قد أمطوا العصر والنقد كلية ان دعوة الاسلام ذاتها كانت مازا لحركة تسمية صاحبت الدعوة في معنى مراحلها وكان الشعر فيها أحد الأسلحة التى لجأ اليها المتخاصمون ثقة منهم بفعليتها البالغة وأنوما الصين في نفوس العرب جميعا .. وأكرم من ذلك هناك ما يشير الى أن فريقا من العرب قبح بعيدا عن تلك الأحداث وكانت حياة هؤلاء وعاداتهم استوارا لحياسة عرب عاقبة الاسلام .. لى الخبر الذى رواه صاحب الأغاني حول التقاء عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وبدة بن الطيب .. وتحاكمهم الى ربيعة بن حذار - والذي نقلناه منسدا قبل - في هذا الخبر تعرض الى أن ذلك اللقاء كان بعد صحت النبي صلى الله عليه وسلم ومن أن يسلح هؤلاء الصحراء (١) فان صحت هذه الرواية فهى دليل على اذراء الاهتمام بالشعر والتأثير فيه بين طائفة من العرب كانت في عزلة عن أحداث تلك المرحلة ..

ولى أية حان الذى نريد أن نقرر هو أن الاهتمام بالشعر وقده فتر بصورة ملحوظة في عصر صدر الاسلام ثم طبع أن عاد الاهتمام بالشعر والنظر فيه من غير أنه أصبح يدخل في صيغة جديدة ويصدر عن المبادئ التى أرساها الدين الحنيفى أصبحت معايير الشعر الجديد تشل في أن يكون متشبا مع مبادئ الاسلام ولتتضمنها بالنسبة الذى أرساء وأقام دعائمه وولى هذا الأساس نفس الروايات التى تناقلتها

كتب الأدب حول اعجاب الرسول على الله عليه وسلم وكبار الصحابة بالأشعار التي تدور في
فلك المنيعة السحرة وتلقف بالاعطار الخلقى لها * *

روى صاحب المقد الفريد : قال :

* سمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي تتشد عمو زهير بن جناد تقول :
ارفع صيفك لا يحركك غمفسه يوما فتدركه عواقب ماجستى
يجزيك أرمي علىك وإن سدن أشتى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس * (١)

روى صاحب الأغاني بسنده عن عبد الله بن أنيس عن أمه وهي بنت كعب بن مالك :
* أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليه وهو على سجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ينشد فلما رآه كأنه انقبض فقال : ما كنت فيه ؟ فقال كعب : كنت أنشد * فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد حتى أتى على قوله :
مقاتلنا عن جذ منا كل فخمسة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفق عن جذ منا ولكن قل : مقاتلنا عن ديننا * (٢)

* وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم
فأنشده :

تركنا القيان وعزف القيسان وأدنت تملية وهتيسالا
وكفى المشقر في حوصلة وعش على المشركين القتالا
غيارب لا أفتن مفقستى فقد همت مالى وأهلى بدالا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ربح البيع ربح البيع * (٣)

(١) المقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٢

(٢) لغاني ج ١٦ ص ٢٢٢

(٣) المقد الفريد ج ٥ ص ١٢٦

فروى ابن سلام عن أبيه أنه قال :
وأندد عرين الخطاب قومه :

عبرة ودع أن تجهزت غاد يسا كلني الشيب والأسلام لغيري ناهيسا
فقال : لعلك شمرتك من هذا أعطيتك عليه . فلما قال :
فبات وسادنا إلى عجانة وحقق تهاداه الرياح تهاديسا
وميت عمالا آخر الليل شمسرة ولاشوب إلا درعها ودائيسا
نمازاني بردى دينا من ثيابيسا إلى انحرى حتى أنهى البرد باليسا
فقال له عمرو : وليك أنك مقبول * (١)

ولا ينبغي أن نغفل من هذه الروايات أن العرب في عصر صدر الإسلام لم يكونوا -
يشملقون من الشعر إلا بالعموم المؤيد لمعتقدهم الناشئة ذلك بأن القوم كانوا عربا
فصحاء وكانت أدبائهم التي فطروا عليها تؤيد لهم الإدراك الموقوت الحقيقة للشعر الجيد
والتميز بين الفصيح والسقيم . . . فصارى مآخذ هذه الروايات - حسب اعتقادنا -
هو أن تثبت دعائم الدين الجديد وغرس مبادئه في نفوس العرب كان الشغل الشاغل
للرسل على الله عليه وسلم وكبار صحابه في ذلك العصر فالتسوا لها كافة الوسائل وحوصروا
على تنميتها في المجالات المختلفة . . . ودليلنا على ذلك ما تناقلته كتب الأدب من إيجاب
عربين الخطاب رضى الله عنه بدمر زهير بن أبي سلمى وتعليقه لهذا الاعتجاب بما يدل
على إدراكه لبقوات الأبدية والشاعرية . . . أورد صاحب الأغاني من ابن عباس قال :

* خرجت مع عمر في أول غزاة فزادنا فقال لي ذات ليلة : يا ابن عباس أشدني لشاعر
للشعر قلت من حوى أجمع المؤمنين ؟ قال : ابن أبي سلمى . قلت : وما عار كذالك ؟
قال : لأنه لا يشع حوى الكثر ولا يحاطل من الشطوط ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمدح الرجل
إلا بما يكون فيه أليس الذي يقول :

إذا ابتد رت قيع بن عيلان غايبة من السجد من يهيق إليها يمسجد
سبقت إليها كل طلق بجز سبوق إلى القبايات غير مؤنسجد
كهمس : هواد يهيق الخيق عمو الس سراع وإن يجهد ويجهدن يمسجد
ولو كان حد يند الناس لم تست ولكن حد الناس ليس يمسجد

أنددني له فأنشدته حتى برق الفجر فقال حسبك الآن اقرأ القرآن . . . الخ * (٢)

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١٥٦ . .

(٢) أغاني ج ١٠ ص ٢٩٠ . .

فهذه الرواية تشيد أن عمر رضى الله عنه مدرك على عمر زهير عن علوه
موضوعية معروفة في عمر زهير وهي علوه فنية تشتمل بانتماء من جوانبه المختلفة لوجه
في رأى عمر أئمة الشريعة :

- لأن ألفاظه قريبة سهلة يفهمها عامة العرب لأنه كان يتوخى في شعره اللطافة
الضائفة ويجنب وحش الكلام ويزيل الألفاظ ..

- لأن أسلوبه واضح وجارته ناعمة لا التواء فيها ولا غلظ فهو لا يعامل في التطبيق
أى لا يتداحن عباراته أو يركب جملة تؤدي إلى غلظ معانيها ويؤمن محتياها ..

- لأن معانيه صادقة فهو لا يمدح الرجز إلا بما يكون فيه لا يتكلف ولا يتطرق إلى مؤمن
بما يقرب وينفع به ومن هنا تأتي مدائحه مؤثرة لصدورها عن اقتناع وأعجبنا
بأنه يمدح وحية لما يمتازون به من صفات ويخطلمون به من جلائل الأعمال المستحق
تقريب من القلوب وتفتح لها الإعجاب والثناء ..

وتلك الدلائل الثلاث التي على بها عمر لجملة شعر زهير من أهل مقاييس النقد
الأدبي مشهوده الصحيح ..

وهكذا ترى أن عمر صدر الاسلاف لم يخل من أفكار نقدية لها قيمتها في تاريخ
النقد العربي في الاهتمام بالجوانب الفنية المرتبطة بالدين والأخلاق لم يخل الناس
في هذه المرحلة الجوانب الفنية التي تقرب النتاج الشعري من الذوق العربي الذي يوثق
السهولة والوضوح والصدق في التعبير والتصوير ..

على أية حال فقد كان عمر صدر الاسلام منحرفا بالأحداث الفكرية البهية التي
لم يتبع معها لمصالح الناس أن يخلوا إلى الطرفين والمنافسة بين نصيحة الأئمة في نصائح
وجيزة كانوا يسمعون فيها بالهدوء والاستقرار .. ولعلنا نلاحظ ونحن نستقرى الأسرار
التي مر بها النقد عند العرب أن من النقد لم يزد حقا إلا في عصر الاستقرار السياسي
والاجتماعي ومدان ذلك أننا لا نكاد نجد أثرا للتخلف في الشعر في زمن الفتنة الكبرى
التي اندلعت في خلافة عثمان رضى الله عنه وأعطتها ولدت بصورة رهبة مخلفة
بين جماعة المسلمين مشاعر مؤلمة شغلته عن كل شيء واضطرت الأمور على هذه الحال
إلى خلافة معاوية حيث بدأت بهمة عامة .. ومن هنا كان على المتن لأطوار النقد
العربي أن يتأخر حتى تبدأ الأمور ويحميد الناس معاوية ويغفروا من غيرة تلك
الأحداث الرهبة التي رأوها أمام أعينهم تصف بكل القيم وتنتهك كافة الحرمات
سماها وأرب سياسية وانسيافا في تيار الصبغة البهية ..

ولمنا نود أن تدخل في تفاصيل الأحداث السياسية لهذه المرحلة أو نحصى
مناشط تأثيرها في الأدب ونقد في ذلك العصر وإنما نريد أن نقر أنه بعد أن استقرت
الأوضاع السياسية في عصر بني أمية هزت في ألقى الحياة الأدبية في المجتمع العربي
بيئات ثلاث لكن بيئة منها اهتماماتها الخاصة ونزعتها التي تميزت بها عن غيرها . وتكون
النقد بين هذه البيئات الثلاث متأثرا بكل منها وثقافة أهلها والذوق الغالب عليهم

وهذه البيئات الثلاث هي :

- (١) بيئة الحجاز ..
- (٢) بيئة العراق ..
- (٣) بيئة الشام ..

ونحن نورد كل بيئة من هذه البيئات بالفول متهمين اهتماماتها النقدية والفرعة
الغالبية على دارتها في العصر وتدار ماتييز به من أمثلة وخفية :

بيئة الحجاز :

وجد أهل الحجاز أنفسهم في عصر بني أمية مجبرين على التخلي عن لسان
الزعامة السياسية في الدولة الإسلامية الذي ظل بأيديهم منذ نجم من بينهم نور الدعوة
بعد أن كان أهل هذا الاقليم هم مصدر الهيبة والزعامة بين كافة الامصار الإسلامية فكانوا
على أنفسهم وانزولا في بينهم منتقلين بشؤونهم الخاصة مؤثرين حياة الدعة بمسند أن
طحنهم الحروب وراح يخلصهم ضحية للصراع السياسي المحتدم دون جدوى .. ولقد ساعد
خلفاء بني أمية على انهاء هذه الروح السالبة بين الحجازيين فأفقدوا عليهم الخصم
والهبات وناخوا لهم المعالي والأزاني وأفرقوا الاقليم بالفرق من سبي الفتوحات
فاستقام الحجازيون الى حياة الترف وعرفوا الدريق الى التمتع ووجدوا في ذلك مسبحة
تخفف عنهم ولأه الاحسان بالاخفاق والضياع . وكان من أثر ذلك أن شاع في اقليم
الحجاز ن الخناء الذي ظهر على نشره وأذاعه جماعة من الموالى الذين كانوا قد ثمرتوا
عليه وحذروه وقد تركت هذه الأحداث آثارها في أدب الحجازيين فظهر بينهم قسم
الذين كان لشعرائهم فيه مذاهب وشان ومناو وأفانين ..

نفذا الشراء الواسع وذلك الترف والتشبع ساعد على النهوض بشعر النور والانتقان
في تلحينه والتخني فيه ولم يلبث أن أفر عامة الحجازيين بهذا الفن الوليد وخلقوا به

ولم يتحسب وجها ولا هم من حشر ميثاق الدنيا وأندية البشر ومحافل الأدب وكانت تتناهبهم
أريحية ونسوة عند سماعهم للشعائر الجديدة والأشعار الرقيقة ..

روى صاحب الأغاني : " أن عطاء بن أبي رباح لقي ابن سريج بندي طوي وطير معه
شباب مصفوفة وفي يده جريدة شدة ردة الرجز يخطط يغيرها ويبدلها به كلما تغلفت فقال له
عطاء : يا فتان ألا تكف عما أنت عليه كفى الله الناس مؤثمة - فقال ابن سريج : وما عيسى
الناس من ثوبين شيبي ولبيبي يبرأ مني ؟ فقال : تشتبه أنت بآية الخبيثة فقال له ابن سريج
: بآية بحق من تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحق رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم عليه لا ما سمعت مني بيتا من الشعر كان سمعت منكرا أمرتني
بالإسكاف عما أنا عليه وأنا أقسم بالله وحق هذه الهيئة لكن أمرتني بحد استباحة سمعتني
بالإسكاف عما أنا عليه لأفعلن ذلك فأطع ذلك عطاء بن أبي رباح فقال قل : غانديج
يقض بشره زهر ..

ان الذين غدوا بملك غسان روا
غنيمن من عبراتهم وقلن لسي
وشلا بسيدك لا يزال حينئذ
ماذا لقيت من الهوى ولقيت

قال : لما سمع عطاء أن طروب اضلوا ما هديا ودخلته أريحية فحلف ألا يكلم
أحدًا بنية يومه إلا بهذا الشعر ومارا إلى مكانه من السبيل الحرام فكان كل من يأتيه
سائلا عن هلال أو حواء أو خير من الأخبار لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى
وشاند هذا الشعر حتى على الضرب وليرى ابن سريج بحد هذا ولا تمرى له * (١)

وطبيسي أن يراكب هذا النشاط التي الذي بلغ بداه نشاط نقدي يقوم تقاسم
السرور وقفا على بينهم وجز مذهبهم ووازن بين معانيهم وأخيلتهم فنشهرت حول هذه
الشبهة الفنية حركة نقدية ناجحة اعتدت عن طريق الذوق المذهب والاحاطة بمذاهب
الضرب في التحشق والمبالغة إلى كثير من مظاهر الاصابة في عصر الفزل وتعمقت نواحي
القصور التي ظهرت في ضرب من الشعراء وأبانت حقيقة السواب فيها ..

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٥٦ .. هكذا يذكر صاحب الأغاني ولما تشهد السمع
الحكاية خاصة إذا راعينا أن الشعر الذي من هذا النوع كان هو العنصر
التي الوحيد الضرب في ذلك العصر ..

- ١ -

صدر النقد في بيئة الحجاز من الذوق العربي الذي حذبه الترف ورقه الضنى
واتشراء وتانو بالحناية فاهتمد عن بقاء الهداية وشراستها وتشل ذلك في تعليقاتهم
على سرائرهم ذلك الفن الذي يظهر بجلالة حتى الأحاسيس وصور لواعظ النفوس ..

” روى مصعب بن عبد الله الزبيري عن عروة بن عبد الله بن عروة الزبيري قال :
كان عروة ابن أدينة نازلا في دار أبي المقيق فسمعه ينشد :

ان التي زمت فؤادك طمعا	خلقت هواك كما خلقت هواي لهما
فيك التي زمت بها وكذا كسا	أهدى لباحه الدجاة كلهما
وامرأها لو كان حبك لوقها	يوا وقد ضحيت اذا لأفكها
فإذا وجدت لها وسوا من طوعة	شفع النعمير الى القواد فطوعها
بينما باكرها النعميم فضاغها	بلمائة فأدقها وأبطلها
لما عرضت سلا لي حاجتها	أخشى عموتها وأرجو ذلها
منعت تحيتها فقلت لأحسبي	ما كان اكرمنا لنا وأفكها
قدنا وقال لملها مسمذرة	في يمين رقبها نقلت لملها

قال : فأثنى أهراسايب المخزومي فقلت له بعد الترحيب به أنك حاجة ؟ فقال
نعم أهبات لصروة بلذني أنك سمعتي فشدتها فأنشدته الأهبات فلما بلغت قوله :

قدنا وقال لملها مسمذرة

طرب وقال هذا والله الدائم الصلابة الصادق العهد لا الذي يقول :

ان كان أهلك يمشونك رغبتة عنى فأعلى من أضن وأرغيب

لقد عدا هذا الأعرابي دوره وإنى لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبيات
لحسن الظن بها وطلب العذر لها . (١)

- ٢ -

بجز النقد في هذه البيئة بين المذاهب الشعرية وأقسامها أحكامهم النقدية استنادا
اليها لشعراء القزل يجمعهم فن له طعنه وأسايب القول فيه وكذلك شعراء المديح
والهجاء والوصف وغيرها فكل غرض من هذه الأعراس الشعرية له شعراؤه الذين أجادوا فيه

ومرتوا اهتمامهم اليه ومن ثم فقد نشط النقد في هذا العصر الى خيالهم كل شاعر
والفن الغالب عليه فلم يوازنوا بين شاعرين من مذهبين مختلفين بل كانت موازناتهم وشائعاتهم
بين شعراء المذهب الواحد أو بين شعريين قهلا في غرضهم . . . مثل نصيب الشاعري
المشهور عنه وعن أصحابه فقال للمائل : * جميل انما وعمر بن أبي ربيعة أو فففسا
لربات الحجال * وكبر * أكلنا على الدمن وأخذ حنا للطلوك وأما أنا فقد قلت ما سمعت * (١)

— ٢ —

كانت المجالس الشعرية التي عقدت في بيئة الحجاز وضمت شعراء من مختلف الأنساب
الاستوائية والبادية العربية خاضعة في موسم الحج — يداها عنها للنقد الأدبي أسهمت به
بيئة الحجاز في ترقية الفن الشعري وفسحت المجال لظهور الاتجاهات النقدية
المختلفة والاطلاع على وجهات النظر المتباينة في العصر والشعراء . . . روى صاحب
المقد قال :

* قد عثر من أبي ربيعة المدينة ناقص اليه الأحوص بن محمد ونصيب فاجلوا
يتحدثون ثم سألهما عن كبر عزة فقالوا : هو عاونا قريب . قال : فلو أرسلنا اليه ؟
قالا : هو أجد بأوا (٢) بن ذلك قال : فادعها بنا اليه . فقاموا نحوه نائضوا جالسا ليسي
خيمة فوالله ما قاما للقرشي ولا رمي له فاجلوا يتحدثون ساعة فالتفت الى عمر بن أبي
ربيعة فقال له انك شاعر نولا أنك تشب بالمرأة ثم تدعها وتشب بنفسك أخبرني من
قولك :

ثم اضطرت تشد في أمسي
والله لو وصلت بهذا مرة أهلك لكان كبيرا ألا قلت كما قال هذا يعني الأحوص :
أدرو ولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم ما درت خبيث أدرو
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى
وان لم يزد لابد أن يهز

قال : فأنكرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوص زهوة ثم التفت الى
الأحوص فقال : أخبرني عن قولك :

فان تملأ أهلك وان تهبسني
بهجرك بعد وملك لا أهالسي

(١) لغاني ج ١ ص ٣٥٥

(٢) بأوا : البأو : الفخر بأى نفسه : رفعها وفخر بها (القاموس) والمراد أناس
اعتدوا بنفسه من أن يسمى الينا . . .

أما والله لو كنت حراً لباليك ولم كسر أغلك ألا قلت كما قال هذا الأسود وأشعار
الى نصيب :

هزيب ألم قبل أن يرحل الركب هل ان علينا فاما ملك الظلم

قال : فانكسر الأحوص ودخلت نصيب زهوة ثم التفت الى نصيب فقال له : أخبرني
من شوطه :

أعير يدعد ما حيت فان أبيت فواكدي من ذأ يهيم بها بمدي
أعماك وحك من يقص بها بمدك ؟ فقال القوم والله أكبر امتوت الفرق قوموا بنا من عند
هذا " (١)

وروي البيرد في الكامل قال :

" حدثت أن الفرزدق قدم المدينة فنزل على الأحوص . . . فقال له الأحوص
ألا اسمك غناء من غناء القرى فأثناء بعض فجمس يفنيه فكان ما غناء :

أتتني إذ تودعنا سليمان ففي بشاعة من الهشام
ولم وجد الحمام كما وجدنا بسلامين لا كتاب الحسام

فقال الفرزدق لمن هذا فقالوا لجبرير ثم غناء :

أسرى لخالد الفيسال ولا أرى شيئاً ألق من الفيل الطمارق
إن الهلية من تل حديثه فانزع فوادك من حديث الراسق

فقال لمن هذا فقيل : لجبرير . . . ثم غناء :

إن أنذرين قد را بلك فسدد روا وملا بسيفك ما يزال معيندا
غيف من عبراتن وقلن لسي ماذا لقيت من الهوى ولقيندا

فقال لمن هذا : فقالوا لجبرير . . . فقال الفرزدق ما أحوجه مع غنائه الى غشونة
شمري وأحوجني مع فسوقى الى رقة شمري " (٢)

وروي صاحب الأغاني قال :

" اجتمع النصيب والكميت وذو الرمة فأشدهما الكهت فزله :

هل أنت عن طلب الأيغاع متغلب

(١) البسيط الفرزدق ج ٥ ص ٣٧٢

(٢) الكامل ج ١ ص ٣٩٤

حتى بلغ الى قوله فيها :

أه بل ظلمات بالعلية نائمة
وان تكامل فيها الأنس والشبيب

فمقد نصيب واحدة فقال له الكيت ماذا تصي ؟ قال : خطاك باعدت في القبول
ما الأنس من الشيب ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لما في شفتيها حوة لمسي
ثم أنشدنا قوله :

أهت هذه النفس الا ادكارا

حتى بلغ الى قوله :

إذا ما الهجاء غنتها
تجاهن بالقلوات الهجاء

فقال له النصيب والهجار لا تمكن القلوات . ثم أنشد حتى بلغ منها :

كان القطا ط من عليهما
أراجيز أسلم تهجو غفصا

فقال : ما هجت أسلم ففارا قط فأنكر الكيت وأمسك* (١)

— ٤ —

اشتهر في بيئة الحجاز في هذه المرحلة ناقدان كبيران تركا شروة نقدية تعد من
أبرز ما أسهمت به بيئة الحجاز في التراث النقدي عند العرب وهذان الناقدان هما : ابن
أبي عتيق ومكينة بنت الحسين ..

أما ابن أبي عتيق فهو من أحفاد أبي بكر رضي الله عنه وكان ذا بصيرة بالشمير
وكلف بالفناء والطرب وكان مولعا بشعر ابن أبي ربيعة فخلا له مع أنه لم يلم من نقد
فكانت له مأخذ على بعض أشعاره وقد أوردت لنا كتب الأدب فيها من آراء ابن أبي عتيق
ونظرائه النقديين وهي تدل على سلامة ذوقه وسعة معرفته بالشعر ومذاهب الشعراء ..

أورد صاحب الأغاني قال :

* ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق في مجلس
رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام فقال : صاحبنا يعني الحارث بن خالد أشعرهما
فقال له ابن أبي عتيق : بعض قولك يا ابن أخي لشعر عمر بن أبي ربيعة نوبة في القليب

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٤٨ . والقطايط صوت الخيلان وفي القاسوس القططة اضطراب المسود
البحر وظليان القدر ..

ولم يزل ياتقن بذكره للحاجة ليست لشعره ما مضى الله جى وهو يشعر أكرم ما عسى به شعر
عربى من أبي ربيعة فخذ عسى ما أصف لك : أكرم العرب من ردى محتاه ولطف مدخله
وسمى بخرجيه وثن حشوه وشافت حواشيه وأثارت ممانيه وأعرب عن حاجته * فقال الفضل
للحارث أليس صاحبنا الذى يقول :

لنى وبانحروا غداة	عند الجمار يشودها المقبل
لربذلت أغلى ساكنها	مغلا وأصبح بقلها يملو
فيكاد يصرفها الخبير بهيها	فيرده الأقواء والمحسل
لمرقت مثناهما به احتطبت	منى الملوغ لأغلبها قهسل

فقال له ابن أبي عتيق : يا ابن أخي امش على نفسك واكرم على صاحبك ولا تشاهد
المحافل بشى هذا أما تلير الحارث عليها حين قلب ربهها فبعض عاليه مائله ؟ ما شى إلا
أن يمان الله تبارك وتعالى لها حجارة من مجل * ابن أبي ربيعة كان أحسن محبة
للريح من صاحبك وأجمل مخاطبة حيث يقول :

مائل الريح بالهلل وقبلا	مجت يحلى الغداة طويلا
أين حى حلوك إذ أنت محطو	ف بهي آمن أراك جيسلا
قأن ساروا ناسنوا وأستقلوا	هرقى لو استطعت جيسلا
مثنوا وحاشنا شاسنا	وأحبوا دمنة وسوسلا

.. قال فأنصرف الرسل خجلا مدعنا * (١)

وروى صاحب الموشح بعبء قال : أنشد كير ابن أبي عتيق :

ولست برافى من خليل بشائسل قليل ولا رافى له بقليل

فقال ابن أبي عتيق : هذا كلام مكافى وليس بهما شى القرطيان أعدى شك وأقنع

ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقييات * قال عمر :

فمدى نائلا وإن لم تثللنى

النا يافع النحب الرجلا

وقال عمر :

ليت حلقى كطرفة العين منها

وكبر منها قليل منها

وقال ابن قيس :

رفى بهمركم لا تمهينننا

عدينا فى قد ما عشت اننا

فاما تنجزى عدنى واننا

نميش بهانوئل شدة حشنا (٢)

وأورد صاحب النقد من السائب بن ذكوان راجعة كبر عزة قال :
 " قال لي كبر عزة يوما قم بنا الى ابن أبي عتيق تحدث عنده قال : فوجدنا
 فوجدنا عنده ابن حماد الضبي فلما رأى كبرا قال لابن أبي عتيق ألا أفنيك بشعر كبر عزة ؟
 قال : بلى فغناء :

أهائنة سعدى نعم شـ	كما انتهت من جبل القرنين
أن زعم أجمال وثارى جسميرة	وصاح غراب الهمم أنت حزينة
كانك لم تجمع ولم تر قلبهـ	تفرق آلاف الهمم حـ
فأخافن معادى وذن أباتـ	وليس لمن خان الأمانة دين

فالتفت ابن أبي عتيق الى كبر فقال : أم للدين محبتون يا ابن أبي حمزة ؟ ذلك
 والله أنهم يهون وأدعى للقلوب اليهون وإنما يؤمنون بالبخس والامتناع وليس بالرجس
 والأمانة وذو الرقيات أشعر منك حيث يقول :

حبذا الادلال والفـ	والتي في غرضها دمع
والتي ان حدثت نـ	والتي في غرضها فلسج
خبروني عن على رجـ	عاشق في قبلة حـ

فقال كبر قريتنا من عند هذا وضى . . . (١)

ولما أنشده ابن أبي ربيعة قوله :

" بينا يهتفني أهرـ	دون قيد الميل يمد من الأغر
قالت الكبرى أتعزبن الفـ	قالت الوسطى نعم هذا عـ
قالت المشركى وقد تـ	قد عرفناه وهل يخفى القـ

قال له ابن أبي عتيق أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنساءه كان يهتف أن تقول
 قلت لها فقالت لي فوضعت خدي فقلت عليه . . . (٢)

نحن اذا أمام نسط جديد من النقد والمطابقة ابن أبي عتيق على تـ
 لبقيات الاجادة في فن الشعر ويوازن بين النافع الشعرية التي تدور حول معنى واحـ

أرمسان مقارنة ٠٠ وعرفى تفضيله لـ ابن ربيعة في الرواية الأولى لا يطلق مقالته
جزائرا وإنما يستند في حكمه على شعر ابن ربيعة إلى ميزات ثنية مائقة في شعر عمر
وعن التي تجعله محبا إلى النحوس أثرا لدى جمهور تذوق الشعر لا يجتذبه إياهم
بتلك القصص التي يمتطونها في شعره وتتخذ منها قايلا للتعبير عن عباته وعيانه ثم إن شعر
ابن ربيعة يتميز بخصائص أسلوبية وحنوية ترضى عن شعر غيره فهو أشعر قريشا
في رأى ابن أبي عتيق لدقة سانيه ولطف مدخله وسهولة مخارجه وثانة حسوه ووضوح معانيه
٠٠٠ وعندما يوازن ابن عتيق بين شعر الحارث بن خاله وشعر عيسى
يطلقنا على حكمه من شعر الشعر والتعبير بين المعاني الدقيقة فرفع أن أبيات الحارث
رقيقة ومبيرة إلا أن ابن أبي عتيق لاحظ عليها تلك الملاحظة الهاربة وذلك التفسير
الذي أخذ بها وقد صاحبا حينما أراد أن يقول معناه الجميل فقاد خياله الكليش
إلى هذه الصورة المشوهة التي لا يرضى فيها الشاعر إلا بأن يتقلب مدنى حبيبه
رأسا على عقب حتى يؤكد له أن قلبه سيد له عليه - غير خطأ - معالمة على من ظالمست
محبتهم له وغيروا جهاته ونواحيه ٠٠٠ ولعل بذلك ملاحظة نقدية قيمة أدركها ابن أبي
عتيق بذوقه اللامع وقد مقارنة بين أبيات الحارث وأبيات ابن ربيعة التي قالها
في مسألة التبع لورينا النورج الأشج في هذا المقام ٠٠٠

ولارب عندنا في أن الموازنة بين المعاني الشعرية بهذه الصورة تدل على
ارتقاء الفكر النقدي في بيئة الحجاز في هذا العصر وتبين بوضوح مقدار التحول الذي
حدث في التأييد النقدية عند النقاد العرب وأن الأحكام النقدية لم تعد ترمى
دون تمليح أو تفسير كما كان يطلب على أحكام عرب ما قبل الإسلام بل أصبح الناقد
في الشعر لنا له حذافه والهمزة به نكان الشعراء يقدون إليهم يفتدوهم الشعر
وتناقشون معهم في قضاياها كما دلت على ذلك بقية الروايات التي أوردناها ٠٠

وأما سكتة بنت الحصين رضى الله عنها فكانت ذواقة للشعر وكانت كما يقول
ابن خلكان " سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء والفرس وأحسن أخلاقا ٠٠ (١)

ولسكتة نظرات نقدية وتعليقات أدبية على جانب كبير من الأهمية وقد كسبان
الشعراء والنرواة في ذلك العصر يحملون بصرها بالشعر وحسن فهمها للأدب فكانت
يذهبون إليها وينشدونها ويقدرون آراءها وتعليقاتها وقد حفلت لنا كتب الأدب بذكرها

من أخبار مكينة وأرائها النقدية وخليقاتها على الشر والنعرة في مجتالها
وندواتها ..

* روى صاحب العقد قال : دخل كبير مزة على مكينة بنت الحسين طيطالسلام
فقلت له : يا ابن أبي جهممة أخبرني عن قولك في عزة :

وماروسمة بالحزن طيبة الشورى يعنى الندى جشجا بها وهرارعا
بأطيب من أردان عزة جشجا وند أوقدت بالنول الرطب نارها

ويحك وعل على الأرض زنجية منتنة الا يطمن توقد بالنول الرطب نارها الا طساب
ريحها ألا قلت كما قال عنك امرؤ القيس :

ألم ترهاني كلما خيلت دار قيس وجدت بها طيبا وإن لم تطيب * (١)

وروى صاحب الموشح عن أبي عبيدة وغيره * أن مكينة بنت الحسين قالت لكثير عزة
حين أنعمها قصيدته التي أولها :

أناقك برق آخر الليل وأصعب تضمنه غرض الجبا نال الصارب
طالق وأحبني وعيم بالرب سبي أحر الذي ندهيد بعترا كسب
إذا هزجته الريح أروى جانسب يلاخلف منه وأرض جانسب
وعيت لسمدي ماء ونباتسب كما كن ذي رد لمن ود وأهيب
لقروى به سمدي ويروى مديقها ويغدق أهداد لها وشمارب

أتهيب لها فينا عاما . جعلك الله والناس فيه أسوة ؟ فقال : يا بنت رسول الله
صلى الله عليه وسلم وصفت غيثا فأحسنته وأما نرتة وأتيت وأكملت ثم وعيت لها فقالت لولا وعيت
لها دنانير ودرهم * (٢)

وروقت مكينة * على عروة بن أذينة - وكان من أئمان الحلفاء وكبار الصالحين ولهم
أخبار رائعة .. فقالت له : أنت القائل :

إذا وجدت أوار الحيف في كسدي ذهبت نحو سقاء البهت أبتسرد
هني يودت يبرد الله غلاتسبره لمن نثار على الأعداء تقصير

(١) العقد الشريد ج ٥ ص ٢٢٢

(٢) الموشح ص ٢٤٥

فقال : نعم .. فقالت : وأنت القاص :

قالت وأبشتها سرى وحت بهم قد كنت عندى تحت السر فاستتر

ألمت تمر من حولي فقلت لها قطبي هواك وما ألقى على همسرى

قال : نعم .. فالتفت الى جوار كن حواها وقالت عن حواثر ان كان خن هذا من قلب
لهم قولا (١)

ونقد مكينة يدور كما رأينا في هذه الروايات وكما هو الحال في نقد ابن أبي
عتيق أيضا حول شعر الفزرن ذلك الن الذي لقر به الحجازيون وكان أنسب الأغراض
الشعرية وأدقها في تصوير مواقفهم وأحاسيسهم وأكثرنا ملاءمة للوضع السياسي والاجتماعي
الذي ساد اقليمهم .. تقول احدى الباحثات المحدثات حول نقد مكينة :

" وليس يفتونا أن نلاحظ أن مكينة فيما نقل البنا من ملاحظاتها النقدية
لم تنصرف قط لشعر الديح فهي تراها أمثلة من حسابها لما تعمل من كربة الزيف
فيه وهبة النطان عليه ؟ ليس هذا عندنا بهميد وقد كان من بين الذين تصرعت
لنقد شعرهم جوير والفردق ونسب وكثير منهم في الديح فساد مشهورات ولم نر
في ذلك روت لأحد بيتا من مدائحهم أو ناقشته فيه وإنما كان اهتمامها كله
بما قالوا في الحب وكأنها كانت ترى فيه مالا ترى في الديح من نهى القلب وحسن
الزودان وتعد القياس الدقيق لامتحان أصالة النادرة ومدى المانة " (٢)

ونحن نميل الى القول بأن اهتمامات الحجازيين الأدبية في ذلك العصر
قد صرفت الى شعر الفزرن ولم يكن لشعر الديح في تاريخهم أية قيمة خاصة وقد كان
في جلته هذلا لتلق الأميين أبناء الحجازيين بالذات مكينة وأمثالها من
سراة قريش وزعمائها ..

ودليلنا على ذلك أن تعليقات ابن أبي عتيق النقدية دارت في أيضا حول شعر
الفزرن دون ماعدا من أفراغ الشعر وكذلك جاءت مناقشات الشعراء في مجالسهم
في بيتهم الحجازي متعلقة بهذا الفن .. وكان يشترك في هذه المجالس شعراء
الديح بل ان احدى الروايات التي أختارها في الصفحات الباقية نسبت الحكيم
بين الشعراء الى كبر عزة وهو من شعراء الديح المجددين ومع ذلك فقد كان

(١) رويات الأعيان ج ٢ ص ١٣١ ..

(٢) مكينة بنت الحسين تأليف د. عائشة عبد الرحمن ص ١٨٤

فهذا الحكم الذي أصدره عبد الملك على امر الراعي يمثل لنا بوضوح الانحسار
الشالبي على النقد في بيئة النار والترقة السائدة في الفكر الى الشر وبتاكيد
لنا هذه الترقة من خلال السموات النقدية التي أثرت عن هذه البيئة . فبعد الملك
في هذه الرواية التي معنا يرى أن المصريين من مهامه أن يقرر المسائل الخلقية
أو الدينية وإنما الشر شمر واحسان يظهران في عبارة مضممة ونسق يدين أما هذا
الذي يقوله الراعي فليس شعرا لأنه لا شعر فيه ولا عاطفة وإنما هو تقرير لحقائق منطق
بمرونة لصامة انسان ..

١ -

كان شعر القدماء هو النموذج الأمثل في نظر الأميين وكانت أوصافهم
ومدائحهم وفزلهم وانتخاؤهم مفاط اعتداد خلقت بني أمية وتقديرهم وكثيرا ما كان يحسد
البدون في مجالس الأميين حول الشعراء القدماء أمية أسبق . فقد : شاعر الجاهلية
ابن عبد الملك وصلة أخوه في شعر امرئ القيس والناطقة الذبياني في وصف طول الليل
أيها أجود قريبا بالشعب فأخضر فأنعمه الوليد :

كليني له يا أمية ناصب	وليل أقاسيه بدي الكراكب
تطاون حتى قلت ليس بملك	وليس الذي يرى النور بأيسر
ومدر أزاج الليل عازب	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
وانعمه صلة قول امرئ القيس :	
وليس كوج البحر أرخي مدوله	على بأنواع البحر ليثا
فقلت له لما تظن بملك	وأردى أعجازا ونا بلك
إلا أيها الليل الدوس ألا أنجلي	بهمج وا الاعباح منه بأشمل
فيا لك من ليل كأن نجوم	بكن مشار الفل شدت بيد
كأن الثريا علق في صامها	بأمراس كان الى صم جسد

قال : فحرب الوليد برجله قريا .. فقال الضمير بانت القمية . (١)

- ٢ -

صدر النقد في هذه البيئة من الذوق التأثير بالزجج المرسى والمائسور
من عصر القدما، واهتم النقاد برعاية مناجى العرب في التعبير وأساليبهم في التخيل
والتصور * *

لما بلغ الوليد قرن جرير :

عذا ابن من في دمشق خليفة لو شئت ما كنتم إلى قلبكم سينا

* قال الوليد أما والله لو كان لوشاء ما كنتم لعمرك ذاك به ولكنه قال لو شئت
فجعلني شريكاً له * (١)

* قال عبد الملك بن مروان لوقان كبير بيتته :

فقلت لها يا غز كن عبيدتي إذا طأنت بها لها النفس ذليلاً

في حروب كان أشعر الناس * ولو أن القفاص قال بيتته الذي وصف فيه مشية الابن بقوله :

يدعون رهوا فلا الأعجاز خافسة ولا الصدر على الأعجاز تتكسل

في النساء كان أشعر الناس * (٢)

- ٢ -

اشتهر من نقاد هذه البيئة عبد الملك بن مروان فقد أوردت له كتب الأدب كثيراً
من التعليقات النقدية والآراء التي كان يرسلها في الشعر والشعراء وهي في مجموعها
تدور على بصر عبد الملك بالدمر وثقافته الأدبية الأصيلة والمناهج بالذات عبد الملك
والتراث العربي القديم الذي كان من وجهة نظره هو النحل الأعلى في الفن الشعري
لما يمتص عليه من عقومات الجدة والسمو فهو في * * * يدعج يمتد بهصر زهير ويقول :

* ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبي حارثة من قوله :

على كثيرهم نفس من يمتريهم * عند العقلمن المباحة والهدن

ألا يملك أمر الناس (يعني المخالفة) * * * ما ترك منهم زهير غنيا ولا فقيرا إلا -
وصفه مدحه * (٣)

(١) الكامل ج ٢ ص ١٠٥ * *

(٢) الموشح ص ٢٢٢ * *

(٣) الأندلس ج ١ ص ٧٠ * *

في الاعتذار بفضل الناهضة .. روى صاحب الألفاني عن عمرو بن عثمان
اسراوى قال :

* ولدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقال رجل فاعتذر من أمر وطيف
عليه فقال له عبد الملك ما كنت حريا أن تخدم ولا تمثروا ثم أقبل على أهل الشام
فقال : أيكم يروى من اعتذار الناهضة إلى النمان :

حلفت فلم أتركه لنفسك ربيسة وليس وراء الله للمر مذممة

لم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه . قلت : نعم فأنشدته
القميدة كلها فقال : هذا أضر العرب * (١)

وعند الملك حين ينفق شعر الدجج الذي يفوله فيه الشعراء ينظر إلى الشعر
اندهش أينما ليأخذ منه المثل في الدجج الجيد . فحين أنشدته كثير مدحنته
التي يقون فيها :

* على ابن أبي المصدي دلائل حميدة أجاء المدي سردها وأذا لها
يؤرد مصيف القوم حين قبحوها ويقتلع القوم الأثر احتالها
فقال له عبد الملك : قول الأفعى لقيس بن مدي كرب أحب إلى من قولك ...
ألا قلت كما قال الأفعى :

وإذا تجي كتيبة لموسسة خرباء يخشى الذائدون نهالها
كنت القدم غير لاهس جنسية بالسيف تضرب حلة أبطالها (٢)

وحين أنشدته ابن قيس الرقيات قوله يدحبه :

* يعتدل الثاني نوى بدرقه على جبين أنفه الذهب

قال : أما لصعب بن الزبير فتقول :

أنا مصعب شهاب من الله تجلت من وجهه الذلعة

وأما لي فتقول : على ربهين كأنه الذهب * (٣)

وروى أن الأقبش دخل على عبد الملك بن مروان فذكر بيت نصيب :
 أصر بعد ما حيت فان أصر
 فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى
 فقال : والله لقد أصر قائم هذا البيت لقان له عبد الملك : فما كنت أنت قائلا لو كنت
 مكانه . قال : كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى فان أصر
 أكره بعد من يهيم بها بعدى
 قال عبد الملك : فأنت والله أصرأ قولاً وأقل بصراً حين تكل بها بعدك قيل فما كنت
 أنت قائلا يا أبا المؤمنين ؟ قال كنت أقول :
 تحبكم نفسى حياتى فان أصر
 فاصطحت دعد لذي خلة بعدى
 فقال من حاور : والله لأنت أجود الثلاثة قولاً وأحسنهم بالشمع علماً يا أبا
 المؤمنين . (١)

وبجملته القول أن السبائس الأدبية التي كانت عمق في قعر الأحيين فسدت
 بيدنا غيبا لنمر الفكر النقدي عند العرب إذ كانت ملثقي لكبار الشعراء والفصحاء
 وأهل اللحن والمصاحبة وأرباب البصر بالشمع والأدب فاستطلعت بيعة الشام بها توافد
 نقادها من ذوق عرس غالى واعتماظ للنخاع الشعرية القديمة وهي عبق لرامس
 الشعر ومذاهب الشعراء واستطلعت هذه البيعة أن تترك وراءها قدرا عاليا
 من الملاحظات النقدية السليمة والتي تناول بواطن فنية دقيقة في الفسح
 الشمسى . .

بيئسة العراق

تت في بيعة العراق في النصف الأخير من القرن الأول حركة شعرية شائسة
 بالمصيبة القبلية التي أعانت الصراعات السياسية العنيفة التي وقعت في الاقليم على
 أذائها وتحقق جذورها وكان قول هذه الحركة الشعرية هو الهجاء والفخر وبها
 الفنان اللذان استوعبا معظم النشاط الفني الذي شاع في هذه البيعة مثلاً في شعر
 النقائس الذي غار بين فحول الشعراء في ذلك العصر جرير والفرزدق والأخطل والراعي
 وغيرهم وكان مريد البصرة مركزاً لإذاعة هذه الأشعار وشعرها بين الناس . .

ونستفي بيئة العراق في الوقت ذاته أيضا حركة علمية قوامها البحث في علوم
السياسة ودولة احتياط القواعد التي تنظم أصولها وتنهض قواعدها وتصور تراثها
من الخيال وكان الشعر أحد المصادر المهمة التي استقى منها علماء اللغويات
قواعدهم وأصولهم فجاءت تراثهم في الشعر متأثرة باعتنائهم العلمية وأدواتهم
التأثرة بالثقافة اللغوية ..

وإذا كنا قد قررنا أن النقد في بيتي الحجاز واتهام كان يعتمد على السندوق
القطري الذي عقله البصر بالشعر واستيعاب النماذج الشعرية القديمة وتحتل الموقف
الحرب في التمهيد والتصور - فإن النقد في بيئة العراق تأثر بالثقافة اللغوية التي فطنت
على نقد هذه البيئة وأغلبهم من علماء اللغة والمشتغلين بها * وهناك روایات كثيرة
ومشورة حو شبيب عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي للفردوسي واحداً الخواص في قواعد
اللغة والنحو * روى ابن سنان في طبقاته قال :

* أخبرني يونس أن ابن أبي اسحاق قال للفردوسي في مدحه يزيد بن عبد الملك
مستقبلين على النار تنبئنا بها بحامض كديف القطن مشهور
على عائنا يلقى وأرسلنا على زواحف تزجي مخسب من رير

قال ابن أبي اسحاق : أضاف لنا في رير (١)

وكان يكرهه على الكزبي فقال :

فلو كان عبد الله مولى جديس ولكن عبد الله مولى موالينا

فقالوا له أضاف أيضا رقياس النحر : مولى موال :

وأورد صاحب الشعر والنحو ما أخذ على الفردوسي قوله :

* وفي زمان يا ابن مروان لم يسدع من الناس إلا مسحا أو ملسا

..... فخرى آخر البيت سرورة وأصبح أسى الاغراب في طلب الملة فقالوا وأكبروا ولم يأتوا فيه
بشيء يرضى ومن ذا يخفى عليه من أهل الدار أن كل ما أتوا به احتيال وسوء ؟ وقد سدد
سأل بعضهم الفردوسي عن رقصه أياه فاستد : قال : على أن أقول وظيفكم أن تحتجروا * (٢)

ولم يكن المصير الوحيد للنقد في بيئة العراق ترأسها اللغة وقواعدها وإنما كانت
لهم تلوات نقدية تشتمل بالدلالات والمعاني الشعرية وتقيم الموازنات بين الشعراء ونسبها
هذا الشيء في تصور الأمراء والولاة وعلى ألسنة كبار الشعراء وتدفق الشعر.

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١٦٠ ..

(٢) الشعر والنحو ص ١ من ٤٨٠ ..

روى صاحب الأغاني قال : " ... عن سلمة بن أيوب بن سلمة الهمداني قال : كان جدي عند الحباب قد خلعت عليه امرأة بزة فالتصبت له فاذا بي ليلي الأخيلىة فلما قالت : فلام اذا هيز الفتاة مقامها ...

قال لها لا تشلى غلام قولى ... (١)

والى جانب هذا الفن من النقد الذى يتعلق بالمعاشى الشعرية تعرف النصوص على المذاهب الشعرية ويبرزوا بين الفنون التى غلبت على كل عصر فكان بربريقون :

" النصراني أمتنا للخمر والحمر وأمدحنا للبلوك وأنا مدينة الحمر وقال أبو عمر وشيخ الأندلس : أياكم أشعر فقال : أنا أمدحهم للبلوك وأمتهم للخمر والحمر يصنعون النساء وما يبرر فأنسبنا وأحببنا وأما انفرزدق فأخبرنا " (٢)

ولم أننا حاولنا أن نمثل مقارنة بين بيئات النقد الثلاث التى تحدثنا عنها لاستنتاج أن نوع بيئة الحجاز في مركز الإدارة تليها بيئة الشام وأخيرا تأتي بيئة العراق ..

أما السبب في ارتفاع النقد في بيئة الحجاز حسب اعتقادنا فيتلخص في عدة أمور : أولاً : أن الفن الذي ازدهر في ربي بيئة الحجاز هو فن الفنون - وهو أمد فنون الحمر نسجاً بالنفس البشرية خاصة تلك التى كانت تعيش حياة مادية فريسية إلى الفلاسفة وتصور لها قدر كبير من التقدير والهدوء ..

ثانياً : كانت بيئة الحجاز ملتقى لكثير من الشعراء والنقاد خاصة في مواسم الحج التى يقصد فيها المسلمون من شتى البقاع تلك الأماكن المقدسة ويحتفلون بأجلها - ويحرمون التأديبون منهم على الالتقاء بشعراء الحجاز ونقادهم وقد أثار النقد من هذا الاحتكاك فائدة كبيرة واكسب أفكاراً ووجهات متجوعة ..

ثالثاً : كان الرخاء المادى والميزة السياسية التى أوتاج لها البجانيون خاصة في عصر أواخر القرن الأول أحد العوامل التى ساعدت على التفرغ لفن النقد والتأثير في الشعر ..

أما بيئة الشام فقد كانت مركز الثقافة ومصدر الأمر والنهي فكانت مهدى أفئدة البادحين ومحل أنظار المتكبرين بالشعر والراقين في الشهرة وتدين المبدعين ..

(١) الثاني ج ١١ ص ٢٤٢

(٢) الحمر والشعر ج ١ ص ٤٥٦ ..

فكانت مرتادا لفحوص الشعراء وكبار الأعضاء وأساطين أهل البلاغة واللمن وتوفر لنقادها
الاعلام بالثقافة العربية الأصيلة وكانت أدواقهم وذخائرهم تشمل غالبا بالشعر القديم
فجاء نقدهم عادرا عن هذا الذوق ومنطلقا من تلك الذميمة ..

فإذا انتقلنا إلى هيئة المراق وبعدنا النشاط النقدي أقص والنظرة إلى العصر
محدودة وذلك لعدة أسباب منها :

(١) أن الفن الذي شاع في هذه الهيئة وهو فن الهجاء كان أكثر أدوات المصراع
السياسي فعالية وكان لونا مرهبا لدى العرب ثقلا على طبعهم فلم يستمع
لهم فرصة لناقشته وتقويمه بالإضافة إلى أنه كان حافلا بالثالب وذكري
الأعراس والموت والافتحاش في السباب والعتاب ..

(٢) أن الاتجاه النقدي في هذه الهيئة انصرف تماما لذلك - فبعدا النقد اللغوي -
إلى الفاضلة بين الشعراء أجيالا دون الثمرة لبرقيات بعضها في نتائجهم
النحوي أو عقد موازنات بين معانيهم الشعرية وأساليبهم البيانية * فقد شاع
الخلاف الشديد بين المراقين حول جرير والفرزدق سيما أشعر - روى الجاحظ
في البيان والتبيين قال : " كان مالك بن الأخطل التشليسي - به كان يكنى - أشعر
المراق لمسمع شمس جرير والفرزدق فلما قد على أبيه حاله عن شمرهما
فقال : وجدت جريرا يذرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر فقال الأخوان
الذي يذرف من بحر أشعرهما " (١)

ويحكى ابن سلام عن يونس بن حبيب قوله :

" ما شهدت بشيدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجسج أدنى ذلك المجلس على
أحدهما " (٢)

وعلى أية حال فلم يزد دور النقد في المراق حقا إلا في القرن الثاني بعد أن صار
هذا الاقليم صعد النشاط السياسي والفكري في الحضارة العربية في حين خفت النشاط
الفني في بيتي الحجاز والشام وظل المراق وحده قيعا على علوم العربية وآدابها
ومثلا للحركة الفكرية بأسرها لعدة قرون ..

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٦ ..

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٢٥١ ..

النقد في القرن الثاني :

نستطيع ونحن نطلع أطوار النقد العربي ونلمس ما يوجد في هذا المجال من غلواء وأفكار - أن نقول في الطيف أن النصف الأول من القرن الثاني لم يشهد تغييرا كبيرا في مظاهر النقد عند العرب بل كانت هذه المرحلة امتدادا لما عرضناه من حال النقد في أواخر القرن الأول . وإن كنا نلاحظ أن الاتجاه النقدي الذي ساد في بيئة الشام بدأ في الانحلال إلى أن اختلى كلية مع اختفاء دولة بني أمية في عام ١٣٢ هـ . بينما بدأ الاتجاه النقدي الذي رأينا بزخمه في بيئة العراق ينمو ويظهر واستطاعت هذه البيئة بما لها من قدر راسخة في الثقافة العربية أن تدرس احتراسا على الشعراء والتأديبين في هذا العصر فكان الشعراء يحرفون أشعارهم على علماء البصرة والكوفة قبل أن يذيعوها في الناس ونستطيع أن نقول أن المرحلة النشطة في حياة النقد الأدبي في القرن الثاني قد بدأت منذ حوالي منتصف هذا القرن بعد أن أحدثت التغييرات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أعقبت قيام الدولة عباسية تأثيراتها المهمة في الأدب ونقده . كما أحدثت تغييرات متتجة في شتى مجالات الحياة ولعل أبرز مظاهر التحول في مجال الأدب ونقده في هذا العصر يمثل في العناصر التالية :

- (١) كثر الشعر في هذا العصر كثرة مفرطة وتنوعت النزعات الشعرية واستحدثت المذاهب الأدبية بتأثير الامتزاج الحضاري مع الشعوب غير العربية . وأعياها غلبت على الناس على هذا الازدهار الفني فشجوا الشعراء وأجزلوا لهم الخطايا وأدبواهم وبالسهم وهذا حذر الغلظة أمراءهم وقوادهم وسراة الناس ووجهاؤهم . . .
- (٢) ظهرت اتجاهات شعرية لم تكن موجودة من قبل كعصر اللهو والجسمون والخمرات وشعر الزهد والزندقة وغيرها فكان للنقد من كل ذلك سهل بديدة وسالك متعمقة كان لابد له من ارتدادها وأبداء الرأي حولها . . .
- (٣) تنوعت الثقافات المتاحة للأدباء والنقاد في هذا العصر فإلى جانب الثقافة العربية التي وضعت أهد دعائمها في هذا العصر متطلة في علوم العربية والتفسير الحديث والتشريع - وجدت ثقافة الفرس المتشلة في أدب الزهد والحكمة والقصص الخيالية الرائعة هذا بالإضافة إلى ثقافة اليونان بفلسفتها ومنطقها وعلومها ومعارفها . . .

(٤) تميزت علوم المصيرية ووضعت لها الأصول والقواعد وتخصص في بحثها جماعة من خيرة علماء هذا العصر فوضعوا قواعد النحر والتصريف وجمعوا كثيرا من غردات اللغة ودواوين الشعر ودونوا بعض المختارات الشعرية من شعر القدماء فأنتج كل ذلك للنقد مجالا رحبا وفتح الباب على مصراعيه لمناقشة الشعراء وقد الموازنات بينهم سواء أكانوا من القدماء أم من شعراء القرون الثاني ..

(٥) اعتدى الخليل بن أحمد إلى ضوابط لموسيقى الشعر العربي ووضع على أساسها علم العروض نتيجة لاستقراءه أعاريف الشعر وأوزانه . فتأثر النقد أيضا بهذا العلم الجديد وكان هناك نوع من النقد أساسه النظر في موسيقى الشعر وأندامه ..

(٦) بدأ النقد يعتمد أكثر من ذي قبل على الناحية الثقافية إلى جانب الذوق الذي كان هو الأساس الوحيد له في الماضي حتى أن النقد الصادر عن الذوق في هذه المرحلة بدت عليه آثار الثقافة وتكرت الحياة الجديدة بصانها عليه ..

وإذا كنا قد قمنا أن النقد في القرن الأول صدر عن الذوق والطبع واللياقة وظهرت في بيئة العراق بولدر النقد المصري والنحوي فالتنا نقول أن النقد في القرن الثاني تشعبت فنونه وتنوع معاييرها ومقاييسه وتأثر إلى حد كبير بالثقافة الناعضة والفكر المزدهر .. وحتى لا نخرج في دراسة لأطوار النقد عما رسناه لأنفسنا في بداية هذا الفصل فالتنا نعرض أهم المقاييس النقدية التي صدر عنها النقد في القرن الثاني سواء منها ما كان له وجود في الماضي أم ذلك الذي ظهر لأول مرة ..

- ١ -

صفة المعنى واستيفاءه :

وليس هذا القياس جديدا على النقد العربي فقد رأينا أشلة كثيرة منه في عصر ما قبل الإسلام وفي القرن الأول ضمنى به تلك النظرة الدوقية في المعاني الشعرية وتتبع نواحي القصص فيها .. وقد رأينا هذا النوع من النظر في الشعر في تطبيقه الثابتة على أبيات حسان في الرواية المشهورة وشاعنا وهو ينسب إلى أندية الحواضر الحجازية ملاحظ خلفاء بني أمية في القرن الأول .. وها نحن أولا نراه في هذا

فقال : والله لو زعم أنها عصا من أوصا زهد لقد كان جعلها جانية دعة بمد
أن جعلها عصا ألا قال كما قلت :

ودعجاء أنما جرم من مـ
إذا قامت لميتها شمسيت
كان حديثها ثمر الجنان
كان عالمها من خسوزان (١)

وأبو نواس الشاعر يقول :

" ما أحسن الشجاع حين يقول :
إذا بلغتني رحلت رحلتني
عراصة نأرقى بدم الوشمين
ألا قال كما قال الفرزدق :

علاء تلتفين وأنت تحببتني
ميتي تأتي الرابطة تستريحني
وخير الناس كله أماسيت
من الانساج وأندهر الدوامي

قال وقد كان قول الشجاع عندي عيبا
فإذا العطين هنا بلغت محسدا
فلما سمعت قول الفرزدق تيمته فقلت :
فأشهرهم من على الرجال حرام
فريقنا من خير من وطني الحمصي
فلما علينا حرمة وديسما

وقلت :

أثون لفاقتي إذ قريتني
فلم أجعلك للفرسان تحسلا
لقد أصبحت عندي باليسمين

وإلا قلت أشرقى بدم الوشمين
وإعلاق الرجالة والوشمين (٢)

- ٢ -

الجزالة :

وهذا نقيا من جديد من مقاييس النقد ظهر في هذا العصر وأثر حوله كثير من
الجدل والنقاش بين علماء اللغة وبين الشعراء والأدباء فملأوا اللغة روايتهم يحلمون
في الغالب إلى الألفاظ النخمة والمبارات العجيلة والشعراء المولدون يوترون الألفاظ

(١) لقاني ج ٣ ص ١٥٤

(٢) الموضح ص ٩٥

السهولة والنباهات القريبة المألوفة ..

رأى صاحب الأغاني عن أبي حاتم قال :

" قد علينا أبو العتاهية في خاتمة الأسون فصار إليه أصحابنا الاستشهاد
فكان أول ما أنشدوه :

ألم تر رب العرش في كن مائة	لم عارض فيه النيسة تلمس
أيها في الدنيا لنهرك تعجبني	ويأجاص الدنيا لشيرك نجس
أي امرؤ عابا على كن فرصة	وللمرء بها لاحتالة مفسس
تبارك من لا يطع الملك فسيروه	ممن تنقضي حاجات من ليس يشع
ولى امرؤ في غاية ليس نفسه	الى غاية أخرى سواها تدلس

قال : وكان أصحابنا يخلطون : لو أن طبع أبي العتاهية بجزالة لفظ لكان أشهر الناس* (١)

وقد اشتهر أبو العتاهية بسهولة ألفاظه وقرب معانيه حتى تكاد بعض أفعاره
تكون كأنها عادية نظرا في عوالب النصارى وكان أبو العتاهية يعلم ذلك من نفسه
يقول فيها أورده عنه صاحب الأغاني " أكر الناس يخلطون بالشعر ولا يعلمون
ولو أحسنوا تأليفه ثابوا شعرا كله " قال - رأي الخبر - فبينما نحن كذلك قال
رجس آخر عليه سمع : يا صاحب المسح نبي اصبح نقال لنا : أبو العتاهية هذا من
ذلك ألم تسموه يقرون :

يا صاحب المسح تبين المسح

قد قال شعرا وهو لا يعلم - قال الرجل تعال ان كنت تريد الربح فقل
أبو العتاهية قد أجاز الصراع بصراع آخر وهو لا يعلم قال له :

تعال ان كنت تريد الربح

ومثل رواية أخرى أوردها صاحب الأغاني يعلم فيها أبو العتاهية لظلمة
السهولة في شعره وهو تعليل يتميز بالصق والثنية وأدراك حركات الأسلوب الجيد
ومواطن اصناف الألفاظ البزلة والنباهات القوية والآخرى التي تحسن فيها السهولة
في البياض تقول الرواية " ... حدثنا ابن أبي الأبيش قال أتيت أبا العتاهية
فقلت له اني رجس أشرف الكهنة في الزهد ولي نيد أشعار كثيرة وهو مذنب اجتنبه

لأنى أرجو ألا أتم فيه سميت شعرك فى هذا الصنى فأجبت أن أستزيدك منه
فأحب أن تتعدنى من جيد ماقلت فقال : أعلم أن ماقلت ردى قلت وكيف ؟ قال : لأن
الشعر ينفى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين أو مثل شعر بشار وابن هرمسة
فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون الفاظه مما لا تنفى على جمهور النساى
مثل شمرى ولا سيما الأشعار التى فى الزهد وهو مذهب أشرف الناس به الزمى
وأعجب الحديث والفقه وأصحاب الربا والمائة وأعجب الأشياء اليوم ما فهموه (١)

وأبو المتاهية على أية حال تمتع بمذهبه فى الصياغة الشعرية وقد دافع عنه
أكثر من مرة وتعدى للشعراء الذين عابوه فقد اجتمع مع سلم بن الوليد فى مجلس
المجالس فجرى بينهما كلام فقال له سلم : " والله لركبت أرى أن أقول مثل قولك :
الحد والنمة لك والملك لا شريك لك

ليبك أن الملك لك

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ولكنى أقول :

سوف على منى فى يوم ذى ربيع	كأنه أجل يسمى إلى أسهل
ينال بالرفق بإيماء الرجال به	كالموت متمجلا يأتى على مهل
يكمر السيف نفوس التاكين به	وجعل الهاء تيجان أثقال الذهب
لله من هاشم فى أرضه جمل	وأنت وبنك ركنك ذلك أنجب

فقال أبو المتاهية : قل مثل قول الحد والنمة لك أقل مثل قولك كأنه أجل
يسمى إلى أين * (٢)

وعندما لاحظ بعض الأدباء على بشار بن برد تدليه فى بعض الأحيان إلى أسلوب
العامة ولغة المروعة بينما هو فى عامة شعره يوتو الجزالة وصور أشعاره فى قوالى
مروعة تماق أشعار القدماء وتطاول نتاج العرب الأقحاح يحمل بشار لذلك بشرا
ما على به أبو المتاهية لسهولة شعره - روى صاحب الأغاني قال : " ... حدثنا
أحمد بن حنبل قال حدثنى أبى قال : قلت لبشار أنك لتجى بالقى الهجس
المتفاوت قال وبذاك ؟ قال قلت : بينما تقول شعرا تثير به النخ وتخلج به القلوب
مثل قولك :

إذا ما فطينا غصبة مضربة	هتكتا حجاب الشمس أو عطر الدنيا
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة	ذرا منير على علينا ومليها

تقول :

ربابة ربة البيسنت
لها عشر دجاجيسات
تصب الخذل في الريسنت
وديك حسن الميسنت

فقال : لكن وجهه موضح فالقوس الأول يعد وهذا قلته في ربابة جاريستي وأنها لا آكن البيض من السوق ربابة هذه لها عشر دجاجات وديك فهي تبضع لي البيسنت وتحفظه عندها فهذا عندها من فولي أحسن من : قلنا نيك من ذكي حبيب منزل "معدك" (١)

- ٢ -

توازن القصيدة واختار أقسامها :

استقر في أذهان الناس في هذا العصر البناء التقليدي للقصيدة المرسية وهو الذي يبدأ بالتعقيب وصف الأطوار والسديار والحديث عن القوس أو الراحلة ثم التخلص من ذلك إلى النثر في الأعلى للقصيدة من مدح أو نحر أو وصف أو ما إلى ذلك .. ومع أن جماعة من الشعراء المولدين في القرن الثاني قد أعطوا الثروة على هذه المقدمة التقليدية وحاولوا أن يستبدلوا بها مقدمة أخرى في صفة النحر وجمال النراب .. فقد ظل البناء القديم للقصيدة مكاتبه واحتراسه وكانت الأدواني لا تزال تميل إلى تلك الاختناجية الجذابة التي أدرك الناس في القرن الثاني الهدف منها فطالبوا الشاعر بالبقاء عليها إلا أنهم رأوا من بعض الشعراء اغترافا في هذا الجانب المرسى وجاوزوا للحد في هذه الأغراض القرية فطالبوا الشعراء بالاعتدال في إيوان هذه الأغراض والموازنة بينهما وبين المقصود الأعلى للقصيدة والبراعة في الانتقال من المقدمة إلى النثر في الأساس .. روى صاحب الأغاني قال : « حدثنا عبد الله بن الضحاك قال : إن عمر بن المصلاي سأل عمرو بن حريث صاحب المهدي كان مدحا فدحه أبو المتاهية فأمر له بسبعين ألف درهم فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل بهذا الكوفي ؟ وأبى .. »

مفسر سدار عمره ؟ فلهذه ذلك فأحضر الرجل وقال له : والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه شغل ولا فلاح حتى يشب بخصون بيتا ثم يدحنا بعضهم وهذا كان المعاني تجمع له مدحني فقصر التعقيب وقال :

أني أنت من الزمان وبيسنت
لو يستلج الناس من ابتلاسه
لما علفت من الأسير حبسالا
لخذ ولم حر الوجوه نمسالا
ان ابتلايا تنكح الأنسالا
قطعت اليك سباعيا وجمالا
فإذا
وإذا رجمن بنا رجمن ثقالا (٢)

(١) أغاني ج ٢ ص ١٦٦

(٢) أغاني ج ٤ ص ٢٨

عنق التبريد :

قاس النقاد في القرن الثاني أعمار الشعراء على أساس ما تركه في النفس من أثر فلم تكن خفزة اللفظ أو جمال الجرس أو رقة العبارة هي كل شيء في الشعر بل كانت هناك قيم فنية أخرى أهم من ذلك وأصدق وأعمق ولهذا هذه الرواية التي تناقلتها كتب الأدب عن أبي عمرو بن العلاء تدل بوضوح على أن الشعر كان يقدر بالثأر الذي مانحه من شعور وأحاسيس وما تركه في ذهن القارئ والمستمع من انفعال وثير في نفسه من معان وذوادر يقول أبو عمرو بن العلاء عن عمرو بن لحيمة أنما شعرنا الرميح فخر من ثمر من عدن قليل وأعمار طبا، لها في أن صمما ثم تعود إلى أرواح البحر" (١) ويقول الأحمسي معلقا على هذه الملاحظة النقدية الدقيقة : " إن عمرو بن لحيمة حلسمو أروا ما سمعهم فإذا كثر انشاده ضعف ولم يكن له حين" (٢)

والشعر الصادق الناتج عن تلبية حقيقة وجدانة حقيقية يزداد الإعجاب به كلما أهد انشاده أو تكررت قراءته حيث يرى فيه الناظر والمستمع التامل قياسا فنيه لم تظهر له في قراءته الأولى وقد فطن أبو عمرو بن العلاء في القرن الثاني إلى هذه الحقيقة النقدية المهمة مثل لها بشعر ذي الرمة .. وذلك بذكرها مقياس دقيق من معايير النقد الأدبي بعدناه الأضواء ..

ابتكار الحاني :

وكان السبق إلى الاتيان بالسنى المسمى الجديد يعود من خواص الاجسادة ودلائل التفوق والشاعرية بين شعراء القرن الثاني ونشاده ..

روي صاحب الأغاني قال : " قال بهار لأبي المتألمية : أنا والله استحسن
اعتذارك من دمعك حيث تقول :

رقبه البكاء من الحبيبات	كم من صديق لي أسس
فأقول ما به من بكاء	فإذا تأمل لا يسنني
فقد رقت عيني بالسموم	لكن ذهبت لأرسمدي

نقان له أبوالمشامة : لا والله يا أبا معاذ ما لذت إلا بهتائه ولا اجتنبت إلا من غرسه
حيث تقول :

شكوت إلى الدواني ما الأقى	قلت لهن ما يوسى بهن
فقلن بكيت قلت لهن كسفا	وعن يبنى من الدوى البوليس
ولكنى أعاب سواد عيسنى	عهد قذى له طرف حديس
فقلن لخالدهمها سسرا	أكلت بقاتلته أعاب عيس

(١)

* ونصبت يشار على سلم الخاسر وكان من ثلاثته ورواه ناسد نفع عليه بجماعة
من اخوانه فجاءوه في أمره نقان لهم كن حاجة لكم قضية إلا سلما قالوا ما جئناك
إلا في سلم ولا بد من أن ترمى عنه لنا نقان : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا فقام
إليه سلم فقبض رأسه وشق بين يديه وقال : يا أبا معاذ خرجك وأديت فقال ياسلم
من الذي تقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتحة الهني

فان : أنت يا أبا معاذ جعلنى اللعنة .. قال فمن الذى يقول :

من راقب الناس مات غسسا وفاز بالليذة الجسسا

قال : خرجك يقول ذلك (يعنى نفسه) قال : أتأخذ معانى التى قد غيت بها وتهمت
فى استنباطها فتكسوها ألفاظا أخف من الفانى حتى يروى ما تقول ويذهب عصى * (٢)

— ٦ —

بيت القصيد :

وبعد المقياس نحن به رواية الشعر ولما اللغة فى هذا المعبر وأخذ جانبها كثيرا
من اهتمامهم مع أنه من وجهة نظر النقد الحديث بعد نظرة عقيدة إلى نتائج الشعر
أن يتعلق الناقد بيت أوبيتين تاركا بقية الشعر الشعرى فى زوايا الأسمان على الرغم
ساقط يكون فيه من مقومات الإجابة ودلائل المنارية ..

روى صاحب الأغاني قال : " قال معاوية بن بكر الباهلي قلت لحمار الراوية : هم
نقد الناهضة ؟ قال : يا كفاك بالبيت الواحد من شعره لا بل بنصف بيتين

لا بل يبيع بيت شى قوله :

حلفت نلأ أترك لنفأ رهسة وليس راء الله للمرأ مذهب

كل نصف يفتيك عن صاحبه وقوله : " أى الرجال المذهب " رجع بيت يفتيك عن غيره (١)

وكان أبر عبدة والأصمى يفتلان الدراج فى هذين البيتين وزمان أنسه فبيها أضر الخلق :

مجتاب حلة يرجد لسراتسسه قد دارأ خلف ماسواء البرجسد
يبدو وتضميره البلاد كأنسه سيف على شرف يمل هضسسه (٢)

يقول صاحب الحق :

" اختلف الناس فى أضر نصف بيت قائله المرب فتان بعضهم قول أبى ذؤيب
والدسر ليس بمعتب من يجرس

وقال بعضهم قول حميد بن ثور الهذلى :
نوكى بالأدنى وأن حل ما يفسس

وقال بعضهم قول زهير :

ومن يك رهنة للحصادك يخلق وقالوا أهدى بيت قائله المرب
قول زهير :

والتفلى إذا تنحنج للقسى بقاء استه رضى الأشسسالا
وقال أن أهدى بيت قائله المرب قول : طيبه :
ألا كل شى " ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائس
وقال أهدى بيت قائله المرب قول أبى ذؤيب الهذلى :
والنفس رغبة إذا رغبهسا وإذا ترد إلى قليل تنقع " (٣)

- ٢ -

اللمسة والنحو :

تمقب طما " اللمسة والنحو الشعر " قد ما " ومحدثون وأمهروا لهذا " غير وجازهم المقول
فكان نيس بن عريقول :

أما النابذة في قوله :

بعت كائى ما ورثنى ضيلسدة من الرقش في أنابها لى نافع

وقول : مؤسسه نافعاً * (١)

* وكان الأخصى يامن على بنار في قوله :

والآن أقصر عن سعة باطلنى وأنا بالوئلى على شمسير

وفي قوله :

على الخولى منى المذى فرمى ليهوت بها في نى مخسرة زهس

وقال : لم يسمع من الوجن والغزن " فعلى " وأنا قاسمها بنار ولى هذا ما يقار وانسبا
يصل فيه بالسما * (٢)

وقابوا أبا نواس في قوله للأمين :

ياغير من كان ومن يكون إلا النى الظاهر اليمسرون

وقال : ان حق الكاذم الصب * إلا النى الظاهر اليمسرون * (٣)

(١) الموشح بر ٥٥٠

(٢) الموشح بر ٣٨٤

(٣) الموشح بر ٤٢٠

الباب الثاني

* أعلام النقاد الهيرسوم *

- | | |
|----------------|--------------|
| الفصل الأول : | الأبيس |
| الفصل الثاني : | ابن ميسلام |
| الفصل الثالث : | الجاحظ |
| الفصل الرابع : | المسعودي |
| الفصل الخامس : | أحمد بن محمد |

الفصل الأول

الأخصى من تراثه النقدى

إذا كنا ندرس الفكر النقدى للأخصى من خلال تراثه الكبير الذى وصل إلينا فى مختلف علوم اللغة والأدب على ألسنة أن بجانب النقد فى هذا التراث يعد ركنا أساسيا فى تراث المدرسة النقدية فى مصر - فانا ينبغي أن نشير إلى أن جهتمود الأخصى مكانته فى علوم الأدب واللغة تجعل تراثه أملا لأن يدور من زوايا مختلفة على بحوث مختلفة تتفرع من الفروع التى أسس فيها فليس الأخصى ناقدا للأدب فحسب بل هو ناقد وأديب وفقيه وأهية ومؤرخ وقارئ وقاص وماحب لكافة علوم وأخبار ومفسر ومن ثم فنصير اهتمامنا إلى دراسة الجانب النقدى من تراث الأخصى مع الالتفات إلى بالموثرات الثقافية والاجتماعية والنفسية التى أثرت فى شخصية الأخصى وبالتالى تعاضدت على ميله المذهب النقدى له ..

وسوف تصحح دراستنا للأخصى النافع كثيرا من الأخطاء الدائمة فى أوساط الباحثين حول اتجاهه النقدى ويرتفع من الشمر القدام والسحدثين كما أننا سنبحث فى حقيقة الاندثار فى تصور المذهب النقدى للأخصى ونحضر للروايات المختلفة التى تشير المضمون والتناقض فى تصور الفكر النقدى عند الأخصى ..

قد رأينا أن تكون دراستنا لشخصية الأخصى ولتراثه النقدى موضوعة فى الألسنة التالية :

أولا : شخصية الأخصى :

نسبه ونشأته ثقافته وحياته - اتصاله بالرشيد وعامل تجارته فى بمسجد اد قصه وتوادره - أخلاقه وأقوال العلماء فيه .. مؤلفاته ..

ثانيا : تراثه النقدى :

الجوانب المثلثة لفكره النقدى - أثر انتقاله إلى بغداد فى موقفه من قرايب

الشعر بامتناعه النقدية - فليس النقد - من آثار الخلف في بعض
آرائه النقدية * (١)

تسمية الأسماء :

تسمية :

يقترحنا الحديث عن الأسماء أن نورد تسمية كاملة ونصله بأخر جديده
وقد عده النسابون العرب وغيره من ذلك لأن الأسماء على بهذا النسب أو كان
شارحتار ومهانة وقد جهد في التتبع منه وانكاره لهم :

أبو سعيد * عبد الملك بن عامر - الذي غلب عليه لقب قريب (٢) - بن عبد الملك بن
علي ابن أخص بن مازن بن رباح بن عمرو بن عبد الله بن أنيا بن سعد بن محمد بن علي
ابن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن مائل بن مضر بن نزار بن معد
ابن عدنان * المعروف بالأسماء الماهلي * (٣)

وكان هذا النسب شارحاً ومزلاً من سوا من ناحية قبيلة الكبيرة أو من ناحية
أسرة الصغيرة * فهو من جهة قبيلة الكبيرة منسوب إلى باهلة * يقول ابن خلكان : " ولما
قيل له الباهلي ولم يفرق تسميه باهلة لأن باهلة اسم امرأة مالك بن أعصر قيل أن باهلة
ابن أعصر * (٤)

وفي الرواية الأولى استند خصم الباهليين في الزاوية بهم والخط من شأنهم
نقد كانت باهلة هذه زوجة لمالك بن أمير نقول عنها وهي شابة فتزوجها معن بن مالك
ابن زوجها من امرأة أخرى فولدت له أولاداً وحضنت سائر ولده * يقول صاحب
جوهرة أنساب العرب :

" معن بن مالك خلف بعد أبيه على باهلة فولدت له أولاداً وحضنت سائر ولده
من غيرها فنسب جميعهم إلى باهلة * فولد معن بن مالك أود بن معن وجعلوا أسماها باهلة
فراض واسمها غيبان وقد روائع والحارث وحرب وأسمى بنت شيخ بن فزارة وكتيبة وقمتب وأسمها
بنت عمرو بن معن حضنتهم كلهم باهلة فكلهم ينسب إليها * (٥)

(١) رجعنا في دراستنا وتربيتنا للأسماء التي ساد وكثرة شهرتها في المراجع الحاصلة
كما ننسب على المصادر التي نقلنا تصوراتها في أثناء الحديث ومن الكتب التي ألفت عن الأسماء
حديثاً واستفدنا منها كتاب الأسماء حياته وآثاره للدكتور عبد الباق الجور ط بيروت ١٩٥٥ -
(٢) فيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٥ وأخبار النحويين البصريين ص ٤٥ (٣) فيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٤
(٤) البصرة ص ٢٤٥ (٥) المرجع السابق ص ٢٤٦

وهلى هذا القول يكون الأعمى لىى باهلىا لأنه من ولد فتية بن معدن واولىس معدن
أبناء باهلة ولذلك كان الأعمى يقول : * لست من باهلة لأن فتية بن معدن لم تلده باهلة قط * ٦

وكان الانتساب الى باهلة بشهر السغرية والاحتقار بين العرب وقد أورد صاحب الكامل
روايات كثيرة حول نفرة العرب من الباهليين وانتقامهم منهم * من هذه الروايات :
أن * أعرابيا لقي رجلا من الحنظلي فقال له من الرجل قال : باهلى قال أهداك بالله من
ذلك قال : أى والله وأنا مع ذلك سوى لم تأخذ الأعراس يقبل يديه ويتصم به قال لسه
الرجل ولم تنص ذلك قال لأنى أرى بأن الله عز وجل لم يهلك بهذا فى الدنيا الا وأنت من
أهل الجنة * (١)

ونعتقد أن السماع على الزمامة والسيادة بين السهالية والباهليين فى عصر بنى أمية
كان له أكبر الأثر فى اضمال هذه الروايات التى تحدث عن قذور الباهليين وذلك بفعل
المسبة القلبية التى انتشرت فى ذلك العصر وراح يحميها زعماء الأسرتين جميعا
غير أن آثار هذه الصورة قد بقيت فى أعقاب الأسرتين وظلت بين العرب * والدليل على
على ذلك أن محلى ما أورد صاحب الكامل من روايات تنتقد الباهليين قد وردت على
لسان جماعة من العرب فى العصر الأموى ومعنى ذلك أن باهلة لم تكن مهانة فى التقدير
بهذه الصورة ثم أن زول الابن من زوية أبيه قد حدث فى عصر ما قبل الاسلام وتكرر بين
العرب وهذا يدل على أن محلى الباهليين لم يباحثون عن مدخل فى نسبهم يسمون من
طريقه . قد هم وحدهم فوجدوا فى هذه الحادثة فى تلك الفترة تعلقا بها وأناموا
فى الناس .

أما الأميرة السغرية لأبى سعيد الأعمى فقد كانت من الأخرى مشهورة بالشجاعة
والانحباط * * توالده عام الذى غلب عليه لقب قريب كان كما يقول صاحب تاريخ القاسمات
الحريرية * غزلا حسيما وكان ذلك الملك أتى بجماعة من الصورة الى قريب فوجدوا عطفها
بكاء نائما للشمس فكسره برجله وراح به قريبا فملكه قال : ألقى أحد من أهل
البحلى قط أومن أهل النخلة ؟ أو النخلة ؟ قال لا والله * قيس قال
لكن حضر الشهدا على ما حدث لا يقرون لكم هذا الأعمى أو بعد قد : أنشدنى والسعدى
أو حدثنى * (٢)

(١) جبهة انساب العرب ص ٢٤٥

(٢) الكاس ج ٢ ص ٢٥

(٣) شرح المغارات الحربية للسريشى ج ٢ ص ٢٦١

ووجد علي بن أحمس * كان سرق سفلوان (١) فأتوا به علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : جيئني بمن يشهد ... قال فشهد عليه بذلك عبده فأمر به فقتل ...
أما وجهه فحين لم ألبس الثوبين إلا قدمت من رند ؟ فقال يا سبحان الله ؟ كيف يتوكأ ؟
كيف يمشي ؟ كيف يأكل ؟ ... فلما قدم الحبيب بن يوسف البصرة أتاه علي بن أبي طالب فقال
أيها الأمير ان أهدني عتاني فسيأتي عليا فلتني أنت فقال يا أحسن ما تولدت به قد وليتك منك
البارجاء (٢) وأجبت لك في كل يوم دافقين فلما والله لئن عمد يتوالأقطار ما أبقاه من يدك (٣)

* وكان أبو عبدة والأحمس يتقاربان كثيرا وقع كل واحد منهما في ما حبه ...
حدثنا التوزي قال : سألت أبا عبدة عن قول الشاعر :

وأضحت رسم الدار قفرا كأنه سدا

كتاب تارة الباعلي بن أحمس

فقال : هذا يقوله في جده الأحمس كان يقرأ الكتاب على الصابر كما يقرأه الغراماني
قال التوزي : سألت الأحمس عن هذا نشير وذهب ثم قال : هذا كتاب شمان ورد علي
ابن عامر فلم يوجد له من يقرأه إلا هدي * (٤)

ولرب عندنا في أن المكانة التي وصل إليها الأحمس في عصره والجاهلية التي لقيها
في بلاط الرشيد قد أطلقت السنة الحاقدين عليه فانتقصوا أمره وحاولوا من قيمته ...
في صدر كانت الدرافات القليلة على أعدها بالانزلة إلى الدراج بين العرب والفرس الذي
عرب في الثاني باسم الكهوية والذي بلغ ذروته في تلك المرحلة التي عاش فيها
الأحمس * ثم ان أبا حميد لم يخف بعيدا عن تيارات الحياة العامة في عصره بل خاض
غبارها وتحرى تياراتها فكان له منجوه وناشوه والحدود من عليه ولم يهادن ذو الحسد
من هؤلاء بل كان يكيد لهم ويقابل العدة بهجمات ...

ولمّا نريد أن نسبق الحواشي أو نقفز إلى استنتاج النتائج فإن ما هممتنا لمواصلة
حياة الأحمس والدارف التي أحاطت بكل مرحلة وأطاعتنا على أخلاقه وأقران العلماء فيسه
سوف يهيب على كثير من التساؤلات التي يثيرها موقف شعبي الأحمس منه وحقيقة الصواب
فيه .

(١) سفلوان مؤنن بالمصرف وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٧

(٢) البارجاء : مؤنن بالبصرة عن ابن خلكان .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٧

(٤) أخبار النعمان البصريين ص ٢٥٠

لم يكن أبو حميد الأعمى يدين في مراحل السلم الأولى حتى آمن من نفسه رغبة قوية في ارتياد هذه الآفاق التي شتهرتها بمقدرة على الاستيعاب والتجريب وتفتحت عيناه على الأندية العلمية بالبصرة وهي تمنح بالعلماء والرواة والأخباريين وقد لقي الأعمى وزوه الرعي الأوفى من علماء البصرة ومنهم من تعلم عليهم فحمد من " سمر بن كدام وشعبة بن الحجاج والحطاب بن (١) " وأكثر عن أبي عمرو بن العلاء ... وكان سألت أبا عمرو بن العلاء عن ثمانية آلاف مسألة ومات حتى أشرف على ما لا يحصى يقبله مني ويمتدده " (٢) وكان تعلم نقد الشعر من ذلك الأعمى " (٣) وأخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبي نعيم " وكانت شعبة القراءة وأما تعلمه نحو وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه " (٤)

ولقي أبو حميد غير هؤلاء : عيسى بن عمر الثقفي والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وقطرب والأخفش وعبد الله بن عون وقرة بن خالد وسليمان بن المغيرة وثقالب بن مالك بن أنس وقرأ شعر الثوري على محمد بن أدريس النخعي وهذا بالامانة التي الممدد الكثير من فصحاء العرب الذين كانوا يقدون إلى البصرة أولئك هم أبو حميد في رحلاته وأسفاره ..

ولعل النظر في توثيق هؤلاء الاساتذة وعدد اهتماماتهم العلمية يطيننا على صورة واضحة عن تنوع ثقافة الأعمى وتعلمها في أساتذته علماء اللغة والنحو والقراء والفقهاء وتقدمه في شعر وعلماء الأدب والأخباريين والرواة والقصاص ... يضاف إلى هؤلاء الاساتذة ذلك العدد الكثير من الشعراء والرجال الذين تشبه الأعمى ومنهم من روى أخبارهم وهذا منهم ..

روى محمد بن يزيد المبرد قال : " أنبأنا التوزي قال : كنا عند الأعمى وحيداً وهو قور قصده من خراسان وأقاموا على بابه فتنازل له قائلاً من هو يا أبا حميد ان خراسان يروى بحلم البصرة وإليك خاتمة ما رأينا أصح من علمك فقال : لا عذر لي ان لم يسمع عليّ من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة الحديث والمحدثين ولكن قد لقيت من الشعراء الفصحاء وأولاد الشعراء : رؤبة وجرير بن العلاء بن النعمان ومولانا ضوحا ابني جرير وطبقة من

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٢

(٢) مفردات الذهب ج ٢ ص ٣٦

(٣) المعجم ج ٢ ص ٢٥٠

(٤) الخصائص ج ٢ ص ٣١١

الأدب واللغة + وقد حدثنا الأصمى طويلاً عن رحلاته ومقابلاته وصور لنا بلمع حرصه على الاستفادة من كل ما يجارته وهو لنا قدراً بما قام به وحملته في سبيل هذه النطاقات والكثير النادرة التي جمعها وتعب عليها * * * حكى عنه عبد الرحمن بن أبيه أنه قال :

" نزلت في واد من أودية بني النضير وإذا يومئذ بالعلم وإذا قتيبة يريدون البصرة فأحببت صحبتهم فأقمت ليلتي ثلاثاً عليهم وإلى لوعيت مصححاً مسجوراً فلما قاموا ليروحوا أيقنوني فلما رأوا حالي رحلوا بي وحملوني وركب أحدناهم وراش يسكني فلما أجمعوا في السير تنادوا ألا غنى يحدو بنا أو ينشدنا ؟

فلما شد في خوف الليل بصوت ندى حزين يقول :

لعمرك أني يرويانوا فلم أمسكت	غنائنا على آثارهم لم يمسحوا
غداة النقي ^(١) إذا ربيتها مسرة	ونحن على متن الطريق نسير
ففاعيت دمي الحين حتى كأنها	لنا غردنا غدياً يراح مطير
فقلت لقلبي حين خف به الهوى	وكاد من الرجود العير يطير
فهذا ولما تبغ للبين ليلسة	فكيف إذا مررت عليك غيبير

... قال فسكت الحى حتى ما أحس بها فقلت لرديني أنزل إلى راحتك فاني نفيق حواسك جزاك الله وحسن الصحبة خيراً * (٢)

وهي أمة حار كانت هذه الرحلات العلمية ركناً أساسياً في بناء شخصية الأصمى الثقافية إذ أعيت ثقافته أبعاداً خاصة وبرزت من أقرانه وثاقبه فمن ثقافات مستقاة من مناهجها الأصيلة ومن ثم فقد كانت بناط اعتداد الأصمى وسبيل في ثقة الناس في العلم الأخوة عنه واستطاع أبو سعيد أن يؤسس للبيئة الفكرية التي تحررت في جنباتها قيمة هذه الرحلات وأثرها في سمة معارفه ودقة معلوماته فقد كانت المناجلات التي تدور بينه وبين أقرانه في قضايا اللغوية والفريب والأخبار والتواريخ تجعل كثرة الأصمى دوماً راجحة بسبب كثرة روايته ودقة معارفه وأبحاثها * * * وهناك حكاية شهيرة تدل على معظم المصادر التي ترجعت للأصمى * حكاه الأصمى قال : " حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفقيه ابن الريس فقال لي كم كتابك في الخيل فقلت مجلد واحد فقال لها عبيدة

(١) مؤمن بين أحد والمدينة (القاهر)

(٢) الأما إلى لقالى ج ٢ ص ٢٦٢

عن كتابه فقال : خمسة مجلدا فقال له : قر إلى هذا الفرس وأمسك عضوا عضوا منه
وسمى فقال : لست به ذرا وأنا هذا مني أخذته من العرب فقال قم يا أسمى
والفس ذلك نقت وأمسكت ناسيته رجعلت أذكر عضوا عضوا وأغنى يدي عليه منه
وأشد علاقته العرب إلى أن بلغت حاضرة فقال خذ فأتت الفرس وكنت إذا أردت
أن أفيذه ركبته وأنته (١)

فهذه القصة المملية بالأشياء كانت العلامة الصبغة الشخصية للأصمعي
المملية ما يحسن اسحاق الموصلي يقول عنه : " لم أر الأصمعي يدهن فيلحسا
من العلم ليكون أحد أعلم به منه " (٢)

وأما : قضي الأصمعي حياته كلها بالدروس والمعلم والرواية ولم تشغله أحداث الحياة أو زخارفها
ولم ينخرط أو يتورط في الأحداث السياسية فظل على صلة قوية بالثقافة الساسية
أحبها وفضل في سبيل حيازتها لنفيافي والقارون ثم فقد بقيت المادة العلمية
عند الأصمعي قصة مشيرة في كل مراحل حياته سواء أيام رحلاته العلمية الأولى
أو بعد أن صارت له حلقة في المدرسة الكهيرة بالهجرة وعندما انتقل الأصمعي
إلى بغداد ومارغى مكانة رفيعة كانت صلته بثقافته تتجدد وتزداد بحسبانها
الدعاسة الأساسية التي يركز عليها وجوده في هذا الموقع المرموق . . . والسبل
الحنين إلى الرحلة يمزجه بلوان حياته فكان يستغل فرصة خروج الرشيد السبي
المنزور أو الحي فينتقل شوال الهجرة ومنها إلى الهادية يمارس عودته من
الأثيرة ويشتت من مسألة أريق على حكاية لطيفة أو غادرة شائقة . . . ولما استقر
الأصمعي في أولخر سنى حياته بالهجرة عكف على حفظه وأوراقه يرتبها ويدونها
ومليها على تلاميذه والراوين عنه . .

وكان أبو سعيد يدرك أن هذه الممارسة المستمرة للثقافة والاداب علمي
البحث والدروس هما خير وسيلة للمحافظة على المحسوب الثقافي وأنشأه
وكان يقول " خير العلم ما حازرت به " (٣) ومن يوم " كيف حدثت ونسى أصحابك
قال : درست وتركوا " (٤)

(١) بحية الحاة ج ٢ ر ٣١٣

(٢) حيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٢

(٣) التوذي بالذكري ج ١ ص ١٤

(٤) مجالس شعلب قسم أول ص ١٥٦

اتصاله بالرشيد :

كانت الحركة العلمية في بيئة البصرة من أوليات النطاق الفكري الموثوق في حضارة العرب المسلمين وكانت هذه الحركة ذات أثر فبان في ميدان النشاط الثقافي... الذي مهدته أعمار الدواين في تلك الأونة فقد امتد تأثيرها أولا إلى الحركة العلمية في الدولة كما أضحى إلى ذلك من قبل شرمعون البصراني الكبيران في التأثير على الحركة العلمية في بغداد بعد انشائها في سنة ١٤٥ هـ.

وكان من حظ الأسمى أن لم نجده في بغداد دولة بني العباس فمستعبد أو ازدهارها ونشوان عائلتها وجدوها كان اتصاله بالرشيد في أرض بني خاتمة وأكرمها استقرارا وخاء... وكان إقبال السعد عائلته للأسمى فلما اختاره الرشيد سميراه وكان قد حصل إليه ترويض ومهينة " فاختار الرشيد الأسمى لجهالة لأنه كان أحسن منأ عنه وأعلم له بالأسرة الطاهرة " (١)

وقد أورد صاحب المقصد الفريد خبرا طويلا يقي في حوالى تسع صفحات كبيرة حسن التقاء الأسمى بالرشيد لأول مرة (٢) وقد انصقت بهذا الخبر أن الرشيد أرق ذات ليلة فقال هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فبحث الفخذ حتى وجد الأسمى نادى عليه عليه وعنده الفخذ بن يحيى فقال الرشيد الأسمى : أعلم أم ربيعة ؟ فقال : ربيعة يا أمير المؤمنين... قال الرشيد : لمن ؟ قال : الذي جد وعزل بعد أن يكون محسنا... قال أرويت المصباح رؤية شيئا ؟ فورد الأسمى بالإيجاب فقال له الرشيد... أسمى :

أرقني طارق في طرقك...

قال الأسمى : فضيت فيها مضي الجواد في ستن ميدانه تهردها أهدا في حسني إذا صرت إلى امتداح بني أمية شئت فنان اللسان إلى امتداح النصور... فقال الرشيد : أعلم حيرة أن من عد ؟ فقال الأسمى : هل من عد تركت كذبه إلى عدقه فيما وصف به النصور من بريد... فقال الرشيد للأسمى : اسمعني كلمة عدي بن أرق... قال في الوليد بن يزيد بن عبد الملك...

عرف الديار توجها فامتدادها...

(١) أخبار النحريين البصريين ص ٤٤

(٢) المقصد الفريد ج ٥ ص ٢٠٩ - ٢١٢

لنفس فيها الأعمى وسأله الرشيد عن بعض ما في أبحاثها من الشريب ... ثم
قال له الرشيد : أريت لدى الرصة شيئا ؟ قال الأكثر يا أمير المؤمنين فهو من عليه الرشيد
بقوله : اني لا أسألك سؤالا احتجنا وما كان هذا عليك ولكني أجهل بها للمذاكرسة
فان وقع عن عرنانه شيئا فلتدقيق عليك بذلك عندي ... ثم قال الرشيد للأعمى :
أريت لسمع شيئا ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين قال يمجى قوله :

الدارد من ثنى الزمان تحت لحيته جراتا كخروج الخيزران المسمى

قال الأعمى : يا أمير المؤمنين من عروس كاتبة ... ثم التفت الرشيد للنفس
الفضل فقال : لكلام مولانا ومن تقدم من الشعراء ديباج الكلام الخسرواني يزعم
على اللحن جده ومنا (١)

ولربك الأعمى بعد هذا اللقاء أن صار لازمة من لوازم المجالس الرشدية
المشورة التي كانت تحض بالعلماء والشعراء والمجاهدين وأن يتجاذب بينهم
الحديث في أمر من الأمور أو قضية من القضايا حتى يلتفت الرشيد إلى الأعمى ماثلا إياه
عما تقدم في هذا الأمر أو عما قلته المرب فيه فيندفع الأعمى في حكاية ما يفسد
المقام ولا يفسح حتى يكون قد انتزع إعجاب الحاضرين وفي مقدمتهم الرشيد الذي كان
يثنى عليه ويكثر بمرورده في مجلسه ...

وقد حكى لنا الأعمى كثيرا من هذه المجالس وما كان يدور فيها بمرقته وهو ما كان
يسهم به في المناجبات المختلفة ... يقول الأعمى :

" دخلت يوما على الرشيد وهو يركن القالوق فقال : يا أعمى هل قالت المسرب
في هذا شربا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وأنى لها هذا ولكن قالت شيئا دونه قال وما قالت ؟
قال : قال مزود بن ضوار أخو الدجاج :

ولما نعدت أمي تزور بناتهن مسميا أفريت على الحكم الذي كان يمنع (٢)

(١) المند الفريده ص ٣٠-٣١ وقد أوردنا الرواية باختصار والجوان في بيت الشعراء
مقدم المتن من الشعر إلى المذهب ...

(٢) الحكم بكسر الهمزة قال صاحب القاموس " نط تجلس المرأة فيه ذخيرتها " مادة عكم

خلطت بهماى حنطة صاع عجيبة الى مال من عرقها بقرس
ودلت اثنان الاثنى كأنهما رؤوس نقاد قطع يور
وقلت لبطنى أشرى اليك انسى حسن أمانا شيد وجس
فان تكافقوا فهذا دواؤى وان تك جوفانا هذا يور تشبع

فضحك الرشيد وقال يا أحمسى : ما الدنيا ليس فيها مثلك حسن * قد عوت لى
وفلت على الملوك بالعلم * (١)

(وقال عمرو بن الحارث الجمعى ما رأى الأحمسى مثل نفسه : قال الرشيد يومئذ
أنه من أحسن ما قيل فى وصف العقاب فمذر القور ولم يأتوا بهش * فقال الأحمسى أحسن
ما قيل فيها :

بانت يورثها فى كرها سبب ونافى يخلص الأقوات من ثوبها
وقال امرؤ القيس :

تأن ظوب الدمر ربا وابها لدى وكرا المناب والحناف الهالى

فقال الرشيد ما بهش (٢) القور بهش * الا وجدت عندك فيه شيئا * (٣)

ويقول الأحمسى :

" سميت الرشيد يوما يقور قلب الحامق عليه مع مشرقه * نقلت له ههنا
يا أمير المؤمنين أحسن من قور عروة بن حزام الحذرى :

أرائى تضرعى لذكراك رعبدة لها بين جلدى والحظام دهب
وما هو الا أن أراها تجسدة تأهيت حتى ما أكاد أجيب
وأود من رأى الذى كنت ارتشى ويحزب عني ذكره ويشيب
ويضر قلبى عدونا يعنيه على فالى فى النواهد شيب

فقال الرشيد * لله درك يا أحمسى فانى أجد عندك ما يرمى منه العلماء * (٤)

(١) ديوان الحمادى ج ١ ص ٣٠٤

(٢) فى القاموس بهش بأمره كهرجده هشر وقرى ويرى فلم يد وما يفتح والسياق هنا يدل على

أن معنى الكلمة النجس والانتطاع فى الجواب * *

(٣) ديوان الحمادى ج ٢ ص ١٤٢

(٤) ديوان الحمادى ج ١ ص ٢٨١

وحكى الأصمى قان :

" يا في رسول الرشيد ٠٠ ليلة وقد ذهب من الليل شطر فقان : أجب أمير المؤمنين ففزعت من ذلك وثلت حدثك أمر يكره ففضيت عنه فاذا هو قاعد في أقصى مجلسه وبين يده دواة وقرطاس وهو يركى فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين : فقال عليك السلام يا ابن قريظ اجلس فجلست ٠ فقال : أهلك هذا البيت وأسهر ليلتي فقلت : لا أهلك الله منك يا أمير المؤمنين وأى بيت هو ؟ فقال : بيت ابن ذى سلم عند موته :

لم تحتجب غير أثواب يزورها
رب الزمان وتزل العهد والقصد

فقلت والله يا أمير المؤمنين لقد صدق وتذو سبيل الناس جميعا فطهر للمؤمنين فقال : وحكى يا أصمى ذهب جلوس الخبر ٠٠٠ أين من كان اذا جالسهم العرفسون على أنفسهم وعلمتهم سموتهم وذكرتهم هيئتهم وبلغت بهم كل المبالغ فقلت : فقلت يا أمير المؤمنين لقد أسعد الله دلتك بجماعة من أهل القليل فقلت : وان أسعدت أن أحذرك بحدثك ومخبر قريظ على بعض القبر فقال : هاته : فقلت : حدثني من أشق بهم قان : غزونا في البحر فمالت بنا السفينة إلى جزيرة فاذا نحن بقصر شاهق إلى جانبه قبر وعلى القبر باهان وبين القصر والقبر نسيلا نخل لأر شيا أحسن منه فاذا على القصر مكتوب :

يؤمن دنيا لتحقى له
فات الموتى قبل الأكل
هات يرمى أسول القبر
يل فحاش القسيس ويات الرجب

وعلى وجه القصر مكتوب :

وحي كان جبينه بدر الدجى
قامت عليه نواحي هرواس
غرس الفسيل مؤملا لبقائه
فحبا الفسيل ويات عنه المكارم

وعلى أحد بابي القصر مكتوب :

ذلك المدائن في الآثاني خاوية
أصمت خلا وذاق الموت بانبيها

قان : الرجوع فبقيت تمنعها أنذار إلى الضمير والقبر والفسيل والقبر ثم تثلث :

ناد رب الدار والحصن الكدى
جميع الدنيا بخرم ما خسر
كان في دار مؤامرا داره
علته بالبنى ثم انتقم

قان : قل يزل الرشيد يركى ويصرخ حتى أصبح فلما أصبح أمر أن يغرق ما جليل فيتمدق به على الفقراء والمساكين وأن يدفع إلى منه عمرة آلاف درهم (١)

وحق الرشيد أن يؤثر الأعمى وقدمه وشرقه بغطاياه ومنحه فهو يجد عند ما يسلية
عبره منه ورضى فوازعه في أحواله كلها فهو أن شاء الرشيد كان ولا ظنا حكيمًا وأن شاء
كان ملها ضحكًا وأن شاء كان أديبا ناقدًا وأن شاء كان راوية وأن شاء كان مؤرخًا
ونعتقد أن الأعمى وإن كان أفاد من اتصاله بالرشيد من الناحية البادية فاشرى واغتنى
ولذلك الشباع والتمار وعرف الذهب والفضة .. فان الفوائد الأخرى غير البادية المستترة
أفادها الأعمى من مكانته في بلاط الرشيد كانت أعنى وأغلب فقد اعتم الأعمى
بمداسته الثقافية لحرص على تميزها وتكثيفها وكانت من ناحية أخرى طريقا إلى اذاعة آرائه
وتأثيره فنصار اسمه على كل لسان وصيته يتهادى في براعة إلى الآذان .. وسرى في حديثنا
عن الجانب النقدي في تراث الأعمى أن اتصاله بالرشيد كانت له آثاره السهية في نفسه
مطبعة النقدي وتتميم اهتماماته الأدبية ..

ومع ذلك السرى هذا التباين الذي حققه الأعمى لنفسه في بلاط الرشيد ؟
وما سبب تلك العظوة التي نالها ؟

لأجدان في أن الأعمى كان في عصره واحداً بين عديد من دارس الأدب واللغة
ورواتها غير أنه تميز عليهم بميزات متعددة دفعت به إلى آفاق المجد وروحتة المتكاثرة
التي وصل إليها في بلاط الرشيد ونحن نعد من هذه العوامل ما يلي :

أولاً : ثقافته الأصلية ومعارفه المستوعبة وإحاطته بأخبار العرب وقوائدهم الأدبية
وحكاياهم وتراثهم وقد أشرنا إلى هذا الجانب قبل ..

ثانياً : فصاحته وحسن بيانه ولهاقته وحموره بدبيته وكلها ميزات تؤمن من يتصف بها أن يكون
قرباً من الجماهير محباً إلى الفهم .. كان الشافعي رضي الله عنه يقول : " ما عير
أحد من العرب بأحسن من عبارة الأعمى " (١)

وقيل لأبي نواس : قد أحضر أبو عبيدة والأعمى إلى الرشيد فقال : أما أبو عبيدة
فإن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأرايين والأفريقين وأما الأعمى فليل يظنهم ..
بنفساته " (٢)

وتأثر الأعمى هو وسيبويه فقال يونس : الحق مع سيبويه وهذا يخلصه
بلسانه " (٣)

(١) نيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٢

(٢) نيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٢

(٣) بحية الوفاء ج ٢ ص ١١٢

ولا شك أن الأصمعي في سياحته ودراسة لسانه كان يعد في ذلك العصر مسند
شاعر العصر العربي في ما يتبع ظهرت فيه بؤاد الدواج بين العرب والفرس الذين
كانوا قد تدخلوا في وظائف الدولة وتدخلت نفوس بعضهم إلى التفتي فسمى
درس علوم العربية وآدابها ليستأثروا بالفصل كله فلم يكن من هؤلاء من يستطيع
أن يجاري الأصمعي في سياحته أو يقوى لغيره من بيان حاجته بأخبار الأعراق
ودقائق حياتهم وكان الأصمعي لذلك يعد من عجائب الدنيا في عصره روى أن
اسحاق النخعي قال :

"عجائب الدنيا بحرفة معدودة منها الأصمعي" (١)

ثالثا : برأيه في المناظرة وانحيازه للخيم :

عن سواد ذلك ما يروى من أن الأصمعي كان للكشائي وحما عند الرشيد
ما يرضى قلوب الراعي :

قتلوا ابن عاتق الخليفة محرما ودعا قلم أرسله مخسسا ذولا

قال الكشائي كان محرما بالحج قال الأصمعي نقوله :

قتلوا كسرى بابل محرما تولى لم يتبع بكسرى

من كان محرما بالحج ؟ فقال هارون للكشائي : يا علي إذا جاء الشعر فائسما
والأصمعي : قوله محرما كان في حرمة السفر . . . قال الأصمعي ومن نسب
فمن مسلم محرر أي لا يحل من نفسه شيئا يوجب القتل وقوله محرما في كسرى
يعني حرمة العهد الذي كان له في أعناق أصحابه . (٢)

"وبين أبا عمرو الجهمي والأصمعي مجلس فقال الجهمي ما في الدنيا
بيت للعرب إلا وأمره قائم فقال : ما لك في قفلك أهدى الله ولكن كسيف
تند هذا البيت :

فقد كن يغبان الوجوه شبرا قالآن حين بأن الخطيب

قال : بدأن قال : الخطيبات بقال بدين قال الخطيبات انبا هو بدون من بدا
يبدوا إذا ظهر فأنحس . (٣)

(١) السراج ص ٢٥٠

(٢) أخبار المحررين البصريين ص ٥٨

(٣) السراج ص ٢٣٤

ولم تهمه الشهرة الأصمى ودينه سمته يرتد إلى حد كبير بتلك الأعاصير والنسود التي رواها عن الأعراب فقد أتاحت له أسفاره واستغلاته بالأعراب على اختلاف قبائلهم وأوطانهم أن يروي كثيرا من نوادرهم وفكاهاتهم ومن قذرا كثيرا من أخبار ظرفائهم ومنواعمهم فلما أخذ الأصمى مكانه في بلاط الرشيد كانت هذه النوادر والأقاصيص تلقى رواجا كبيرا وتغلب الأنظار إلى أبي سعيد وتختلف النظم إلى ما يقول . ولم يلبثه وجد الفرصة سانحة لكي يشر على أسمع الناس ما في كنانته من ذلك اللون القصص الطريف . وقد لا نكون متجاوزين إذا قلنا أن مرميات الأصمى في هذا الجانب من جوانب تراثه تحتاج إلى بحث كبير يتناسب مع ضخامتها وتنوع مضامينها وما يمكن أن تشير إليه من مهن عاجها إلى أنزال ذلك اللون القصص في أدب المرب بالانضافة إلى ما ترجمه به من دلالات اجتماعية ونفسية وفلسفية عن حياة الأعراب ومزاجهم . . . ونوادير الأصمى كثيرة كثيرة مطروحة فمن كما يقول ابن المبرد " تحتل مبدعات " (١) وهناك من يفسر بعدد من مبدعات الأصمى عنرائه " نوادر الأصمى " (٢)

ولا نستبعد أن يكون الأصمى أضاف إلى بعض هذه النوادر من حصيلته مما رآه في الأدبية والتاريخية وخبرته الزراعية بحياة الأعراب ما جعلها أمعن في الواقعية وتشخيص البيئة التي ينسبها إليها وقد نستطيع أن نجد آثار الصنعة القصصية المدعومة بالحصيلات الثقافية في تلك الحكاية التي رواها للرشيد . . . فقد استدعاه الرشيد وهو بالرقعة فحضر إليه من بغداد - في خريف طويل ذكره ابن الأثير - تكفي منه بالبر الذي يستشهد به هنا : قال له الرشيد : يا عبد الملك أنا عجز قد جلست أحب أن أسمع حديثا أشق به فحدثني بشئ . فقلت لأبي حديث يقصد أمير المؤمنين ؟ . فقال : ما أجادت وسعيت من أعاجيب الناس وظرائف أخبارهم . فقلت يا أمير المؤمنين : كان صاحب لنا في يد وبنى فلان كنت أغشاء وأتحدث إليه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أجمع الناس ذهنا وأجودهم أكلا وأقواهم بدنا فمضيت عنه زمانا ثم قدمت فوجدته ناحل البذن كاسف البهال متغير الحال فقلت له : يا أبا نك ؟ أأسماءك مصيبة ؟ قال : لا . قلت : غير من عرا ؟ فقال : لا . قلت : ما سبب هذا الذي أراء بك ؟ فقال : قصيدت بعض القوافي في حي بن قيسلان فأنشيت عندهم جارية قد لاقت رأسها وطلعت بالورس ما بين قرننها إلى قدمها وطيها قهقهة وقناع مسيخان وفي عنقها طيل ترقى عليه وتشد

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٦

(٢) الفهرست ص ٦٨

حاشيتها سها بالحناس
مريسة بأنواع الخطب
هوى رعب الزمان لمون مسينة
تصيب بشلل من القلوب

فأجبتها :

تقي شغلي في موضع الدليل نرتضى
كما قد أبحت الطبل في بيدك الحسن
هبيت عودا أجولا تحت مسينة
تتشعبا بين حركه والذقسن

لما سمعت الشعر منى نزهت الطبل ورثته في وبتين صادرت الى الدخا فلم أزل واقفا
الى أن حبيت الدسي على بفرق رأسي ولا تفرق ولا ترجع الى جوابها فقلت : انا للبيسة
أنا والله سها كما قال الشاعر :

هو الله ياسلي لئلا اقصى
على غير شئ ياسلي اراقسه

ثم انصرفت صخين الرمين قوج القلب بهذا الذي ترى من التخمير من عمق لها
قال : فضحك الرميدي حتى استلقى وقال : ويحك يا عبد الطل ابن ست وتسمين سنة يعشق ؟
قلت قد كان كذلك يا أمير المؤمنين * (١)

واملأنا نظم من هذه الرواية أن الرميدي قد أدرك بحقله الكبير ما فيها من أثر الصنعة
فقال لنفسه ويحك ابن ست وتسمين سنة يعشق ؟ وجدير بالذات أن هذا السطك لا يتناقض
مع ما عرف من الأصمعي من صدق وتعدد في الرواية لذلك لون من الوضع لا ضرر فيه ولا مخالفة
تقريب عليه . . . وإذا كان الباحثون في أدب العربية قد بات يقرأ عندهم أن فن " الدقابة "
الذي اعتصم به بديع الزمان الهذلي والحريري هو المثل الوحيد للون القصص في أدب
العربية فانتا نود أن نشير الى أن نوادر الأسمى التي رواها أو نسبها للأعراب بعدد يومية
بأن تمتد أقدم ما عرفنا من قصص عند العرب لأنما أسبق لي ظهورها من أدب المقامسة
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن في نوادر الأصمعي بما في ذلك اللون الأدبي
بمثاليد . . . وقد يكون في هذه الحكاية التي نسقتها نوادر الأصمعي ما يدل على
قوة التشابه بينها وبين أسلوب المقامة من حيث اشتدادها على الكنية والامتصاص .
حكى الأصمعي قال :

" وقف علينا أعرابي ونحن برحلة اللوى فقال : رحم الله امرأ لم تنج أدنساء
كلاني وقد معاذة من سوء مقامى لأن البلاد مجذبة والحان سفينة والحيا زاجر يمنع مسن
كلنكم والفقر عاذر يدعو الى أخبايكم والدعا أحد المدفتين فرحم الله امرأ أمر بهجر أو دعا
بغير . . . فقلت من أنت يرحمك الله ؟ فقال اللهم فقرا سوء الاكساب يمنع من الانساب " (٢)

فلمن كتاب العقيدة قد أخذوا بهذا النمط من نوادر الأصمى وأثقلوه بالقرىب من
الكثير ليكون أدخل في الدلائلية وأيضا ليكون مبرها يظهر من طريقه تسقيهم في المنة
ومع ذلك بالقرىب ..

وان القدر الذي تبين لدينا من نوادر الأصمى التي عزاهها الى الأعراب ليكن أن
يصنف في القديمين التاليين :

الأول : قسم يقصد فيه الى السجدة والمبرة والناس بملك الحكماء وأقوالهم ومن أمثلته
حكى الأصمى قال خطب أعرابي فقال :

" أما بعد فإن الدنيا دار مير والآخرة دار مقر فخذوا من ميركم الميركس
ولا تهتكوا أسراركم عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل
أن تغرب منها أبدانكم ففيها حبيبت ولخيرها خلقت اليوم من بلا حساب وميسر
حساب بلعصبين إن أربعل إذا ملك كان الناس ياترك ؟ وبالث الملائكة قائدين ؟
فقدوا بعدا يكون لكم قرضا ولا تتركوا كذا فيكون عليكم كذا " (١)

وقول الأصمى :

" سميت أعرابيا يقول : إذا أمكن عاين أنان فانتل رأيسها أقرب المسح
هواك فمخالفة فان أكثر ما يكون الخطأ من مخالفة الشهوى قال وسميت أعرابيا يقسم
من بقي الخمر أثنى له فوالها تطير بأجنحة السرور ومن فرس الشرائع له نهايت
مرا مذاقه قضائه التيه ومرتته الندى .. قال ورايت أعرابيا أمامه ماء فقلت له
لنن هذه الماء ؟ قال : خير لله عندي " (٢)

أما القسم الآخر فيشير بالرافة وتغلب عليه روح الفكاهة والمزح وقد اهتم
الأصمى برواية هذا النوع من النوادر وكان يدرك أنه طامس منهم من عوامل نجاحه واشتهاره
فقد روى منه صاحب المقد أنه قال : " توصلت بالطي وأدركت بالقرىب " (٣)

ومن أمثلة هذا النوع ما يأتي :

(١) " اختصم أعرابيان الى بعض الولاة في دين لأحدنا على صاحبه فجعل الدين عليه
يحلف بالطلاق والمثاق فقال له المدعى : دعني من هذه الأيمان واحلف بما أقسم
لك : لا ترك الله لك عفا ينجح عفا ولا ظلمنا يتج ظلمنا رجعتان من أهلك تحت البرق من

(١) المقد الفريد ج ٤ ص ١٥١ (٢) المقد ج ٣ ص ١١١

(٣) ج ١ ص ١٢

المشهور ان لم يكن لي هذا الحق قبلك - فأصله حته ولم يختلف له * (١)

(٢) "خطب أعرابي امرأة فقالت له : سل عني بنى فلان حتى فلان فقال لها ولطمتهم بذلك ؟ قالت : في كلهم تكبت * (٢)

(٣) "دخلت على هارون الرشيد وهو يديه بدرة فقال : يا أعمى ان حدثتني بحديث في الميزان فأله حكى وحبك هذه البدرة قلت نعم يا أبا المومنين * بينما أنا في محاري أعراب في يوم شديد البرد والريح اذا أنا بأعرابي قاعد الى أيسرة قد احطت الريح كساءه فالتفت على الأجمة وشوعريان فقلت له يا أعرابي ما أعلمك ما عشنا على هذه الحال ؟ قال : جارية واحدة بها يقال لها سلى أنا متفقنا لهما فقلت وما يمنعك من أخذ كساءك ؟ قال المجز يوقني من أخذك قلت له فهل قلت في سلى هذه شيئا ؟ قال نعم قلت له أسمعني الله أهواك قال لا أسعدك حتى تأخذ كساءك وظيفه على قال : فأخذته فالتفت عليه فأنشأ يقول :

لمن الله أن يأتي بـ نيهط حرا ولفي
ويأتي بعد ذاك بحاب فيسب يظهرنا ولا تسمى اليهود

فامتصه الرشيد حتى استلقى على ظهره وقال : أخذ البدرة لاهواك لك فيها * (٣)

(٤) كان لربيعين من الشوكى عبد يقال أحدهما يضره فقال له شريك : ما صنع قال : أنا أعرب نصير منه * قال : وأنا أعرب حتى نيه وقا يضره فكان من رأى المبد أن يلمس عليها وقال : انشأ بهذه على نذر الحبيب ؟ * (٤)

أخلاقه وأقوال الناس فيه :

أ ب ج د هـ و ز ح ط ي

المشهور أبو سعيد الأعمى بالصدق والدعوى من الكذب والمهمل بهذا لك الجبين قال : اسحاق الموصلي : " دخلت على الأعمى أعوده وإذا قنطار فقلت له هذا علمك كله ؟ فقال : ان هذا من حق لكبير * (٥)

(١) الحقد ج ٣ ص ٤٧٧ (٢) الحقد ج ٣ ص ٤٧٣

(٢) الحقد ج ٣ ص ٤٩٧ (٤) الحقد ج ٦ ص ١٦٤

(٥) "المنشأ" قصص أور، ص ١٥٦

وقال عنه ابن معين : * ولم يكن ممن يكذب وكان أعلم الناس في نفسه (١) *

* وقال محمد بن إبراهيم : سمعت أحمد بن حنبل يثنى على الأصمى بالثقة قال وسمعت
على بن المدني يثنى عليه وقال سمعت أحمد بن حنبل وابن معين يثنيان عليه * (٢)

وأما تدينه فقد كان مشهورا له بالاستقامة وحسن السيرة * قال إبراهيم
الحري كان أحد المصريين كلهم أصحاب أئمة إلا أربعة فانهزم أصحاب سنة أبو حنبل
وابن الملا * والخليل بن أحمد يروى عن حبيب البصري والأصمى * (٣) وكان
الأصمى كما يقول أحب الزهري * وهذا الثالث فكان لا يفسر شيئا من القرآن
وكذلك الحديث تخرجوا وكان لا يفسر شيئا فيه عجماء * * * وكان مدقفا في كل شيء
من أسئلة (٤) * * ولا يفسر فيه ذكر الأنواء لقول رسول الله صلى الله عليه
وسلم * إذا ذكرت الغيوم فأكبروا * (٥)

وان رجلا في شيء تدين الأصمى وتحميه لجدير بأن يحترمه العامة ويستدنيه
الشارة وحديث أقواله وروايته باحترام العلماء وثقة الناقلين * *

ب - حرصه وتفسيره :

لم يسمع الأصمى وما كان مثله أن يسمع من غزوات المتقربين والسنة
الحاتون فقد اتهم الأصمى بالهشول ولم يروى له شيء أن يذاع عند خلفه
بالمال لحسب لزمه أيضا بأنه يخيل به عليه وخارجه * * * من عواطفه
النادي وتفسيره على نفسه ما يروونه من * أن جعفر بن يحيى أراد حاجة لمكان
البرقة إليها على باب الأصمى فدخل إلى غادم له كما فيه ألف دينار وقال أصمى
سأزول في رجعتي إلى الأصمى ثم ميحت شي بوضعتني فإذا لمحت فتح الكيس
بين يديه فلما رجع وخرج عليه رأى عبا مكسورا الرأس وجرة مكسورة العنق وقمصانة
باصمعة وبغضلة أعدها وراه على مولى بان وهبت بركان أجرد ففزع غلظه إلا يفسح
أفكس بين يديه فلم يدع الأصمى شيئا مما ينسكك الثكالب والضمهان إلا أورد عليه
فما تهم ثم غي فقال لرجل يسأله : من استرعى الذئب ظلم ومن زرع سمخسة
عبد الفقرا نى والله لما علت أن هذا يكتم المصروف بالفضح ما حطت بنشره لسمه
باللسان وأين يقى مدح اللسان من آثار الميان * (٦) * وقال السيوطي في ترجمته
للأصمى : وكان بخيلا ويضع أحاديث الهذلاء * (٧)

(١) نهاية الحجة ج ٢ ص ١١٢ (٢) نزعة الألباء ص ٢٨ (٣) نزعة الألباء ص ٣٣

(٤) الزهري ج ٢ ص ٢٥٠ (٥) الكامل ج ٢ ص ٣٨

(٦) ديوان السعدي ج ١ ص ١٢٩ - الهذلاء ج ٢ ص ١٦٦ والبركان بكاء أسود

(٧) نهاية الحجة ج ٢ ص ١١٢

وقد أورد البلاخاني كتابه البعلاء حكايات عن بيتي الأصمى وحرصه
على طيبته (٢) . وعلى أية حال نجد ولما أن الأصمى لم يكن من شغف
نفسه بما في يده أو يبدن من أريحته ما عنده يوما كان يتألم إلى الهجومات
وانتفاها من تنويمه أو التشتيد بين يديه وقد كانت تلك طهيته في مختلف
مراحله حياته سواء أيا كان يصغر في البصرة حياة أو ما زال الناس أو بعد أن تيسر
له الزمان وثان العاصفة في قصور بغداد . .

ففي أيامه الأولى بالبصرة تحدثنا الروايات أن رجلا * كان يأتى حلقة
الأصمى : فإذا جاز إلى شيعته أمدى له بما يحمل منها لترك حلقة الأصمى
تلك حلقة أبي زيد وكان أبو زيد لا يقبل شيئا من الرجل يوما بالأصمى
تأخذه الأصمى للفرزق :

ولي هك الرجوان حتى كأننا ترى الموتى البيت الذي كنت تألف * (٢)

وفي بغداد : * من الأصمى نمراد أبو ربيعة وكان يحب أهل الأدب فقال
لـ : أفرضني خمسة آلاف درهم نفعا فقال : أنتش غير هذا ؟ فقال : نسيتم
لما حدثنا وروينا قاطعا وروينا حدثا وسوقا محلى لبيتك إليه * (٣)

وقد وجاء أصحاب النعمان * لالعا ذكر في أثناءه حادثة استقرائهم
من أبي ربيعة فقال :

أصبح يا نيليا يستطير	* ألهي من المصائب أن تردا
أبا عمرو وماله العايد	وزعم أنه قد كان يفتي
لما يأتى به ولما يقبل	إذا ما قال : قال أبي عينا
تزون الياضات ولا يزل	ويلاها هذا * الملك عينا
وحاد به عن القيد العبد	فقل لأبي ربيعة أن عينا
ويأح القيد والعبد العبد	لقد جاءت برود لما فاحتها

(١) البعلاء ج ٢ ص ١٦٧ و ١٦٨

(٢) لشهار النعمان البصري ص ٥٠

(٣) شرح المقامات الحربية ج ٢ ص ٢٦١

ولعلنا نخرج من هذا الروايات أن دعوى الأسمى بالخوارق يسمى
اتهامه بالخوارق وقد يكون الأسمى الذى بدأ فى أسوة فقيرة بالإضافة الأسمى
تدريسه والتزامه مع الاعتدال لم يستطع أن يجارى منافسه بعد أن افتتن
... من حيث الهدج والتعميم ... هذا الاعتدال من جانب على أنه يفتقر وتفتقر ...

وأما حربه على غيره وجواره فقد أشارت إليه بعض المصادر منها المقد
الفرود فقد جاء فيه أن حين بن اسماعيل قال : سمعت الأسمى يقول : دخلت
على جعفر بن سليمان وقد ترك الطعام وزعا على أغربه محمد بن سليمان فأشده
بوتين فما بهج حتى دعا بالمائدة فقلت للأسمى وأما ؟ فمكت فسانته فقد سال
أندري ما قال الأحمى ؟ قلت لا أدري قال : قال الأحمى :

قد زاده كذا بالحب أن سمعت أحب منى إلى الانسان ما سمعنا

قال أبو موسى : والأبيات لأراكة الشقي يرى بها عرب من أراكة صخرى فسمعه
حين يقول :

أبصرى لئن أتيت عينك ماضى من الدهر أو ما من الحمام إلى القبر
لست تفقد بها الشجون بأسمه وإن كنت ترويه من نهي البصر
تبين أن كان البكا رد مكالما على أحد فاجهد به على مسمر (١)

وكان اسحاق السمرى يماحه ويقرأ عليه بعض الأسمى بها على الفضيل
ابن يعقوب واسحاق يشاد في مجلة القريش :

كانه فى الدهن وهو ماء من الحسن
يسمر بين السرى والدخان هو القطان إلى البصام

فقال الأسمى : مات بقيقها فتان له اسحاق : ألم تقل لى ما بقى منها شي
فقال ما بقى الا هيوتها ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتا فغضب اسحاق وعرف الفضيل
فقال مكره لمادريه ويخذه بها هذه (٢)

ولحق للأسمى بعض الصدور فى هذا الجانب فقد كانت هذه الروايات
الطريفة والخوارق العجيبة والأشعار التى لم تشتهر ولم يقبل عليها الرواة ...

(١) المقد ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) موج الثقات الخيرية ج ٢ ص ٢٦١

رأس ماله الذي يستثيره في مجالس الخلفاء والوجهاء وعدته للمواقف المفضلة
التي يطلب اليه فيها الحكاية وليعرج على الأعمى من رأس ماله ما يبدل علمه
ومعرفته في محاوراته وحفلاته المحلية .. ونرى أنه كان يملئ الكتب على من
تأليفه ويصحبها بمجاديل الثائرة فيها وإذا فقد كان الشخص الذي يفتن به
الأعمى لا يندو ما اشهر من الشرف عليه من نوادر الأعراب وحكاياتهم ..

ج - حادثة وتزيده :

وبقي صائب إلى الأعمى ما اتهم به من التاجن والدعابة والكذب ..
والشذوذ لما يرويه أما التاجن فقد كان الأعمى يحكم حديثه وتشدده السبذي
الحناء إلى جانب منه يبردا من هذا السبذي وقد دس عليه خبره بعض الروايات
التي ظن أنه كان يقصدها ويحرب الخمر كهذه الرواية التي تقول : قال الأعمى :
" دخلت على صارون الرشيد لوجدته غنميا في الفراش فقال : ما أهلا بك
يا أعمى قلت : احتجيت يا أمير المؤمنين قال : فما أكلت عليها قلت : ميكاجية
وطها فحسب قال ربيتها بحبرها أدعرب قلت نعم .. قلت :

استغنى حتى ترائى مائلا ونوى عيران ديني قد ضرب" (١)

فهذه الرواية لا تتفق مع ما أسلفنا من أخلاق الأعمى وتعدده لما يتخلق
بأمير الحقيقة .. أما شجرة الكذب والتزييد فقد كان من أساليب تلك الحكايات
والنوادر التي ينسبها إلى الأعراب وقد ألتفتنا إلى أن صلت الأعمى في هذا
الجناب لا يصح أن ينظر إليه على أنه تزييد أو كذب ولا ينقض أن يقام عليه
مارواه الأعمى في اللغة والتزييد والأدب والأخبار فإنه كان يتحرر في رواية هذه
الأمر وتعدده فيها وقد أورد الأزهري في تهذيب اللغة خبرا يشير إلى دقة الأعمى
وحريصه على تصحيح رواياته وتنقيتها من زيادات الناقلين وما يدعونه على
العلماء .. قال الأزهري في بيان حديثه عن الأعمى :

" وكان أعمى يبيح كتاب في النوادر (٢) فزيد عليه ما ليس من كلامه
لخبرني أبو الفضل العنبري عن أبي جعفر الحسن بن علي قال : جاء أبو ربيعة

(١) المتد ٤ ص ٤

(٢) يظهر من بيان التذكار أن هذا الكتاب في نوادر اللغة وليس من نوادر الأعراب الذي تعرضنا
لبيان من قبل وهو يختلف تنظيره في صفات الأعمى كتابان أحدهما بعنوان (النوادر)
والآخر بعنوان (نوادر الأعراب)

عاصم بن عبد الله بن النضر بكتاب التوليد المنسوب إلى الأصمى فوضعه بين يديه شيخ الأصمى يفتخر فيه فقال : ليس هذا كلامي كله وقد زيد إليه عيسى فان أحببت أن أعلم^{عليه} رتباً أحفظه منه وأضرب على الباقي فملت ولا فتة تقرأه وفسال عليه بن عاصم فأعلم الأصمى على ما أنكر من الكتاب وهو أربع من الثلث ثم أمرنا فندفناه له * (١)

وقد ألقينا في الدفاع عن الأصمى ما شهد به علماء المدينة له في هذه الناحية قال ابن جني : " فأما إيمان من لا علم له وثق من لا سكة به : . . . ان الأصمى كان يزد لي كذا المرب ونفس كذا ويقول كذا فكلام مفعولته غير معبر به ولا مفلح من مثله . . . حتى كأنه لم يتأد إليه ثبوته عن تفسير القرآن وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحويله من الكلام في الأنواء * (٢) وقال عنه صاحب العزاسر :

" وكان مدحاً في كل شيء من أخص السنة فأما ما يحكى المولم وشباط الناس من نوادر الأعراب وقولون هذا ما اختلقه الأصمى ويحكون أن رجلاً رأى عبد الرحمن بن أبيه فقال : ما فعلك : قال : قلعت في الشمس يكذب عيسى الأعراب فهذا باطل وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ؟ ولولا علمه لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ وكيف يكذب عنه ويؤيد لا عنه ؟ وأنى يكون الأصمى كذلك وهو لا يفتي إلا فيما أرى عليه العلماء ويقف عما ينشرون فيه ولا يجوز إلا أفصح اللغات ويلج في دفع ما سواه ؟ وكان أبو زيد وأبو عبيدة يخالفانه ويتواضعانه كما يناهضنا نكفهم كان يعلمون على أحبه بأنه قليل الرواية ولا يذكره بالتزويد ولا يشبه أحد منهم صاحبه بالكذب لأنهم يبعدون عن ذلك * (٣)

د ب أ ف و ان اناس فيه :

" قال أبو المينا : كنا في جملة الأصمى فحدثنا أبو قتادة حبيش عن عبد الرحمن بن البرص الناعم فأنشدني لنفسه :

لئن الله أعظم حطوباً
لئن الله أعظم حطوباً
لئن الله أعظم حطوباً

(١) التمهيد، ج ١، ص ١ (٢) التمهيد، ج ٢، ص ٢١١ (٣) المزهر، ج ٢، ص ٢٥٠

أدنا ما يفتني الفتن وأشد . . . من الهوى ولا يهين وإن الهوى

كان وحده في أبو المالية الثاني . . . (المأخوذ من) :

لا ريب في الأرض إذا تفتت . . . بالأرض لقد أفتت لنا أسسها
عزيماءك في الدنيا ففتت ترى . . . في الناصر منه ولا من علمه خلتها

كان مصدرا من الشعر بها فيه * (١)

وتبين وإن كنا لا نعلم بها الفتنة والدراسة التي كانت بين الأعمى وهذا
الذي فيه روى بأشنع العذر أننا نستطيع أن نستشف من الرواية تفسيرها
أن ذلك المفسر الذي لم نحس بوجوده في ذلك المصوكان حريا أن يحسد
الأعمى على ما بلغه في حياته من عثرة فكانت وقد يكون ذلك المتقن ذنبها
من أذئاب الغيبة الفخائل الذين كان يحولهم أن يتضح منها خير العلماء
والوجهاء منهم بدلا من مذهب أهل السنة الذي سماه به الأعمى وهو
حياته . . .

وقد بين أن أوردنا مقاله بماء الأعمى وعلماء الصورية فيه ولمس
ما يشهد له بالقدرة والعلو مقاله عنه اسحاق الصولي : " عجائب الدنيا معروضة
معدودة منها الأعمى . . . " وماله الأمان الدافعي : باعتبار أحد بكلام المفسر
أحسن من عبارة الأعمى التي غير ذلك ما أفتناه من أقوال العلماء فيه . . .

مؤلفات الأعمى :

أوردت المصادر التي ترجمت لأعمى قائمة طويلة بأسماء كتبه التي ألفها
في مختلف لغات الصورية وأحسن هذه القوائم ما أثبتته ابن الخدي في الصورية حيث
عد للأعمى سبعة وأربعين كتابا منها ما كان يدعى عليه عنوانه في اللغة والقريب

ويعبر بالذكر أن معظم مؤلفات الأعمى التي ذكرها ابن النديم قد فقدت
ولم يبق إلا انقليس منها والتب التي ولبت لنا له حتى الآن لا تزيد وثلاثة عشر كتاباً * (١)
غير أن آراء الأعمى وأقواله ميثقة في ثغايا كتب اللغة والأدب وهي ثقيلة بأن تقاسمنا
على مكانته في هذه المنهج وطور منزلته بين مؤسسي الفكر العربي الإسلامي ..

مقتطفات من

ولد أبو سعيد الأعمى بالهجرة سنة ثلاث وشرين ومائة .. وتوفي
بها سنة سبع وخمسة واثنتين .. وقيل كانت ولادته سنة ست عشرة وقيل سنة أربع عشرة
واثنتين * (٢)

- (١) أحكامها الدكتور عبد الجبار البزورد في كتابه الأعمى حياته وآثاره .. وفي :
(١) ربيع الصبح رواية الأعمى ونولا يزال من أرواحها بدار الكتب المصرية *
(٢) كتاب التدريب منقوط بالاسكوريان * (٣) كتاب السماء (٤) كتاب الفرق
(٥) كتاب الآراء (٦) كتاب البحوث (٧) كتاب النبات والسمج *
(٨) كتاب النور (٩) كتاب الكرم (١٠) كتاب الإلهي (١١) كتاب خلق الإنسان
(١٢) كتاب الأسميات (١٣) كتاب ما غفلت القائله واعتقت بحايه * أسحق الجوزي
ص ٢٤١ ٢٤٥ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ .. وبعدها طبع في بيروت أود سنق أو الثامنة أو غينا
(٢) وليات الاعيان ج ٢ ص ٢٤٤ .. شذرات الذهب ج ١ ص ٣٦ .. هنية الحاة ج ١ ص ١١٢ .. أخبار
التحويين البصريين ص ٩٥ .. نزعة الألباء ص ٢٧ .. امرأة الجنان ج ٢ ص ٦٤ .. المقامات
الدرية ج ٢ ص ٢٥٢ ..

التراث النقدي للأسممى :

إذا كانت دراسة التراث النقدي للدراسة البصرية تتطلب منا أن ننقب ضمن الآراء والتعليقات النقدية التي نشرها العلماء المدرسة في ثنايا كتبهم ومناظرتهم فإن أهم ما سيجد الأسممى قد خالفه السبب المشهور علينا أن لم يترك لنا مؤلفا يشتمل على آرائه النقدية أو يخاصي غضايا تشمل بالأدب بهفة عامة ومن شأن تصوير الاتجاه النقدي للأسممى قد دخله قدر غير يسير من الغلط وسوء الفهم ذلك لأن الأسممى نقلوا آراء الأسممى النقدية نقلوها مقتبسة وغير مشروحة وليس يخالجنا شك في أن الأسممى لم يعرف الاتجاه إلى تدوين نظراته النقدية لأشهر لنا مذاهبه النقدي وأخطا مستويا ولما رأينا ذلك الاضطراب والتناقض فيما نسب إليه من أقوال ..

ومن أن الأسممى لم يترك في النقد فإن آراءه وتعليقاته النقدية في هذا الفن كثرية ومتنوعة ولا يكاد يخلو منها صدر من مصادر الأدب العربي المصروفة لأباحثين *

ولست أجد ذلك الكتيب الذي حققه ونشره الأستاذان محمد عبد المنعم، غياضى وطه الزينى ونسباه للأسممى وهو كتاب فحولة المصراة - لست أجد مثالا للاتجاه النقدي عند الأسممى رغم أن محقق الكتاب ذكرنا في مقدمته أنه أول كتاب نقدي عربى المبررة نقد جاء في مقدمة الكتاب المذكور ما يبرره :

* كان المعروف قبل هذا الكتاب أن أقدم المصادر العربية في النقد هو كتاب بيت المصراة لابن سلام الذى ألف في نحو عام ٧١٢ هـ وظهور هذا الكتاب (فحولة المصراة) تستخدم مصادرها فى النقد الأدبى وتاريخه فى اللغة العربية نحو نصف قرن من الزمان " (١)

ولست أشك في نسبة ما جاء في هذا الكتاب إلى الأسممى فقد أورد عناكب الملاح مصطفى كامل على الكتاب برواية عن أبي حاتم أيضا ولكن أعترض على هذه من المؤلفات الأسممى وذلك للاختلافات الآتية :

أولاً : لأن الأحمس لم يوافق الكتاب تماماً ..
 ثانياً : لأن المصادر النقدية لم تذكره ضمن مؤلفاته ..
 ثالثاً : لو أن الكتاب المذكور كان في اللغة أو الريب وراء أبو حاتم عن الأحمس
 لجاز أن ننسب إليه ولكن هناك ثغور بين الآراء والأقوال النقدية التي يتدخل
 فيها صاحبها وتحتل إلى مراجعة وصاروة تثار بين النوبيات المنقولة عن النساب
 أو نصحاء الصرب والتي ليس لها فيما سوى الرواية ..

ولعلني استلحي أن أذكر رأي هذا بندي من كتاب فحولة الصمراء نفسه
 منه نزل على أن ما تضمن عليه الكتاب لا يمثل الكلمة الأخيرة للأحمس في الصمراء
 الذين حكم عليهم بالاحولة أو عدمها أو فاضل بينهم في الفحولة والأسبقية هذا بالإضافة
 إلى مثاهير الاضطراب والتناقض التي يزعمها هذا الجانب من تراث الأحمس النقدي
 والتي ستبرز لها في رؤية مستقلة يعقون أبو حاتم في النص الذي تستشهد به ثناء :

" سمعت الأحمس عبد الملك بن قريب غير مرة يفضل النافضة الذهباني على عاشر
 الصمراء الجاعلية وسأنته قهر موته من أول الفحوص ؟ قال النافضة الذهباني ..
 قال : يا أرى في الدنيا لأحد من فوق أمري القيس :

وقد هم زدهم بهي أبيهم ..
 والأشقي من كان المقصود

قال أبو حاتم : لما رأيته كتب كلامه لكرث قال : بين أولهم كلهم في الجسوة
 أمرو القيس في الحاضرة واليهى وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا خطاهم " (١)

ولعلنا نلح أيضاً أن أبو حاتم السجستاني رأي كتاب الفحولة قد بين ما اتصل
 عليه الكتاب من آراء على نثرات زمنية متباعدة فهو إذا لا يمثل مرحلة معينة من مراحل
 الفكر النقدي عن الأحمس وهذا في اعتقادي الذهب الرئيسي فيما وجدناه في الكتاب
 من اضطراب وتناقض وتذبذب في النثر النقدي ..

وقد بدأت بتحرير هذه الحقيقة حول كتاب فحولة الصمراء لأنه يمثل اعطاعاً
 عن المذهب النقدي للأحمس لا يمثل الواقع وقد يكون هذا الكتاب أو عبارة أدق آراء

الأصمى انتهى لنتس عليها سبها فيما أشجع حين موقف الأصمى من قضائها النقد الأدبى
 وهذه نقاداً لغويها أو تاريخياً من عشاق القديم والمتعلقين بأستار الماضى ..

ولكن أية حار فنحن نرى أن الفكر النقدي للأصمى لا ينفى أن يلتصق
 عليه نوع مقاييس الفحولة الذى قاسى الأصمى بناءً عليه الشعراء القدامى والذى جمع
 فى كتاب فحولة الشعراء ولكننا نلتصق الفكر النقدي للأصمى فى تلك المرحلة السبقت
 ثالثة نجهه فيها ببنداد وكانت من أنتم مراحل الفكر النقدي عنده إذا كان عليه
 فى هذه المرحلة أن يدلى بأراء واضحة ومعلقة فى الشعراء أو جزئيات معينة من
 أجناس الفن الشعرى .. وقد حفظت لنا سمار الأدب قدراً نطلع منه على الوجهة
 الحقيقية للجهود التى أسهم بها الأصمى فى إرساء أسس الفن النقدي عند المنسوب
 وسنرى أن الأصمى كان يصدر فى تلك الآراء من ذوق فهم ودراسة .. ويتضح
 لنا من ثنايا هذا الجانب السهم فى تراثه أنه لم يكن نقاداً لغوياً أو تاريخياً فحسب
 بل هو ناقد متذوق وله تأثيرات فنية دقيقة فى الشعر والشعر ..

وقد أورد نازح الساعات الحصرية رواية طويلة عن مجلس أدبى من مجالس
 الرشيد دار فيه نقاش نقدي مهم حول أشعر ماقيل فى التشبيه ونحن نثبت ههنا
 الرواية لأهميتها فى تصوير الفكر النقدي الناضج عند الأصمى ودقته فى التمييز بين
 المعانى الشعرية ومنطلق على كل جزئية من جزئيات الرواية بما نراه :

حدث الأصمى قال :

" استدعاني الرشيد فى بعض الليالى وقد تصربت قطرة من الليل فراعته
 رسله ولم أفتأ أن علت بين يديه وإذا لى المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل فلما
 لحقني الرشيد استدعاني فحدثتته فقبول ما بهتى من الويل فقال لى ليفرح روعك
 لما أردناك إلا لما يراد له ذلك فمكنت عنيبة الى أن ناهت الى نفسى بعد أن كسدت
 تطير شعاعاً فقال : انى نازعت حولا القوم فى أشعر بيت قالته العرب فى التشبيه
 ولم يقع اجتماع على بيت فأردناك نفس هذه القضية واجتناء ثمرة الخطار فيها فقلست
 يا أمير المؤمنين : ان التميميين على بيت واحد فى نوع واحد - قد وسعت العرب فيه
 وجعلته محلاً لأنكارها وسخرها لخواطرها - ليمهد أن يقع النقص عليه "

ولمنا نلج سائلك الأصمى في جرابه للرشد أنه لم يكن من أنصار التملص
بالبيت المفرد أوبيت القصيد كما يقولون وهو الذي عيب النقد المرن بهبه تسم
ان الأصمى قد لادن الى كورة مقلته المربى التشبه بجملة التميمي على البيت
واحد من هذا الشعر الكبر حتى ان الأصمى وعويين للرشد وأبه في أشعر
ماقي في التشبه لم يرد بيتا واحد بن أود عدة أبيات ان قال بمدقائه السابقة

••• ولكن أحسن الناس تشبيها امرؤ القيس في قوله :

كان ميون الوحن حون خباثتها وأربطها الجزع الذي لم يثقب

في قوله :

لموعن ثنا غيره جاء نسي وجع اللسان كجرح اليد (١)

في قوله :

سموت انيها بعد ما نام ألتها سر حباب الماء حالا على حبال

نالت (الرشيد) الى يحيى وقال هذه واحدة قد نزل على امرؤ القيس أنسه
أدعوه تشبيها •• قال يحيى : هي لك يا أمير المؤمنين • ثم قال لي الرشيد فما أهدح
تشبيهاه عندك ؟ قلت قوله بعف فرما :

كان تشوفه بالضحى تشوف أزرق ذي علب

إذا قرعته جلال لسه تقول ملحت ولم تملب

•••• قال جعفر : يا أمير المؤمنين ما هذا التحكم ؟ قال : الرشيد : وكيف ؟

قال : يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه ونذكر ما اخترناه ويكون الحكم واقعا
بعد ••• ثم قال الرشيد : بل تبدأ يا يحيى فقال : يحيى أحسن الناس تشبيها
الناهية لي قوله :

نارت اليه بحاجة لم تشبها نثار السقيم الى وجوه الممير

في قوله :

فانه كالليل الذي هو مدركس وان غلت أن الشأى منك واسع

(١) في القاموس : ثنا الحديث حد به وأما •• والثنا ما أخبرت به الرجل من حسن

أوس • وسياق البيت يدل على أن العواد الأخير ••

في قوله :

من وحيد وجرة مرفى أمارته

الذي المبرك سيف الصيقل الفسرد

فإن الأسمى : أما تشبيهه مرفى الطرف فحسن إلا أنه قد يذكر المصلحة
وتشبيهه النبرة بالليل وأحسن منه ثوب هدى بن الوقار المائل :

وكانها يوم انصاع لمارسها عينية أحور من بآذر جاسس

وسنان أفسده الفلاس فرتقت

في دينة حسنة وليلى بنائس

ولعلنا نلج من نقد الأسمى لهذا البيت من أبيات الناهضة على ما كان يتمتع
به أبو سعيد من حسن نقدي مرفى ودوق حتى ناضج كما نلج أن ثقافته وغيره
العلوية بأشعار الشعراء كانت رائدا مهما لنقد الموضوع الذي يوازن فيه يوم شعير
وشعر .. شريطين الأسمى نقده لأبيات الناهضة التي اختارها يحيى البرمكي يقول :

" أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركه وانما
كان سريه أن يأتي بالليل له عليم حتى يأتي بسنن يفرد به * ولوقا قائل أن قول
النصري في هذا أحسن لوجد صافا إلى ذلك حيث يقول :

فلو كنت بالمنقاة أربنا ميسا لقلت لا أن تصد ترنيس ...

ونقد الأسمى لهذا البيت وإن بدا متناقضا فانا لانوافق عليه لأن في التشبيه
بالليل إيحاء بالرهبة والخوف وهو لا يريد الناهضة أن يصوره في موقف مع الضمير
وإذا نام يستواليل والنهار في تأدية هذا المعنى .. وإن أية حال فنقد الأسمى
هنا يدور على عقل متميز وتحليل دقيق للمعاني .. ويشي الأسمى في نقده فيقول :

" وأما قوله (الذي المبرك سيف الصيقل الفرس) فالطراح أحق بهذا المعنى
لأنه أخذ فحوده وزاد عليه وإن كان الناهضة لخرجه وقول الطراح هو :

يهدو وتضمره البلاد كأنسسه سيف على شرف يسن مفسد

فقد جمع في هذا البيت استمارة لذيقة بقله (تضمر البلاد) وتشبيهه
 اثنين باثنين في قوله (يد وتضمر البلاد) وهل يفيد (وجمع حسن التقسيم
 وصحة العبارة) (١)

ولا شك أن بيت الطرباح أجود معنى وأحسن لفظاً من بيت النافذة ولعلنا
 نأخذ من مقالة الأصمى أن قضية السرقات المصرية كانت قد تيزت وتقرت أ. ولمسا
 بين نقاد الشعر في تلك المرحلة على أساس أن الشاعر الذي يأخذ البمع فيجسده
 وزيد فيه بعد حقيقة به وإن كان قد سبقه إليه غيره من الشعراء ..

ومعنى الرواية التي معنا فتذكر أن الأصمى قال :

"..... ناستبشر الرشيد هرفت أسارير وجهه حتى خلت برقاً بعض مشهدها
 شرقان ليحيى فظنك وب انكبة فانتش يحيى فكان الرماد ذرعاً على وجهه * قال الفحل
 لا تمجس يا أمير المؤمنين حتى أمر ماقلته بسمة فنان : فن : قال : أحسن الناس
 تشبيهاً طرفه في قوله :

روبه كأن الشمس ألقت رداً عليها عليه نفس اللون لم يتفسد

ولي قوله :

ينش حجاب الماء حيزومها بهيها كما قسم القرب الداهين باليد

قال الأصمى : قلت : هذا حسن وفيه أحسن منه وقد شوكة في مسند
 المعنى جماعة من الشعراء * * * بعد نظرية صاحب واحدة لا يقطع بقوله من التيز والتمسا
 هو من أصحاب الواحدة * * * قال من أصحاب الواحدة ؟ قلت : الحارث بن حلزة في قوله :

أذنتا بهيها أمصصها رب تار يعل منه الشمس

والأصمى الجمعي في قوله :

هل دان قلبك من عليم فاعتقى ولقد عنيت بهيها فيما مضى

(١) يمارش الشاعر في العبارة الأخيرة من هذه الهزلية فحتى مع الأصمى لم تكن تسد
 تيزت بعد تلك الاسطلاحات في الباقية من الاستمارة وحسن التقسيم وصحة العبارة
 ولحسن هذه الفقرة من الباقية معنى الرواة * *

والأفوه الأبدى في قوله :

ان ترى رأس فيها نسج
وشوائى خلة فيها دار

وطلمة في قوله :

طاحهاك قلب في الحبان لمسروب
بصيد الشهاب عمر حان شيب

وسيد يبأبى كاهن في قوله :

بسطت رابعة الحبل لنسج
توصلنا الحبل منها ما انقلسج

وعصوين كثر في قوله :

الأنبي يصحنه فأصبحه
ولا تنقي خسرو الأندازينه

وعصوين سعد يكوب في قوله :

أمن ربحانة الداعي المسج
يلوقنى وأصحابي هجسج

فاستخف ابريد الأريحية وقال : دعه فإنه نسج وحده في بيتي نهالاً

وليس الأصمعي لم يجد في بيتي طرفه عيباً واستكر أن يحكم له أصحابها بالتفسيق في التشبيه حيث لم يتقد من بين الشعراء باختراع هذه التشبيهات - فالتس الأسمى سبباً آخر لتأخير طرفه فجاء به المتناظرين وهو أنه من أصحاب الواحدة الذين أخذ يمدد ثم على مسح الحاضرين في براءة؟ وقد كمن .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا القياس في النظر إلى الشعراء كان شائعاً

بين المتكلمين بالأدب في بيئة البصرة (١)

وحن من جانباً لأنرى محبة اطلاق هذا مبدأ دون تفيد فقد يكون الشاعر النكر أقل في ميزان الشعراء من صاحب الواحدة فلا يصح أن يكون الكم وحده سبباً في تفضيل شاعر على شاعر إلا إذا تجاوزت أوتقاربت أعمار الشعراء أو النظم شعراً ونفس مع حكاية مجلس الرشيد في مذاكرة عمر التشبيه والتي تدخل فيها جعفر البرمكي بقوله :

... لست أنى على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيها ولكن قسروا

أمر القيس :

كان غلامى إذ علا حال تنسجه
على ظهره بار في الساء محلسج

(١) وسنرى في راستنا نقد ابن سلام أنه اصطنع هذا القياس في طبقاته وأخره بالنظر إلى كثرة الشعراء الجدد بين .

وقول عدى بن الرقاع :

يتمنا ورات من النهار ملامة فبراه محكة ما تنجاصها
تأوى اذا وردا مكانا خاسيا واذا السنايك أسهلت نضارها

وقول النابغة :

بأنك عمن واللو كواكب اذا دامت لم يهد منهن كوكب

قال الأعمى :

هذا حسن كله بان وفبره أحسن منه وانما يجب أن يقع التمييز على ما اختصره
قائله ولم يتمرنى له أحد لو تعرض له شاعر لوقع دونه .. فأما قول امرئ القيس :

على شبر باز في السماء مخلق

عن قول أبي داود :

اذا شاء رائبه غمه كما ضم بازى السماء الجناحا

وأما قول عدى :

(يتمنا ورات من النهار ملامة)

عن قول الغنصاء :

بجاري أباه فأقبلا وحسبا يتمنا ورات ملاح الحضير (١)

وأول من طعن به جاعلى من بني عتير قال :

ألا ياديار الحى بالسبر دان

فلم يبق منها غمسير نوى ميسر

وأشار بها بأورق اللون سافسرت

تغار مبررات يحار بها القلسا

يشران من نس الفهار عليها

عفت حجج بمدى ليهن ثائس

وفبر أضاف كالرككى دفسان

به الريح والأطاركى مكسسان

ويشحي بها الجنان يمتركسان

فيصمن أسنالا ويرتديسان (٢)

وهارث عدى أبو النجم وأوردته فى أحسن لفظا قال يصف عيرا وأثانا وما أشبهه

(١) الحضير : ارتفاع ضللك الخيل فى المدور (التاموس)

(٢) النوى : الحظير حول الخباء أو السمية بين السيل . الأثانى : واحد ما أثية : حجير

يوشى عليه : القدر . الركى : جمع ركية : البئر (التاموس)

من الفهارس بعد وعا :

ألقى بجانب التاج من حبالهيسا صباله وانما في سبالهيسا

وأما قول النابغة (بأنك نمر - والبرور كواكب) فقد تقدم فيه شاعر قديم
من شعراء كعدة يمدح عمرو بن هند وهو أحق به من النابغة إذ كان أباه عذرتيسيه
لقال :

وكادت تميد الأرض بالناس إذ رأوا لعمرو بن هند غصيبة وهو غاشيب
هو الشمس وأفت يومهم وأفضلت على كن نمر واللو كواكب

ولمّا نريد أن نستعمل في التعليل على قول الأسمي أونيين مظاهر تعامله
في بعض أحكامه على ما اختاره بعض من تعبيات - وأما شأيتنا أن نرجع الأبيات
إلى هذا النمط من الفكر النقدي الناضج في تراث الأسمي فهو على أي حال ذوقية
كبرى في تصوير مكانة الأسمي بين نقاد القرن الثالث وإعجاز الترجمة الحديثة
النقدية اللامعة التي تظن إلى جوانب فنية دقيقة تجعلها أساساً في الفاعلية
بين الأسماء التي تنقد لها ..

جاء قد رأينا أنها صعيد يستفيد دائما أسلوب المزاينة الشعرية في تعليقاته
النقدية وهو أسلوب من أدق مماير النقد الأدبي في القديم والحديث فلننظر إذا الفارق
بين هذا اللون من المنظر النقدي عند الأسمي وما اشتهر عنه بين الباحثين من الأحكام
النقدية المقتضبة أو غير المقتضبة أو التي تنعم بالشعوب وهو النظر ما سترده لعلنا
له فيها بيان :

ولو أننا أثبتنا الجزء الصحيح من الرواية التي تدرنا تحليلها وتقوم لكسمر
الأسمي النقدي على ثوبها - نوضح لنا حقيقة مهمة وهي أن الأسمي كان يفسد
من هذه المجالس ويطلق على أنكار وأذواق مختلفة كلها تتفهم الصور وتبرز بين جوده
ورديه وكان لذلك أثره في توسيع مدارك النقدية وإثراء ملكة النقد عند .. تقول الرواية

..... ثم قال انرشيد :

انصرف يا أسمى تشبيهاً أخصر وأعظم في أحقر معبه وأعشره في أحسن مفسر
من قول عنزة الذي لم يبق له سائق ولا نازعه مازع ولا طمع في مجاراته طامع

من الشارح بعد هذا :

ألقى بجانب القاع من حبالها
سرباله وأنشأ في سرباله

ولما قوس الناهضة (بأداء حسن - والتدوير كوكبي) فقد تقدم فيه شاعر قديم
من شعراء كعدة يمدح عمرو بن هند وهو أحق به من الناهضة إذ كان أبا عذرة -
فقال :

وكادت تميد الأرض بالناس إذ رأوا
عمرو بن هند غصيبة ودواعي
هو المصروفات يوم بعد وأفضلت
على كل ضوء والطول كوكبي

ولمنا نريد أن نستعمل في التعليل على قول الأسمي أونيين مظاهر تحمله
في بعض أحكامه على ما اختاره بعض من تلميذاته - ولما لم يأتنا أن نرجع الألفاظ
إلى هذا النمط من الفكر النقدي الناضج في تراث الأسمي فهو على أي حال ذو قيمة
كبرى في تصوير مكانة الأسمي بين نقاد القرن الثالث وإيضاح الوجه الحقيقي للملكة
النقدية الناجحة التي تظن إلى جوانب فنية دقيقة تجعلها أساساً في الظاهر
بين الأسماء التي تنقد لها ..

ولما قد رأينا أبا حميد يستخدم دائماً أسلوب الموازنة الشعرية في تعليقاته
النقدية وهو أسلوب من أدق معايير النقد الأدبي في القديم والحديث فلننس إذا الفارق
بين هذا القرن من الشعر النقدي عند الأسمي وما اشتهر عنه بين الباحثين من الاحكام
النقدية القفظة أو غير السليمة أو التي تنمى بالتصعب فيصور النظر ما سنورد أمثلة
له فيما سيأتي :

ولو أننا أجبنا الجزء المتعلق من الرواية التي نمرخنا لتحليلها ونقوم تكبير
الأسمي النقدي على نمرخها - لوضحنا لنا حقيقة مهمة وهي أن الأسمي كان يفسد
من هذه السجالات ويطلق على أنكار وأذواق مختلفة كلها تنظم الشعر وتوزين جيد
ورديته وكان لذلك أثره في توسيع مدارك النقدية وإثراء ملكة النقد عنده .. تقول الرواية

..... ثم قال الرشيد :

أنصرف يا أسمي تشبهاً أنحر وأعظم في أنحر شبه وأعظمه في أحسن معبرني
من قوس عنزة الذي لم يصفه إليه سابق ولا نازعه خان ولا طمح في مجاراته طامس

حين عهد ذهاب الفروض العازب في قوله :

وخلا ان ذهاب بها فليس يسارع
عزبا يحاك ذراعاه بذراعاه
نحل المكب على الزناد الأجثم

ثم قال : يا أحمسى هذا من التثبيبات المعق التي لا تنق فقلت : كذلك عسى
يا أمير المؤمنين صجدة آتت ما سمعت أحدا يصف شجرة بأحسن من هذه التثبيبات
ولا استطاع بلوغ هذه النهاية فقال : مهلا لا تعجل . أنتعرف أحسن من قول الحديث
يصف الشجر نافته أو تعلم أحدا قبله أو بعده عهد تشبيه حيث يقول :

توى بين لحبيها إذا ما ترفعت
لغاما كسى المنكروت السرد

فقلت : والله ما علمت أحدا تقدمه الى هذا التشبيه أو أشار اليه بحدء أو غلبه . قال أنتعرف
بها أدهج وأوقع من تشبيه الدماخ لتمامه . فقال ريشها وهي أثرة . في قوله :

كأنما متنى أفتاح مامرطسست
من الدماء بلينها الثالينسل (١)

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين . نالت الى يحيى فقال : أوجب ؟ فقال : وجب
فقال : أريدك ؟ فقال : وأي خير لم يزدنى منه أمير المؤمنين . قال : وقول الشابسة
الجمدى :

ومن شرح ناب فاستهل بطمسة
كحاشية غزاليرد اليماني المسهر

ثم التفت الى الفضل وقال : أوجب ؟ قال : وجب ؟ قال : أريدك ؟ قال : ذللك
لأمير المؤمنين . قال : قول الأهرابي :

به صوب أنداد المظايا كأنه
ماتسب وان تحل وتضلع

ثم التفت الى بهمن فقال : أوجب ؟ قال : وجب . قال : أريدك ؟ قال : لأمر المؤمنين
على الرأي . قال قول عدى بن الرقاس :

تزجي أن كان أهرة روقة
قلم أصاب من ذل واة يداد السدا (٢)

(١) البرط : هفتي السهر : تنف الشعر . والليت بكسر اللام : عفة اليمنى . والثاليل : واحد السدا
شولول وهو بشر صلب مستدير على صور شتى أنه منكسر ويتشقق وذو شتالها وشمل على
وسماري عظيم الرأس مستدق الأسن ونازل صقف وشقق وكله من خلط غليظ يابس بلغمسي
أو سوادى أو مركب منها (القلوب)

(٢) شرح النقايات الحربية للسرخس ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٦٠

ولعلنا نطلع من هذه الرواية التي أهدناها في بداية حديثنا عن التراث النقدي للأعشى على مقدار فهم صاحبنا للآداب وثقافته له وتميزه ^{بين} المعاني الشعرية المختلفة وإدراكه للنواحي الفنية الدقيقة في النتائج الشعرية كما ينبغي أن ثقالتهم الأديسية المستوحاة كانت رائدا بها من روائد الملكية النقدية عند نقد أكتسب هذه الثقافة من أن يوازن بين الأعمار وفاضل بين مختلف المعاني وذلك كما أمرت سلفك من أدق مسائل النقد الأدبي بالعلوم الحديث . ونحن إذ نبر هذا الجانب - المهم من تراث الأعشى في ميدان النقد الأدبي نود أن نلفت الأنظار إلى ظلاله التي الشئ من البحث النقدي الذي أسهم به الأعشى في وضع كبر من أسس النقد الفني عند العرب ..

وإنه لمن الحيف وقلة الإنصاف أن نخلل الصورة المستقرة في الأذهان عن - الأعشى أنه من ذنوبة اللصوصين المتهربين للقديم والمهتئين بقائهم الصحيحة المضمومة لحسب وعلى اللون الأكثر أمالة وتوجها في تراثه النقدي مطورا في زوايا الامثال ..

واتنا لتمد الثمرف على هذا الجانب المهم من تراث الأعشى في فن النقد ثمرة مهمة من ثمرات دراستنا لشخصية هذا الملم الفذ من أعلام المدرسة البصرية وليس معنى تملقنا بذلك اللون الناضج من فكر الأعشى في مجال البحث النقدي وإبرازنا له - أن نخلل مظاهر التخلف في تراثه النقدية أو نغشي عنها ولكننا ندرس هذه وتلك وسيكون لنا رأى في توجيه بعض أقواله التي تنم بالتخلف والقصور والتي كانت بها فيما استقر في الأذهان عن مكانته بين النقاد وما غاب حول اهتماماته الأدبية ..

وقد يكون من المناسب أن نعرض صورا متنوعة من اهتماماته النقدية والخواص العامة لتراثه ثم نستخلص من ذلك أهم القائيم النقدية التي قدس في الشعر عيسى أساسها ثم نعبر في النهاية للجانب المضطرب من فكره النقدي ..

اهتمامات الأعمى النقدية :

من الظواهر الخاصة التي نلاحظها من ثنايا تراث الأعمى في مجال البحث النقدي ما يلي :

(١) تميزه بالغموض والتعقيد :

لمن أهتم ما يعبر التراث النقدي للأعمى هو أن اطلعه على أشعار الحمراء القدماء وحفظه لكثير منها قد أمكنه من معرفة أبعاد الأشعار التي قيلت في مختلف الصناعات والأغراض .. وبعد هذا الجانب من تراث الأعمى تأريخاً نقدياً من نوع خاص إذ يستلزم الباحث أن يأخذ منه شيئاً مهماً بأجسام الأشعار التي قيلت في كل غرض من أغراض الشعر والحمراء الذين غلبوا على علمي اللون الشعرية الغلبة ..

ومنه نتائج من هذا النوع :

قال الأعمى : " ما قبلت قبيدة على الزاي أجود من قبيدة الشماخ في غفلة النوم ولو نالت قبيدة المتنخل كانت أجود وهي التي يقون فيها :

يا ليت حمري وعمر السر يفتبرسه وأدرك ليس له في السيفي تحريز
عن أجزئكما بها بقر كسما والقرش بالقرش سهرى ومن ليسر
أي مربوط ..

قال ولم تقل كلمة على الداء أجود من قبيدته التي يقون فيها :

وما قد وردت أهم طسار على أرجائه زين الخلساط (١)
كان مزاجه الحيات خرسه قبيل الصبح آثار السيطاط (٢)

وقال الأعمى :

" أحسن ما قيل في الصبر من المرح قول أبي ذؤيب :

وتجلدى للشامتين أرمهم أنى لرب الدهر لا أتصفى
حتى كائن للحوادث مسرورة بهما الشعر كل يوم تقصر (٣)

وقال :

" أحسن ما قيل في اللون قول ابن أبي ربيعة :

وهي مكتوبة تحبر شهسا في أديم الخدين ماء الشهاب * (٤)

(١) الضطاط : القطر (قاموس) (٢) الشعر والحمراء ج ١ ص ٦٤٢ و ٦٤٣

(٣) ديوان الصماني ج ١ ص ١٣٦ (٤) ديوان الصماني ج ١ ص ٢٣٢

وقال :

" أحسن ما قيل في الثغر قول لذي الرعدة :

وتجلمع بفرق من أراك كأنه
من المنير الهندي والصدى ينفع
ذرى أفعوان ووجه الليل وارتقى
اليه الندى غاديه والصبر (١)

وحدث أبو نضر أنه قرأ على الأصمى شعر سعد بن أبي كاهن، فلما قسراً
قصيده :

بسلط رابعة الحبل لنا
فوملنا الذهب منها بالنقط

فعلها الأصمى وقال : " كانت الصرير تغفلها وتغفلها وتغفلها من حكمها ثم قال
الأصمى حدثني عيسى بن عمر أنها كانت في الجاعلية تسمى (البتية) * (٢)

ويقول الأصمى :

" ذهب أمة في عصره بملامة ذكر الآخرة بذهب عشرة بملامة شعر الحبيب
وذهب عمر بن أبي ربيعة بملامة ذكر الباب * (٣)

ويقول :

له بيت : أحد مرثية بأحسن من ابتداء أوس بن حجر :

أيقوا النفس أبغى جوعاً
ان الذي تحذرين قد وقصدا
ومعها قول زميل :

أجارتنا من يجمع ينسرق
ومن يك رهناً للحوادث يفلق * (٤)

ويقول :

" أحدى بيت قالت العرب وأحكمه قول الحارثية :

من يفسد الخبز لا يعد جوارحه
لا يدعيب العرف بين الله والله اس (٥)

ويقول :

" أوس بن حجر أشعر من زهير ولكن الناهضة طأراً بقه قال أوس :

تري الأرض منها بالفتاة مريضة
معلقة منا بجمع عرس (٦)

(١) أغانى ج ١ ص ٢٤٠ (٢) أغانى ج ١ ص ٢٤٠

(٣) أغانى ج ١ ص ٢٤٠ (٤) أغانى ج ١ ص ٢٤٠

(٥) أغانى ج ١ ص ٢٤٠ (٦) أغانى ج ١ ص ٢٤٠

في أغانى ج ١ ص ٢٤٠

وقال النابلسية :

جيتري يظن به القضاء مستحسنا
يد الاكابر كأنهم صحارى

هجا بمثناء وزاد .. (١)

نقده لأوصاف الحيوان :

ومن التواريخ البارزة في تراث الأسمى النقدي نقده لأوصاف الحيوان
التي وردت في شعر الشعراء كالخيول والأبل وغيرها .. وصرف أن وصف الحيوان
في الشعر العربي يشتمل جزءا كبيرا من قوائد الشعراء القدامى والاسلاميين
واشتاء الأسمى بهذا اللون من النقد بعد ما لهما من مظاهر تحققة في دراسة
القرائن الشعرية وغيرها الواعية بجوانب الدنظلة وقد اتهم الأسمى بتحليل
ما قاله الشعراء في نعمت الحيوان خاصة الخيل والأبل وبما النوهان اللذان لا ربا
الشاعر العربي في رعايته وذاكرته وصف لنا الأسمى الشعراء الوافسين
وهرفنا المجيدهم منهم في كل نوع من أنواع الحيوان ..

والأسمى يمدد في نقده لأوصاف الحيوان عن ثقافة عربية أصيلة وعناية شديدة
للتقريب في برادتهم وخبرة عظيمة بالصفات المستحقة في كل نوع من أنواع الحيوان ..

وهذه تعان من هذا اللون من تراث الأسمى النقدي :

قال الأسمى :

* كان عدى (بن زيد) لا يحسن أن ينعت الخيل وأخذ عليه قوله في فلسفة
الفرس : (فارعا متايضا) وقال : لا يقا للفرس فارح .. أنا يقال له (جواد)
وقيق وقال للكودن والبخل والحصار (فارح) (٢)

وعاب الأسمى قول امرئ القيس :

واركب في الريح خيفانسة
كنا وجهها سنف منشسر

* وقال : اذا قطت النامية الوجه لم يكن الثمر كرها والزيد الاعتدال كسفا
قال عبيد :

مضبر خلقوا تفهيرا
ينشق عن وجهها السيب (٣)

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٨ (٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٨٢

(٣) السومج ص ٣٩ والنجبر الموثق ، والسبيب شعر الناصية .

وقال أبي حاتم قال :

"مألفاته في وصف الفرس غير قليلة :

* سفر ملاحرها من الجبل بشار *

وقال الأعمى : لم يكن التأليف وزعمير وأوس يحسنون عفة الدخيل ولكن طهيسل
الغزالي في عفة الدخيل غاية التمت * (١)

حدثنا المازني قال :

"كأن الأعمى يصيب قوس التأليف يصفناثة :

مقدسة بدخيس النحن بالزليها له عريف عريف القوس بالدمسند

وقرر : التأليف في الذكور من النشاط وفي الإناث من الأمية والضجر ألا ترى قوس
بيدة بن قيسر الضبي :

كأن البنيح جاليسسة إذا ما بهمن تراها كجوسا (٢)

وما أدرك على أبي التميمي قوله :

* أصبح أخواه يطفر أولسه *

قال الأعمى : إذا كان كذلك فحمار الكساح أسرع منه لأن البطاراب مؤخره
فهيح وأما الرجعة ما قال أعرابي في وصف فرس أبي الأعرابي الطلسي :
مر للبعج المشرق شاه ناظيره أصبح أولاه هذو أخساره
فما بهمن إلا من منه جاليسسة * (٣)

وقال قوس كعب بن زهير في وصف ناقته :

فهيح مقلدنا فصي مقيدنا

* قال الأعمى : هذا خطأ أنا تويف التجاف بدقة المذبح * (٤)

وقال الأعمى :

"أنعت الناس لمركوب من الأهل عيونه بن مرداس وأنعت الناس لمحلوب في القبيد
الزلي وأنعت لمحلوب في المربز ابن لجأ التميمي * (٥)

(٢) الموشح ص ١

(١) الموشح ص ٥٠

(٤) الديمر والشعره ج ١ ص ١٠٦

(٣) المقدم ج ٢ ص ٤٣٠

(٥) فحول الشعره ص ٣١

اعتقدان هناك اضطراباً في فهم موقف الأصمعي من شعر المحدثين وقد تكون التكررة السائدة في الأدمان أن الأصمعي من عوادة الشعر القديم وبين ذهنية علماء النخبة المتمسكين على كل جديد .. وليس السبب في جميع هذا التفسير - غير الصحيح - لموقف الأصمعي من شعراء عصره يرجع إلى ما تناقلته كتب الأدب من حالاته عن خاصة الشعراء .. فقد أورد صاحب الأغاني بسنده أن الأصمعي كان يقول : " ختم الشعراء بأبن عمرة والحكم الخضرى وابن ميادة وطفيش التثاني ومكبر المذرى " (١) ومبارة الشعر والشعراء أن الأصمعي كان يقول : " ساقية الشعراء ابن ميادة وابن عمرة والحكم الخضرى ومكبر المذرى وقد رتبهم أجمعين " (٢)

ونحن من خلال ما تبين لنا من تراث الأصمعي النقدي وبعدنا أن ليسه تراث نقدي وتعليقات كثيرة على أشعار المحدثين وأنه كان يربط بجماعته من شعراء عصره أشاعر بني نواس والحياتيين الأعطف وغيرهم .. فما وجه هذا التناقض في تراث الأصمعي النقدي ؟ وما موقفنا من هذا التناقض فيما نسب إليه من أقوال ؟ ..

لأن الروايات التي وردت في أحد الجانبين قليلة أو نادرة لتشككنا في ذلك الجانب وأهيناه ولكن الروايات مستفيضة ومتداخرة على تأكيد كلا الاتجاهين فكيف إذا تفسر هذا التناقض ؟

أعتقد أن هناك حقيقة قد يكون في تذكرها بها في هذا المقام ما يساعد على كشف الغموض وتبليغ حقيقة موقف الأصمعي من شعر المحدثين والقدماء على الشعراء ..

من المعروف أن الحكم النقدي بحسبانه يتأثر بدوى الناقد وثقافته وبالموقف التي من حوله والجموع الفكرية الذي يتحرك في نطاقه .. إلى .. يتأثر بأى تفسير يقرأ على أحد هذه الجوانب أو كل منها تحت أى ظرف من الظروف

(١) الأغاني ج ٤ ص ٢٢٢

(٢) ج ٢ ص ٢٢٩

ويشعر الناقد الناشئ بمدى من آرائه ومواقفه وأحكامه الفنية حتى يصل إلى مرحلة أخيرة يستطيع معها أن يكون له عليها نقديا متغيرا ويتخذ مواقف حاسمة من قضايا الفن المختلفة .. وانطلاقا من هذا التصور نرجح أن ما تردد من قبول الأسمى عن خاتمة المسراء كان في مرحلة مبكرة من مراحل نمو الفكر النقدي عنده قد يكون فيها متأثرا بأقوال وآراء أساتذته وإشراجه من دأري الأدب فليس ذلك المصير وقد كان هذا الاتجاه التطبيقي في نقد الشعر شائعا بين أوساط علماء الحوية في ذلك المصير كما سنرى في دراستنا للنقد عند ابن مالك الديلمي الذي قصر طبعاته على المسراء القدماء ولم يدخل فيها أحدا من مصرا عصره ..

وقد كان هناك اتجاه نقدي مبان السب لا يرى للمحدثين شيئا كالذي يروي عن ابن الأعرابي من قوله " إنما أئمار هؤلاء المحدثين مثل أبي عسوان وغيره - مثل الريحان يشم يوما يؤذى غيره به وأشعار القدماء مثل السمسك والتعبير كلما حركته ازداد طيبا " (١)

وحيث أن السب رجس شعرا لأبي نواس أحسن فيه مكنت فتان له الرجل
أما هذا من أحسن الشعر؟ قال : بلى ولكن القديم أحب إلي * (٢)

وحيث نرى أن الأعمى تأثر في أمر بالاتجاه النقدي السائد في بيئة علماء اللغة التي تخضع لتوجيهها فلما انتقل إلى بغداد وتزوج على عرش الأدب بها أدرك على أشعار المحدثين التي كانت تلقى رواجا في هذه البيئة الجديدة فتدققت في تفسير موقفه منها وناديا من اهتمامه وإشراجه الذي الكثير فكان ذلك نقطة تحول في الاتجاه النقدي عند الأعمى وأينا أثر ذلك التحول ماثلا في تراجمه النقدي وكان السب فيه - في اعتقادنا - هو تبدل الروايات والفكر والبيئة الثقافية التي تحيط بالأعمى ..

ولعلنا لانجد مانعا من الاعتراف بهذه الحقيقة حتى لو أسأنا الظن بالأعمى فقلنا أنه انبطر إلى الاطلاع على هذا اللون الجديد من الشعر لأنه كان أحسن

(١) المصنف ص ٢٨٤ ..

(٢) المصنف ص ٢٨٤ ..

الألوان التي يدور حولها النقاش النقدي في أدبيّة بغداد والتي كان الأصمعي يقصد المتحدثين فيها ..

ومفصلات توضيحيان يصلح من واحد منهما أن تشرح حالة الأصمعي بالنظر إليه أولها : أنه من الصواب أن نفهم مقالة الأصمعي عن ساقّة الشعراء بأنه يريد الشعراء النحاة الذين تعد أقوالهم حجة في اللغة وليس يقصد إلى ساقّة الشعراء من حيث الناحية وإفادة القريض .. وقد يدعم هذا التفسير أن الأصمعي اختص بتصنيف الشعراء الذين يحقّ شمرهم في اللغة والذين لا يصح الاحتجاج بهم .. وعلى سبيل المثال يرى الأصمعي أن :

• الكميّ بن زيد ليس بحجة لأنه مولد وكذلك النرامج • (١)
وسأله أبو جعفر عن زياد الأعرج فقال : " حجة له يضمن عليه بلحن • (٢)

وحكي المازني قال :

• سمعت الأصمعي يقول : الكميّ تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الدارمياج
وكانا يقولان ما سمعنا ولا يسميان .. قال رؤبة كانا يسألاني عن غريب شعرهما • (٣)
ويقول الرازي • سألت الأصمعي عن مروان بن أبي حفصة فقال لو كان مولدا
ولم يكن له علم باللغة • (٤)

ثانيهما : نحن مسألة تقديس القديم والمطلقة بذكره والناية التحصير على ثروته مسألة أزييسة لم يسلّم عليها عصر وقد نظر هكذا إلى أئمة الأئمة بن رقيم ما يدرأ على الفكر الهنري والحضارة الإنسانية من تقدم وتخير يقرب من المعجزات .. وقد لاحظنا أن قتيبة على نقاد عصره تعلقهم بالقديم لقدمه وأزراءهم بالحديث لحدثه وذلك في كل شيء المشهور في خدمة الشعر والشعراء ..

فلعل الأصمعي حين ختم الشعراء بأبن صرمة وابن زيادة وأضرابهما كان يحسب من وجهة نظره عاصمة في مرحلة متقدمة من مراحل حياته وهذا الاستنتاج دليل لا يقبل الرد .. إن الأصمعي حين انتقل إلى بغداد رأى اختلاف أهلها في الشعراء المتحدثين غير رأيه في الدارس الذي يختص به الشعراء ووجدنا له رأيا بهذا يختلف عن رأيه السابق المشهور .

روى صاحب الأغاني بسنده عن أبي حاتم قال : " سمعت الأصمعي وقد عاد النسي
البصرة من بغداد تسأله روى عن مروان بن أبي حفصة فقال : وجدت أبا مروان قد سجد
ختموا به العسراء ، وشار أحق بأن يختصم به من مروان فقبل له ولم ؟ فقال كيف لا يكون
كذلك ، ما كان مروان في حياة بشار يقوئ نسرا حتى يملحه له بشار ويقومه ، وهذا علمي
الناصر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدي القلقاء بالشمع وماله في الجوائز والمجلس
مستوفى بانه تبع ، البشار " (١)

فإذا كان لا بد لكل مرحلة من خاتمة للمعصرا فان المرحلة التي قضاها الأصمعي
في بغداد ، جعلته يغير من موقفه فيختار بشارا خاتمة لهم بدلا من مروان الذي اختاراه
أبو مروان ، وهذا من أبين حكمة وفاقه الذين اختارهم هو من قبل . .

ونأخذ الآن في استمراري هذين النفاين النقدية لهذا الجانب الموهب من تسميات
الأصمعي وهو نقده للمعصرا المحدثين :

" قين الأصمعي : ما أحسن ما تحفظ للمحدثين ؟ قال : قول المصالحين من الأحف ؛
لركبت فائبة لمكن رومستني أطلي رضاء وزيت غير مراقبستني
لكن مللت أني تكن لي حليسة عند الطول غداك عند العاتبي " (٢)

وحكى أبو حاتم السجستاني عن الأصمعي أنه أشد قول المصالحين من الأحف ؛
" أنان نون لصب في زيارتكس فمندكم شهوات السج والنصر
لايضم السور أن طان الجلولس به عف الضير ولكن غاسق النالصر

فقال الأصمعي :

ما زال هذا الغبي يدخل يده في جرابه فانيش من شيئا حتى أدخلها ثأني هذا
من أد من طلب شي ، النمر بهضه " (٣)

وتذكروا بخبرة الأصمعي شعر المصالحين من الأحف فخطه وقال : ما يوتى من
جودة المعنى ولكنه سخي في اللفظ ألا ترى قوله :

(١) أغاني ج ٢ ص ١٤٨

(٢) أغاني ج ٨ ص ٣٥٥

(٣) أغاني ج ٨ ص ٣٥٥

البر من الحول حتى أرى
ان الذي أثير عند السبدي
لومي عن قلبى قرى وسلسله
وجهك والساعة كالكهـ
أظهر كالقطرة في البحر
ذكرتك والتوحيد في سلسله

ثم قال :

يا من تعادى في الهوى قلبه
أبعد أن قد عرت أحد فـ
سار به السيل وائسدى
في الناحى مثل " الحسن البصرى "

قال الأصمى :

لعمري ان الحسن البصرى مشهور ولكن ليس هذا موضع ذكره (١)

وحدث السدي قال : سمعت الأصمى يقول :

" شعر أبى القشائبة كساحة الطول يقى فيها العود والذهب والتراب والخزف
والنوى " (٢)

في طبقات ابن المعتز رواية طويلة حول مجلس أدب حضره الأصمى عند الفضل
ابن يحيى البرقي أسهب الأصمى في وصف ذلك المجلس وما اجتمع فيه من أئمة
وأئمة الذهب والفضة ... الخ ... وقد أئده الأصمى في هذا المجلس شعرا من غزليات
أبى النعمان يقول فيها :

إذا ما أتت دن اللهاة من الفتى
دعا منه من صدره برحمة

فقال الفضل : هذا البيت له ؟ قال الأصمى : نعم ياسدي قال : وليس الا هذا البيت
قال : هي أبيات . قال هاتهما فأتاهما :

وخيمة ناطق برأى شيفسية
.....

حلفت لأصحابي بها درة المهبلة
إذا ما أتت دن اللهاة من الفتى
فلما تروى الليل جناح من الدجى
وأعجبت ألى السكر والسكر محسن
تسأروا من ماء الكرم شمسول
دعا منه من صدره برحمة
تسأروا واستجملت غير جميل
ألا رب احسان عليك شمسول

(١) الموضح ص ٤٥

(٢) أغاني ص ٢٩

كفى حزنا أن البؤساء بقدر
سأبش الشئ أما ندير خلفه
بكن فتي لا يستطار جنانا
ليخمس من الله في كن الجسر
ألم تر أن البار عون على الندي
عليه ولا صرف عند بغيره
يقوم حواء أو شيف سبيل
إذا نوه الزحان باسم قتييل
ردي بطنه للظلمات أكسول
وليرجوا مدد كهييل

قال : (القص) : قاتله الله ما أفسده يا قاتله أتيها ثم قال : أما والله لولاك الناس فيسسه
ما فارقني ولكن إذا فكرت فيه وجدت الرجى ما جنى خليما ألغا للحنان فأترك نغمه لفسده
فقد : أبلغ الله العجز أنه من ذلك مكان من الأدب ولقد جالست في مجالس كتيبة
قد صبت دوى فنون من الأدباء وانحلوا فما تجاروا في شيء من فنونهم إلا جاراهم فيسسه
ثم هزل عليهم وهو من النمر بالسحل الذي قد علمته أليس هو القاتل :

ذكرت من الترحان يوما لفتنسا
زعمت بأن الموت يحزنكم لفتنسا
تعالوا نقارعكم ليحقق عند كسبنا
أجاس قصير الليل يارحم عند كسبنا
ومن يعرف الليل الطويل وفتنسا
خليون من أوجاعنا يمد لفتنسا
فلو شاء ربي لأبطلهم بحث ما أفسدنا
سأعكر إلى الفرس بن يحيى بن خالد

أمر رأيت البار في حيرتسسه
إذا من رب البار ثوب جسد
ولففس أهدا مقدما من صبرنا
الهاء أها العباسي من دون من مشي
قال شمس لم تصرف كلالا على الوجع
مدواي لمن الفضل يجمع بفتنسا
صهينا ذليل النفس يا أديم مؤنسا
بحي على مال الأمير وأذنسا
إذا ليس الدين الحريئة واكتنى
عليها استظينا الضمر من اللمسا
ولم تد رماقر الفتى ولا الهنسا

قال القص :

قد عرفتك أنه لولا ما هو سبيله من هذا الفتاه ما فارقني قبره وما شرته ثم قال يا قاتله
أحسن إليه ألفت دينار فقلت للرسول : أخلصه أن الأملى عند الوزير : فتمس وقسمنا
يا قاتله وإلى بيت أبي سعيد ألفت دينار (١)

ونكذنا بفتح لنا أن الأصمى لم يكن غيورا بالشعر القديم أو مكفيا به بحسب
 من كان يرى أشعار المحدثين وتذوقها وعلمها عليها تعليقات صافية .. وأن حاسسته
 النقدية كانت تهديه دائما الى كن عذيب ورائع في نتائج الشعر القديم والمحدثين
 وقد أثبتنا رواية ابن المعتز على صحتها لنؤكد هذه الحقيقة بما اختاره الأصمى من شعر
 بالغ الروعة والعدوثة لأبي نواس ..

المقاييس النقدية عند الأصمى :

نستطيع من خلال ما تبين لنا من تراءى الأصمى في فن النقد أن تلجج مجموعة
 من المقاييس النقدية التي كان يقو الشعر بناء عليها ومن هذه المقاييس :

(١) الأصالة في المذهب الشعري :

لا شك في أن أخص الشعراء تضم بين جنتها عالما زاخرا بالشاعرية
 والأحاسيس والدواطر والتميمات والشاعر الذي يصدر في شعره عن احساس
 صادق وصناعة حقيقية جدير بأن نطلقنا في كل تجربة من تجاربه على ما هو
 جديد وصحيح .. وقد لطن الأصمى الناقد الى أن الشاعر الذي يصدر في شعره
 من نزعة أميلة ولا يتأثر بمذهب شعري محين أوقع نفسه في إطار مرسس
 لا يفي عنه سيمد جديرا بالتفوق في الشعرية ..

حدث أبو حاتم السجستاني قال :

"قلت للأصمى : أباشار أشعر أم مروان ؟ قال : بشار أشعر من سيبا
 قلت : وكيف ذلك ؟ قال : لأن مروان سلك طريقا كرسلك فلم يلحق بمن تقدسه
 وأن بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحد فأنفرد به وأحسن فيه وهو أكثر فتون شعرا
 وأقوى على الترف وأغزر وأكثر بدعما ومروان أشعر بمالك الأواشي " (١)

فالأصمى يفضل بشارا على مروان لأن بشارا انفرد بمذهب شعري يميزه
 عن غيره من الشعراء فجاء تقاضيه حورا لما اضطر في نفسه من شاعر وماجدا في
 به خاطره من انتماء .. أما مروان فهو لا يكاد يخرق في شعره عبا رسة الأواشي
 وتنبه في مياعته وشوابه الشعرية .. هذا بالإضافة الى أن بشارا عالي لغوفا

عصرية متنوعة وأجاد في مدحها وروان لا يكاد يتجاوز اللون أو اللونين
ولعلنا لسنا بحاجة إلى التذكير بكثرة النثر الشعري لهشار وأتباعه كثيرا من
الدروب التي يعد أسبق العمراء إليها ..

(٢) حرية التعبير والاسترسال بلا قيد :

ولم من من شواهد ارتقاء الفكر النقدي عند الأرمين حكماء المشهور على شعر
حسان بن ثابت فقد روى صاحب الموشح عن حدثه أن الأرمين قال :
" طرقت الشعر إذا أدخلته في باب الخير لأن ألا ترى أن حسان بن
ثابت كان هذا في الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مرائي
النبي صلى الله عليه وسلم وحيزه وجمهره رضوان الله عليهما وغيرهم .. لأن شعره
ولرب الشعر هو طريق شعر الفحول من امرئ القيس وزهير والناظرة من غسان
الديار والرجل واليهب والندى والتشبيب بالنساء ومعلقة العسر والخيل والحروب
والانتصار .. فإذا أدخلته في باب الخير لأن " (١)

فقد لحن هذا الحكم أن الأرمين لاحظ أن حسان حين كان يتحررا من كافة
القيد قبل الاسلام جاءه الله الشعري جيدا وانفعا وكذلك إلى حد ما في الاسلام
أيما احتدام الدعوة بين قريش والأنصار فلما اجتمعت كلمة العرب المتحسين
بعد فتح مكة ولم يبق لشعر حسان من مقامات الاشارة شيء ضعف شعره وذهب
بجذوته لتوجيه التقيد بالشعر الخلق الذي أرساه الدين الحنيف حتى أن تلبسك
الأمصار التي قالها حسان في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة وجاءت
فاترة لأنه جعل قوامها الاعادة بفضائلهم العقلية ولاشعر في حين شعره دين
الله وأعلامه وأياته ونحن نستنتج ذلك لأن الأرمين نفسه ذكر في تعليق نقدي
له أن المرائي من أهم فنون الشعر في اختيار الشاعر .. فقد أورد ما يحسب
للمتد من الأرمين أنه قال : " أحسن أنماط الشعر المرائي والبكاء على الشيا " (٢)

وما يدعم هذا البعد المتقدم الذي قرره الأرمين حول حرية الشاعر وتخلوه

من القيود يحكمه على أيدي من ربه حشا سأل عنه أبو حاتم فقال الأرمين : كان رجلا

عالمًا ونفى عنه التحولة بقول أبو حاتم " قال لي : كان رجلا عالما كانه ينفى عنه جودة الشعر " (٣)

(١) الموشح ص ٨٩ وقد وردت هذه الرواية في الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٦ بصورة أخرى وقد أثبت
رواية الموشح لنفسها من تفسيره ووضح ..

(٢) ج ٢ ص ٤٦ (٣) الموشح ص ١٠٠

(٢) استيفاء الممانى والأوسان :

وهذا قياس رئيسى من ثنائى النقد الأدبى، ولعله أشد، القياس النقدية التى عرفت فى النقد المسمى وقد رأينا ألوانا منه فى الماضى ونحن نتحدث عمن أعلام النقد فى عصر ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثانى .. ههنا النقد المسمى على هذا القياس جانبها ميمنا فى تراث الأرحمى النقدى لقد أخذ حيزا كبيرا من هذا التراث .. ومنه نذكر على ذوى الأسمى ونحن نسبح للممانى المعبودة وتبهره بنسبها واشتد اسمها إلى ما يمتدح بعضها من قصور .. وهذه أشلة من نقد الأسمى فى هذا الباب :

وهذا صاحب الموشح قال : أخبرنا ابن دريد قال : أخبرنا عبد الرحمن بن
أبي الأسمى قال : " أشد رجلا عسى :

وإذا اندرزنا حسن وجهه
فأعجب بها الرجل . فقال له عسى : لا تعجب بها لما يسوان لتد بهمة
وأجود الشعر ما عدى فيه وانظروا المسمى كقول امرئ القيس :

ألم ترياى كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا وإن لم تطيب * (١)

" ومن الأسمى قول الأعمش :

كان معيتها من بيت باراتها
مصر السحابة لا ريت ولا عجل

فقال : لقد جعلها خراجة ولاجة هذا قال كما قال الآخر :

وكرمها باراتها فيزورها
وتعتل عن أتيانهم فتعذر * (٢)

" وحدث أبو حاتم قال : سمعت الأعمش يقول : لو أدركت ذا الرمة لأمرت

عليه أن يدع كثيرا من شعره فكان ذلك غيرا له . وقد أنكر قول ذى الرمة :

ألا بالسلى ياد اوى على البلى
ولا زال منها لا يجرع عصف القطر

وأخى من عاب هذا البيت بأن فى قوله هذا قصادا للدار التى دعا لها

وهو أن تشرق بكثرة المطر وقالوا الجيد : هذا المسمى قول ذرقة :

سقى دارك غمر بعدد
صوب الريح وبه تهيم * (٣)

وسا أخذ على أبي النجم قوله :

« صلب الصبا يحاف من التمدن »

قال الأعمى : لا يوسف راعى الابن بعد ذمة الصبا والجيد قون الراعى :
فصيف الصبا يادى المروق ترى له عليها اذا ما أمس الناس أصبا

« وحديث أحمد بن سعيد قال : سمعت الأعمى يقول : لا أحب قسوس
الفرزدق فى الطعن »

« فيها تصل مد وهدن وتنهان »

يقول : أحسن الطعان : الخالص والخالج والدراة كما قال الجعدي :
أصاء لسواك كالمسح الممحا من يأتى يلقى خلفنا فأنسنا

وكما قال امرؤ القيس :

نمطهم سلكى ومخلوطة
لشك لأمين على ناسك (١)

ولعل من دلائل نضج الحاسة النقدية وارتقاء الذوق عند الأعمى
أنه عندما كانت تختلف رواية شئ من قصص الشعر القديم كانت تأتى روايته
الأعمى له على أحسن الوجوه وأقواها فى المعنى : يقول ابن جنى :
« روى الأعمى بيت الثقب المهدى :

أفاطى قبل بيتك نهوليسنى
منك ما سألت لأن تهبسنى
..... أى منك شيفك وإن كنت مقيمة

رواه ابن الأعرابي : ومنك ما سألت أن تهبسنى ..

..... أى منك أياى ما سألتك نهوليسنى ورواية الأعمى أعلى وأذهب
فى معانى الشعر . . . (٢)

(٤) خمسة المباشرة صلا مشها :

« حديث أبو المينا قال : أئند اسحات الموبلى الأعمى قوله فى غيب
الأمون عليه :

يا سرحة الماء قد سدت موارده
لحائم جاء حتى لا حيا يسسه
أما اليك « طريق غير مسدد ود
محلل عن « رضى الماء « ملبس سرود

فقال الأعمى : أحسنت فى التمرير لأن هذه الحاءات لو اجتمعت فى آية الكرى لما بقوا (٣)

(٥) الجزالة : الجزالة

" قال التوزي : قالوا للأعمى أيجب أن أبيع ثوبي :
ألا يا غبيبة الساعة : أوت الساعة الساعة

فقال : لا والله ما يبيعني ولكن يبيعني ثوبي الآخر :

جاء عقيق عارفاً ربحه
عن أحدك الدهر لنا نكبة
أن يبي عندهم ربحه
أن يبي رقت أم عقيق ربحه (١)

وأخبر الأعمى قال :

" حدثني أبو عمرو بن الحلاء قال : سئل الفرزدق عن الجعدي فقال : صاحب
خلقاً يكون عنده حظوظ بالثوب وشمار يوافي : قال الأعمى : ومدي الفرزدق بيثا النابذة
في كذا أسهل من الزلال وأشد من الصخر إذ لا ن فلدهب ثم أهدنا له :

سما لك هم ولم تلبس
وقالت سليبي أرى رأسه
هت بهت ولم تنسب
وكناحية الفرزدق الأعمى
فقيء اليك ولا تنسب
وعدن على ربح الأقرب

بعد أبيات ثم يقول بعدها :

فأدخلك الله برد الجناس من جذلان في مدخل داهية
فلان كانه حتى لو أن أبا العقيق قال هذا البيت لكان رد يثا (٢)

(٦) مقاس اللغة والشعر

" حدث أحمد بن سعيد قال : سمعت الأصمى يقول : أغلأ ذوالرمة
في قوله :

فلاوي ما تنفك إلا مناحية
وقوله " ما " جحد و (الا) تحقيق فكيف يجتزمان ؟ (٣)

وهو التوزي قال : سمعت الأصمى يقول : ما أقل ما تنقون الحرب القبيحة
لأنه زوية فلان : إنما غفون في فلان فلان له الدبري : أليس قد قال ذوالرمة

(١) الموشح ص ٢٩٥

(٢) الموشح ص ٨١

(٣) الموشح ص ٢٧٨

إذا روجه بالصرأ ذاهجسة أراي لها بالهجرة الماء ثابسا

فقان : ان ذاهجسة قد أكن الهض والميلج في حوانيت البقالين حتى بهم * (١)

* واجتمع الفضض الضبي وبعد الطن بن قرب الأسمى فأشد الفضض *

تميت بالماء توليا جدهسا

فقان له الأسمى : توليا جدها * والجندع : الس : التسداه * (٢)

مظاهر التخلف في فكره النقدي :

(١) الاضطراب في نحولة الشعر :

بعد ما قاله الأسمى في نحولة الشعر : بها ميا من أبواب التراء النقدي الذي

وس اننا عنه رغا ما يكتف هذا الباب من غبوض وما يحيط به من تناقض واضطراب

ونكرة الفحولة كما أوضحها الأسمى لتلميذه أبي حاتم راوي هذا الحساب

السهم من أبواب النقد عند الأسمى - تلغ في " أن يكون الشاعر مزنة على غيره

كمنية النح على الحقا * (٣) وتأسيسا على هذا التمهيد وبحث نحولة الشعر :

ان يمان أبو حاتم السجستاني أستاذ الأسمى من شعراء العربية المشهورين

شاعرا شاعرا ووفق كل شاعر من حيث كونه فحاد أو ليس بفحل ..

ومعتقدنا بأهمية هذا الجانب في تراء الأسمى النقدي فان لفظنا

عليه الآلات التالية :

١ - ان معظم أحكام الأسمى ليست صحيحة بالتمليل أو التفسير البحت والمنة

الضالمة على ما بها في نحولة الشعر : خاصة من الاضطراب والتعديد وذلك

لا يحدنا كثيرا في بيان النقد الأدبي ولا تأخذ منه شيئا ذا قيمة في البحث

من الانجسام النقدي للأسمى أو يوان سماء النكر النقدي عنه ..

باب هناك تناقض - ليس له مير في معنى أحكامه على الشعر : فهو مثلا يقول

* لو قال فحلبة بن صفيح المازني مثل قصيدته خما كان فحلا * (٤)

ويتعد من الحودرة :

* لو كان قال صفيح فحلا مثل قصيدته - يعني المعنى كان فحلا * (٥)

(١) الموضح عن ٢٨٢ - والبهم : التخمه (٢) الموضح عن ٢٣

(٢) الموضح ج ٢ ص ٤٨٢ (٤) الموضح عن ١١٩

ثم يقول مرة أخرى عن أبي بن مسرة الههيمي :
 " لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول ولكنه قطع به " (١)

وإذا قلنا القياس الذي يحكم به على الشعراء القليلين واحداً إذا حكم
 لشاعر بأنه لو أتم خمس قصائد كان فحلاً ولا غير بأنه لو أتم عشرين
 كان فحلاً فما سبب هذا الاختلاف في الحكم على ذلك النوع من الشعراء ؟
 ولم نقول عن الحدودية وتعلية والباري أنهم لو أتموا خمس قصائد كانوا
 فحولاً ومن ابن مسرة أنه لو أتم عشرين قصيدة كان فحلاً ..

لم يكن الأصمعي دقيقاً في تطبيق مبدأ الفحولة أو حاسماً في حكمه
 على الشعراء به أو تفهم عنهم فهو يحكم لبعض الشعراء بالفحولة بالظاهر
 إلى قصيدة واحدة ومن ثمة كان الظاهر يكون فحلاً وغير فحل في آن واحد .
 يقول ابن كعب بن سعد الشنوي : ليس من النحوي إلا في الرثية
 فإنه ليس في الدنيا مثله " (٢)

والى أية حال فنحن لا نريد أن نهبون من شأن هذا الجانب من روائع
 تراث الأصمعي النقدي وإنما نقصد أن نقول أن ما يشهده من قصور واضطراب
 قد يكون سبباً في التنبؤ من مكانة الأصمعي في فن النقد والتي النحوية
 إلى أصوله الحقيقية لها قولاً بنى ..

ونعتقد أن الأصمعي لا ينبغي أن يؤخذ على هذا الاضطراب الظاهر في
 مجموعة أحكامه التي عرفت باسم فحولة الشعراء لأنه لو يدون هذه المجموعة
 بنفسه وإنما رواها عنه تلميذه أبو عاصم السجستاني فقد تكون هذه الآراء نقلت عنه
 في مرحلة مبكرة قبل أن يتكامل مذهبه النقدي أو يستقر مذهب من قضايا الأدب وقصد
 يكون أبو حاتم سأل الأصمعي عن هذه الأحكام في مراحل مختلفة وهذا سبب ما فيها
 من اضطراب وتناقض وأخيراً وهذا ما نرجعه ما قد يكون الأثر من متأثر في هذه
 الأحكام بآراء أساتذته من علماء اللغة أمثال أبي عمرو بن العلاء ومنه من حيث
 غيره .. وإنما لنجد في مجموعة (فحولة الشعراء) ما يشير إلى هذا التأثير
 فقد ذكر أبو حاتم أنه سأل الأصمعي عن زهير والفردق والأخطل فقال :

" هؤلاء لو كانوا في الدنيا لم يكن لهم شأن ولا فرق فيما بينهم لأنهم
 أساتذتيون ... ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لو أدرك الأخطل مسن
 الديلمية يوماً واحداً ما قد مت عليه جاعلياً ولا أساليا " (٣)

(٢) مرقته من مد رسة عبيد الفمرة

ومن مظاهر التخلف على الفكر النقدي عند الأسمى مرقته من مد رسة عبيد الفمرة
الشمري بعد تحيزه بين تهذيب الناصر ونبوده وبين التكلف والتصنيع فيه نقسده
روى أنه قال :

" زعمير والحداثة وأصحابها من النصاراء عبيد الناصر لأنهم نقسده
ولم يذهبوا فيه مذهب السامريين " (١)

روى أبو حاتم قال :

" كان الأسمى يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة شعره وقصيدته
كان منزها لا يكلف عليه شيئا عتذرا لا كن يقول البيت يحككه أيا ما وكسما
ينبه بشارا بالأفنى والناهية الذهباني ويثبه مروان بزقير والحداثة وقصيدته
بحر مكلف " (٢)

وتحس من وجهة نظرنا نرى فرقا كبيرا بين الشعر المتكلف وبين الشعر
الذي ينقحه قائله وما هو تلميح بشاره حتى يستقيم له على الصورة التي يرضاهما
ونرى أن الملكات الشعرية تتفاوت بين الشعراء في هذا الاتجاه ومنهجه
للربط بين التلقائية أو الارتجال وبين التأني والساحة بالشعر فهما حيثان
مختلفان هاتالي لا ومنه للربط بين التكلف وبين محاودة الناصر لتلقائية
الشمري انتهى أموجاهته ويهدى نواحيه ..

(٣) التصيب المذهبي

ومن مظاهر تكلف بعض آراء الأسمى النقدية وتصورها أنه كان يتعصب
أحيانا على النصاراء الذين يختلفون معه في المذهب . ومن أمثلة ذلك ما
حدث به التوزي قال :

" رأى الأسمى جزءا من شعر السيد (الحميري) فقال : له عبيد
فسترتة عنه لعلني بها عند فيه فأقسم على أن أخبره بالغيرته فقال : أنتدني قصيدة
منه فأتمدته قصيدة في أخرى وهو يستزدي شي قال : قبحه الله ما أسلكه لطريق
البحر . لولا مذهبه ولولا ملكي شعره ما قدمت عليه أحدا من طبعته " (٣)

(١) الناصر والحداثة ج ١ ص ٢٢ (٢) لغاني ج ٢ ص ١٤٨ (٣) لغاني ج ٢ ص ٢٢٢

وكان السرد الحصري من الشيعة الكيميائية (١) والأعمى من أهل السنية كما ذكرنا ..

تلك صورة مفصلة لأهماد التراث النقدي للأعمى بإيقاعاته وإملياته ولعائسها تشبه من ذلك كله إلى الملاحظات التالية :

- (١) كانت أهمية الأعمى العملية متعددة المراتب متبعة بالبراهات وبعد تراثه في النقد الأدبي مثلاً لناحية أساسية وإبرة من نواحي شخصيته العلمية التي ينهض أن عديس ولقى عليها عزيد من النور ..
- (٢) من البطل أن ذلك الأعمى في زمره النقاد الذين أو التارخيين الذين يوصفون اهتمامهم كله إلى أسرار القدماء ويبحثون فقط عن الحجة اللدوية تراث الأعمى الثاني ولعلنا عليه الأسوأ وهرنا لنادل عن بعض تعليقاته من تناقض واضطراب وأوضحنا رأينا في إمكان تفسير هذا التناقض بما لا يتنافى مع الأخذ بكر ما استندت المصادر الموثوق بها إلى الأعمى من آراء وتعليقات ..
- (٣) على الرغم من أن الأعمى لم يتوكل لنا مؤلفاً يضم آراءه النقدية لأن ما تصح لدينا من أشواك وأحكام في ذلك المجال كفي بأن يمثل لنا بوضوح مذهبه في النقد والأطوار المختلفة التي مرت بها حياته النقدية والمؤثرات التي تأثر بها ومصدر في أحكامه عنها ..
- (٤) حظيت آراء الأعمى وتعليقاته النقدية بتقدير النقاد وامتيازهم وكان لها أثر ملحوظ في بحوث النقد في القرن الثالث عشر في نطاق البيئة البحرية أم في البيئات الأخرى التي شاركها بعد ذلك في العناية بهذه الفنون كما يتضح لنا في بقية فصول البحث ..

الفصل الثاني

ابن سلام الجعفي وتراثه في النقد العربي :

لم يأخذ ابن سلام من اهتمام المؤرخين وكتاب التراجم مثلما أخذ الأعمشيني كما رأينا في حديثنا عنه في الفن السابق - أو الجاحظ كما ستري في الفصل اللاحق لفخالبية كتب التراجم (١) أوردت أخبار ابن سلام في سطور معدودات ما جعلنا لا نكسب من معرفته من أخباره وأشوار حياته إلا الشيء القليل ومن ثم لم يتح لنا أن نتصرف على التوثيق في المخطوطات التي أثرت في شخصيته - سواء أكانت مؤثرات اجتماعية أم ثقافية أم سياسية ولا ريب فتدنا في أن نتصرف على الجوانب المختلفة لتأثيره الثقافي - أو الأدبي عامة - والالهام بالمؤثرات التي أثرت في ثقافته وتحدثت في ميوله وتزعمته - له أهمية كبرى فليس تطيق نتاجه واستنباط مذهبها إذ على ضوء هذه المعارف يحتاج الباحث المحقق أن يستنتج النتائج ويرتب الأحكام ... ولابد لنا من الاعتراف بأن إمدادنا من المحدثين وأصولهم في دراسة أدبنا وتاريخنا القدامى تتفرقه مجموعات شتى أهمها إغناء القدر الأكبر من حيوات أولئك الأعلام وتوزيعها في مختلف الدوائر بالاعتماد على أن مؤرخي المصنوع وكتاب الترجمة القدامى لم يكونوا يهتمون بإبراز الجوانب الخاصة في حيوات الأشخاص - المترجم لهم والتي تهتم الباحث المحدث ويحاول عليها في دراسته للقدامى وتحليله لتأثيرهم وتحديد اتجاهاتهم وتاريخهم ...

ويبدو لنا - بالنسبة لابن سلام - أنه لم يقم نفسه في أي من الملاحظات المراسية أو المذهبية التي حفل بها العصر الذي عاشره والتي تعد عاملاً مهماً من عوامل الشهرة ويقاء الذكر ومنهم عاشر ابن سلام حياة عادية ليس فيها ما يجعله في عداد الشخصيات الكبيرة ذات السمات الدافعة والتأثير القوي ...

على أية حال فسنلج إلى حياة ابن سلام من حيث مولده ونشأته وكانته - من عليا عصره وذلك على ضوء المعلومات القليلة التي وصلتنا عنه ثم نأخذ بعد ذلك في دراسة

(١) نقلنا أخبار ابن سلام القليلة وترجمته من المصادر الآتية: معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٠٤، هبة الحياة ج ١ ص ١١٥، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٢٧، أنباء الرواء ج ٢ ص ١٤٣، نزهة الأنبا ص ٩٩، الشهرة ص ١١٣، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠، ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥٦٧، الميزان ج ٥ ص ١٨٢، طبقات الزبيدي ص ١٢٢.

تراثه النقدي والتعرف على مؤرخه بين أعلام المدرسة النقدية في الهجرة والأنسب
الذي تركه في الفكر النقدي عند العرب بصفة عامة ثم في النهاية نمرس لأخصس
المحدثين وأتوالمهم في ابن سلام قيمة تراثه في مجال البحوث النقدية عند العرب . .

حياته ومكانته :

ولم يولد أبو عبد الله " محمد بن سلام بن مهدي الله بن سالم بن علي قدامة بن سلمون
البحسني " (١) بالهجرة ولم يولد واحداً وإنما ترجعت له إلى سنة ولادته غير أن هناك
رواية شتهرت بها بعد قليل نعتون منها على أنه ولد في حدود سنة أربعين هـ للهجرة
ومن ثم تكون المرحلة التي نعيش فيها ابن سلام وتطلع إلى طلب العلم كانت حافلة بالعلماء
والرواة الذين أخذ عنهم معلمي التراث النكري للمدرسة الحنبلية وهذا يفيدنا في تقويم
الأثر الذي أحدثه كتاب " طبقات الشعراء " لابن سلام الذي جمع فيه آراء علماء
الهجرة حتى نصوصه في مختلف قضايا الأدب والنقد كما سنشرح بالتفصيل . . وأخصس
من أشهر ابن سلام أنه كان مهتماً برواية الحديث الشريف ويبدو أن من رجاها فقد أخذ
كما ذكرت المصادر " عن حماد بن سلمة وبارك بن شهاب وجماعة يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل
وابن عبد الله وأبو العباس ثعلبي وأحمد بن علي الأبار " (٢) وكان يدقاً يختلف اليه
يحيى بن معين ليستفيد منه " (٣) ومن أن ابن سلام كان يدقاً ويأخذ عنه رجل مثل الاسام
أحمد بن حنبل فان بعض العلماء لم يوثقه في رواية الحديث يقول محمد بن أبي خثيم
" سمعت أبي يقول : لا يكتب من محمد بن سلام الحديث رجس بالقدر . إنما يكتب عنه
الشعر وأما الحديث فلا " (٤)

وابن سلام مشهور له بأنه من جملة أئمة الأدب وأن له علماً بالشعر والأخبار وأحسن
التدبير يقول عنه أنه " أحد الأخباريين والرواة " (٥) ويقولون يافوت : " كان من أئمة الأدب
وألف كتاباً في طبقات الشعراء " (٦) ويقولون الذهبي " كان من أئمة الأدب " (٧) والبغداد
يقول : " كان من أئمة الأدب وصنف كتاباً في طبقات الشعراء " (٨) ويقولون صاحب النجاشي
الزاهري عن ابن سلام : " كان من أئمة الأدب والفن والأدب " (٩)

- (١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٢٧، انباء الرواة ج ٢ ص ١٤٣ (٢) معجم الادباء ج ٨ ص ٢٠
- (٣) انباء الرواة ج ٣ ص ١٤٣ (٤) لسان الميزان ج ٥ ص ١٨٢ (٥) الفهرست ص ١١٣
- (٦) معجم الادباء ج ٨ ص ٢٠ (٧) ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٥٦٧
- (٨) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٢٧ (٩) ج ٢ ص ٢٦٠

قص ابن سلام مذهب «يأته في البصرة شرفاً» بغداد في سنة اثنين وخمسين واثنتين
يقول البغدادي: «قدم بغداد فلما إليها إلى حين وفاته» (١) وقال الحسين بن فهم
في النير الذي استدلنا منه على سنة مولده: «قدم علينا محمد بن سلام سنة اثنين
وخمسين واثنتين فاعتن علمه شديدة فما تملك عنه أحد وأعدى إليه الأجلاء أباهم»
وكان ابن ماسويه من أعدى إليه فلما جسه وثار إليه فان له: «ما أرى العلة كما أرى مسكن
الجن فنان له: والله ما ذا بحرص على الدنيا مع اثنتين واثنتين عنه ولكن الانعان فليس
ظلة حتى يوقظ بملة لموقفت بمولات وثقة وزيت قهر رسول الله على الله عليه وسلم»
زيرة وقصيت أمياً في نفس لرأيت ما اعتد على من هذا قد سمع فنان له ابن ماسويه
لا تجز فقد رأيت في عرفت من حراوة القرية وقوتها أن سلمه الله من العوارض بلفظ عشر
سنتين أخرى: «كان الحسين ابن فهم يوافق كائنه قدرا فمات محمد عشر سنين بعد ذلك
مات سنة اثنين واثنتين واثنتين» (٢)

ونأخذ من أخبار ابن سلام أنه عمر أكثر من سبعين عاماً وكانت وفاته سنة احدى
والثنتين واثنتين (٣) أو اثنتين واثنتين واثنتين (٤) على اختلاف بين العلماء في ذلك وكانت
وفاته ببغداد (٥) وفي البصرة (٦)

مؤلفاته:

أوردت المصادر التي ترجمت لابن سلام أسماء بعض المؤلفات التي وضعها ولمن
أعطا في كتاب طبقات العرب الذي نمتد أنه السبب السهم في بقا ذكره واعتساب
العلماء به في مختلف العصور وذكر له ياقوت في معجمه كتاباً آخر بعنوان (غريب القرآن) (٧)
بعد له صاحب الشهرة من الكتب: «كتاب الفاعل في ملح الأغبار والأشعار» كتاب بيتات
المرقب كتاب طبقات الشعراء الجليليين كتاب طبقات الشعراء المسلمين • كتاب الحنابل
وأجر الخليل • (٨)

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٢٧

(٢) انباء الرواة ج ٢ ص ١٤٤

(٣) ذكر ذلك ياقوت وابن حجر عن قول لموس بن عارون وذكره صاحب النجوم الزاهرة في
وفيات تلك السنة • وكذلك عن عايه الخطيب البغدادي • (٤) ذكرها ياقوت في رواية
والقطنى استناداً إلى مقال الحسين بن فهم • (٥) عن علي ذلك الخطيب البغدادي
والقطنى نقلاً عن محمد بن نافع (٦) ذكر ذلك الزبيدي في طبقاته

(٧) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٠٤ (٨) الفهرست ص ١١٢

ولم يعلننا من مؤلفات ابن سلام سوى كتاب "طبقات المشركين" وهو الذي نصبت معظم المصادر على أن ابن سلام ألف كتاب بذلك العنوان ويأحب التهورت نص على أهميتها كتابان أحدهما في طبقات الجاهليين والآخر في المسلمين .. غير أن الكتاب الذي يدعى أيدينا الآن كتاب واحد يتضمن على الباحثين جميعا وقد اعتمدنا في دراستنا على التفسير الذي حققه الأستاذ محمود محمد شاكر وأخرج به عنوان "طبقات فحول المشركين" وهو ينقسم إلى قسمين الأول في الجاهلية والآخر في الإسلام. وكان ابن سلام ألف كتابين متتاليين في طبقات المشركين أم كتابا واحدا نائنا نرى منهجه في ترتيب الدلائل واحد لا اختلاف فيه ولا تفسير سوى أنه أفاض في الجانب الذي ذكر فيه طبقات الجاهليين وأدلى به علم آرائه النقدية وعندما أخذ في ذكر طبقات لدون المسلمين أورد كثيرا من أخبارهم وتواريخهم والأحداث التي وقعت لهم وكأنه كان قد استرجع إلى أن ما يريد أن يقرره من مبادئ قد ثبتت في الأذهان من حديثه عن الجاهليين وتعليقه للموضع الذي وضح فيه كل ما مر منه ..

ابن سلام والنقد الأدبي :

يتضح التراث النقدي لابن سلام في الآراء التي شرحتها في ثنايا كتابه "طبقات المشركين" وفيما عدا ذلك لانكاد نجد لابن سلام آراء نقدية في المصادر الأدبية الأخرى وقد أورد صاحب الأغاني وكذا صاحب الموضح بعض التعليقات النقدية لابن سلام إلا أن معظمها مذكور في كتاب الطبقات .. ومن ثم فإن حديثنا عن تراث ابن سلام النقدي سيكون محصورا في دراسة كتابه طبقات المشركين ونستعرف من غسالة ذلك الكتاب على مكانة ابن سلام في النقد وأثره في الفكر النقدي عند العرب وموقفه من نقاد المدرسة البصرية .. وتتكون دراستنا لكتاب طبقات المشركين مكانة ابن سلام في النقد بحلة عامة موزعة على الجزئيات التالية :

- (١) تحليل مقدمة طبقات المشركين وما إن أوجعها وتقييم ما فيها من آراء نقدي الأدب والنقد ..
- (٢) منهج ابن سلام في ترتيب الطبقات والملاحظات الخاصة عليه والفتاوى النقدية التي استند إليها في مؤلفه ..
- (٣) مكانة ابن سلام بين نقاد المدرسة البصرية وأما الشبه في الآراء السلي سابقا في كتابه ..
- (٤) ما أخذ الباحثين المحدثين على كتاب ابن سلام وموقفنا منها ..

أولا : مقدمة طبقات ابن خلدون

عبد الرحمن بن سلام كتابه مقدمة تعد غاية في الأهمية إذ تصور الفكر
النقدى لابن سلام وتوضيح الأبعاد الحقيقية للأثر الذى أحدثه في دراساته
الأدب العربى والتفاهيم التى أرساها لعنه بعدد من العلماء والباحثين . وتعلل
القيمة الكبرى لمقدمة الطبقات من وجهة نظره بـ ترجيعه الى أن ابن
سلام عبر فيها عن آرائه الذاتية ووجهة نظره المستقلة ولم يكن فيها تأصيل
أوراء ولا آراء غيره من العلماء كما هو الحال في كثير من الأعلام التى ساقها على
سلب كتابه كما أن مقدمة الطبقات تسجل لابن سلام سبقه الى إثارة عدد
من القضايا التى لم يدرس لها أحد من العلماء قبله والتى أستاذت بها عدد
الدارسين للأدب ونقدت من بعد . . . وكان ابن سلام في مقدمة الطبقات أول كاتب
عربى يدرس للتراث الأدبى وتكون له تراث عامة عليه فهو أول من حاول
أن يفسر لنا تراثا موهبا عن حياة العصر القديم وتاريخه وديارته وتقسيمات
الشعراء وانتماءاتهم ونقش العمر في القبايل العربية وتأثير البيئة العقلية
في الحركة وضمنا . . هذا بالإضافة الى القيمة الرئيسية التى تتمتع بها
المقدمة وهي قضية تحقيق التراث العربى وبحث «أمة الافتخار في العصر
القديم من تتبع الصوامع الموهبة فيها والأبواب التى دخن الاضطراب في التراث
العربى من خلالها . .

بدأ ابن سلام مقدمته بأثار قضية انتماء العصر ولا حظ أن هناك أعلاما
شروى وتنسب الى انتماء لاخير فيها ولا فائدة من تداولها وأثار في ثنايا كتابه
الى أنه يدرك القيمة الحقيقية للأثر الذى وعى القيمة الفنية التى يصبغ العصر
بدونها عديم الفائدة ولا يستأهل أن يروى أو يتداول يقول ابن سلام :

« وفي العصر العباسى فتعلل موضوع كبير لاخير جيد ولا حجة في ترتيبه
ولا أدب يستفاد ولا معنى يستفاد ولا مثل يخرى ولا حجة رائج ولا حجة
ولا عصر مصحح ولا تنسيق مستطرد » (١)

ووضح ابن سلام أن السبب في عيب هذا النوع من العصر المبتنع أن
الناس يتساحرون في غير الأعمال عن غير أهل الهادئة وأنهم لا يميزونها على

العلماء بالبحر ولعله بذلك كان ينه على الأمن القومية للتحقق من التراث الشعري والتثبت من نسبته إلى قائله فان أخذ البحر عن أحد البادية ضماناً يمسد لصحته وعرفه على العلماء به كهيل بتحرير صحيحه من مقيمه يثابره ابن سلاّم عن البحر الموضي: * وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أحد البادية ولم يسموه على العلماء وليس لأحد إذا ألقى أهل العلم والرواية الصحيحة على أيديهم شيء منه - أن يقبل من صحيفة أو يروي عن محقق (١)

ويستطرد ابن سلاّم فيقرر أن تحرير الجيد من الردى في البحر صناعة لها حذاقها والبدوا بها مثلها مثل غيرها من المصناعات والمخبرات وبعد ابن سلاّم ابن من أوضح هذه القضية وشرحها شرحاً وافياً وألقى في التذليل عليها وذكر الأخطاء التي تفردها في الأذهان يقول:

* ولله بحر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كمناثر أصناف العلم والمصناعات منها ما تشقه العين ومنها ما تشقه الأذن ومنها ما تشقه اليد ومنها ما يشقه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة من يصره ومن ذلك الجبهة باندثار والدرهم لا تعرف بحدتها بلون ولا معنى ولا باراز ولا مستقيم ولا منة ويصرف الفائد عند المعاينة ليصرف بهر بها وزاغطها واستوقها وطرفها... وكذلك بحر الرقيق فتوصف الجارية ثمان : نائمة اللون... نقية الثغر حنينة العين والأنف جيدة تشبه الريفة اللسان فتكون في هذه الصفة ستة دينار وستين دينار وتكون أخرى بألف دينار وأكبر لا يجد وأصغرها من هذا على هذه الصفة... يتال للرجس والحرارة في القراءة والغناء : أنه لندى الصوت والحلق أن المصوت دلوس النفس مصيب اللحن ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد يصحسرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بأسفة يشتم إليها ولا على يوقف عليه... وإن كثرة المدارس لتعدي على العلم به فكذلك البحر يعرفه أهل العلم (٢)

ولمنا نستفيد من مآلة ابن سلاّم هذه أنه يؤكد على ضرورة عدم التمسك عن تجربة ورأية بأهل الفن الشعري وشجرات الاجادة فيه كما أنه يشير إلى أن المدارس والاكساب قيمة كبرى في تنمية الملكة النقدية وإثرائها وهذا ندركه أنما نمش مع الظاهير النقدية الحديثة ونقترب منها في ذلك الجزء المهم من مقدمة الطبقات...

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦

(٢) طبقات الشعراء ص ٨

ويؤكد ابن سلام ما ذكره عن معرفة بعض الحكماء بالأميين والزائف من الأسماء
من ناحية والبيد والردى فيها من ناحية أخرى بهاتين الحكايتين عن غلب الأحرار
يقول : " قال خالد بن يزيد البجلي لخلف بن حيان أبي محرر - وكان حبيب
الحكماء بالشمير يروي وقوله بأى شيء ترد هذه الأسماء التى تروى ؟ قال له :
من غير ما تعلم أنت أنه موضوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفنتعلم
فى الناس من هو أعلم بالشمير منه ؟ قال : نعم . قال : فانتكر أن يحلوا صميم
ذلك أكثر ما تعلمه أنت .

وقال قائل لـ خلف : إذا سمعت أنا بالشمير استحسنتها أبالى ما قلت فيه
أنت وأصحابك قال له : أفأخذت دهرها فاستحسنتها قال له المرافعة ردى
بلى يفكر استحسانك له ؟ (١)

وأين من كان عيبى النثر سليم الاستدلال ولا يحتاج حينما حصلت
ظاهرة الافتحاش فى الشعر العربى وتبين ملامحها المختلفة وغلب من ذلك النثر
حصر أميائها حيان عوامى النثر ودافعه وحى شائسة عوامى رئيسية :

أولها : المؤرخون وعلما السير . وهؤلاء وضعوا الأسماء أو اشتقوها دون تمسك
أورواية صحيحة وذلك بقصد الإغواء من الحقيقة على ما يوردته مسين
أخبار وتواريخ وقد حصل ابن سلام فى هذا الجانب حطة شديدة على
محمد ابن اسحاق بن يسار أحد من كتب فى السير والمغازى والذي روى
عنه القدر الأكبر من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومغازيه وأخبار
انصراف الأندلس . يقول ابن سلام : " وكان من أئمة الشعر وهنسيه
وحسن كن غلب منه محمد بن اسحاق بن يسار مولى آل مخزومة بن عبد العزى
ابن هذيل وكان من علما الناس بالسير فقبل الناس عنه الأسماء وكان يستدر
منها ويقول لأعلم بالشمير أى به فأحله ولم يكن ذلك له عذرا فكيف فى
السير أسماء الرجال الذين لم يقرطوا ممر قط وأسماء النساء فنبلا بممن
الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد ومجد فكيف لهم أسماء كثيرة وليست
بشمير اما هو كلام مؤلف بمقدود بقواف " (٢)

(١) المرجع ص ٨

(٢) طبقات الشعراء ص ٢

ولم يترك ابن سنان ذلك الشجر الذي أورد ابن اسحاق فأما الحجة على
بطلانه فساد من الوجوه التالية :

١ - ان هذه الأسماء البائدة التي نسب ابن اسحاق اليها الأسماء قد انتقلت
لغيرها عنا ولم يعلنا من قبله * يقول ابن سنان ناعرا على ابن اسحاق
" أفلا يربح إلى نفسه (يعني ابن اسحاق) فيقول : من حسمه من
هذا الشجر ؟ ومن أداه فقد آتاه الله من رزقه تبارك وتعالى يقول :
(فتألف دابر القوم الذين ظلموا) أي لا بقية لهم وكان أيضا : (وأبى
أعطاه عاد الأولى وشجرا لها أبى) وكان في عاد : (فهول تولى لهم مسكن
باقية) ؟ (١)

ب - ان لغة هذه الأسماء البائدة لم تكن هي لغة العرب الباقية التي روى بها
المعمر * وثق ابن سنان في هذا الموضع بقائلين : الأولى ليونس بن
سنان * يريب يقول فيها : " أو من تألف بالمريية ونعى لسان أبيه اسماعيل
بن ابراهيم علوات الله عليهما " (١) والأخرى لأبي عمرو بن العلاء يقول فيها
" ما لسان حمير وأقامي اليمن اليوم لساننا ولا عربيتهم بهرثينا " (٢)
ثم يقول ابن سنان " فكيف بنا على عهد عاد وشجر مع تداعيهم وروايته " (٣)

ج - ان الشجر العربي قريب السند من الاسماء وهذا يدل على بطلان تلك
الأسماء المنسوبة إلى الموقنين في القدم * يقول ابن سنان :
" ولم يكن لأوائس العرب من المعمر الا الأبيات يقولها الرجل في
حادثة وأنا قصدت الفوائد ولعل المعمر على عهد عبد المطلب وحامد
ابن عبد مناف وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وشجر وحمير ومن " (٤)

وعلى أية حال فقد كان ابن سنان أو من تبعه على هذا الفساد في رواية
المعمر الذي نعت فيها أخته ابن اسحاق بن أسمار ليس لها من معمر الشجر
سوى العزى والتقية وهذا دفع كتاب السير فيها بعد إلى التشكيك في هذه الأسماء
والحذر من إثباتها * * * ولعل ابن سنان قد استلهم كثيرا من ملاحظات ابن سنان
فوضع تصحيحه وتصويب سيرة ابن اسحاق ويختصمها أن يدع جانباً ذلك المعمر
الذي يشكره أهل العلم بالهجر عروايته * وقد أشار ابن سنان إلى ذلك بمراسلة
في مقدمة كتابه حينما كان يقنع أما القاري منهجه في رواية ما يرويه من سيرة النسي
على الله عليه وسلم * * * يقول ابن سنان في انتباهية كتابه :

"وأنا ابن هاشم" الله تعالى في هذا الكتاب يذكر اسماعيل بن إبراهيم ومن ولد
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بعده وأولاده لا يذكرون... وشعاره
 ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة فلا يخفى أن هذا الحديث مروي عن
 الله صلى الله عليه وآله وسلم بطريق يمتنع ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب
 مما لا يحرر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ولا تزل فيه من القرآن عني...
 وأما ما ذكره ابن أبي شيبة في كتابه من أن اسم الله تعالى عيسى بن مريم (١)

والحقيقة التي تدعي بها من شبه الأسماء التي أوردنا ابن أبي شيبة
 في سيرته هي أن ابن هاشم أثبت طائفة من الأسماء التي لا يحررها أحد من أهل
 العلم بالمعبر وكانت له في حياته على بعض الأسماء التي أثبتها من رواية ابن
 إسحاق من حيث صحة روايتها أو نسبتها إلى قائلها حتى أن أسماء المسلمين التي
 قيلت في النسخات في الأسماء التي قيلت في غزوة حنين يعود ابن هاشم إلى ابن
 إسحاق :

"ولما من الله اسمركم من أمم حنين وأكن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 منهم قالت امرأة من المسلمين :
 قد غابت خير الله خير اللات والله أحق بالثبوتات

قال ابن هاشم : أنت تدعي بحسب أهل العلم بالرواية للمعبر :
 غابت خير الله خير اللات وخيله أحق بالثبوتات (٢)

وفي الأسماء التي قيلت في غزوة أحد يقول ابن إسحاق :
 وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال ابن هاشم : قالوا رجل من المسلمين
 من أحد غير علي على ما ذكر لي بعض أهل العلم بالمعبر ولم أر أحدا منهم يعرفها
 لعلي رضي الله عنه :

لاهم أن الحارث بن المسيرة	كان فيا رثا ذا ذميرة
أقبل في مهامه مهيمنة	كنيسة طلاء مدلهمة
ومن سيفه وطاق جسمية	يمضي رسول الله قيا شمسية (٣)

(١) سيرة ابن هاشم ج ١ ص ٢

(٢) سيرة ابن هاشم ج ٤ ص ٧٩

(٣) السيرة ج ٢ ص ١٥٤

وذكر ابن اسحاق أن حسان بن ثابت قال : " يشعرو بقتل عمرو بن عبد ود :

بقيتم صروا أحناء بالقيس	يشرب خمسى والحفاة تليسن
وحن قتلناكم بكن مهتس	وحن ولاية الحرب حين تمون
وحن قتلناكم بيد رفاً بهجت	سما ركم فى الهالكين تهبون

قال ابن هشام : وهو أحد العلم بالشمع يتكررها لحيان * (١)

وقال ابن اسحاق : " قال عبد الله بن رواحة يكنى حمزة بن عبد المطلب قال ابن هشام أنه مدنيها أبو زيد الأسارى لكعب بن مالك : -

بكت عيني وحن لهما بكاهما	وما يفتى البكاء ولا المهبسل
على أمد الاله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجن القيسيل (٢)

وبجيلة القول أن ابن سلام كان أول من وثقنا أنه كان من هذه الناحية الصغيرة الخطيرة من طوائف اعتقالات الشعر القديم وكانت حججه فى إبطال هذه الأسماء صها فى تخليص التراث الشعرى من غناء كبر لايت الى الأدب بأى صلة . .

ثانياً : وضع الشعر للتكرار والاختصار :

وقد لاحظ ابن سلام على عهدته - أن من عوامس اقتضائ الشعر ونسبته الى القدماء ما ونعت به من القائل من الاختصار حينما راجعت رواية الشعر القديم فاستقلت ما تبقى منه يقول ابن سلام :

" وكان الشعر فى الجاهلية ديوان علمهم وفنهم حكيمهم به يأخذون اليه يعمرون . . . قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فحجاء الاسلام فتشاكلت منه الحرب وشاعلوا بالجهاد وفرو قارص والبرز ولمت عيسين الشعر روايته فلما كثر الاسناد وجاءت الفتوح وانقضت الحرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤثروا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألقوا ذلك وقد هلك من الحرب من ملته بالموت والقتل فحفظوا أفس ذلك ونذهب عليهم منه كسبهم * (٣)

(١) السيرة ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) المرجع ج ٢ ص ١٤٨

(٣) طبقات الشعراء ص ٢٢

" قال ابن سني : قلنا راجعت السري رواية النضر وذكرها باسمها وأثرها استقر
 بحديثي الملائكة عمر بن الخطاب ومالك بن أنس وذكر قائلهم : " لأن قول قلت وقائلهم : وأما
 وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقف والأشعار فقالوا على أنهن عمرائهم في كانت الرواة
 بعد لزادوا في الأشعار " (١)

وعند ما تحدث ابن سني في : إنياته من حسان بن ثابت بين عمراء القسري
 المصيبة قال :

" أعمارهم حسان بن ثابت وهو كبير العمر جيد وقد حصل عليه
 ما لم يحصل على أحد لما تهادنت قريش واستتب وضعوا عليه أعماراً كثيرة
 لا تحصى " (٢)

ثالثاً : شكيب الرواة وحديثهم :

وهذا هو الثالث والآخر من الحواش التي أرجع إليها ابن سني
 في المصيبة أن حسان بن ثابت والاضطراب في روايته وقد مر ابن سني بين تحقيق مسند
 وضع الرواة أحد ما عني لا يدركه إلا من له أحاطة بأشعار العرب وخبرة بالقول
 بفن الرواية وهو ما يضمنه أهل البادية بقصد الاكتساب والنشأ المبدي بعد أن
 أدركوا قيمة هذه الأعمار وحسن الصلة على أخذها من أفواههم . وذكر ابن
 سني في هذا العدد أن تلك الأعمار التي يخصصها أهل البادية من أبناء العرب
 تلك على الرواة ولا يستعينون بها إلا الحذاق . . . يقول ابن سني :

" . . . وليس يمكن على أناس العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع
 السوادون وإنما حصل بهم أن يكون الرجل من أهل بادية من ولد العرب أو الرجل
 ليس من ولدهم فيمكن ذلك بحال الامكان " (٣)

ثم يقول ابن سني تأكيداً لبقائه هذه : " أخبرني أبو حمزة أن داود بن حمز
 ابن نيرة قدّم البصرة في بعض ما يقدر له عهد في الليل والبصرة فترى الشبيبة
 تأتيه أنا وابن نجر . . . فاردى فقال لها عن عمر أبيه ثم وثقنا له بخارجة
 وكنا . . . بعته فلما شد عمر أبيه جهم زيد في الأعمار وبعثها لنا وأذا كـ
 دون كلام شعر وإذا هو يحتذي على كذاه فيذكر الموضع التي ذكرها ثم والوقائع
 التي شهد بها فلما توالى ذلك علمنا أنه يقتله " (٤)

أما النقص الآخر من وضع الرواية فكان يقصد فيه إلى العهد، بالتراث والتأثير من
المقدرة على محاكاة أعمار القدماء وإحياء محبى الأدب ومناقاة العصر القديم
وكان حماد الراوية ويملك الأحصر وأغرابهما من الرواية الأوائل سببا في شيوع ذلك النوع
من الاضطراب في العصر القديم . . . يقول ابن سلام : " وكان أبو منجب
أعصار العرب وسائر أجدادها حماد الراوية وكان غير موزون به كان ينقل شعر العرب
غيره ويحمله غير محرم ويؤيد في الأشعار قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن موسى
قال : قد عاصد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها ثقلان : ما ألفتني شيئا فعاد
اليه نأشدهم القصيدة التي في شعر الحليفة مدح أبي موسى فقال : ويحك يمسح
الحليفة أبا موسى لا أظن به وأنا أبو منجب شعر الحليفة ولكن دعها تدرب في النصيب
قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفي قال : كان
حماد بن عديقا مدافعا فحرم على ما قبله يوما فقلت له : أفل على قصيدة لأخوالى مسمن
بنى سعد بن مالك فتألفا على :

ان الخليط أجد متقلبه وكذلك زمت قدوة لبلسه
عهدى به وفى الثقب قد عفا عهدى بها بغيرهم دله

وهي لأعشى عهدان . . . وسمت يومئذ يقول : المسجب لمن يأخذ عن حماد كان يكذب
ويلحدن ويكسر * (١)

ومعكذا يقع ابن سلام تصويره لأهماد في المأثرة الموضع في العصر القديم ويتبع أساليبها
والعوامل التي ساعدت على ثنائها وشهر إلى كيفية تغليب الأعمار القديمة وتنقيتها
من الزيف والتخليط الذي داخلها . . .

ولمست قضية تحقيق التراث هذه - هي كن ما اعتلت عليه مقدمة طه حسين
الشعراء لابن سلام فانه يحسها إلى جانب ذلك مسائل مهمة تعد من بواكير المحرمات
الناجحة في دراسة الأدب العربي دراسة وأعية فقد اعتلت المقدمة على أول محاولة
للتأريخ لأدب العرب وأول مجموعة من النظرات العامة في التراث العربي والتعرف على
خيائس ذلك التراث . . . ولعله قد اتضح ما تقدم أن ابن سلام كان يؤرخ للشعراء
العربي ويتبع لتراخي القضية التي مر بها حينما أشار إلى أنه لم يكن لأوائل العرب من
الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة وأن القصائد لم تكن إلا على عهد

بعد الطلب بن عهد مناف .. وبين لنا ابن سنان في المقدمة بهيات الشعر العربي
وورث لتقلبه في القبائل حتى عدوه يقوى :

* وكان شعر الجاهلية في ربيعة أولها المهلهل وأمرقمان ومعد بن
مالك والرفعة بن الصمد وعمر بن قميصة والحارث بن النزة والطس والأعشى والسيد بن
علي بن تحون النصر في قيس فنهج النابغة الذبياني ... ولبيد والناخلة الجهمي
والحطيئة والفهم وأبو مزور وخداير بن زهير ثم آل ذؤانق ثم عيسى بن قيس بن قيس (١)
كذلك امتلأت مقدمة الهجاء على أسماء الأئمة لابن سنان على نزقات الشعراء القدماء
والأشعار السائدة في شعر بعضهم يقول ابن سنان :

* كان من الشعراء من يتألم في بهليته وتعطف في شعره ولا يستعير (١)
بالواحد ولا يتكبر في الهجاء وشعره من كان يتعير ولا يبقى على نفسه ولا يستعير منهم
أمر القيس قال :

مثلك جهلي قد نزلت وهرقت
فألهيت بها من ذي تاء محسول
وقال :

دخلت وقد ألفت لنور ثيابها
لدى السر الالبسة المتفلسل
وقال : سمعت اليها بعد ما نزلت
سمو حباب الماء حالا على حال
منهم الأعشى قال :

فأثقلت أرواحها على يحوطها
حتى دنت إذا الظلم دنا إليها
وقال :

وأغررت عيني من الغنائس
تأما تكاحا وأمسسا أزن
وقال :

وقد أنقى الكعب المسبورا
من مفرط وأعشى القسبارا
وقال :

وردانة بالليل مفرا عند نسبا
لجس النداء في يد الدج مفتق
وقال :

وقد أجال عرب البيت فقلقت
وقد يعاذر مني ثم ما يشعل
(١) الحليقات ص ٣٤

(٢) يستعير : عان في القاموس بفتح الهمزة كذا وقال في رث ولم يجره معنى الكلمة هنا اختلاق
أحاديث ومعارف مزعومة من القدماء .

وكان المزدني أقوم أدنى الأصغر في هذا الفن قال :

هناد لثاني من ثانين قلمية
فلما انشوت ريتني بالارز قالنا
فقلت اربعوا الأصحاب لا يفلنوا بنا
وليت في اعجاز ليس أيساره
وأجبت في الفرس ابن لوس وأجبت

مخالفة دوني عليها دكا (١)

ثانيا : من ابن سلام في طبقاته :

أوضح ابن سلام في مقدمة كتابه المسمى الذي سيجري عليه في تصنيفه
للمعرا " ووضع كثر طبقة منهم في المرتبة التي تناسب مع نتائجها الشعرى بنسب
على الناحيتين التي ارتضاها والتي سنعرض لأنواعها وتعرف على طاله الأولوية
منها حسب استخدام ابن سلام لها يقول ابن سلام في المقدمة :

" فقبلنا المعرا من أعلى الجاهلية والاسلام والمخزومين فنزلناهم
منزلة لهم واحتججنا لكن المعرا ما وجدنا له من حجة وماقاله فيه العلماء " (٢)
يقول في المقدمة أيضا : " ثم اننا اقتصرنا - بعد الفخر - والنظر والفرواية عن منى من أهل
العلم إلى ردهم أربعة على أنهم أمراء العرب طبقة ثم اختلصوا قلوبهم بـ
وسبق في اختلاصهم واعتاقهم ونسب الأربعة وذكر الحجة لكن واحد منهم " (٣)

سار ابن سلام على هذا الخوال فذكر من معرا " الجاهلية معر طبقات
تتبع من طبقة على أربعة معرا " ومن معرا " الاسلام مثل هذا المسمى
ودكر في طبقة أصحاب النرائي أربعة معرا " وفي طبقة معرا " القرى العربية
مكة والمدينة والطائف والبحرين - اثنتان وعشرون معرا " وفي طبقة معرا " اليهود
ثمانية معرا " وهذا يبلغ مجموع المعرا " الذين تملطهم طبقات ابن سلام
أربعة وسبعين معرا " . ومع ابن سلام قد أوضح في كلامه أنه يميز بين
معرا " الجاهلية والاسلام والمخزومين فانه لم يفرد المخزومين في طبقات خاصة
بهم بل فرقهم بين سائر الطبقات نوضح - على صيغ المثال : الجاهلية ومكعب
ابن زهير والثابتة الحمدي وليد بن ربيعة وعمر بن قاسم في طبقات الجاهليين

وضع حسان بن ثابت في طبقة «عمر» انقضى الصلوة ووضع محمد بن هاشم
الرياحي في الطبقة الثالثة من المسلمين ..

وهي آية حان نسرى أن هذا الضم الذي نظم ابن سلام على أساسه
الشمراء كان محصوراً عند الحديثين على كتابه الطبقات إذ أن هذا التفسير
الضيق في ظاهره قد اختلف ابن سلام في كثير من الأحيان إلى الاختلاف بالتأليف
الفنية التي ينبغي أن تراعى في مجال النقد الأدبي .. وسأخذ الآن فسر
استمران القاييس النقدية التي يشتمل عليها كتاب الطبقات مرةً كانت سبباً
استخدمه ابن سلام في حكمه على الشمراء والشمراء ثم ما رواه عن تفسيره
من نقاد الشهيرة وذوي المصنفات فيها ..

القاييس النقدية في طبقات الشمراء :

ليس لنا أن نعد ما جاء في كتاب الطبقات من قاييس نقدية مثلاً
لذكر ابن سلام النقدي فقد كان يمتد هذه القاييس موطاً عن غير ابن سلام من علماء
عصره ولعلنا من المصور أن نميز بين القاييس التي امتد إليها ابن سلام
أو ارتضاها والقاييس الأخرى التي رولها أو نقلها لأنه لم يكن يعلق في الغالب
على الأحكام النقدية التي يروها أو يوضح وجهة نظره تجاهها وفي ذلك فهناك
قاييس شاذة وكثيرة وأساسية في طبقات ابن سلام وهي تلك التي اعتمد عليها
في ترتيب الشمراء وفي حسب أولويتها كما يلي :

أ - كثرة النقاد المصورين :

وهذا أهم قاييس النقد في بحاث ابن سلام وقد أخرج بالشطر
إليه كثيراً من الشمراء المبرزين لقلة أسماءهم فقد قال عن الأربعة
الرابعة من شعراء «عمر» ^{الجاهلية} وهم أربعة رطب فحول شمراء قلنا شعراء
بأيدي الرواة (١) وهم : لطفة بن السيد وعبد بن الأبرص ولفعة بن عبد
وعدى بن زيد " فاما طريقة نأشعر الناصب واحدة وهي قوله :
لخولة الخلال بريقة شهيد " فثبت بها أبي وأبى إلى النقد " (١)
" وعبد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة وعمره مضطرب ذا عيب
لا أعرف له الا قبله :

أشهر من أصله ملحوظ قالقاهيات فالذات ملحوظ
ولا أدري ما بعد ذلك * (١)

* ولا يري عبدة شدة روائع ديوان لا يفوقهم من عصر :

ذات من الشعر وإن في كبر مدح لم يكن كما حق وأرى هذا التجنيب
والثانية :

ملحوظ قلب في الحسن ظروف بعيد النباب عصر حان مايب
والثالثة :

من ما علمت وما استودعت يكون أم حيلها إذ تأتاه اليوم منور * ٢ *

وقول ابن سلا عن الأسود بن يضر - من الماهقة الخامسة في
البيانلية :

* وكان الأسود باعرا فحلا وكان يكر التفل في الحرب يباهونهم
فيذم واحد وله في ذلك أعمار وله واحدة رائمة لاحقة بأجود
المنزل وكان شفعها بخلها قد مناه على مرتبه وهي :
تأخر الخلق وما أحمر في سادى والله محضو لذي وسع سادى (٢)

وقول ابن سلا عن الماهقة السابعة من البيانلية :

* أرملة رهط محكمون مقلون وفي أعمارهم قلة فذا الذي أغرب * (٣)
سنة بن جندل وحسين بن الحجاج المرى والمتلى جرد بن عبد المسيح
والسبب بن علي *

باب تعدد الأقواس الشعرية :

وهذا التقدير على شيا من الكثرة وإن كان ابن سلام قد مدح على
الاجادة في الفن الواحد والتوفر عليه * فقد قدم كثيرا على جهمس
فوقى * كثيرا في الماهقة الثانية من شعره المراء الاملا وومن جهمس
في الماهقة السادسة وقال عنهما :

* وكان لكثير في التشبيب نصيب وآخره وحسين قد ر عليه وعلى أصحاب
النصيب جميعا في النسب وله في فنون الشعر ما ليس لجين وكان جميل
بأدق الصباغة وكان كبير يتناول ولم يكن عاشقا * (٤)

(١) الماهقات ص ١١٦ (٢) الماهقات ص ١١٧ (٣) الماهقات ص ١٢٢

(٤) الماهقات ص ١٢٧ (٥) الماهقات ص ٤٦١

فأين سلم يقدم "كثيرا رغم أنه يعترف بتفوق جميل عليه في التسيب
وأنه كان متقبلا وليس عارفا أو مباد في النهاية كجميل لأن الكثير في فنون
النصر مألوف لـ ٥٠٠ عندما ذكر ابن سلم الأغشى في البداية الأولى
من فنون الجاهلية الحق لذلك بأنه كان: "أكثرهم عروضا وأذهابهم
في فنون النصر وأكثرهم طولة بيده وأكثرهم ندحا وحجرا ونالوا ووصفا" (١)

جودة النصر:

وهذا ثالث المقاييس التي رتبها ابن سلم النصر بالنظر إليها
وإن كان أغبره عن الكثرة وتعدد الأغراض وقياس الجودة وهذا هو
في كتاب ابن سلم لأنه مقياس على يحتاج إلى إيضاح وتبويب فقد حكم
على بعض الأسماء بأنها جيدة أو محكمة ولم يوضح لنا أبعاد الجودة
لها ٥٠٠

تلك عن المقاييس الرئيسية في طبقات ابن سلم وتبقى بعد ذلك جودة
مقاييس أخرى نراه يستخدمها أو ينقلها عن غيره ومنها:
(١) ابتكار المذهب المصري:

بمعنى أن يهتق السامع إلى اختراع تقاليد فنية في عيافته
المصرية يستحسنها الجمهور المتذوق وتشتهر النصر فينهجون نهجه
وهذا ثاني ما يهتق وتسير مذهبها شعريا راسخا ٥٠٠ يقول ابن سلم فمن
الاحتجاج لأسبقية امرئ القيس وهو على رأس الحقيقة الأولى من فحصول
الجاهلية:

"فاحتج لأمري القيس من يقدمه قال: ما قال ما لم يقلوا
ولكنه سبق العرب إلى أميا ابتدعها استحدثتها العرب واتهمته ليهمسا
النصر فيها استيقاف صحبه والبكا في الديار رقة التسيب وقسرب
التأخذ وشبه النساء بالذئاب والبيت وشبه القيس بالمقيان والعصا
وتيد الأوبد وأجاد في التثنية وهل بين التسيب وبين المني" (٢)

(١) الطبقات ص ٤٤

(٢) الطبقات ص ٤٦

(٢) الجزالة السببية :

وبهذا مقياس شائع في نقد المدرسة الجسدية في تلك المدرسة
وقد رأيناه ضمن المقياس التي نادر الأسماء في الشعر على أنها
وإنه هنا في طبقات ابن سلا، ضمن شهادات الاجادة والحكم على
الشاعر بالتشويق ... يقول ابن سلا، من الغائبة :

" وكان من احسن الغائبة ... فان احسنهم ديباجة ...
واكثرهم رونق كذا، وانزلهم بيتا " (١)

(٣) المسهولة والنسيج :

أدركنا ابن سلا في طبقاته على أنه يؤثر الميافة السهلة
المريحة وكثر الضموم والتشديد يقول عن الشاعر :

" تأمل الشاعر فكان شديد متون الشعر أشدأ من كلام
فقيه كرامة (٢) ولبيد أسهل منه شاعرا " (٣)

وحتى ابن سلا على شعر الغائبة اندهشوا فيقول عنه :

" ... كان شعره كذا ليعرفه شلف والبنات على المتكلمين
أصبح منه على الشاعر والشاعر يحتل الى البقاء والصورة والقوافي
والمتكلم مطلق بتحرير الكلام " (٤)

وحين نذكر ان ابن سلا قد فطن الى حقيقة غريبة مهمة في
الميافة الشعرية فان الالهة في الميافة تكمن في أن يوسع
الشاعر في التعبير عن الضموم الذي يريد في بناء سهل وبهارة مواتية
بحيث لا يجد المتلقى أو السامع أية صعوبة في فهم ما قصد الشاعر
اليه ويستشف من شأناه فحركات النفس الشاعرة التي يعرفها الشاعر
في أسلوب سهل وبهارة ناعمة ...

(١) الطبقات ص ٤٦

(٢) الكرامة يقال في القاموس ليس والانقباض والمراد بنا هنا ونة الألفاظ وتحريرها ...

(٣) الطبقات ص ١١٠

(٤) الطبقات ص ٤٧

(٤) الأبيات المظلمة :

اسمطع ابن سلام هذا القياس في الحكم على نكاح الشصرا
الاسلميين جرير والنزدي والأعطان .. والبيت المقلد كما عرفنا
ابن سلام هو " البيت المسمى بنصف البشير الذي يفرق به النش " (١)
وقد عد ابن سلام من مميزات الناصرية أن يكون للنامر حظ كبير من
الأبيات المظلمة التي تنسج على ألسنة الناس وتري .. ترى الأسمان
ولعله لا خلاف في الحقيقة الأولى من حون الباطنية أن الأعمى ليست له
أبيات مظلمة كآبيات أصحابه فنه على ذلك .. يقو عن الأعمى :

" لم يكن للأعمى بيت تادر على أنواء الناصري مع كثرة شعوره
كآبيات أصحابه " (٢)

هو صاحب النوش قال :

" قال محمد بن سلام : انتمنا جماعة نقول نكاح و حدق الفرزدق
وقول نكاح و حدق جرير قاب قتلنا لعمري اذهب لنا نحن مقلدات الفرزدق
ونكاح لآخر اذهب لنا نحن مقلدات جرير .. فجا .. صاحب الفرزدق فأخبرنا
صاحب شعر الفرزدق وجاه .. هذا لنا نحن المقلدات كانت مقلدات جرير
أكثر من صاحب الفرزدق " (٣)

وعند أشعة للمقلدات التي أهدوا ابن سلام لنقطة لحنون
الاسلميين :

من مقلدات الفرزدق قوله :

وكنا اذا البهار صرغده .. غريشاء حتى تستقيم الأخساد
بقوله :

وكنتم كغضب السوء لعارأي ما .. يمانعه يوما أحان على السد
بقوله :

أحاننا تزن الجبان رزائة .. ونكاحنا جانا اذا ما نجهد
بقوله :

تري كن مظلوم الينا فقراره .. يهرب منا جهده كن .. السد
بقوله :

تري الناس ما يرتابسون علينا .. وان نحن أمانا الي الناس وقنا (٤)

(١) انباكات بره ٢٠ (٢) النباكات ٤٠ (٣) النوش ١٨ (٤) الطباكات ٤٠

وفي حديث ابن سلام عن جرير قال : * وسألت الأندلسي * عنهما أي
جرير والفوز في - فقال بروت الشعر أربعة : شعر وديح ونسيب ونجاء
وفي كليها غلب جرير * في الفخر في قوله :

إذا غضبت عليك بنو شيبان حسبك الناس كلهم غضايبا
وفي النسيب قوله :

فقدش الطرف أذاك من نعيم فلاكمها بلمحت ولا كانهما
وفي النسيب قوله :

ان النسيون انتهى في لرفها هو قتلنا في لريحين قتلتنا * (١)

بعد ابن سلام من ملذات جرير غير هذه الأربعة أبياتا كثيرة منها :

لا يفت القرناء أن يشرقوا لين يكو عليهم ونهسار
وقوله :

لا أضمن قولي نقى مرثية انى أرى الدهر ذا نقى وامرار
وقوله :

أنا البازي المطر على نصير أريج من السماء لها اربابها (٢)

بعد من ملذات الأخطى قوله لجرير :

يا ابن العرافة ان على اللبدا قن اللوك وككا للأفلا

وأخرج السلفي عن خليله حتى وردن جبي الكلاب نهالا

فانمق بضائك يا جرير فانما يتك نفسك في الخلاء فسلالا

منته نفسك ان تكون كد امرئ أو أن توازن حاجبا ونفسالا (٣)

وقوله نفاذ بن عبد الله بن أسيد :

أبي عبدك المسجون الا عذبة وكناك الا نائلا حين تفسال (٤)

ونذا النقياس الذي اعتد به ابن سلام في طبقاته يفكر نسبا

بما كان مشهورا في بيئة علماء البصرة في القرن الثاني من الالهة

بيت القصيد . وقد أشرنا الى ذلك في حديثنا عن أدوار النقيد

ولكننا نقالة حماد الراوية في تفصيل شعر النافذة بسبب الاكتفاء بالبيت

الواحد من شعره ونصف البيت من شعره . ونكرر هنا ما قلناه سابقا من أن

ذلك النافذة في نقد الشعر لا تنتمي مع النافذ في النقدية الحديثة

التي تنظر الى جملة القصيدة على أنها بشية ننية متكاملة لكن بيت فيديسا
قيمة الجزئية على أساس ما يؤديه في القصيدة من غرض تكمله الأبيات
الأخرى ليستمكن من مجموعها في النهاية الأثر الأكبر بها يحل محل
من ما آمن وما يخفى به من أحاسيس وخلجات ..

ملاحظات عامة على طبقات ابن سنان :

من السمات والملاحظات العامة التي لاحظناها على طبقات ابن سنان ما يأتي :

أولاً : كان ابن سنان متأثراً لكثير من الأحكام النقدية التي أدرجها علي السمرائي
وكان متأثراً في توجيهه لها بالآراء السائدة في بيئة البصرة بحيث يمكن
أن نجد كتاب الدلائل مثلاً لآراءه النقدية الصادرة في بيئة البصرة
حتى السمر الذي ألف فيه وهو بداية القرن الثالث الهجري
ففي حديث ابن سنان عن أبيه الأولى من نحو الجاهلية يقول :

" أخبرني يونس أن علماء البصرة كانوا يقسمون أمراً القيس بن حجر
وأهل الكوفة يقدمون الأعشى وأهل الحجاز يقدمون زهيراً . وأخبرني
يونس كالتصحيح أن ابن أبي اسحاق كان يقول : أمير أهل الجاهلية مرقع
وأمر أهل الإسلام كثير ولم يقبل هذا القول ولم يسمع (١) وعند مسامحة
يتحدث عن أفضلية كى ساعر من عددهم في الطبقة الأولى من أصول
الجاهلية يقول :

" فالحق لا يرى القيس من يقدمه قان : ما قال ما لم يقولوا ولكنه
سبق العرب إلى أدياء ابتدعوا استحدثتها العرب واتهمته فيهم
الأمراء الخ " (٢)

" وقال من استحق للناهضة : كان أحسنهم ديباجة شعر وأكرمهم
روى كلام وأجزلهم بيتاً " (٣) وقال أحد النثر كان زهير أحسنهم
شعر وأبعدهم من سجع وأجملهم نثر من المعنى في قليل من النظم
وأبدعهم بالذمة في النثر " (٤)

" وقال أصحاب الأعشى : هو أشعرهم عربياً وأدعاهم في نفسهم
الشعر وأكرمهم طولة جيدة " (٥)

(١) الطبقات ص ٤٤ (٢) الطبقات ص ٤٤ (٣) الطبقات ص ٤٤ (٤) الطبقات ص ٤٤

محمد بن يزيد ابن سنان آراء العلماء وأنوالهم في الدليقة الأولى
من الجور الدليقية يعني دون أن يبالغا على رأيه هو أو وجهة نظره
في الشاعر المتقدم منهم مع أنه بدأ بأسرى القيس فقد ذكرها فليس
نهاية بقية انطبقات يقطع بأنه لا يقدم من ابتداء به . يقول :
* وليس تبدت لنا واحدا في الكتاب نحكم له ولا بد من مبتدأ * (١) كان
على ابن سنان إلا يلهي الحديث عن بدء الدليقة حتى يخلصنا
على رأيه مادام قد أشار إلى اختلاف العلماء في المقدم من شعرائها .

ثانيا : اشغل ابن سنان من دراسته للتراث الشعري عدة ظواهر أدبيّة
فراحوا منه عليها وكان له فضل الحق إلى احتياطها كما كان لسه
فضل السبق إلى تلك النثرات الصائفة في تاريخ الفن الشعري واستصحابه
لكثير من شعرائ العصر السري ومن أمثلة ذلك :
— تحليله لقلة شعراء بني القري العربية في حديثه عن شعراء القري
العربية يقول :

* وبالذات شعراء ليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي
تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والنضير أو غور يثيرون ويغار عليهم
والذي قلل شعراء قريش أنه لم يكن بينهم ناثرة ولم يحاربوا وذلك السبب
قلل شعراءهم . وأصل العوائف في طرف * (٢)

— لاحظ ابن سلام تأثير لغة الشعر بالبيئة التي تحيط بالشاعر فقال
عن عدي بن زيد * كان يسكن الحيرة ومراكز الفرافن لسانه وشعره
مخالفة لحسن عليه في كبر * (٣) . وهذا النوع من الظواهر الأدبيّة
التي يلحظها ابن سلام له أمثلة كثيرة في كتاب الدليقات .

ثالثا : كان ابن سلام لا يفرق عينا يفرج للشاعر أن يبين لنا موقفه بالنسبة لفنون
الشعر المختلفة والفن الذي يجهده فيها فهو يمين الشعراء المقاليم حين
روى الذين غلبوا في الهجاء وأنحسوا بعد لنا منهم الناهضة الجهمسدي
* غلبت عليه قبلي الأخيلية وأوس بن مخرم القريش وشان بن خالد * (٤)
ونسيم بن أبي بن يقين غلب عليه النجاشي ولم يكن إليه في الشعر
وقد ظهر في الهجاء فقال :

- إذا الله عادى أهل الروم ودقة فساد يبنى المجددين ومحمد بن مقل (١)
 والبعيث: * كان: انما فاخر الكلام بحر اللفظ وقد غلبه تحرير وأخطأ منه (٢)
 والرواق: * كان بعد هبة: روبر مثلها (٣) ودو الرمة: * لم يكن له حظ
 في الهبة: وكان مثلها (٤)

رأبها: لم يدع ابن سلام في إهنته أحدا من شعراء عصره وهو - كما نعرفه - غير
 حافى بالشعراء المجددين الذين خطوا بالشعر المهيى خطوات رائدة
 وأضافوا إلى أمراء السابقة أمجادا أروع وأغلى وكانت لهم تجديدات
 مشيرة في أقران الشعر ومخاتيه وأخيلته وموسيقاه الأمر الذي حصل كثيرا
 من الباحثين المحدثين على أن بعد ذلك العصر أزهى عصر الأدب
 العربي على الإطلاق * ومن يكن لابن سلام عذر في إقتال هؤلاء الشعراء
 غير أنه لاختار لنفسه أن يكون مؤرخا للأدب والتفد لا عائدا يبحث عن
 مظاهر البطان في انتحارب الشعرية التي وردت في أي عصر قيلت * *

والسبب في موقف ابن سلام من الشعراء المحدثين معروف فقد
 كان متأثرا بالفرقة السائدة في بيئة علماء اللغة تلك التي كانت تسرب
 للتدريج وتلذذ به وتزوى بالجديد وتحقره * وأغريب أن موقف ابن سلام
 من الشعراء المحدثين لم يتأثر على الرغم من أنه امتد به الزمن حتى
 أدرك بهافة المجددين منهم وتنافس إلى أسامعه - من غير شك - كثير
 من البريق النقدي الذي أثير حولهم * * وقد رأينا في دراستنا للقرات
 النقدي عند الأصمعي أنه اهتد بأدب المحدثين وتدوقه وكانت له فيه
 نظرات نقدية صائبة ومطلحة في دراستنا لكن من الجاحظ والمبرد أنها
 أيضا تدوقا شعرا محدثين ونقادا ومن ثم يبقى ابن سلام هو الناقد
 الوحيد - من نقاد المدرسة البصرية الذين يدخلون في نطاق دراستنا -
 الذي نرى على موقفه الدلائل من شعراء المحدثين * وهو موقف لا مبرر
 له ولا ضرورة تليجه * *

(١) المرجع ص ١٤٥

(٢) المرجع ص ١٤٥

(٣) المرجع ص ١٣٥

(٤) المرجع ص ١٦٢

خامسا : أفاد ابن سائر في ترجمته لبعض الشعراء في ذكر أخبارهم ووفائهم
وأصحابهم والأحداث التي مرت بهم، وتفتح ذلك من ترجمته للحطيئة (١)
والناخبة الجندی (٢) والتعريف بطلب (٣) وضاهي بن الحارث بن أوطاة (٤)
وسعيد بن كراع (٥) وسحر بن نيرة (٦) والفوزي (٧) وجبر (٨)
والأخطي (٩) وأبي زبيد الطائي (١٠)

سادسا : استدل ابن سائر في بعض العواض استطرادا على أن كان يفرج من حكاية
إلى حكاية وكلما ذكرته مسألة بمسألة انشاق روائعا وأخذ يدخل فبسي
تقا ميلها ومن سواد ذلك أنه عندما أورد مسألة عمر بن الخطاب - رضي
الله عنه - عن عمر للنخبة أن قال :

" أي شعرائكم الذي يقول :

قلبت يستحق أن لا تلمه على شعري أي الرجال السهيب

يستدل ابن سائر في الحديث عن هذا البيت فيقول : " ونسب
سعد بن زيد ماء تدعى هذا البيت لرجل من بني سعد بن مالك بن سعد
يقال له تنقة ... وأخبرني خلف أنه سمع أبا الهادي من بني سعد
يروون بيت النخبة للزبير بن بدر عن رواء للنخبة قال :

تعد والذئاب على من لا كلاب له وتبقى من يشا يستنظر الحامس
وهي الكلمة التي أولها :

قالت بنو عامر عاقلوا بني أسد يابون للجبن عمار لأفـ ...
ومن رواء للزبير بن بدر قال :

إن الذئاب ترى من لا كلاب له وتبقى من يشا يستنظر الحامس
ويروى تبقى وهذا البيت في قوله :

أبلغ مرارة بني عوف مقلدات

وسألت يونس عن البيت فقال : هو للناخبة أظن الزبير كان استزاده في ممره
كالشئ حين جاء موضعه لا يجتلبا له . وقد شمل ذلك العرب لا يردون
به السرقة قال أبو الصلت ابن أبي ربيعة التقي :

عك الكار لا قمان من لمن غيبا بها فمادا بعد أسـ ...

- (١) الطبقات ص ٩٨-٩٩ (٢) المرجع ص ١٠٣-١٠٤ (٣) المرجع ص ١٣٤-١٣٥
(٤) المرجع ص ١٤٢-١٤٣ (٥) المرجع ص ١٤٧-١٥٥ (٦) المرجع ص ١٧٤-١٧٥
(٧) المرجع ص ٢٥١-٢٥٤ (٨) المرجع ص ٢١٥-٢١٥ (٩) المرجع ص ٢٢٢-٢٢٣
(١٠) المرجع ص ٥٠٥-٥١٧

وقال النابغة الذمدي في كفة فخر بها ورد فيها على القميري :
 فان يكن حاجبين شمرت به فان يكن حاجبها ولا غسالا
 يشف شمرت بهوى وحر حان وقد شئت هوزان أن الموقد زالا
 تلك البكار لا قيمان من لبن شيئا بهاء فضلا بعد أبوالا

ترويه عامر للنابغة والرواة يجمعون على أن أبا الصلت بن أبي ربيعة قاله
 وكان غصنوا حد من الرجسار :

عند اندماج بعد التو السرى
 اذا جاء موضع جعلوه شذا .

وقال امرؤ القيس :
 ونفا بها صدي على مانيهم يقولون لا تهلك أما وتجسسن
 وقال شريعة :

وقفا بها وصدي على مانيهم يقولون لا تهلك أما وشالسد

يروي عن الشعبي عن ربي بن خراش أن عمر بن الخطاب قال
 أي شعراءكم الذي يقول :
 نألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان ترج لا يخسسون

وهذا غلط على الشعبي أو من الشعبي أو من خراش . أجمع أهل
 العلم على أن النابغة لم يقل هذا ولم يسمه عمر ولكنهم قلطوا بخسوسه
 من شعر النابغة فانه قد ذكر له أن عمر بن الخطاب قال عن بيت النابغة
 خلقت فلم أترك لنفسك ربيعة وليس وراء الله للمرء مذعسب

وحري أن يكون هذا البيت أو البيت الأول :

وجدنا رواية الدمشقيين في الشعر لا يخط الشعر إلا أعلسه
 وقد تروى الحامسة أن الشعبي كان ذا علم بالشعر وأيا الشعر
 وقد روى عنه هذا البيت وهو فاسد يروي عنه شيء يخص على لبيد :
 بائت تشكي إلى التفير مجبشة وقد خلقت مباحا بعد هموم
 فان تميس شاذ تشكي أسلا وفي الشاذ في لثمانسبون

ولا اختلاف في أن هذا صنف تتكرره الأحاديث ويحتمل
به على السهر عند الملوك والملوك لا تنقص . وكان قتادة بن دعامة
السدوسي من رواة الفقه عالما بالصواب وأصحابها ولم يأتنا من رواية الفقه
من علم الصواب أصح من شيء . أتانا عن قتادة . (١)

وتكثرت أقدنا ابن سنان من بيت النخبة إلى هذه السلسلة
المتولة من القديما والأغاليط فانتقى من قافية السراقات والفرق بينهما
وهي الشمس إلى قطف العلماء في رواية الشعر إلى التفسير على علمهم
رواية الفقه بأخبار الصواب وأصحابها . . . إل . .

وفي حديث ابن سنان عن الطائفة الأولى من غرض الباطنية أيضا
أنار إلى أنه : " لم يقم هذه الطائفة ولا من أصحابها أحد إلا النخبة
في قوله :

أمن آل مرة رابع أو مختدي عجلان ذا زاد غير مزيد
زم البوارح أن روحنا غدا هذا خبرنا الفداف الأسود . (٢)

ثم استلزم ابن سنان فردى عن يونس قوله " عيوب الدمر أربعة
الزخاف والسناد والايطاء والاكفاء ونحو الاقواء وأخذ في سردها وإيراد
الأمثلة لها . . ثم استلزم مرة أخرى وهو يصرف بالايطاء فتمرن لبيان
الأص الفصحى لكلمة المواظاة واستشهد بالآية الكريمة " ليواطئوا
عدة ما حرم الله " أي ليوافقوا . . وتجده الآية فيفسرها ويذكر أن الصواب
كانت تحرم أربعة أشهر من السنة كما كانت بأيديهم من أرض السامانيين
ابن أمويهم عليها السلام كانت توالى عليهم ثلاثة أشهر ذوالقعدة
وذوالحجة والحرم فينبون عليهم ألا يفتروا ولا يحاربوا وكان لهم تسعة
من بني كنانة يؤمرون الحرم عاما ويرد عاما ذوالقعدة لله عز وجل " انما
النبي زيادة في الكفر " (٣)

(١) الدقائق عن ٤٧ - ٥١ . .

(٢) الدقائق عن ٥٥ .

(٣) الدقائق عن ٥٥ - ٦١ .

وجدير بالذكر ان استدلال ابن سلام يخالف من استدلال الباحثين الذي اشتهر به فالباحث كان يتخذ الاستدلال ويدرك أنه يستلزم لأن اسمه عندنا هو ذلك وقد انتقد أكثر من مرة عن هذه الدلائل في أسلمه بأنه يقتضيه الى اجتذاب القاري واتحافه بين النحويين والحيث بنوادر الحكايات وفوائد المعارف حتى يسرى عنه ويبدو نشاطه فيقبض على مثل الحقيقة العملية والظرفية التي يسوقها له . . . ونفسر في حديثنا عن الباحث لهذه النقطة ونورد أمثلة لها . أما ابن سلام فاستدلاداته صلبة وانتقالاته هائلة كما رأينا . .

ثالثاً : مكانة ابن سلام بين نقاد المدرسة المهرية :

على الرغم من أهمية كتاب طبقات المصنف لابن سلام وكونه أقدم ما ألف في بابيه واشتماله على كثير من القضايا الأدبية والنقدية التي تعد مهمة في التصرف على آراء القدماء في تلك القضايا . . . فإنا نعتقد أن مكانة ابن سلام في فن النقد لا تنحصر تلك المكانة التي يحتلها كتابه سالف الذكر ذلك بـأن روح النقد لم تكن متأصلة في ابن سلام وكان الدافع القوي على محاولته في هذا الفن هو الدافع التاريخي والتسجيل فهو دارس للأدب والنقد أكثر من أدبياً أو ناقداً ولذلك ذهبت المدرسة النقدية له في تلك الآراء الشائعية في بيئة البصرة في عصره وقبل عصره والتي عني بالتسجيلها وجمعها . . . في كتابه الطبقات . . . ولو أن ابن سلام اعتمد بامرل آرائه الذاتية ووجهة نظره المستقلة في مختلف القضايا التي ساقها لكان علينا أن نقول إنه في النقد المسمى ونتممه في موضع غير ذلك الذي نضعه فيه الآن . . . إلا أنه أخلص في كثير من الأحيان أطنع قرائه على آرائه في القضايا التي يسوقها أو حتى التعليل على الآراء المختلفة التي يثبتها لخبره من المتخصصين ومن أين لنا أن نتبين ذوق ابن سلام النقدي وهو لم يقف بنا عند قصيدة أو مقطوعة . . . على كثر ما أشار إليه من النقائص والعيوب . . . فحللها أو يفسر الى مؤلفي الجمال فيها أو مقومات الاجادة والبراعة التي يحكم عليها بها ؟ بل كانت مناهج الأحكام النقدية التي وصلتنا عنه أحكاماً عامة وانعكاس الجانب التقليدي في كتابه بشكل ملحوظ . . . ولنا نقول على ابن سلام أن دلائله بما لم يكن متيسراً له في عصره فالبقية نقاد المدرسة المهرية

الذين تدرسونهم ومثليهم أقدم منه زمانا - ند تركوا لنا آثارا نقدية تنفع من
خليلها أدواقهم الدفاعية وصلقاتهم النقدية التي تميز كلا منهم عن صاحبه
وتجس في أعمالها غنويا وافرح الملاحج بين القصاصات .. وليس لنا .. وليس
شيء بعد من دراسة الخناد البشري - أن نتمجّل هذه الفوارق بينهم
الا أننا نبادر فنقول ان الشخصية النقدية لابن سلام في كتابه اللبقات كانت
أهمف من شخصية عالم من علماء النحر والمفسدة كالمبرد في كتابه الكامل والسبدي
اعترف به بهدء الجوانب اللذوية والنحوية .. وقد يبدو هذا الحكم غريباً
ولكننا عندما ندرس تراث المبرد النقدي - فله في كتابه الكامل أخرى أنه كان
يحس كثيراً من النقص الشعري ويوضح ما ظهر الجهود فيها ويثير إلى أسباب
القصور في بعضها وهو في كتابه الحالين والمنا على ذوقه في الشعر
واحساسه بمشائيه وتميزه للفروق الدقيقة بين الألفاظ وهذا ما لم يفعل
ابن سلام ونحن نجد مثل مثنوي المبرد في كتابه الكامل قوافي الجهد النقدي
الذي تدل على آراء الناقد ونظير أثره في النقد العربي بالاعتبار إليه .. وليست
الجهود التي أسهمت بها الدراسة الشعرية في نشأة النقد العربي في القصور
الثالثة سوى تلك الآراء والتعليقات المختلفة التي كان النقاد البصريون يربطونها
في العصر والشعراء والتي تطلع من خلالها على ذوق كل ناقد ومنهج في شعور
العصر والأسس التي يعتد بها في أحكامه .. وقد كان نصيب ابن سلام في
هذا المجال ضئيلاً وإسهامه فيه محدود الأثر .. وربما يكون السبب في خالفة
التعليقات النقدية لابن سلام أنه كان مهتماً في كتابة الطرائف وهو كل ما وصلنا
من تراثه النقدي - بترتيب ذلك الحشد الكبير من شعراء الجاهليين والاسلام
والاحتجاج لكل شعور بهالة من حبيسة ومقالات الملوك فيه .. ولا شك أن وضع
توفيق وبهيم شعراء في أكرم من عصرين طبقة قد كلف ابن سلام كثيراً من الجهد
فإن أن تقوم هذا الجهد من الوجهة النقدية لا يفيد كثيراً حتى لو سلمنا ببيان
ترتيب اللبقات كان ما فيها وثقاف مع موازين النقد ومقاييس المعايير ذلك
لأن ابن سلام لم يوضح من مزايا الشعراء أو خفايا أعمارهم ما يفيد لنا
الموضع الذي وضع فيه كلا منهم ومن ثم بقيت محاولته تلك قليلة الفائدة فصرى
مجان النقد الأدبي ..

ونحن أن يكون واضحاً أن حكمنا بخلف ملكة النقد عند ابن سلام لا يلحق
الأمية الكبرى لكتاباته لاجل الشعراء في بيان النقد الأدبي عند العرب فقد كان

ذلك الكتاب أو وثيقة تملأنا عن ذلك الممر وتؤرخ لقضايا الأدب والنقد
وتسرد كبرا من أدباءها وتضم القدر الأكبر من تراث المدرسة البصرية في ذلك
الجمال ..

كما ينبغي أن يكون واضحاً كذلك أن حكتنا على ابن سلام بعد حكايته
نسباً أي بالقياس إلى غيره من تراث المدرسة البصرية الذين يدخلون في نطاق
دراسة هذه ولنا نحكم بتخلف الفكر الندي عنده أو مسألة الأحكام النقدية
المتعلقة على الأذن ..

رابعاً : ما أخذ المحدثون على ابن سلام :

يجب الملاحظون في النقد العربي القديم على أهمية كتاب لطقات النمر
لابن سلام وثيقته الكبرى في التعرف على الفكر النقدي عند العرب منذ وجد
حتى العصر الذي ألف فيه الكتاب و بداية الزمن الثالث الهجري .. وسنرى
أثر الباحثين المحدثين لابن سلام بالنقد وأما في جهودهم في دراسة
الأدب والنقد فإن منهجه في كتاب اللطقات وكأنه بين النقاد العرب في
عامة قد تعرضت لهذا المأخذ ولم يسلط المحدثون أو يتفقوا على قيمة
ما أداء للنقد العربي من فوائد وما أسهم به من جهود ، الدكتور محمد مسعود
يرى في كتابه النقد المتهيج عند العرب أن ابن سلام " إذا كان مريباً
في نظرك إلى اتساع النمر فانه أقل إصابة فيما عدا ذلك " (١) وأخيراً
في سرد مأخذ على ابن سلام فيقول : " تفسيره لندوة عمر بن الخطاب القسري
مردود لأن النمر ليس كله في العرب ولا هو قاصر عليها بل إن فيه مبادرة على
الطبيب فليس صحيح أن الشعراء نادراً في مكة مثلاً فربما بعد الإسلام
وانما أقصد ابن سلام من حياضه - لسبب لا نعرفه - الكثير من المؤلفين على رأسهم
عمر بن أبي ربيعة الذي لم يذكره أبداً . ولين شمر عدي بن زيد لا يكسب
لتمثيله قوله : " أنه سكن الحيرة وراكب الوفاء " ولا حراً في تحليل " تحسنت
لفردق من صخر وأقتراف جرو من بحر) .. وأما تفضيله الكثيرة على الجسود
وتعدد الأغراض الشعرية على التطور على الفن الواحد الذي تحزينا اليأس
بلاغات حياتنا .. ففى غلبنا أنه من الواضح أن الكم ليس قياساً صحيحاً لقياس

الشعراء... ثم اننا نلاحظ أنه يورد ما يشتركه الشعراء المختلفين أو يورد مثلاً
ولكنه لا يحمله ولا ينقده ولا يظهر ما فيه من بطلان وقبح وإن حكم على بعض الشعراء
أو بعض الشعراء بأحكامه في الخالصة الأخلاق والتقليدية التي كانت الألسن
تداولها عن السابقين... وهو أن أورد حكماً لنفسه كقول من احتساب
المراثي * والنقد عندنا سمي بن نبوة * أو * من الناس من يفضل فيموت
الحليم على حسان ولا أقول ذلك * ثم يوجب أحكامه بتحليل الشعر أو ذلك
لصفات مميزة... وإن أورد بعض جملات عامة غامضة غير دقيقة كقوله عن أبي
ذؤيب المهدي أنه * شاعر فصح لا غيرة فيه ولا ومن * ومن بعد بين الحساس
أنه * حلوا الشعر رقيق حوافي الكلام * ومن البصير أنه * نأخر الكلام حر اللسان *
وأما ذلك ما لا تحديد فيه ولا تفصيل *

وإذا نلاحظ أن لم يتقد بالنقد الفني إلى الأمام شيئاً كبيراً وإن كان
له جدر في تحقيقه للتصريح عن مذهب صحيح وحاول أن يدخل في تاريخ الأدب
السري أحياناً نحو الشعر ومحاولة للتصريح شعر على أحكام فنية * (١)

ولاستاذنا أ.م. إبراهيم ماخض على ابن سلام وشيخه في كتاب
الطبقات نوجوها فيما يلي :

* أن ابن سلام وتوحيده نظرية الشعر الموضعي وهو أخذ عليه العلم...
وفي مثل ما وقع فيه ابن اسحاق وإبراهيم إلى بعض الجاهلين بالبحر...
وأورد شعراً جاهلياً لا يلائم إليه - وأن ابن سلام وإن كان بارعاً في تناويز المعاني
الأدبية من جبي جوانبها فإن حاكمه الأدبية في تحليل الشعر وتذوقه لا تكفي...
تظهر فيما كتب من ملكه الأدبية أنعم بكثير من ملكه العلمية * وأنه في تقديره
لجمن الشعراء طبقات انفرد من بين العلماء بإضافة الراعي إلى الثلاث...
الاعتناء هذه في طبقاته وهو في ذلك لم يستند إلى حجة ولم يقدم دليل...
ولم يذكر شيئاً يبرر هذا التقسيم... والقياس الذي اتخذه في الدقة...
وهو فكرة الشعر وبيوته تجده قد راعى ذلك حيناً وأغفله حيناً * فليس من شك
في أن النتيجة جدير بأن يكون من شعراء الطبقة الثانية كما وضعه ابن سلام
فإن عبارة كتابه في زهير فذلكنا نوضح نظرنا لأننا نعرف لكم...

الأ * بانت سعاد * ونرى من غير الشعر المسمى ما في ذلك جد إلى ولكن الأسماء
أذن يرجع بنا إلى دلالة وليد مثلاً فمعلقة نافذة من عيون الشعر وعبر أجد عسى
طويلة كما ورد في ابن سلام ثم له بعد المعلقة قصيدة أخرى مثلها ثم له بمسند
ذلك قصائد حسان جهاد تلك عبارات ابن سلام نفسه ... (١)

وينتهي الأستاذ ظه ابراهيم إلى القرن بأنه : " ربما يكن من شيء فقد
اضطرب ابن سلام كثيراً في تارة الشعراء " وصر هذا الاضطراب واضح فهو
فليس من الرأي في شيء أن يكون الشعراء على طبقات وليس من الممكن بحسبنا
أن نعرف من الفروق بين الشعراء ما يصدق لنا أن نوزعهم على طبقات شعراء
واشياء في الفنية رقيقة متعرجة ولا تطيح الباحث إلى مثل هذا الذي وانما
الذي عليه جمهرة العلماء والذي يروا على الإطلاق ... أن يقسم الشعراء تسلسلات
طبقات : مبرزين ومتوسطين وتأخرين وأولئك ابن سلام ذلك لكان أصح
ولما اضطرب في الطبقات الأخيرة أن يورد الشعراء سواد دون ما عهد أو دليل (٢)

والى : انب تلك المآخذ التي يجردها هذا الباحث نجده يقرر أهمية
كتاب الطبقات لابن سلام والقيمة التي إنادها النقد المسمى منه بقوله " ... ولقد
كانت الأنكار في النقد مبعثرة لا يربطها رابط حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها
وألف بين المتعابه منها بروج على قوى شيء أن الأصوات التي عرفت قبله في النقد
لم تولد ولم تؤك ولم تستقر وترسخ إلا في كتاب طبقات الشعراء هذا إلى أن
الكتاب أقدم ورائق النقد المدونة فيه كبير من آراء الأدياء والمفكرين التي
انتش بها فيما بعد من كتب في نقد الأدب أو في سير الشعراء كالأستاذ
صاحب الموازنة وأبي الفتح الأصبهاني صاحب الأغاني وحسب كتاب ابن سلام
أن يكون جهاد القوم في الشعر المسمى في الجاهلية والإسلام (٣)

ويقف الأستاذ محمد زغلون سلام مدقما عن ضيف ابن سلام في كتابه
الطبقات ورد على ما قاله الدكتور مندور عنه فيقول :

" ونحن إذا ما نظرنا إلى ابن سلام في المار صرنا لا ننقصه حقاً ولا نزيد عليه
بأكبر ما نصل كما حاور الدكتور مندور إذ قال له أنه يتخذ بالنقد الفني ترى على
من يتخذ ؟ وهو أول من نعرف من حاول دراسة الشعر والشعراء هذه الدراسة

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٨٧ (بشعره واختصار) .

(٢) تاريخ النقد ص ٨٩

(٣) المرجع السابق ص ٩٠

المنهجية في النقد العربي من ذلك ومن كثر ما جرى الكتاب من مأخذ فإن الكتاب قد وضع اللبثات الأولى للنقد المنهجي المبني على أسس علمية من حيث تصنيفه إلى تدوير النصوص وتخليص الشعر من الدخيل والتبسيط إلى فلسفة الشاعر بما يروى له من شعر ووضع لكن هذا أصعب منقولة وإن لم تكن كالمسألة أو مثالية وقد أضافت هذه الأسس نقادنا عندما عادوا للتصنيف لمسألة القصص القديم تأخذوا بها .. ولا يخفى أن الدكتور رحمه حين قد اعتمد عليهم بما في كتاب (في الشعر الجاهلي) إلى جانب اعتماده على المنهج العلمي الحديث . كذلك استطاع ابن سلام أن يجمع لنا ما عرف قبله من نثرات نقدية متنوعة الاتجاهات مما أفادنا في التاريخ للنقد والخوف على كثير من أحكامهم السابقين وآرائهم التي كان لها أثر كبير في توجيه النقد العربي .. فإبن سلام إذا جمع تلك النقد وحاول بناء منهج لنقد الشعر والشعراء وفق فيه بمسئولية التوفيق بالقياس إلى ما نرى وأثر في انتقاد اللاحقين لدرجة كبيرة * (١)

ومن هذا الشئ على ابن سلام والاعادة بقيمة كتابه الطبقات فقد لاحظنا الدكتور زقلون سلام أن نظام ترتيب الشعراء الذي استخدمه ابن سلام في كتابه كان سببا في اضطراب أحكامه النقدية في بعض الأحيان يقول عن نظامه من الطبقات :

" ولكن هذه القسمة الحسابية المتكافئة لم تتفق فيما يهد ومع النسبة القوية بدرجات الشعراء أنفسهم ذلك أنه اضطر أن يمد في تلك القسمة فيؤخر من مساوت طبقتهم مع طبقة سابقيه اتباعا للحساب دون الدرجة الفنية فيما يهد .. وبذلك أوسم بين حجاب إذ قال فيه - وقد عد في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية * وأوسم دليل الأربعة المتقدمين إذ أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة وهذا * (٢)

وفي اعتقادي أن السرحون الأستاذ طه أحمد إبراهيم كان أحد فالحكماء حين أشاروا عندما قرر أن المصنفة الأدبية عند ابن سلام كانت أضعف بكثير من المصنفة العلمية فنحن نجد صداق هذه الحقيقة السهية ماثلا في كل ناحية من كتابه ولم يفتتت الشعراء كما سبق أن لاحظنا .

(١) تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري * محمد زقلون سلام ص ١٠٦

(٢) تاريخ النقد ص ١٠٦

الفصل الثالث

الجاحظ والتراث النقدي

على الرغم من كثرة ما تشتمل عليه المكتبة المصرية من دراسات وبحوث عســن الجاحظ فان تراث هذا الأديب والفكر الكبير لا يزال بحاجة الى مزيد من الدراسة ولعل السبب في قصر الكتابات التي كتبت حول الجاحظ وفي غائرها بأهميتها تراشه أن معظم الذين كتبوا عنه تناولوا شخصيته وتراثه المتنوع في نقي واحد ولم يحاول كل منهم أن يتناول جانباً واحداً أو ناحية مفردة من نواحي هذا التراث المتشعب متناسين أن تلك الشخصية المعقدة وما خلفته في الفكر العربي من آثار دسـي أعظم خطراً وأبعد غوراً من أن يحاط بها في بحث واحد .. وإذا جاز للباحث من كتبوا عن الجاحظ أن ينسب لنفسه فضل الانتداء إلى حقيقة من حقائق تراثه أرواحية من خاصياته فليس لأي منهم أن يزعم لنفسه الإحاطة بكل جوانب هذا التراث أو استيعاب كافة مظاهره ومضامينه (١) ومن ثم فستبقى شخصية الجاحظ مجالاً خصباً لمختلف الدراسات والبحوث في الفلسفة والاجتماع واللغة والأدب والتحليل والمناهج والسياسة والأخلاق ..

محمد فلن نفيس في ترجمة الجاحظ ولن نذكر من أخباره وأطوار حياته إلا ما لا بد من إلمامه به في تقرير حقيقة أو تبليغ ظاهرة ولن نفيس في تقريره والثبات عليه فقد أخذ حظه من هذه الناحية ..

وحسب القارئ أن يشفع مقالته بما فرت في ترجمته للجاحظ (٢) ليقف على تفسير من أخباره وأقواله المليء فيه وتقرير منزلته وفعله على الفكر العربي والاسلامي ..

(١) أطلعنا ما كتب عن الجاحظ على بحوث الأستاذ : طه الحاجري وحسن السندى ومحمد عبد النعم غفاجي وشفيق جبري وحنا الفلغوري وشارل بلات وأحمد كمال زكسي ووديع طه النجم .. هذا فضلاً عما كتب عنه في ثنايا الدراسات الأدبية والنقدية لمختلف الباحثين ..

ترجمة الجاحظ :

تسوية :

" عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ . . . وهو كنانى قبيلى علبية وقبيل
مولى وذلك يثبت من المزج أن الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب مولى أبي القيس
عمرو بن قبيلى كنانى ثم القيس وهو أحد النسب وكان بهد الجاحظ أسود وكان جبالا
لعمرو بن قبيلى . . . قال يمت . . . والجاحظ خال أبي " (١)

ويشعر أن الشاهد إلى الأديبان من هذا النسب الذى أوردناه أن الجاحظ
غير عيسى . كما حاول أن يخلص التسميون وأدناهم على من المسود فان سأل مسألة
ولاء أجداد لنبى نقيم أن صحت هى من ذلك النوع الذى كان يحقده الصليب
فما بينهم فهو ولا نصرته وخالف (٢) لأن الجاحظ لو كان فى أجدادهم غير عيسى لما كانت
منه تلك الحبة وذلك الاختلاف فى الدلائل عن العروبة وحرب التسمية ثم انه كان يقول
عنه يا قوت " أحد التسميين " (٣) فنرجح أنه غير عيسى لكان يود نفسه أول من يصرف
ذلك ورثه عليه . . .

ملحوظة :

ولد الجاحظ فى المهرة ولم تتفق المصادر التى تربت له على سنة ولادته وإن كان
من المقرر لدى الجميع أن ولادته كانت فى شهر المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين وقسده
جاء التسميون (٤) وهناك رواية أوردها يا قوت على لسان الجاحظ يحدد فيها سنة ولادته
يقول : " أنا أسن من أبي تراس سنة ولدت فى أول سنة خمسين ومائة وولد فى آخرها " (٥)
محمد أن أورد يا قوت هذه الرواية مباشرة قال : " بات الجاحظ فى سنة خمس وخمسين ومائتين
فى خلافة المعتز وقد جاوز التسعين " (٦) فإذا صحت الرواية الأولى يكون الجاحظ . . .
وقد تجاوز المائة لا التسميين كما يفون يا قوت وكما تذكر غالبة المصادر التى ترجمت
له . . . وقد ارتضى الأستاذ حسن السند (٥) تلك الرواية التى أوردها يا قوت على لسان
الجاحظ إلا أنه وقع فى تناقض آخر فندما قرر أن الجاحظ رحل إلى بغداد وهو فى الخمسين

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١٨ (٢) ترى هذا الرأى الأستاذان حسن السند . . .

ومحمد بن النعمان خنجر (٣) مجمع الأدباء ج ١ ص ٢٤ (٤) غيات الأعيان

ج ٢ ص ١٤٤ بنى الرواة ج ١ ص ٢٨٨ . . . مجمع الأدباء ج ١ ص ١٦٤ لا يفرها من المراجع

(٥) أدب الجاحظ ص ١٩

من عمره وذلك سنة ٢٠٤ هـ (١) فكيف يكون الجاحظ في الخمسين سنة ٢٠٤ وهو قد ولدت سنة ١٥٠ فيما ارتقاء الجاحظ ؟

على أية حال نتج عن ميل إلى الاعتقاد بأن الجاحظ ولد في حدود سنة ستين مائة (٢) ما دام الرواية متوافرة على أنه مات سنة خمس وخمسين ومائتين وقد جواز التسمين . . . وإذا أخذنا في الاعتبار تلك الرواية التي تداولتها المصادر التي ترجمت للجاحظ حول مقاله في سورة الذي يأت فيه من أنه يمانى بالانحاطة إلى العالم الذي أعياه من ست وخمسين (٣) . . . أي من بلوغه هذا السن . . . فإن سنة ميلاده تقترب ما اختارناه .

نشاطه :

نشأ الجاحظ بالبصرة (٤) واتحد من أسرة أفنى ما يقابل فيها أنها من عامة أهل البصرة . . . ولقد تربى الجاحظ في مدرسة الحياة قبل أن يتربى في حلقات العلم وأندية المعرفة ولحق أحاسنه بالخدمة وكده في مهيل السنين كان من أدمى ما حفزه إلى نهضة شخصيته الثقافية ذلك البناء المصاني الفريد . . . كان على الجاحظ مثله من الكبر من علماء البصرة من عمره أن يتكسب لميمره ولقد حدث من رآه في عهده يربح الخسيس واليسك بسيفان أحد أنوار البصرة (٥)

دمايته وقبحه :

يقول ابن خلكان في ترجمته للجاحظ * وكان من قضاياه كشفه الخلق وأما قيل له الجاحظ لأن عينيه كانتا واحنتين . . . والجحوظ : التورق . . . ومن جملة أخباره أنه قسب مال ذكوت للشركن لتأديب بعض ولده فلما رأى استعصى منظره فأمر له بمشورة آلاف ردهم وصرفه (٦)

ويقول البستاني : * وكان مشوه المغلقة قبح المنظر حتى قال فيه بعض الشعراء :

لو يسمع الخنزير مسغا ثانياً
ما كان إلا دون قبح الجاحظ

(١) المروج من ١٢ وفي مقدمة البيان والتبيين تحقيق حسن السند من ذكر الجاحظ والجاحظ ولد سنة ١٥٤ هـ ج ٢ ص ٢٠ (٢) مرآة البنيان ج ٢ ص ١٦٤ (٣) هذا كروى الاستيعاب شافيق ج ١ ص ١٢٠ والمستشرقين ج ١ ص ١٢٠ (٤) ميارة البستاني في تاريخ العرب قديمة تفسير دقيقة ج ١ ذكر أنه ولد بالبصرة ونشأ بها . . . فكيف يتصور أن يكون له ولد في يوحنا اليرموك إلا في الخمسين من عمره ؟ . . . وليس السند من نقل عن البستاني بهذا الصدد .

(٥) مجمع الأدباء ج ١٦ ص ٧٤ (٦) الخفيات ج ٢ ص ١٤٠

وحكى عن نفسه قال : ما أخرجنى إلا امرأتان رأيت أحدهما فى المسجد وكانت طويلة القامة وكنت على يديها فأردت أن أيازحها فقلت : انزل كفى منسبا فقلت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا - مخرجة بفصره - وأما الأخرى فأنها أتتني وأنا على باب دارى فقالت : لى اليك حاجة وأنا أريد أن تشى منى فقلت معها لى أن أنت من الى صانع يهودى فقالت له من هذا وانصرفت فسألت الصانع من قلبها فقال انها أنت بلوى وأمرتني أن أنقى لربا عليه صورة شيطان فقلت يا سيدتى ما رأيت الشيطان فأنت يا . (١)

ثقافتـــــــــــــــــه :

لا ريب فى أن الجاحظ الذى امتد به العمر قرابة قرن من الزمان قد انغمس فى سنوات طويلة من حياته فى تدوين تلك المعارف المتوفرة التى حظت بها كنهه وساعده وشمعت أن الجاحظ لم يراع فى التأليف والتصنيف إلا بعد أن بلغ مرحلة متقدمة من العمر بعد أن تخرجت أفكاره وتطورت نظراته فى مختلف قضايا الفلسفة والأدب بدليلنا على ذلك ما تلخصه من استقواء أفكاره وانتظام آرائه وأقواله فيما دونه فى كتبه ومولاته بحيث لا يظهر فيها أثر لشغل الأفكار أو تضارب النمايات كما لا بد لنا مثلا فى دراستنا لتراث الأحمسى . . . ولعل اهتمام الجاحظ بتدوين أفكاره وشبهه بين آرائه وعدل آرائه بنسبها وإذا عشيها بين الرواة والتلاميذ بالاعانة الى شكنـــــــــــــــــه من عبادة القلم وتريسه على عرش الباقية . . . قد جعل لتراثه تلك الخاصية الفريدة التى تشفى فى ضمان روحه هوى شخصيته ومزاجه ووضع بصماته التى تبدو بجله فى كن ما كتب على تنوعه وشبهه فنوايه . .

وقد يكون من المصور أن نضع اصفاً دقيقاً بالأمانة الذين تلقى الجاحظ العلم على أيديهم أو التأثيرات التى أثرت فى أفكاره ومعارفه فهو قد " . . . من أبي مهيبة والأصمى وأبي زيد الأنصارى وأخذ النحو من الأصفهاني الحسن وكان عديقه وأخذ الكلام من النظام وتلقاه الفصاحة من العرب مفاهيها بالعرب . . . وحدث أيسر هذا أن قال : لم أرقه ولا سمعت من أعين الكتب والمعلم أكثر من الجاحظ . . . فانه لم يقع بيده

كتاب قط الا استولى فرائسه كائنا ما كان حتى انه كان يكثرى دكاكين الواقعيين
وبيتهم للنظر... (١)

وقد اطلع الجاحظ - بلامه - على جانب كبير من معارف اليونان والفرس والهنود
وتعرف على علومهم وفلسفاتهم ولعله كان الملم بالصين الوحيد الذي استوعب هذه
الثقافات وطورها للأسطورة الصينية وأفاد منها أيا العادة بحيث تعد اسهاماته في هذه
الناحية أشبه ما تكون بدائرة معارف نحوي مختلف اللغات... وتستطيع القساري أن
يتحقق من صدق هذا الاقتناع لو نظر فيما أنشاه الجاحظ من قضايا في كتابه...
الحيوان - على سبيل المثال - ليقتنع بأن الجاحظ كان أشهر العرب وأفقههم
أحد عصره لثقل الثقافات والمعارف... وليس لنا أن نقنع بأن الجاحظ كان يتقن
لغة اليونان أو الفرس الا أنه من غير شك له أكبر الفضل في تقريب فكر هذه الأمم
من عقيدة عامة المثقفين العرب في عصره وبعد عصره فلم يكن الجاحظ فيما أورد من
معارف هذه الأمم ناقلاً أثيرياً فحسب ولكنه من هذه المعارف بأرائه الخاصة
وفنائه العربية الأصيلية ومن هنا كانت الاستفادة بما نشره الجاحظ من هذه الثقافات
أبعد أثراً في جمهور المثقفين لأنه عرضها عليهم في إطار سهل وأسلوب يتلاءم مع
عقولهم ويسر لهم فهمها وذلك على العكس من أسلوب المترجمين المتشبهين بالساذي
لا يهتدي إلى حرم رموزها وأصطلاحاتها الا من حصل قدراً خفياً من الصرفة وكانت له
دراية من فن صميم في الفن الذي يطلع على ما ترجم فيه...

مع أن الجاحظ لم يتخصص في علم من العلوم الصرفة في عصره فهو - فاحش
لعتقاده - قد وضع روح هذه العلوم وسير أفوارها ووقف على خلاصة ما قيل فيها
وبير حقيقة السوابق في دقائق مسائلها بحيث أمكنه أن يمالج قضايا كل علم بأسرع
ما يبالهها المتخصصون فيه والمتفكرون عليه...

صلته بذهب الاعتزال :

نشأ مذهب الاعتزال في بيئة البصرة وكان في الوقت الذي شب فيه الجاحظ
وتطالع لأهل العلم قد مضى عليه نحو قرن من الزمان وشققت أسطره ومبادئه بجهود
جماعة من خبرة علماء من أهل بن عطاء وعمر بن عبد مؤمناء ومنهم أبو الهيثم
الملافي وأبو اسحاق النخعي ونحو من وجه الرافض الذي تنافذ الجاحظ... عليه...

ولعل الجاحظ الذي أكرمت نفسه روح التحرر والاستقلال في الفكر والفكر قد وجد في مبادئ هذه الجماعة ماله المتشابهة إذ رأينا نجد الحق وتدعو إلى التحسين وتحارب المرافقات وتبني أيمانها على دعاء راسخة وأفكار متناقضة متقدمة وتنافس عن المثيدة وتتصدى لابطال شبه المثاليين وزعم المماندين أعداء الدين .. وتلك بايجاز شديد صورة من مبادئ الجاحظ التي صدر عنها في مختلف مراحل حياته ..

ونعتقد أن الجاحظ أناد قاعدة كبيرة من مبادئ المستقلة مع أننا قد أشرنا إلى أن الجاحظ تأثر بمختلف الثقافات واسترحب في أنواع المعارف فإن تأملنا مبادئه الاعتراض كان جوهريا ومثالا .. إذ أن تلك المبادئ كانت بمثابة الأسس التي بنى عليها الجاحظ حياته الثقافية كلها فقد كانت روح هذه المبادئ تصحبه في مختلف القضايا التي تعرض لها والدليل التي خاض في مسائلها .. ولقد كان الجاحظ يحس علماء الكلام وخاصة المعتزلة ويردد في اعتزازه فظلم على العلم بجميع فروعه وأبوابه يقول : " لولا يكن المتكلمين لهلك المراء من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلك المراء من جميع النحل فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم (١) وبراهيم لهلك المراء من المعتزلة غان أقول انه أنسى لهم شيئا وثق لهم أمورا وأحسن لهم أبوابا نظرت فيها المنفعة وألتصق بها النجاسة " (٢)

ونذكر في سياق آخر وهو متحد .. عن تعبط الأطباء فيما يقولون من قضايا الطب لعل المتكلمين فقال : " ما كان أحسننا وأحس جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين وإلى أن يكون المتكلمون علماء فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تليفهم لم نجد في الأسفل التي يفتنون عليها من الخلل ما نجد " (٣)

لم تكن حائقة الجاحظ بالاعتراض عاتقة سويد أو محجب فحسب بل كانت له اجتهادات الشخصية وآراءه المستقلة التي تأهله فيها جماعة عرفوا " بالجاحظية " نسبة إليه لا أننا ينبغي أن نحفظ في قلوبنا ما نسبته الجاحظ إلى الجاحظ من آراء في مسائل المجال فإنها آراء لا تكاد تتفق مع ما نعرف عن الجاحظ من عقل وضمير وإخلاص لخدمة الدفاع عن العقيدة السليمة وإبطال زعم خصومها بشتى أساليبها .. ولعل السبب في ذلك

(١) يقصد إبراهيم الغلام أستاذ وزعيم المعتزلة في عصره .

(٢) الحيوان ج ٤ ص ٢٠٦

(٣) الحيوان ج ٥ ص ٥٤

تسموه مذهب الجاحظ في الاعتزال يرجع إلى أن مذهبهم لم يحجب له الذبوح فقد شهد
مذهب الاعتزال بصفة خاصة في حياة الجاحظ وانتقلت الدولة عليه ونقلت بهجائسه
ولئن كان شخص الجاحظ قد عثر من هذه الشخصية عليها إلى حد ما فإن آراءه قد
نالت من التدهور والتدريس ما حالها من حقيقتها ومخبرها سيخا موحدا (١)

رحلته إلى بغداد :

تتألف من أن نفوس الجاحظ رحل إلى بغداد في الوقت الذي راجت فيه
بضاعة الفكرية والأدبية فبلغ فيها أسس العناوين وأرض الدورات .. رحل إليها في عصر
الأمويين الذي قرب إليه الملوك وافتتن بمذهب الاعتزال فاستدنى كبار رجالاته ..
ومن بينهم الجاحظ .. وآثرهم أيضا إشار وأن كنا نعتقد أن افراط الأمويين في نصرة
مذهب الاعتزال قد جر على ذلك المذهب أنصارا مبررة إذ نقل الخلاف حول مسائل
الاعتزال من المسائل المذهبية إلى المسائل السياسية وخلق حركة مناهضة ظلت تتمسك
في الخفاء وتتخون الفرس إلى أن تمكنت من الانقضاض عليه وتطويع أركانه .. وهم
يكن من أمر فقد انضم الجاحظ إلى بغداد إلى وجوده على العترة ولما شهد المرحلة
التي أراد فيها هذا المذهب وهذا المذهب الرسمي للدولة أما ناحية الصناعة الأدبية
فقد كان الجاحظ متسكنا من صناعة القلم ومناصب مدبرة من أبرز مدارس الفكر الثوري
في الأدب العربي ولقد وافقت رحلته إلى بغداد عصر الازدهار والرفق الذي ومن إليه
فن الكتابة وقد أشرنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن عقد الكتابة في القرن الثالث
إلى أن ذلك الفن بدأ منذ بداية هذا القرن يحتل مكانة مرموقة ويتنافس بمناسبات
شديد فن الشعر حتى كاد يستأثر من دونه بالفضل كله .. وتذكر المصادر التي ترجمت
للجاحظ (٢) أنه "عذر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم انه استعفى فأعفى"
"وكان سهل بن عارون يقول : ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب" (٢)

ولعل الجاحظ الذي ألف الانطلاق والتحرر من القيود وجد أن تقاليد الديوان بمراسمه
لا تتفق مع روحه وشعره لتقدر أن يقاء خارج هذا الوسط مهنه وعبره استعفى
مكمل لمهامه .. ولذا في الظهور في المراسلات والرسائل التي فكك على
انما فيها وأغنى فيها فكره وفلسفته وذوقه وهن ..

(١) أثبت النجاشي في دائرة المعارف طوقا من هذه الآراء المزعومة ..

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٨

ولقد بلغ الجاحظ في بغداد مكانة سامية حتى لقد دفعه ما وصل اليه أن يتطلع إلى أسس مراتب الدولة .. ولعل هذه الرواية التي أوردها صاحب تاريخ بغداد تصور بوضوح منزلة الجاحظ في بغداد وطموحه إلى الغلبة بدافع من احساسه بالصلابة واعتداده بعلمه وقبله ولياذا الوزراء والساسة بأرائه وخبراته في تدبير شؤون الدولة وتدبير أمور الرعية .. يقول الجاحظ :

"حدث بعض من دخل على عمرو بن بحر الجاحظ فقال : يا أبا عثمان كيف حاله ؟ فقال له الجاحظ : سألتني من الجملة فاستصحبها مني واحدا واحدا : قال أن الوزير يتكلمونني وينفذ أمرى وهو أثر الخليفة المرات إلى وأكل من لحم الدسم أسننها وألبس من الثياب أنينها وألبس على ألبس النجوى وأتقى على هذا الرئيس ثم أسهر على هذا حتى يأتي الله بالفن فقال الريح : الفنى يا أنت فبه : فقال بن أحب أن تكون الخليفة لى ومن محمد بن عبد الصلح بأمرى ومختلف الى فبهذا هو الفنى ، (١)

مؤلفاته :

ترك الجاحظ مجموعة كبيرة من الكتب والرسائل في مختلف فروع العلم والأدب .. وهي وإن كان القدر الأكبر منها قد ضاع فإن ما تبقى بأيدينا من مؤلفاته كبير يصل بأن يعمل أبناء العربية يكاثرون بها تراث أمة بأسرها أو شعب عريق في التمسك بالفكر ..

لم يتفق الباحثون على رقم معين لمؤلفات الجاحظ فقد أحصى له ياقوت قرايصة ثلاثين ومائة مؤلف (٢) ما بين كتاب رسالة وذكر سبط بن الجوزى أن مؤلفات الجاحظ تبلغ مئتين وثلاثمائة مؤلف وقد وقف هو على أكبرها في مشهد الإمام أبي حنيفة (٣) وأحصى له الأستاذ الدكتور حنايى مائة وثمانين ومائة مؤلف (٤) وأحصى له الأستاذ حسن السندى تسعة وخمسين ومائة مؤلف (٥)

- (١) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٨ (٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٩
(٣) نقلا عن أبو البحرية ص ١٨ (٤) أبو عثمان الجاحظ ص ٢٨٥ وأبعدها
(٥) أدب الجاحظ ص ١١٢ وأبعدها

فكر الجاحظ وفلسفته :

أعتقد أن نقد الأدب في تراث الجاحظ ليس سوى حنقة ضمن مجموعة مترابطة من المحطات النقدية الفريدة التي دأب الجاحظ على أن يربطها في مختلف القضايا التي أعدد فيها فكره أو أجرى بها فلسفه . . . وأمله من تمام نهجنا لنقد الجاحظ وذوقه في فهم الأدب أن نقف بهذه اللحظة اليسيرة من فكره وفلسفته حتى يتسنى لنا أن نتعرف على طبيعة النزعة النقدية التي صدر عنها . . . وأن نشارة فاحصة في تراث الجاحظ . . . جملتنا على يقين من أن هذا الرجس كان ناعدا لكل مآراء لا يتفق مع عقله الناضج وفكره المستنير في أي مجال من المجالات . . . فقد نقد الجاحظ العلماء في عصره وقبائل عصره نقد الفسرين والحدثين وطلما اللذة والرواة ونقد الأطباء والمترجمين ونقد المحاسنة وسفر من الخرافات التي تمشي في رؤسهم وأهدى اخفاقه عليهم ورغبته في تنويرهم عنطوي . . . وقد الجاحظ السمات الاجتماعية والأنماط الأخلاقية القديمة واستشرى من الدائم الذي يمانى منه الغليون والمهانة التي يتعمران لها نورو العقول الراسدة والآراء الجديدة . . .

باختصار كان الجاحظ نموذجا فريدا بين المفكرين العرب إذ أنطلق وحسبده بفلسفته كثير من مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية وعرضها على ميزان فكري حساس يقتضيه بأكثر قدر من الذكاء والحيانة بعد النظر وذلك هو السرفى بقا فكر الجاحظ . . . ولقد فلسفته وفكرها سمات الزمان على الرغم من تبدل الأفكار والفلسفات وتجدد المذاهب والتزعات* (١)

سنعرض في فكر الجاحظ وفلسفته الذي التالي :

(١) معتقدات الماسنة ومنهجهم في تحرير عقولها :

تعد عقلية العامة في كل عصر من العصور عروضة لتقبل الآراء الفجسة والمعتقدات الخرافية على أساس أن تلك العقلية لا تتلج من المنطق والفكر بها يتيح لأصحابها تمييز الصحيح من السقيم . . . وإذا كنا في نهاية القرن الرابع عشر للهجرة ولا يزال المفكرون وطلما العربية يمانون من معتقدات الماسنية

(١) فقد الأستاذ شفيق جبري في بحثه بعنوان الجاحظ معلم العقل والأدب اعتد عدة مقارنات بين أفكار الجاحظ وفلسفته وبين آراء فلاسفة أوروبا في بعض المسائل التي تحدث فيها الجاحظ وأشار إلى شبهة إلى كثير من النظريات الفلسفية الحديثة في مباحث متعددة من كتابه . . .

وضيقون بالخرافات المسطرة على عقول الكثيرين منهم - فان صدر الجاحظ بلاشك
كان طيفا بئذان كثيرة من هذا النقص .

ولعله من دلائل عظمة الجاحظ وموسمته أنه لم يدع هذه الظاهرة
الخطيرة أو يوليها نظيره بل تناولها بالتحليل وأعرض في إبطال معتقدات العامة
أننى لا أساس لها من الصحة كى ما يطالب من حجة وما يستطيع من برهان وحاول
الجاحظ في كثير من الأحيان أن يخلص لهذه المعتقدات الخرافية وجهة صحيحة
تخرج منها من الخرافة إلى الحقيقة ومن الخطأ إلى الصواب وذلك بأثرة للجاحظ
على الفكر العربي والاسلامى . ولقد ساق الجاحظ كثيرا من معتقدات العامة
أننى لا يعلم بها العقل وأثبتها في كتبه تهيدا للشك فيهما وإبطالهما
أو تصحيح وجهة الخطأ فيها بيان وجه الصواب . . . وحاول الجاحظ أن يخلص
قراءه كيف يميزون صحيح الروايات من سقيمها ويأخذ المعتقدات من خطئها
ويوضح لهم متى ينبغي لهم أن يشكوا في الخبر الذي يسمونه ومتى لا ينبغي لهم
الشك . . . فإذا كان السامع لا يطمئن إلى الخبر الذي يسمعه ولا يجد إلى إنكاره
سبيلا فلا أقل من أن يتمكن فيه بقدر بعده عن مصطلحات الشطرنج وتجاهله
لما يشهد به الواقع . . . يقول الجاحظ مقررًا هذه الحقيقة في كتابه الحيوان . . .

• وقد زعموا . . . أن الأروة تضع من كل ولد وضعت أمى في ناحية
واحدة . . . وقال الآخرون : الأروة لا تصرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الأرض ناصرة
الا وهي تضع ولدها . . . وفي هذه أمى مكان الطوق وذكروا أنها تضعه وتضعه ولا تقبل
• . . . ولم أكتب هذا لتقر به ولكنها رواية أحببت أن أسمعها ولا يصحبني
الاقترار بهذا الخبر وكذلك لا يصحبني الإنكار له . ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل .
• . . . هذا فنصرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتصرف بها مواضع اليقين
والحالات الموجبة له وتعلم الشك في المعكوك فيه . . . فلو لم يكن ذلك الا لتصرف
التوقف في الشك لقد كان ذلك ما يحتاج اليه . . . ثم اعلم أن الشك طبقا لثبات
عند جميعهم ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف والصواب
أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقعون في التدقيق ولا يرتابون بأنفسهم فليس -
عندهم الا الاقدا على التدقيق المجرد أو على التكذيب المجرد والدوا الحال
الثالثة من حال الشك التي تعمل على طبقات الشك وذلك على قدر سر الظن
وحسن الظن بأعيان ذلك على مقادير الأغلب . (١)

فلننتقل إلى أي مدى سبق الجاحظ بكاتبه هذا أحاط بهذا سبب
الغش في الفلسفة القرينية ؟ وكما كان فيه لهذا الجاحظ مثله له وتفسيره
نقراشه ..

وهذا شأن آخر على منبني الجاحظ في إبطال الآراء الشائعة التي لا يقبلها
أحد من يقوى في عصره حديثه عن داء الكلب وتأثيره في الكلب وما يحكيه
الناس عنها :

* وكان محمد بن جعفر : عن رجل كلب كلب نأبأ به داء الكلب فها هو علقا
في بحيرة الكلب وحديثي أبو الصربا عن رجل من بني سصد
قالوا : عن سبب الكلب الكلب كان يمشي ويألب الماء بأحد الطلب فإذا أتوه
به ساج عند ساجته لا : لا أريد ذلك هذا سبب صاحب الحقة وذلك أنسبه
يمشون عنها أحد : يمشي ويألب الماء أحد : الطلب فإذا أتوه به سرب سببه
أحد السرب

وأنا - حفظت الله تعالى - رأيت كتابا مرة في الحى ونحن في الكتاب
فمررت له سبي يسمى سبب داء الكلبين وهو قائم يمحور لوجه بعض وجهه
فنفق ثقبه دون موضع البطن من عينه اليسرى فشرق اللحم الذي دون المثالب
إلى شطر خده فمرى به ملقيا على وجهه وجانب صدقه ، وفي المثالب قائما مبهوتا
لا ينفس وأمسكه الفزع حتى طائر القلب ثم غبط ذلك الموضع ورأته بعد ذلك
بشهر وقد عاد إلى الكتاب ولم ير في وجهه من الشتر إلا موضع اللب الذي غبط
به فلم ينهج إلى أن يرى ولا شتر ولا دعا بناء حتى إذ رآه ساج رده ولا بال جسروا
ولا علقا ولا أربابا ما يتولون قليل أو كثير ولا أحد أحد من تلك الشايع يمسكه
أنهم لم يروا كلبا قد كلب ولا أفسد طعنا منه " فهذا الذي عاينت .. وأما السبب
بلغني عن شولا النقات فهو الذي قد انتهت له ؟ (١)

ولا يكفى الجاحظ بهذه الكافية التي يشرحها على بطاين فهم الحاصصة
ممن عاينة الكلب الكلبين يحاؤون أن يجدوا التفسير الصحيح لما روى من قول
السرب : أن داء الطروء شفاء من الكلب يقوى :
* وكان أسحاينا (٢) يزعمون أن قلوبهم داء الطروء شفاء من الكلب على معنى قول
الشاعر :

كَلْبٌ مِنْ حَتَّى طَافَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَأَقَامَ فِيهِ مَسْجِدًا مَغْنَمًا

وَقَالَ مَعْنَى تَرْكِهِ :

كَلْبٌ يَخْرُوبُ بِحَاجَتِهِ وَفَقْدَانِهِ

فَإِذَا كَلْبٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْغَضَبِ نَادَرَ تَأْرَهُ فَقَدْ لَبَّى الْخَفَاءَ مِنَ الْكَلْبِ
وَلَيْسَ أَنْ تَتَأَنَّ دَمًا فِي الْحَقِيقَةِ بِمَرْبٍ * (١)

(٢) نَقْدُ الْمَادَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ :

ولمباحث فلسفة اجتماعية رائدة يستأنل بالنظر إليها أن يعد أسسها
السكرين المربوب الذين يترقبوا مسائل علم الاجتماع وكانت له فيه آراء قديمة
ومفكرات متعمقة . . . ولقد كان الجاحظ في تحليله للأوضاع الاجتماعية وتأملاته
في عادات الناس صائرا يحاول أن يتعرف على الأسس التي تحكم هذه
الظواهر والدواعي التي تحركها ليقتضي له أن يطلع قراءه على أهمية كون منهج
والأسلوب الذي ينبغي أن ينظم على أساسه ما يحتاج منها إلى تنظير وتوضيح
وفي حين تغلب على المجتمع من عاداته الدارة سلطان الجاحظ مسائل متعددة في
قناع الناس بالافتقار عنها فكرة يسوق الحديث عن المادة الدارة في أسلوب
مباخر بجسم موضع الغطاء فيها ويهيئ بالمقشور أن تراجع موقفها عنها مرة -
يسد يرا في صورة المذمومة مقلعة من بحروب قد خبير حقائق الأمور وعرف دخائل
النفوس . . . وكتاب الهداية به أسئلة يصعب حصرها على نقد الجاحظ للمؤسسات
الاجتماعية في أسلوب مبخر له دلالة غامرة ومن أسئلة هذه الماديات ما حكاه الجاحظ
وهو يصور قصة أسد بن جاني . . . يقول الجاحظ عنه :

* وَأَنْ طَبِيبًا فَأَكْمَدَ مَرَّةً نَقَاسَ لَهُ قَاتِلَ : السِّقَّةَ وَبَيْتَهُ وَالْأَرْوَاحَ قَاعِيَّةً
وَأَتَتْ هَالِكًا صَبْرًا وَفِدْمَةً وَلَهُ بَيَانٌ وَسُورَةٌ لِمَنْ أَيْنَ تَوَلَّى فِي هَذَا الْكَسْبَانِ ؟
قَالَ : أَيْ وَاحِدَةً لِنَاقِي عِنْدَهُمْ سَلَمٌ وَقَدْ تَعْتَقِدُ الْقَوْمَ قَبْلَ أَنْ أَوْحِبَ لَابِلَ قَبْلَ أَنْ -
أُغْلِي أَنْ السُّلَمَى لَا يَفْلَحُونَ فِي الْغَلَبِ وَأَسَى أَسَدٌ وَكَانَ يَنْهَى أَنْ يَكُونَ أَسَى مَلِيًّا
وَرَأَيْتُ وَرَحْنَا صَبْرًا * وَكَتَبَ أَبُو الْحَارِثِ وَكَانَ يَنْهَى أَنْ يَكُونَ أَسَى وَأَهْزَكِي وَأَهْزَكِي
أَهْزَكِي عَلَى رَدِّ غَيْطِنَ يَهْنَى وَكَانَ يَنْهَى أَنْ يَكُونَ رَدِّ هَزْرَ أَسَدٍ * وَلَفْظُ عَرَسٍ
وَكَانَ يَنْهَى أَنْ يَكُونَ لَفْظُ لَفْظٍ لَفْظُ لَفْظٍ * (٢)

وفي كتاب الحيوان نشر الباحث كثيرا من ملاحظاته في المصالح الاجتماعية • ويستند
 شار يحلل فيه الجاحل تأثير الملاحظة والملاحظة في التمارن المعادلات المتغيرة
 وتكون المتغيرين من فوايد الراصدين • يقول الباحث :

* هاب آخر ما يدعو الي الفساد وجود اللون وفي البصر على الانسجام
 الذي في انهم أدنى قايين وأدنى حركة عند مثل اللون التواني وكثرة الرواية
 مما ليس فيه • ونحو أن ألهم الناس وجهها وأنهم بها وأنهم نفسهم
 وأقربهم غدا وأقربهم حسبا فان لا راحة قد تكون من كذاها وكذاها من كذاها
 والله يمولاتي وسيدتي لقد أسهرت ليلى وأرقت عيني وشغلتنى عن سحر أميري
 لما أنقذ أمانا ولا لا ولا ولدا لنفسي فباعها ففصح عقدا ولو كانت أسيرة
 انقل بعبالا وأكاسهم كمالا وأطعمهم ملحا فان شيئا مع ذلك من هذا التمشيق
 أن تدع عنه احتاجت هذه المرأة أن يكون معها روح أم الدرداء ومعاذة
 المدونة وراية الفمية والشجاء الدمارجية * (١)

(٢) تحليله للظواهر النفسية :

ومن ملامح فكر الباحث المستثير فهم كثيرا من أسرار النفس الانسانية
 وتحليله لدرجات الناس والتفصيل في سيرة حياتهم ودوافع سلوكهم ونزعاتهم
 وفي هذا الجانب يبدو الباحث وكأنه خبير من خبراء علم النفس الذين
 تعرضوا بدرجات الناس وخصائصهم تحت ملاحضتهم وشيائهم وفيما يلي :

فما هو ذا يحلل ظاهرة التكبر نفسية المتكبرين يقول :

* والتكبر في الأجناس الدليلة من الناس أرسى وأعم ولكن الذلة والقلّة مانعتان
 من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبدة من الاستبداد
 وذمتنا من اليهود • والجدة أن كن من قدر من السلفة والنوم • والمحتقرين
 أدنى قدرة ظهر كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة بالاختلاف بسمه
 فان كان بماله في دور الناس تزيد في ذلك واستظهرت طبيعته بها بالسياسة
 أن فيه رفق ذلك الحق وحياتي ذلك الفتق ومن تلك الطلبة • فتفهم
 ما أقوله لك فانك ستبده فاشيا وعلى هذا الحساب من هذه الجهة يمار الملوك
 أسوأ ملكة من الحر • ومن قد قلته علما وهو أنني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا
 ونريد لي لعب نوحه بهتدار ذلكا ووزنه * (٢)

فقال في رسالته من الحاسد والحاسد :

"... وأنا أقول : حفظ ما عالج السيد قلبا لا لم يتركه فخطب...
ولا قدر على تشخيصه وكتمانته حتى يقرب عليه بالهوى وافذنه في تشديده ويستعمله
ويستنفذ لظهوره عليه فهو أغلب على ما يحبه من السيد على عبده ومن السلطان
على رعيته ومن الرب على زوجته ومن الأسر على الأمير * وكان ابن النعمان
بالنعمان موصولا والدعاء موصولا والشيخ موصولا والدعاء موصولا فأظهر بأسانه
حمدا كان وأغلب عليه أربعمائة سنة لهنى فاشمخ على اتساع قلبه لكتمان ولا حبر على
اكتناسه لما نالت في قلبه بطلية أظهره وأعلنه مع غيره على المكارة وحلله
نفسه على حبسها رقة الكرامة والقائمة لأحجار العنبريق التي تروى عليه...
فتدب بالاثلة من قومه ما يلفت إليها" (١)

أبحاث آراء الجاحظ في الفنون الأدبية والبرقة في تذوقها وتقييمها إلى الفن
النقدى عند العرب أبحاثا جديدة وانتقلت به من طور كانت اللغة النحلية
عنده إلى الثقافية والناحية إلى طور آخر أغنى خصائصه التعمق والتحليل والبحث
عن القيمة الفنية التي يتأوى إليها المبدع الأدبي وتبليغها عما جدها * وتمتد به من
البحاثة من هذه الزاوية علامة بارزة على ارتقاء الفكر النقدي في المدرسة البصرية
في القرن الثالث كما أنها تمتد نمطا فريدا في النقد المصون في مختلف عصوره * وهناك
مجموعة من الملاحظات العامة التي لاحظناها على تراث الجاحظ النقدي أرى أن أجمل
منها يدور للحديث الطعن عن شبح هذا الناقد الكبير رويان ماله من أثر في الفكر
النقدى عند العرب من ناحية أخرى فإن عرض هذه الملاحظات في البداية سيغنيينا
عن التنبيه على طواهر شهرة ورمية في تراث الجاحظ النقدي وميكثف جوانب
لها أهمية خاصة في تقدير مكانته في هذا الباب * * من هذه الملاحظات :

- ١ -

من أهم ما استرعى انتباهنا في تراث الجاحظ النقدي أنه تراث حافل بالكثير
من مقولات الحيوية والفائدة ولا يحتاج الباحث الذي يدرس هذا التراث أن يضعه نفسه
إطار القرن الثالث الهجري * * فعلى الرغم مما عانت إليه الدراسات النقدية في العصر
الحديث من نفخ ومادحتين طامحين من إصلاح فإن الجاحظ قد سبق إلى تفكير
الكثير من الأمور النقدية التي لا يزال النقد الحديث يحذر عنها ويبتعد بها * * ولمسجل
السوق في هذا المجلد الذي تحظى به آراء الجاحظ في فن النقد يرجع إلى أنه - كما
أشرنا - كان صاحب فكر مستنير وحس متحرر وقد أعاد من فكره وعقله بالإضافة إلى ذوقه
الناج وخصرته الطويلة بتراث العرب الأدبي وأطاعه على آداب الأمم المشيلة به
فظهر أثرى ذلك في الأمور التي قررنا ونحيا تلك الخاتمة الفريدة * * ولعلنا يفتسي
تراث الجاحظ التجدد في ميدان النقد دليلا لا يمكن نقده على أن الابداع السبي
حقائق الفن وطواهره ليس وثقا إلى جنس من أجناس البشر أو حضارة مدع
الحضارات من دون نتائج العقلية المستترة والاحساس السوفى في أي عصر كان
وفي أي جنس من أجناس البشر وجد * وقد كان الجاحظ على جانب لاخفاء به من الفكر

المستقيم والمذوق الرفيع والحق السليم ..

- ٢ -

كان منهي الجاحظ في نقد الأدب امتدادا لمنهج عام «مدروسة» في تراثه كله وهو منهي لعدم سيادة التحيز من الآراء المساهقة واحترام النظر العقلي السليم وذلك - فليس اعتقادنا - هو الحرف في استواء الحقيقة النقدية ووضوحها في تراث الجاحظ . ولم نجد في ذلك التراث مظهرا للاضطراب أو التذبذب أو امتزاج النظرية وتضارب الأقوال فليس المسألة الواحدة وكان أفكار الجاحظ في استوائها وتوافقها بناءً منظر مثالي الأركان وتراث الجاحظ في النقد الأدبي يتعاون على تأكيد هذا الضوح الذي أمرنا إليه وذلك يظهر من مظاهر الأمانة الذي يمتد إلى آراء الجاحظ قيمة خاصة لا يشركه فليس استحقاقها أحد فلا يمكن ناقلًا لآراء غيره أو متطفلاً على أبواب البصر بالأدب حتى أنه عندما كان يذكر رأياً من آراء غيره أو تعليقاً لأحد العلماء لا يفترقه أن يوضحه ويبين موقفه منه وقد يوضحه ويشرح فيه لمناهل المصطفى منه والقيمة الفنية التي من وراءه لنحسب من وكان هذا الرأي أو التعليل لم تكن لنا دراية به من قبل ..

- ٣ -

وإذا كان تراثنا النقدي - بمهارة عالية - قد وسع بالاعتقاد والعلم من التعليل والتحليل فما تراث الجاحظ النقدي لا يتدرج تحت هذا الحكم بل يتعد عليه وينطق به لأنه فك الأحكام النقدية التي أرسلها الجاحظ تقريبا مشروحة وموضحة تلك ميزة من ميزات عقلية الجاحظ ومنهج في كافة القضايا التي عالجها فهو عالها ما يلي في إثبات الفكرة التي يؤمن بها ولا يترك سبيلا إلى تأكيدها وتقريرها فليس الأذهان ولتسمر لها الأدلة والبراهين وهو في ذلك متأثر بالذهب العقلي للعالم الكبار والمنهج البديهي السائد في أوساطهم .. على أية حال لم يترك لنفسه الجاحظ آراء وأحكامه النقدية عقلا بل شرح بنفسه أبعادها وأمار إلى مقارنتها وقياسها ولم يدع لنا مجالاً للتفويض أو الترجيح بل تركها حقائق ناصحة تدل على مذهب له جذور راسخة وسمات مميزة .. وذلك غاية أخرى تضيف إلى شخصية الجاحظ النقدية بهذا جديداً من أبعاد الأمانة والكمال ..

تصلت في تراث الجاحظ النقدي البيئة الثقافية في البصرة بكل عناصرها
وعطياتها وفي اعتقادي أن الجاحظ كان أكثر علماء هذه البيئة افادة من
الدراسات التي انتشرت فيها .. ويستفاد من آراء الجاحظ النقدية أنه وفي كثير من
فروع الثقافة التي بلغت أوجها في البصرة في عصره فسرته الدقيقة بأسرار الفلسفة
وتحليله لدقائق تمايزها وأسرارها بالفتى بعد بالاشارة شرة عن ثروات تحفه في فهم
العاشق التي أثرت في بيئة علماء اللغة والنحاة .. وتأريخه للتأثير من الظواهر الأدبية
وفاعته في ذكر أخبار النصارى والخلفاء بعد دليلا على استيعابه لمعظم محضون الرواة
والأخباريين ثم إن الضيق النقدي عنده مركز أساسا على نزعة العقلية المتأثرة بمناهج
علماء الكوفة وقد كانت البصرة مينا لهذا العلم ومنها انتقل إلى مواها من الأصا ..

كانت اهتمامات النقاد قبل الجاحظ مبروكة إلى الفن المصري الذي ظلت له
السيادة والهيمنة على ماعداء من الفنون وماء الجاحظ وانتمى إلى جانب البحر - بالنظر
في لونهن آخرين من ألوان الأدب وما الخطابة والكتابة .. ولكن لون من هذه الأسرار
في نفس الجاحظ لم يفتح ولا اهتمام به دافع .. أما النصارى لأنه مستودع الأحاسيس وعصر
في نال الجاحظ عماد الفنون القوية عند العرب إذ كان مستراح خواطرهم وديوان
بكتهم وسجن بيانه .. وحقيقة أجادهم وتأثرهم (١) بالاضافة إلى أنه أحسن ألوان
الأدب بقوات البراعة ودلائل المبصرة .. وأما الاضافة فقد دفعه إلى بيضاء
مقومات الجودة والرداءة فيها - دفاعه عن العرب ووده على الشهوية في البيان
والتميم فأراد الجاحظ بتحليله لهذا اللون الأدبي أن يدل على أن للعرب فنونا
لا يحذقها غيرهم من البشر وفي فنون لا تملك فيها ولا تكلف بل هي نتائج السليقة القيمة
والطبع القياس .. وأما الكتابة فقد كانت هي الصناعة التي حذقها الجاحظ
وتجر على استاذ أومتها وأعلمته من قيادها قبلها فيها الناية وأرى على النهاية
قد أشرنا في دراستنا لنقد الكتابة في القرن الثالث أن هذا اللون الأدبي بدأ يزاحم
الفن المصري بقوة منذ بداية هذا القرن ورمينا لظواهر اتساع فن الكتابة واستغدامه
في كثير من المجالات التي كانت مقصورة على الشعر قبل ذلك .. وقد كان الجاحظ

(١) قرر الجاحظ هذا الرأي في أكثر من موضع منها ما قاله في الحيوان ج ١ ص ٧٦

صاحب أكبر مدرسة في فن الكتابة في الأدب العربي وكان له تلميذ ولطريقته منه
عناق مشهورون في القديم والحديث ..

وما تندر الاشارة اليه أن الجاحظ على الرغم من انشائه بالنظر في هذه -
الألوان الثلاثة فإنه لم يكن يقضي في تفده بين الشعر أو النثاء أو الكتابة بل كان
يورد الحقيقة النقدية - في بعض الأحيان - ويشل لها بيت من الشعر أو جزء من
خطبة أو صدر من رسالة .. وسخرى أمثلة لهذه الظاهرة في تراثه النقدي .. وليس معنى
ذلك أن الجاحظ كان يخلط اللزوق الأساسية بين عليمه كل لون من هذه الألوان
وما يتلوه - ويفرد به من أحسن - فقد أردك الجاحظ ذلك وواء ولكنه عندما كان
يعني بين هذه الألوان يكون الأصل الذي يدور حوله الحديث شاملاً حقيقة عاصمة
تصدق على كل ألوان الأدب ...

٦ -

وهناك حقيقة يحسن أن نتبع عليها قبل أن نأخذ في تفصيل ما نحن فيه من
النقدي عند الجاحظ أنه حتى أن كثيراً من المسائل الناقية يخلط بها في النثاء
في تراثه ويتميز امتزاجاً شديداً بحيث يصعب الفصل بينهما دون الاضراء بفكر الجاحظ
النقدي ..

وإذا كانت مهمة الناقية تنحصر في استنباط الخصائص الأسلوبية التي يكتسبها
لشدة الأدب بمراماتها أن ينتجوا أدباً جميلاً وبياناً مؤثراً .. فإن مهمة النقد هي
تنقي النتاج الأدبي بيان ما يد من مقومات اللمابة أو التخصير ..

وإذا كنا ندرس النقد الأدبي في تراث الجاحظ فينبغي ألا نتأخذ إذا اقتضانا
البيان أن نورد جملة من المسائل الناقية التي يسطرها وحللها وذلك لسهولة
رؤسها :

أولها : قوة السيلة التي تربط كلا من الملمين بالآخر وكثرة الوثائق التي تفسر
برأيها حتى أن هناك من الباحثين (١) من يرى أنها في عصر الجاحظ
كانت شيئا واحدا ..

الأخرى : أن الفكر النقدي عند الجاحظ قد لا يمكن الفصل بين أجزائه بحيث تبدو
آراؤه النقدية على كثرتها وكأنها تنبع من الأنهار ينحدر من قمة شامخة
ليتمصب بين الأودية والسهول .. فالأساس واحد والقرون متعددة وعكس هذا
تراث الجاحظ كما سنرى يركز على مجموعة من الأركان والبادئ ثم
يتوسع في تطبيقها واستفادتها في كثير من الدراسات الأدبية وكثيرا ما يرى
الجاحظ وهو يقرر الحقيقة الباغية ويشرحها يأتي بالعقل النقدي السدي
يوضحها ويؤكد ما في أذهان قارئيه ..

- ٢ -

ونلاحظ أيضا أن آراء الجاحظ وتعليقاته النقدية التي نشرها في كتبه
ورسائله تحفل إلى جهد عديد لتخليصها وتبسيطها لأنه كان كعادته
في رسائل كتاباته يكرر القضية النقدية في أكثر من موضع صير إليها كلها ذكره بهذا
السياق أو بوجه إليها الحديث ونحن وإن كنا نلاحظ كثرة تراث الجاحظ فسنسكن آراء
وتعليقات نقدية فليبر من شأننا أن نعرض كل ما كتب الجاحظ أو نقله في هذا القصر
وأما غايتنا أن نستخلص مجموعة الخصائص والمزايا التي تميز هذا التراث وتتميز
على شخصية الجاحظ في النقد العربي وأثره في وضع أصوله بتبسيطه ..

مزايا منهجه النقدي

من سمات منهج الجاحظ النقدي أنه لم يكن يصدر في نقده لأدب عن فلسفة
من الفلسفات أو يتأثر بثقافة من الثقافات الكثيرة التي «عاشها وأحاط بها» و«تذوقها»
والنقد الأدبي بمقتضى الأمر كما هو معروف أنه يكون دائما من نتائج الذوق المستحضر
والسقافة المستحسنة وقد عرف الجاحظ كيف يوفق بين ثقافته الموسومة وبين نزعة فلسفي
تذوق الأدب وتقييمه فلم يدع لأى من الثقافات التي ألفتها أن تؤثر في آرائه النقدية

في علم الباحث من على أن يكون النقد انصلت عن بحوثها النقدية وان كان هذا الخلط بينهما في آثار بعض
(١) العلماء كالجاحظ وهد القاهر والمصري من أعلام هذا الرأي الأستاذ محمد زقزلو (سجل
(تاريخ النقد ص ١٥) ويرى أستاذي الدكتور محمد عبد الشعم ختاجي أن بحوث النقد اختلطت
ببحوث البلاغة ولم يفسل بينهما إلا في العصر الحديث وقد سمعت منه هذا الرأي في الفهرسة

أو تطفئ على نظرتهم الغنية التي لازمتها فيما تعلق به على حقائق الأدب وقضاياها
فالجاحل يحترم الحقيقة الفنية ويمدحها أيما مدح كل من أدبى ناجح .. وقد لاحظنا
ونحن ندرس تراث الأديب في النقد تأثره ببرقة علماء اللغة في البصيرة وأعزنا السعي
المظاهر المتعددة لذلك التأثير وكذلك ألحنا إلى تأثير ابن سلام بالبيئة اللغوية
والنحوية وهو تأثير بدأ سافراً في مطلع الأحياء .. أما الراجح فلم نجد في تراثه
النقدى أي مظهر للتأثر بهذه البيئة من البهائم العلمية أو الثقافية التي خللتها
البصرة في عصره وهي نحو الكبرياء وتأثيرها في فكره وفنائه .. ولعل غايته
ما أدته الثقافة للباحث الناقد يتملق بتتاليه تنكبه النقدى والتحقى في التمهيد
للحقيقة الأدبية وتحليلها ولديها ك القيمة التي ينادى عليها الفن الأدبى والأسس
التي إذا لم يحذف الأديب نظامها اختل بناؤه الأدبى ولم يؤثر فى السامع أو القارئ
التأثير المطلوب ..

المقاييس النقدية في تراث الجاحظ :

(١) الصدق الفني :

كان الجاحظ من أوائل النقاد العرب الذين حاولوا تدليس القاصدين
الصدق من غير كما نعرفه باب من أكبر أبواب النثر العربي مما دخله مسدود
الزيف والتلق على أيدي جماعة من مرتزقة النحراء أولئك الذين انحدروا به
أن جعلوه مائة لآلهم المادية والمصنوع الرفيعة دون أن يكون لديهم
يتفهمون به أسرار من الأساطير الصادق أو ظن من الحقيقة الخالصة * * * وهذا
دعا الجاحظ إلى ضرورة التزام النقاد بالصدق في مدائحهم فليصدروا
فيما يقولون إلا عن أساس مادي وإقتناع حقيقي من ذهب إلى أهد من ذلك
فقرر أن من يشيب الشاعر الكاذب يرتكب جريمة في حق نفسه وفي حق القاصدين
على السواء يقول :

" وخير المديح ما وافق جنان الصدق وأصدق الرفق ما ماكن فيه سب
الموصوف ومهد له أنى البيان الثناء والخير الثناء من متى خالف هذه الشبهة
وباب الحقيقة صار المديح ولم يطلع الصدق * * * ومن قبل نفسه قد يحسب
لا يعمد به كان كمدح نفسه ومن أتاب الذاهبين على كذبهم كان شريكهم في
أثمهم وحقيقهم في سخطهم بل كان المحتجب لكبره المحتص لوزره إذ كتمان
التيب عليه والداني إليه " (١)

في موضع آخر يقول :

" وأنفع المدائح لما ج واجد لها على الصدق وأبقاها أثرا وأحسنها
ذكرا أن يكون المديح صادقا وظاهرا حال الصدق موافقا له لا نقا حتى لا يكسرون
من الصبر عنه والواصف إلا الإشارة إليه ولتنبه عليه " (٢)

وروى الجاحظ في الحروان هذه الحكاية قال :

" دخل بعض أفتات حمراء البصريين على رجل من أشراة الروم مسموه
يقال في نسبه فغان : أني مدحتك به غير لم تمدح قط به غير أني مدحتك منه فغان
ما أحوبني إلى النعمة ولا سيما كن شي منه يخلد على الأيام فهاك فغان :

(١) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٧٤

(٢) مجموعة الرسائل ص ٢٤

سألت عن أصلها فيما مضى
فكلهم يخبرني أنها
أبناء تميمين وقد تغسروا
صوتها جوارهم يمسسون

فقال له : قم في لمة الله وسخلة فلصنتك ولمن من سألت ولمن مسن
أبناءه * (١)

وهكذا نرى أن الباحث يحاول أن يضع أساسا موضوعيا يحكم تناسخ الشعر
في هذا الباب ويقوم بمصرعه بالنظر إليه فهو يريد من الشاعر العادج ألا يمسح
لنفسه اختلاق الميزات أو التعلل المآثر التي لا وجود لها بل يدلل على أنها
ألا بالصفات التي تنطوي بها حال المدح ويشهد لها بها الجميع بحيث لا يكون
من الشاعر العادج سوى الإغارة اليها والتذكير بها * * ولعلنا ندر أنه من تحليل
الباحث لهذه القضية وتوجيهه لهذا المبدأ قيمة ما ناله عمر بن الخطاب حين
جودة عمر زهير لأنه كان لا يدع الرزين إلا بها يكون فيه * *

(٢) صحة المعاني واستقاضها :

وذلك بقياس تاليدى من مظاهر النقد المعنى رأينا تاليدى له فليس
مختلف المراح والأطرار التي مر بها النقد وان كما نلاحظ أن استخدام الباحث
لهذا المقياس يبدو أكثر عفا وأبعد قورا إذ ذهب فيه إلى غاية لم يمتلئ به
أحد من النقاد قبله فلم يكتف بحجة المعاني الجزئية التي تتألف منها القصة
أو النص الأدبي بل تطلب صحة المضمون الكلى وتلازمه مع الفرض الأعلى الذي
يرى إليه الأديب * * ومن ثم راعى الباحث أن تكون لكى كلمة من كلمات الأديب
وكن إشارة من إشاراته مفزى وصعب فى تأدية الفرض وحيلولة المعنى * وهذا
مثالان على استخدام الباحث لهذا المقياس النقدي : أولها نقد فهمه
الشاعر الكمي في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم وفطن إلى خطئه ونسب
مآثره يقوى الباحث :

* ومن الدجى الخطأ الذى لم أر أمجب منه قرون الكمي بن زيد *
يدى النبي صلى الله عليه وسلم * فلو كان مدحه للنبي أية لجاز أن يسميه بمسمى
بنى * أو لو كان مدح بعض بنى هاشم لجاز أن يسموه عليه بعض بنى أئمة

أولودهم أبا بلال الخارجي لجاز أن تسميه العامة أولودهم عمرو بن عبد
لجاز أن يسميه المخالف أولودهم السهل لجاز أن يسميه أصحاب الأحنف
فأما مدح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يروونه ذلك ؟ حيث
يقول :

فاعتب الشوق من فؤادي والتمس السر إلى من إليه بمقتضى
إلى السراج النور أحسب ولا يحد نفس رغبة ولا رغب
عنه إلى غيره وطرفي الضمير من إلى العيون وارقبوا
وقبل أشرطت من قصدت ولمسوا صفى القائلون أو ثلجوا
اليد يا بهر من تفتت الارض لم عاب قلبى السيد
لم بتفنيته الدمان ولمسوا أكره لك النجاس والدنس
أنت المصطفى المحض المهدى فى النسبة إن نص قولك التمس

ولو كان لم يبق فيه (عليه السلام) إلا شيء قوله :
هو لك قبر أنت فيه ويرك سكت به وله أمر بذلك يشرب
لقد غيرها برا وحزما وفائلا عتبة وراك السفيح الضمير

فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأعمار التي لا تصلح فى فاصلة
العرب لما كان ذلك بالمحمود فكيف من الذى حكينا قبل هذا ؟ (١)

والآخر نقد فيه لفظة جاءت بحقة فى غير موضعها فأفسدت المعنى وأغلت
بالمراد فيه شرح الجاحظ بدأ بها من مبادئ البيان ولغت الأعمار إلى خاصية
أساسية من خصائص العرب فى التمييز وتفاوت السمات .. يقول الجاحظ :

* وفى مضمون عمر النابذة :
فالتيت الأمانسة لم تخنيسا كذلك كان نوح لا يخسبون

وليس لهذا الكلام وجه وإنما ذلك كقولهم كان دأب لا يخون وكذلك كان
نوح لا يخون عليهما السلام .. وهم إن لم يكرهوا فى حال من الحالات أصحساب
خيانة ولا تجوز عليهم فإن الناس إنما يفسدون العث بالشئ المتأد من فعل الرجال

ومن سائر أمورهم كما قالوا عيسى بن مريم الله موسى كلم الله وإبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم... ولو ذكرنا ذكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان أيوب لا يجمع كان قولا صحيحا ولو قال : كان كذلك نوح عليه السلام لا يجمع لم تكن الكلمة أنفقت حقها... ولو ذكر الاحتمال وتدرج الخطأ فقال : وكذلك كان معاوية لا يفسد وكان حاتم لا يفحش لكان كلنا مصروفا عن جهنمه ولو قال : كذلك كان حاتم لا يدخل لكان ذلك كلاما مصروفا ولكان القول قد وقع مؤمده وإن كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتمال والتدرج إلى الكثرة (١)

(٢) غزارة الخواطر المصيرية :

من دلائل غزارة الخواطر المصيرية عند الناصر أو الأديب عامة أن يحسن التلقى لنفسه منذ بداية الأثر الذي يتذوقه إلى اختتامه أنه أمام قيم نية جديدة وواظرة أدبية طريفة ونهضة مصيرية مؤثرة تفتدي أحاسيسه وتفاعف من انتاعه وتنشئ فيه الاحساس بالجمال... وقد أدرك الجاحظ أن المصير يحلو ويغيب إذا كثرت فيه التهيؤات المصيرية وأن الناصر يعد مؤقلا إذا استطاع أن يفتح على البعيد والطريف من المعاني وليس من دلائل الشاعرية أو قايصها في نظر الجاحظ أن يكون الشاعر من القوم في مختلف الأغراض والشعر دون أن تتوالى نغمته تلك الخاصة المبهمة بل أن الشاعر لا يهيمه أن يقتصر على فن شعري واحد مادام يطمح به أحاسيسه وشعره بأنفسه وخواطره يثوب الجاحظ - فيما رواه صاحب الأغاني -

« لولا أن السعاس بين الأحنف أحنى الناس وأعمهم وأوسهم كنا وما لمرا ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه لأنه لا يهجم ولا يندج ولا يتكسب ولا يتصرف... وانعلم شاعرنا لنا واحدا لزومه تأحين فيه وأكر» (٢)

وقد لاحظنا ونحن ندرس تراث ابن سلام النقدي أن تعدد الأغراض المصيرية كان ضمن القاييس النقدية التي صدر عنها في كتابه طبقات النصاراء وما مررنا الجاحظ يقرر عكس هذه النظرية ويرى أن كثرة المعاني وتوحيدها هي الأساس...

وإذا كان الجاحظ يؤثر النص الأدبي الذي تغزى معانيه وشكروا عباراته فإنه يقصد المعاني الواضحة التي تنسج إلى دغائل النفوس قبل الآذان وتهدد بهتافات النجوم والوحدان لا المعاني القائصة التي يتشتر في ادراكها حسا الحق ويجهد العقل ذاته في التصرف على مدلولاتها وقاعدتها والجاحظ يفتخر من هذه الزاوية إلى العمل الأدبي على أنه ذو وجاهة خاصة في إيصال المعاني إلى العقول إذ يملك إلى ذلك أقرب طريق وعرضها في أبهى ممرى وأوضح صورة .. روى صاحب الأغاني قال :

" أخبرني أبو ذؤلف هاشم بن محمد الخزاعي قال : تذاكروا يومئذ شمر أبي المتاعية بحضرة الجاحظ إلى أن روى ذكر أرجوزته المزدوجة المسمي سماها ذات الأمان فأخذ بعض من حضر ينشد ما حتى أتى على قوله :

يا للباب المسجون التماسيس روائح الجنة في المسنناب

فقال الجاحظ للعميد : قف .. ثم قال : انظروا إلى قوله :

روائح الجنة في المسنناب

فإن له معنى التلويح الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتمجس عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القريب إلى قوله أس من اللسان إلى وصفه * (١)

ولعلنا نلاحظ أن الجاحظ أشار في حكمه على شمر أبي المتاعية المتقدم إلى حقيقة نقدية مهمة يحترف بها النقد الحديث، وهي أن هناك مسكن مظاهر الجودة في الأعمال الأدبية ما يصعب تحديد أسبابه لأنه لا يمدد المعنى غامضة فنية معينة أو يوضع لقياس جمالي محدد ولكن يردته ترجع إلى استعمال المذوق السليم له استحضارنا تلقائيا ولم يزل عن مرهف الاستحسان لما استطاع أن يدل على شيء معين أو كما يقول الجاحظ يحتاج إلى التطويل وإدامة التفكير قبل أن يحل به استحضاره ..

ومقياس وضع السماني واكتشافها مدأ عام من مبادئ النقد عند الجاحظ
فهو لا يختص بالشعر بحسب بل هو مقياس للنتاج الأدبي الجيد بصفة عامة
يقول الجاحظ :

« .. وأحسن الكلام ما كان قليله يخنيك عن كثيره ومناه في ظاهر
لفظه وكأن الله عز وجل قد أنبئه من الجلالة وفناء من نور الحكمة على
حسبانية صاحبه وتقى قائله فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ لطيفاً وكما أن
صحيح الطبع بعيداً من الاستكراء ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكسيف
صنع في القلب صنع البيت في التربة التربة وهي فصلت الكلية على
عذة السرطة وفدت من قائلها على هذه الصفة أصحابها الله من التوفيق
ونحها من التأيد مالا يحتج من تم يساه به مدور البهارة ولا يذهل عن
فهمها عقول الجيلة » (١)

(٥) القيمة الفنية :

من شواهد عظمة الفكر النقدي للجاحظ مراعته في أهم حقائق الأدباء
وتحديد أعماله - تفرقه بين الثبة الفنية التي هي الأساس في كل عمل أدبي
جيد وبين ما عداها من القيم التي قد تجيء عرضاً ومحو هذا القياس في نقد
الجاحظ أن الأدب يجب أن يقو بمقدار ما فيه من قيم فنية ولا ينبغي أن يحتجب
له قيم أخرى فكرية أو فلسفية فإذا استطاع الشاعر أو الأديب أن يولي عظمته
الأدبي نصيبه من هذا الجانب فلا عير عليه بعد ذلك وليس للناقد أن يلتبس
بإراء الرأى لتقاليد الفن وأصوله أمراً أخرى ..

والجاحظ عندما عرض هذا المبدأ كان يريد أن يقرر أصلاً مهما من أصول
النقد الأدبي وصحيح خطأ كبيراً وفي فيه كثير من الناظرين في الأدب والتصديرون
لنقد أدباء القرون فيه إلى الخلط بين ما هو من أسس الفن ودعائه وبين
ملا يتصل به بسبب ..

والقريب أن كلام الجاحظ في تقرير هذا البعد قد أسس فيه وحلله جماعة من الباحثين بالاحتكام ونوا عليه نتائج لا أساس لها من الصحة .. ونحن ثبت كلام الجاحظ ونفكره برهته لشرف الفرض الحقيقي منه كما يتضح من السياق ..

يقول الجاحظ في كتابه (الحيوان) :

* والقضية التي لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء القرى والأصنام من المولدة والثابتة وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه .. وقد رأيت ناسا منهم يهيجون أشعار المولدين ويستقطون من رواها .. ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر فسر بصير بهبوط ما يروى ولو كان له صبر لعرف موضع الجيد من كان في أي زمان كان * (١)

وحتى هذا القدر من كلام الجاحظ ندرك أنه يناقش قضية عامة من قضايا نقد الشعر وكتلته فيها يصور روحه النقدية واهيمته المحلية الشحيحة إذ لم يقطع بأن العرب أشعر من المولدين على الإطلاق وإنما يعمم عامة العرب أشعر من عامة المولدين وأظن أن أحدا لا يستطيع أن ينكر ما في هذا الرأي من سداد واقترب من الحقيقة ثم يعلن الجاحظ انكاره لتعصب الرواة أو النقاد على المولدين واستخفافهم بأشعارهم ما لا يتفق مع الحقيقة ويتنافى مع الموضوعية ثم يأخذ الجاحظ بعد ذلك في عرض صورة من صور النقد الخاطئ وخلق عليها بما يوضح مداه في تقويم الشعر وإدراك قيمته ليقول بعد مثالبه السابقة مباشرة :

* .. وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استعجالته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف راعيا حتى أخبره بمدواة وهدايا حتى كتبها وأنا أزعج أن صاحب هذين البيتين لا يقوى شعرا أبدا ولولا أن أدخل في الحكمين يعني القتل لزعمت أن ابنه لا يقوى شعرا أبدا وما قوله :

لأعطين الموت موت البطي	وأنا الموت سؤال الرجال
كلهما موت ولكن من ذا	أقطع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها
 المصنف وسنرى والبديهي والقروي والمعنى وإنما الشأن في إقامة الوزن وتفسير
 اللفظ وسهولة المعنى وكثرة الماء في حجة الدبح وروية السبائك فأنما المفسر
 صناعة وضرب من الشئ ويضمن التصور (١) .. هذا كلام الجاحظ كله ولقد فهم
 منه بعض الباحثين أن الجاحظ ينتقص تفهيم الألفاظ على المعاني ونسب الروايات
 في الاعمال الأدبية إليها من دون المعاني (٢) واعتقادي أن الذين استخرجوا
 من كلام الجاحظ هذا الاستنتاج لم يفهموه حق فهمه ولم يدركوا المعنى الحقيقي لسنه
 وطلمهم أخذوا عبارته عن المعاني وكونها مطروحة في الطريق يدرفها المعنى والمعنى
 الخ .. متورة عما قبلها ولم يراعوا مضمون الكلام ونحو السياق .. فالمعاني
 التي يتحدث عنها الجاحظ كما يشهد مضمون الرواية .. ليست المعاني المتابلة للألفاظ
 وإنما عريفها بالمعاني هنا تلك الضامات الكلية التي تستاد من جملة الكلام ومهارة
 أخرى يقصد المعاني في عرف أولئك الذين يفكرون في الأسماء يقصد التماس السرائر
 الصائب والحكمة الرائدة والاستفادة بأراء المتوسمين بقوانين الحياة وصائر الأمور
 ولما نحنا النظر في مضمون البيتين المذكورين بناء على هذا التوليف لنا أن ..
 معناها لما يحزنه المعنى والمجنى كما يقول الجاحظ .. فهمون البيتين أن مضمون
 تلطفه اللطافة إلى ألفة ماء وجهه في سؤال الناس يحسب في عداد المعنى بل لميل
 انيت أقل مماثلة منه لأن البيت لا يتغير بمذلة السؤال .. وهذا المعنى كما يبدو
 متغير ومزوف لأوساط الناس لا يفهم بأدراكه أحد دون أحد من يستوى الجمين في معرفته
 والاقرار به .. وكثيرا ما نسمع المصنف في عهده يقولون : " الحاجة لغير الله مذمومة " ..
 ويحرمون عن الشئ المكروه الذي يكرب النفس بأنه موت أو كالموت كما أنه من المألوف
 أن نرى الفطر السليمة يفضلون الموت على ذن الحاجة إلى الناس .. وهكذا نرى
 أن مضمون البيتين ليس ما يحتاج إلى تأمل أو إحسان فكرهية .. وكان في استطاعة الشاعر
 أن يؤثر بضمونه هذا لو أنه أحسن سياقته ووضعه علينا في صورة تخرج أحاسيسه بديع
 ذل الرجال من ألم وهانة وأهدار لثمة ولكن عرض المضمون الذي يقصده في أسلوب
 تقريرى بعيد عن البعد عن طبيعة الشعر بحيث لم يمد لكأنه في تقرير هذه الحقيقة

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٢٠

(٢) ردد جماعة من الباحثين هذه الدهوى وقرروا أن الجاحظ كان زعيم المدرسة السني

تحتد باللفظ في مقابلة أسرار المعنى وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني ومن ردد

هذا الكلام الأستاذ بدوي فإنه على كتابه البيان ١ ص ١٤١ و١٤٢ وما

في انتقد ص ١٥٣ ..

فصل على كلام العامة .. ولعلنا نلح على سهولة النسخ ونقل الراجح الذين يبدون ،
بشكل واضح في البيتين ما يبعدهما عن ربح الشعر .. ولنتحفظ على تلك الكلمة
التي بدت بها وهي (لا تحمين) والتي هذا التوكيد بالثون المشددة من تقييد
وجانبة للتلف والتعرق الذي يليق بأسلوب الشعر .. ثم ذلك الثقل في لؤلة (الهي)
في موضعها هذا وكذلك كثرة أدوات الإشارة " ذا " و " ذاك " .. ولم أورد هنا
أن نستخرج من البيتين أية قيمة فنية أو ميزة تمثيلية لما وجدنا إلى ذلك سبيلا . وإذا
كانت القيمة المعنوية للبيتين معروفة لعامة الناس كما قررنا ولم يكن لهما قيمة فنية
أخرى فلم يبق إذا لا استحصانها وجه من الوجوه ..

وتحس تؤكد هذه الحقيقة ونسب القول فيها لأن الجاحظ نفسه كان يعتمد
بالشعر الحكى ولا يرفقه وذلك حيثما جاء في عبارة وصية ودل على نظر متمسك
وحسن تأمل ولم يكن في النهاية هوكن هدف الشاعر من قصيدته أو شعره بل يكفيه
أن يشرته البيتين أو الأبيات في ثنايا القصيدة كلها .. يقوى الجاحظ :

" لو كان شعر عالج بن عهد القديس وسابق البهرى كان شرقا في أخصار
كثيرة لصارت تلك الأسماء أرفع ما .. عليه تطبيقات ولصار شعرها نوادر رائدة
في الآفاق ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر وسكنى
لم يخزن السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام هذه سقى " (١)

هذا بلغ غيبتنا لما يقصده الجاحظ بالمعاني في الرواية السابقة والذي يدعم
هذا الفهم هو كده أن الجاحظ وهو يطل عناصر المهارة في صياغة الأدب جميل
متطرقه من فكرة محددة خلاصتها أن يحذف الأديب نظام الملاقة بين الألفاظ
ومعانيه بحيث تكون الألفاظ أداة لإظهار المعاني وإخراجها من حيز المدح والضموض
إلى حيز الوضع والبيان .. يمكننا القول بأن محور نظرية الجاحظ في البيان هو
المعاني التي تؤدها الألفاظ دون زيادة أو نقصان وتكون مهنة الأديب هي اصطلاح
مطلق أدبه على حقيقة أحاسيس وأفكاره وتوجيهه به خواطره . وبالتالي فإن أهم
أسباب القصور في هذا البيان أن تغل المعاني خافية والمقاصد غائبة ما يحسن
المتلقى إلى التأويل والترجيح وفي هذه الحالة تصبح الألفاظ طرفا خاليا قالها أجيوس
وسنمر بن لكلام الجاحظ في هذه القضية بعد قليل ..

وإذا كان الجاحظ أراد أن يخلص الشعر العربي من الزيف الذي يلصقه به
 ذور الأذواق السقيمة فانه بما قرره عن طبيعة الشعراء وأن الشأن فيه إنما هو
 في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ ... الخ يريد أن يضع أمام الناقد العربي
 أساساً موضوعياً لطبيعة هذا الفن الأدبي ودعائمه التي لا يستقيم به فيها ... ولميل
 الجاحظ كان أسبق ناقدينا العرب إلى تقرير هذا المفهوم الذي يميز فن الشعر
 وتنظيمه به إلى صفات الفنون التي تطلب لذاتها وتستحب لما تشي به نفسها من
 أحاسن بالجمان وأعجاب ببراعة الميقنة المتفتنة ... وهذا ما يميز فنان
 الشعر عن الكلام العادي ^{ولم يمار الشعراء وحذفهم في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ وهو ما لم يفرج} ^{ولا يمار الشعراء وحذفهم في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ وهو ما لم يفرج}
 ولا لبيانهم مزنة ... والثاني فإن هذه السمات التي تميز فن الشعر هي الحد
 الفاصل بين ما يتحقق اسم الشعر ولا يستحق هذا الاسم ... وهذه الأسس
 التي عدها الجاحظ دعائم لفن الشعر هي من الشاعر بمثابة التطريز الجليل
 من صانع النسيج والتصوير البديع من الرسام ... وهكذا يرى الجاحظ
 يلك الشعر في زهرة الفنون الجميلة ... من أبعاد الجاحظ بأهمية المعاني
 في الأدب - كما سنرى - فانه يرى أن الشعر يعبر عن المعنى في إطار فني
 وشرقي بالحقيقة ولكنه يشرحها في عبارة منفسية وفالها بفحالة ...
 الأخيلة والصنور الجميلة ...

عندما في اعتقادي ما ينفس حسن كلام الجاحظ في الرواية المقدسة
 عليه أما أن نستدل من كلامه على أنه من أنصار الصياغة اللفظية
 وأنه لا يرى للمعاني فضلاً في متعة الأدب فذلك بعيد عن مذهبه كمثل
 البعد بل هو للملكة النقدية وشبهه لأرائه الأدبية ...

القضايا النقدية في تراث الجاحظ :

في تراث الجاحظ مجموعة مهمة من القضايا النقدية بطل القوم فيها
وكسر التقييد عليها وشرح أبعادها وأصولها وعلى تصور بحق مدى أهميتها
الأثر الذي تركه الجاحظ في تراثنا النقدي وإسهامه في تحليل القواعد
وإرساء الأسس ..

ونقسم تحليل الجاحظ لهذه القضايا بالتميق والاستقصاء وسحة النظر
والاستدلال كما أنه يصدر فيها عن فهم أصيل لطبيعة الفنون الأدبية والنواحيين
التي تحكمها ..

وسيقض لنا من عرض هذه القضايا أن الجاحظ سلك فيها درهما لم يسبقه
إلى إرشادها أحد ونحا في دراسة الأدب وتقويمه منحى جديدا يتميز بالاعالية
والموضوعية ويهتدى إلى مفاهيم قيم أساسية في مختلف فنون الأدب ..

ومن هذه القضايا التي نعتيها مايلي :

(١) الأدب المؤثر :

يعد الجاحظ أسبق النقاد العرب الذين راعوا في تقويم العمل الأدبي
كونه مؤثرا من ذهنية التلقي بحيث لا تكون قيمة صفة في فهم مايقول
الأديب وبالتالي يحدث العمل الفني تأثيره المطلوب .. وقد حرص الجاحظ
على مراعاة هذا البعد وأشار إليه في مواضع متعددة من كتبه وسأطرح
كأنه أراد أن يضع معيارا ينظم تلك العلاقة المهمة بين الأدب والمجتمع ..
وسنظن أن نقرر على ضوء فهمنا لما قاله الجاحظ في هذا البعد أن النهاية
من أي عمل أدبي ينبغي أن تكون عدة التأثير في السامع أو القارئ وإيصال
المضمون إليه سواء أكان هذا المضمون يتخدم هدفا من أهداف السياسة
والمجتمع أم كان الهدف من التأثير الفني المجرى .. وأساس هذه النظرية
في رأي الجاحظ استخدام الأسلوب الملائم للجمهور الذي يتوجه إليه
الأديب بحمله وعوامل النجاح فيه تتحقق بمراعات الجوانب التالية :

١ - الألفاظ :

فلكن قطاع من قطاعات المجتمع ألفاظ جرت عادة أهلها على استعمالها حتى سهلت على أئمتهم واعتادوا تكرارها .. ونهضوا لأكديب أن يلاحظ ذلك في الفصل الأدبي بعد أن يرتفع بلفتهم أساسا عن ألفاظ السفلة وطلانة السلطين وقرب الأعراب . يقبلون البياض : " وليس الكتاب إلى شيء أحسن منه إلى إلهام حانيته حتى لا يحتل الناس لما فيه من الروعة ويحتاج من اللفظ إلى تقدير يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ويحطه عن قرب الأعراب ويحشون الكلام وليس له أن يهذه جدا وينقعه وصفه ويرقه حتى لا يخطئوا إلا بلب اللب واللفظ الذي قد حذف فصوله وأسقط زوائد حتى عاد خالما لأشوب فيه فانه إن لم يزل ذلك لم يفهم منه إلا بأن يجدد لهم إلهاما مرارا وتكرارا لأن الناس كلهم قد تعودوا البسوط من الكلام وصارت إلهامهم لا تزيد على عادتهم .. وفي كتاب أقليدس كلام يسد به وهو عربي وقد صلي وطوسعه بعض الخطباء لما فهمه ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر مسر وتمرد اللفظ المنطقي الذي استخفي من جميع الكلام " (١)

وقول في موضع آخر :

" ولكن قول الألفاظ حظيت عندهم وكذلك كسل بليغ وصاحب كلام مشهور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام عوزون فلا بد من أن يكون قد سبق وألف ألفاظا بليغاتها ليدورها في كلامه وإن كان واسع الملمح غزير المعاني وأنا أقول في هذا قولا وأرجو أن يكون مرضيا .. فان رأي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادم في المعاني التي في عبارتها والمادة فيها أن اللفظ بالشيء المتبدد الموجود وأدع التلطف لما عسى ألا يسلم ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة .. وأرى أن اللفظ بالألفاظ المتكلمين مادم خائفا في صناعة الكلام مع خسوأس أهل الكلام فان ذلك أفسد لهم على وأغف لمؤتته على .. ولكن سئل

صناعة اللفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان مواهبهم فلم تلبسوا
بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلها لها بينها وبين تلك الصناعة
قويح بالتكلم أن يقتصر إلى اللفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة
أو في مخاطبة المراء وانتجار أو في مخاطبة أهله وعده وأتسبه
أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر وكذلك تارة من الخطباء
أن يطلب اللفاظ الأعراب واللفاظ العوام وتعرف في صناعة الكلام داخل
ولكن مقام ثان ولكن صناعة يمكن (١)

المعنى :

ومن المعاني ما يكون في طبيعته غفلة فهو يحتاج الأديب
لتجلية حقيقته إلى شرح وإيضاح وإعادة وتكرار ومنها ما هو واضح
جلي لا يتطلب شيئا من ذلك فعلى الأديب أن يراعى هذا البعد فلا يكثر
في معرض الحديث عن المعنى الواضح اليسير ولا يضي مع المعنى
القاصي دون أن يبعد ويكرر ويشرح ويوضح ..

يقول الجاحظ :

« وأما الألفاظ على أقدم المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها
لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها .. والمعاني المفردة
البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه
المعاني المشتركة والجهات المتشعبة .. ولوجه جميع أهل البلاغة
أن يخبروا من دونهم عن هذه المعاني بكلام جدير يفنى عن التفسير
باللسان والامارة باليد والرأس لما قدروا عليه .. » (٢)

القياس :

قد يقتضى القياس من الأديب أن يترك التأنق في عبارته ويكتفى
بإبراز المعنى غفلا لا تعمل فيه ولا تصنع وذلك حيث يكون هذا السلك
أنسب لأن يحقق الأديب بساطته الخالية التي يريدها من عمله الأديبي

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٦٦

(٢) الحيوان ج ٦ ص ٢

يقول الجاحظ في رسالته إلى أبي الفرج الكاتب في السودة والخلطسة
موضحاً كيفية التردد إلى الحاكم والتلطف في الدعوى :

... ولذلك التمسوا الرفق والتوفيق ولا يجاز وحسن
الاختصار وانظروا في الموت وأن يخزن الألفاظ كلامه يحسن كلام الظلم
حتى يترك اللحن بحجته بعد ويخلف الداعية كثيراً من أدبه وفنائه
من محاسن منطقته الثعالب لمراساة خصمه في سمف الحيلة والتشبهه
في قلة الفطنة .. نعم متى كتب كتاب سماية وحل وأغراق فيلح حسن
في أعرابه ويتخفف في ألقاظه ويتجنب القصد ويهرب من اللفظ المعجب
ليخفى مكان حديثه ويحتر موضع ريقه حتى لا يحقر من عند الخصم
ولا يتحفظ منه صاحب الحكم .. بعد ألا يضرب بعين معناه ولا يفسر نفس
الافصاح عن تفسير مفزاه .. وهذا هو الذي يكون الميم فيه ألسنين
وذو الضباوة أفطن والردى أجود والأنون أجبر والمضج أحكم
إذا كان غرضه الذي يريد بهى وقابته التي إليها يجري الانتفاع بالمعنى
التخبر دون الباعاة باللفظ وإنما كان غايته إيصال المعنى بالتخبر
إلى القلب دون نصيب السمع من اللفظ الموق بل ربما لم يستعرض
باللفظ السليم حتى يمسسه ليقع المجز موقع القوة ويمر في المعنى
في محل البهانة إذا كان حق ذلك المكان اللفظ الدون والمعنى
النفيس .. (١)

(٢) الألفاظ والمعاني :

إذا كنا أبحثنا فمما سبق إلى أن الجاحظ لم يكن يتجنب تفصيل الألفاظ
على المعاني كما يبدو جماعة من الباحثين ثاب ما ذكره في هذا الموضع -
موضح بهجلاً وشواهد من كلام الجاحظ نفسه أن هذا الحكم القراء لا أساس
له من الحقيقة وأن تراث الجاحظ يدعمه ويشهد بخلافه ..

وملخصة رأى الجاحظ في قضية الألفاظ والمعاني أن الألفاظ بنفسها أن
تقد على قدر المعاني بحيث لا تكون فائضة عنها فتصبح خطأ ومبذرا

ولا مقصورة لتركها فائدة تحتل الى تأويل وتخليب .. ويرى الجاحظ أن مهمة
الألفاظ تنحصر في إشباع السامع وتصوير ما يقصد اليه الأديب ووثق
الجاحظ الوضع في الأدب لأن نفوس السامعين عثاج الى هذا النوع
وتطمئن اليه وتجد فيه راحتها وكفايتها ولا تتكلف معه الكد أو التعب لمس
استباط المعنى والتأويل مراة المضمون ..

وأوضح الجاحظ أن استفادة المتأديب بمعاني الآخرين وتأملاتهم
لا يبرره ولا ينبغي أن يسأب من أجله .. أما الالتفات بألفاظ معينة ينقلها
المتأديب من كلام أديب آخر فهو من الخطأ وطية الاخفاق في صناعة الأدب
وذلك اذا جاءت مقصورة ومحمدة في مواضعها .. وحصل الجاحظ على الذين
يختلون بالألفاظ ويصرفون اهتمامهم الى تزجيتها وتحسينها في الوقت الذي تكون
معانيهم منها غافية وقاعدهم ملقوة ..

يقول الجاحظ موضحاً هذا المذهب : في فصل يتحدث فيه عن رياضة
الصبى فمن رسالته في مدح التجار ومنه عمل السلطان :

" ثم خذ (أي الصبي) يتعرف حجي الكتاب ويخلصهم باللفظ السهل
الشريب الباعذ الى المعنى الخاض .. وحذره التكلف واستكراه المبالغة فان
أكرم ذلك كله ما كان اهتمام السامع ولا يحى الى التأويل والتعقب ويكون قصورا
على معناه ولا مقصرا عنه ولا فاضلا عليه فلاختر من المعاني عالم يكن مستورا باللفظ
التمعق مشرقا في الاكثار والتكلف لما أكرم من لا يحفل باستهلاك المعنى
مع براعة اللفظ وفهمه على المعاني بعد أن يتسقى له القول وسمازال
المعنى محجبا له تكلف منه المبالغة فالمعنى بعد عقيم على استغنائهم
ومارء المبالغة لغوا وظرفا خاليا .. وشرب البلقاء من هيا رسم المعنى
فهل أن يهوى المعنى عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاستغناء
حتى صار يجر اليه المعنى جرا ولزقه به الزاقا حتى كأن الله تعالى
لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره ومنه من الانصاع الا به ..

... وبالجملة ان لكل معنى شريف أو ضيق هزل أو جرد أو عناية ضيقة
من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر عنه ..

ومن قراء كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على
سبيل الصواب ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ * والخسران
ههنا في وزن الوجه هناك لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حله الخسران
عليها والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها وضربها في غير مكانها
وساخ الألفاظ ضارة وثانفة : فالوجه النافع أن يدور في سامعه ويذهب فحس
قلبه ويختل في صدره نادا طال مكها فتأكدت ثم تلاقت فكانت نتيجة حسنة
أكرم نتيجة ومعرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخزن غير مشترقة ولا مختلصة
ولا مخصصة ولا دالة على فقر ... وبين الشيء إذا عثر في المصدر ثم سألني
ثم فزع ثم نهى وبين أن يكون الخاطر مختارا واللفظ اعتسافا واقتصافا فسرق
بين ... والوجه الضار أن يحفظ اللفظ بالعيانها من كتاب بعينه أو من
لفظ ربيعي ثم يريد أن يعد تلك الألفاظ قسما من المعاني فهذا لا يكون
إلا بخيال فقيرا وغائفا سرقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلنا لمعانيه
مضطرب التأليف منقطع النظم ... (١)

وهكذا ينظم الجاحظ العلاقة بين الألفاظ والمعاني ويوضح أهمية
كل منها في بناء المعنى الأدبي الناتج وقد أوضح أن الألفاظ تفتح المعاني
وأبدا لا تطف ولا ترق إلا إذا أوضحت معانيها وتعارفت على تجلية مقامه
الأدبي والتصوير الصادق لما في ضميره ...

وقد كبر الجاحظ شرح هذه النظرية في مواضع متعددة من تراثه * وهذا
جزء من رسالته التريخ والتدوير وهي التي يتكلم فيها بأحد بن عبد الوهاب
وينسب إليه على سبيل السخرية العلم بكل فن والاحاطة بكل شيء ... يفسر
الجاحظ :

* ... وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعاني وأخفاها وأسررها وماعدا
وأن راقية سبع القمر وأمتالت قلب السريخ * أعجب الألفاظ عندك مارق وعذب
وخف وسهل وكان موقفا على مناه وقصروا عليه دون ما سواه لا تافئ ولا تقسم
ولا مشترك ولا يفلن ... (٢)

(١) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٥٨

(٢) تصور الجاحظ على هامش كتاب الكامل ج ١ ص ٢٧

آمن الجاحظ بأن المواهب الفطرية هي أساس التبرع في النحس

الأدبية غير الأدبية وأشار إلى أن المواهب والملكات تتنوع بتنوع هذه القو
 في الفنون الأدبية يكون لأديب ملكة في قرض الشعر ولاخر ملكة في الخطابة
 وثالث موهبة في الكتابة .. والشاعر قد يظهر نبوغه في لون معين من السوان
 الشعر مثل الغزل أو الجوف ولا يحسن ماعداء كالهجاء أو المديح وقد يجيد
 في القريض ويخفق في الرجز وقد يحدث له المكس وقد يجيد فيها ممسا
 والباحظ عندما يحل هذه الدائرة الصعبة من المواهب والملكات
 التي هي الرواقد البعيدة للأفعال الفنية يريد أن يلفت نظر المقلد إلى أن
 من واجبهم أن يتصرفوا على نواحي الصوع التي تكمن في طبائعهم ويعملوا
 على تسميتها وإثرائها بالاكساب والتعلم فلا يقبل الانسان الا على اللون الذي
 يحس أنه شرائع من جزله ونوازعه وما يتحرك في دخيلة نفسه .. وقد أورد
 الجاحظ في البيان والتبيين مجموعة من الأخبار المضمومة إلى الشعر حول هذه
 المسألة ولاحظ أنها تتناقض مع الأصل الذي تدبر عليه طبيعة المواهب والملكات
 فأعلن الجاحظ رفضه لهذه الأحكام الخاطئة وسط القول في تطويل المواهب
 والملكات .. يقول : " وقال مسلمة بن عبد الملك نصيب : يا أبا الحجلة أما تحسن
 الهجاء ؟ قال : أما تراني أحسن مكان عاتاك الله لا عاتاك الله ؟ ولا أرو
 الكميته بن زيد على الاطالة فقال : أنا على القصار أجدر . قيل للمعجب
 مالك لا تحسن الهجاء ؟ قال : هل في الأرض عاتج الا وهو على الانساد أقدر ؟
 وقال رؤبة : الهدى أسرع من البناء " (١) ويقول الجاحظ بعد ذلك ببارعة :
 " ... وهذه الحبي التي ذكرها عن نصيب والكميت والمجاء ورؤبة . انما
 ذكرها على وجه الاحتجاج لهم وهذا شهر جهل ان كانت هذه الأخبار صادقة
 وقد يكون الرجز له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ويكون لبيته
 طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة ويكون له طبيعة في الحداء أو في
 التمهير أو في السراة بالألحان وليس له طبيعة في الغناء وان كانت هـــــ
 الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحن ، ويكون له طبيعة في الناي وليس له
 طبيعة في السرناي ويكون له طبيعة في قسبة الراعي ولا يكون له طبيعة في ســــ

القصبتين المذكورتين ويكون له طبع في صناعة اللحن ولا يكون له طبع فسيبقى غيرها... ويكون له طبع في تأليف الرمائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قولي بيت شعر مثل هذا كثير جدا... وفي الشعراء... لا يستلحق مباودة الرجز إلى القصيد... وفي الشعراء... من يخطب ومن لا يستلحق الخطابة وكذلك حال الشعراء في قولي الشعر... (١) وإذا كان الجاحظ قد نهى على وجوب مراعاة المواظب والبهارات الطبيعية ودعا إلى مدح الأديب عن موهبة متأصلة في نفسه ومترجمة بروحه - فإنه لم يوفق في تشكك الذي يحسن نفسه على ما ليس في طبيعتها وبين البعوى الذي يصادف الفكر في تناقض الأديب لبيده وتنقعه ويقوم ما يحتاج منه إلى تفكير - وأشار الجاحظ في هذا الباب إلى موقف الأعمى من مدرسة عبيد الشعر - والسبب أخذاء عليه من قبل - وذكر الجاحظ أن الأعمى خالف برأيه هذا جمهور الشعراء والنقاد أو الرواة كما يسميهم الجاحظ... يقول أبو عثمان :

"... من شعراء العرب من كان يدع القصيدة شعرا عند حولا كبيتنا (٢) ومنا... يردد فيها نثره وقلب فيها رأيه انتها بالعقله وتبهر على نفسه... فيحسن عقله دائما على رأيه ورأيه عبارا على شعره اعتقا على أدبه وأحرارا لما خوله الله من نصيبه وكانوا يسمون تلك القصائد "الحوليات" والنقدات "المنقحات" و "الحكيمات" ليسير قائلها فعلا خنديذا وشاعرا مقلقا... وكان الأعمى ينزل تزيير والحليمة وأشياءهما عبيد الشعر وكذلك كل من يجد في جميع شعره وقف عند كل بيت قائله وأعاد فيه المناد حتى يخسب أبيات القصيدة كلها مستتعة في الجودة... وكان يقال (٣) : لولا أن الشعر قد استعبد لهم واستغنى بهمودهم حتى أنزلهم في باب التشكك وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قصر الكلام ولغتصاف الألفاظ - لذهبوا بذهب المطبوخين الذين تأتبعهم السامع سبلا وروا وشان عليهم الألفاظ تشيلا وإنما الشعر المحمود كشمس انباعدة الجمدى وروية ولذلك قالوا في شعره : مطوف بالآف وخمار بسكوان وكان يخالف في جميع ذلك الرواة والشعراء" (٤)

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٠-١٥١

(٢) حولا كبيت : أي كبيت - وفي القاموس : سنة كريت : تامة

(٣) لحظها " يقول " في الأصل كما يقتضى السياق... "

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٦١-٦٥

إذا كان ابن سلام الجعفي قد أثار في مقدمة كتابه دليقات الشعراء كما
 أسلفنا - إلى المأثرة انتصار الشعر وسط القوم في تحليل دوافعها وأسبابها
 والنشأ التي ترتبت عليها - فإن الباحث أسير بجهد مهم في هذه القضية وفيه
 في ثانيا تراث المتنوع على أنظمة كثيرة من الموضع والمضمحل . . . ولعل لا أكسون
 مبالغا إذا قررت أن ما أسوره الباحث في محاولة تحليل التراث الأدبي مما
 دخله من ريف واقتضال يحتاج في أصبعته وبعد أثره ما أسوره ابن سلام
 أو غيره لأن ابن سلام ناقض القضية من الناحية النثرية ولم يحمل عقله في نفس
 النص الذي أورد ما حتى في مقدمة كتابه ذاتها . . . وقد أمرنا إلى أن من الباحثين
 المحدثين من أخذ عليه إيراد الأسماء التي لا يطمئن إليها . أما الباحث فـ
 فقد عال القضية بشكل على وجهي تطبيقي شديد . . . من أنه من الناحية النثرية
 فدلن إلى عالم يظن فيه ابن سلام حيث قرر أن من رواية الأخبار من يحول لـ
 أن يصوغ الخبر الذي يرويه في قالب من القصيد أو الرجز وإذا جاز لنا - في نظر
 الباحث - أن نقول منهم ومن الخبر الروي فانه ينبغي أن نتحفظ في قبول الأسماء
 الذي قد يكون الراي هو الذي وضع فيه . . . وذلك وجهة نظر على جانب كبير من
 الأهمية وقد قررها الباحث في كتابه الحيوان ولمله أراد ألا يحسن نفسه
 تهمة ما يورده في ذلك الكتاب من أسماء بعضها وهذا الباحث نفسه في سرد
 عن الأعراب وإن كان ما يقتض عليه مع حقائق حول طبائع الحيوان أو معتقدات
 العرب ومعارفهم في هذا الباب حتى لا يثار عليه . . . ومع أن الباحث كان يميل
 عقله في نقد ما يأتي به الرواة فانه لم يكن يتشكك في النص لأول وهلة بل كان
 يلتصقه وجها سائبا يخرج من الخطأ إذا وجد هو إلى ذلك سبيلا . . . وتسير
 مالمجأ الباحث إلى الجواز ليخر على مروه ما يحتمل التفسير والتجاوز على أساس
 أن الجواز وسيلة من وسائل العرب في البيان وخاصة من شعائرها يقتضهم .

وكما لاحظنا ربح الباحث النقدية ونحن نتحدث عن فكره وفلسفته في نفسه
 لمعتقدات العامة وأبطال خرافاتهم فانه في مجال الأدب يفتح مختلف النصوص
 وكما دعاه السرايق إلى إيرادها ولم يكف بنقد الأسماء والأراجيز والقطعات
 بل نظر أيضا في الخطب المأثرة بنفح الروح وعلى ضوء تلك الأسس . . . وتكتفى
 في هذا المقام بإيراد سرد جين من نقد الباحث للتوليد أحدها يتعلق بالأسماء
 والأراجيز والآخر يتعلق بالخطب . . .

ما في الجاحل كلامه حول قضية التوليد في السم في كتابه الحيسموان
 وكان يتحدث عما يزعمه الناس من عدم الأفاعي والحيات * ونحن نضطرون المسس
 أن نتابع كلام الجاحل من بدايته حتى يتبين لنا أن فهمه رأيه بوضوح * فسال
 الجاحل بعد أن حكى زعم الناس حول عدم الأفاعي : " وقد أثبتت
 بضرب من الناس ودعاؤها كبرة أحدهما : يبلغ من حجمه للذرايب أن يجمع
 جسمه دفعا لتوليد الكذابين وقلة قرارا لشراب الزور * ولكفه بالشراب وشاغله
 بالذوق لا يقف على التصحيح والتبصير فهو يدخل الفس في السم والسكن فسمي
 المستن وتخلق بأدنى سبب ثم يدفع عنه كل الدفع نرى ناس أن لدليل
 على أن الأفاعي سم قوس الشاعر :

أنت تضاغها من الحيسات أس لا يمسس للرقصة

وقد ذكروا بالسم أجناسا من خبيثات الحيات ودفعوا إلى امتناعها من الخريف عند
 رقية الرافى عند رأس النجر فكان بعضهم :

وذات قرنين من الأفاعي عما لا تسع عرت الداعى

..... * ثم يقول الجاحل - والأقرب لغيره - وأنه لا تتولد فيجسور
 أن يكون السامر وصفها بالتمس من الشوى بالسم كما وصفها بالنس لها كسمان
 سمات وطول الاطراق وقد رأيت عند داود بن محمد الهامس كتابا لمس
 الحيات أكثر من عشرة أجناس ما يصح منها مقدار جلد نصف * ولقد استسعدوا
 على لسان خلف الأحمر والأسمين أرجازا كثيرة لما تلك بتوليدهم على السنة القدماء
 ولقد ودوا على لسان جحشيه في الحلاق (١) أعمار ما قالها جحشيه فسيط
 فلم تقدر من شيء تقدر من هذا الباب لأن قلت : أن المولد لا يؤمن
 عليه الخطأ إذ كان دخيلا في ذلك الأمر وليس كالأعراس الذي أنا يحكى الموجود
 الشاعر له الذي عليه نأ وصرفته غدى : فالعلماء الذين اتسموا في علم المصوب
 حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا ومنهم من الذين نقلوا اليها

(١) في الذم المحيط (.....) وحية تضاضه ونفاض لا تستقر في مكان أو إذا نهبت قلت

من ساعها أو التي أخرجت لسانها تننمه أي تحركه (..)

(٢) في القاموس الحلاق كدراب : وجع الحلق وأن لا تسع الأتان من السفاد ولا تعلق

على ذلك وهذا المرأه نفس المعنى الأخير هو المقصود في كلام الجاحل ..

وسمواها "عائنا" جعلوه كذا وحديثا مشهورا أو جعلوه رجزا أو قصيدا موزونا . وسكنتي
 أنخبرتني بعض هؤلاء بغير لم أستظهر عليه بمسألة الأعراب . ولكنهم ان تكلم وتحدثت
 فأشرت في كلامه بعض الأعراب لم أجد ذلك قدوة حتى أرقه عليه لأنه مسمى
 لا يؤمن عليه اللحن الخفى قبل التفكير فهذا وما أشبهه خلاف حكم الأول . (١)

- ٢ -

أما النصوص التي نقد فيه الجاحظ التوليد في الخطابة فهو أيضا يحتاج
 الى إيوان النصها كله حتى يتضح لنا منهجه في تمييز النصوص وإدراكه للخصائص
 التي يتميز بها كبار الخطباء وأعمال عقله في تصحيح نسبتها الى قائلها .

أورد الجاحظ في البيان والتبيين خطبة منسوبة الى معاوية رده الله
 ربهما حميد بن صفوان وزاد فيها البقري وغيره : قالوا : لما حتمتة الوفاة
 قال لسواي له : من بالباب ؟ قال : نفر من قرشي يتشاءرون بيوتك فقال : ويحك . ولم ؟
 والله ما ليهم بحدى الا الذي يسوءهم . وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثنى عليه
 وأرجز . قال :

أيها الناس انا قد أمتحننا في دهر عسود ورمز شديد يمد فيه المحسن
 سيفا وزداد فيه الظالم عشا ولا تنقضي ما علمناه ولا تسأل عما جهلناه ولا تتخوف قارعة
 حتى تحل بنا فالتاس على أرملة أعفان : منهم من لا يمنه اغساد في الأرض الا
 مهانة نفسه وكلال حده ونقيض (٢) وفرو عنهم المصلت لسيفه المطلب بطلبه
 ورجله والعملن بسره قد أمرط لذلك نفسه وأيق ديفه لحظا ينتهزه أو يقنسب (٣)
 يقوده أو غير يقوده ولهم السجرات أن ترائنا لنفسك ثنا وما لك عند الله عوضا . ومنهم
 من يطلب الدنيا بعين الآخرة ولا يطلب الآخرة بعين الدنيا قد آمن من شخصه
 قارب من خطوه وشعر من شهده وزخرف نفسه للأمانة واتخذ حتر الله ذريعة السبي
 المصيبة . ومنهم من أقامه عن طلب الملك غثولة نفسه وانقطاع من سببه فقصرت

(١) الحيوان جزء ٤ من ١٢٨ - ١٨١

(٢) النقيض : القليل (القاموس)

(٣) القنسب من الخفى ما بين الشائين الى الأرمين أو زعماء العشاة

به الحال عن أمله لتخلي باسم القناعة وتبين لها من الزهاد . وليس من ذلك في
مراج ولا ممدى وفي رجاا غش أبحارهم ذكر السرجع وأراق دموعهم خوفا المحض
ليس من شريد ناه وذائق منقح وساكنت مضموم (١) وداع مغلص وموجع شكسلان
قد أخطبتهم التقية ومعلتهم الذلة فبه في بحر أجاج أنفوسهم غامرة (٢) وقلوبهم
فرحة قد وهبوا حتى طروا وظهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قتلوا . فلتكن الدنيا
في عيونكم أسود من حالة القوط (٣) وقراءة الجليمن (٤) واتمظوا بمن كان قبلكم
قهل أن يمتط بكم من يأتى بحدكم فارقتوها ذمية فاتها رفضت من كان أشدسف
بها منكم (٥) ثم يطلق الجاحظ على هذه المعطية بقوله :

" وفي هذه المعطية : أيقظ الله - ضروريا من المعجب : منها أن الكلام
لا يشبه السبب الذي من أجله دعاها مماوية . ومنها أن هذا الذهب في تصنيف
الناس في الأخبار عما هو عليه من القهر والاذلال ومن انتقية والخوف أمه بكلام
على رضى الله عنه ومما فيه وحاله منه بحال مماوية . ومنها إنا لم نجد مماوية في
حالة من الحالات يملك في كلامه صلت الزهاد ولا يذهب مذاهب السهاد . وإنما
تكتب لكم وخبرها سمعنا والله أعلم بأصحاب الأخبار وكثير منهم (٦)

(٥) لفظة الفكاهة والنادرة :

تعد آراء الجاحظ في هذه القضية دليلا على فكره الثاقب وذوقه اللامع
وأعده بالرباط الوثوق بين الأدب والسجس ويتلخص مذهبه تجاه هذه المسألة
في أن الأديب إذا روى نادرة من نوادر الأهراب فينبئ أن يحافظ على قالهها
اللفظي الذي خرجت به من قائلها . وإذا كان أخذها في حكاية ملحة من طبع
المؤيد من أو طريقة من طرف العامة فعليه كذلك أن يرويها في لغتها اللوحنة
وبارستها الدارجة فان خالف الأديب أو الحاكي هذا الهدأ في أي من اللغتين
لقد فتر على السطح وبعد الاستماع بها يحكه وفقدت حكاياته مفرادها وتبدد حسنها
ومن نذكر هذه المسألة فمن قضايا النقد عند الجاحظ لأنها تذكرنا بقضية اللفظة
في السرج وهي التي دار حولها النقاش النقدي في العصر الحديث وأينما
أن الجاحظ فطن إلى أسوأ هذه القضية فخص القول فيها في القرن الثالث الهجري

(١) مكمر : مصروف (٢) صامته (٣) الحالة : الردى من كل شيء

والقوط : ورق أسلم أو غير المنط - والبطيخ المقيس . .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٩ - ٦١ . .

وتصريف لى القير الذى نطقه لبيان صلة نقد الدرسة البصرية بالنفس
الحديث على أقوال المحدثين حول هذا الموضوع وتوازن بينها وبين رأى الجاحظ
الذى تشبه هنا .. ولقد كبر الجاحظ التنبيه على مبدئه فى هذه القصة
ومخرجه فى أكثر من موضع .. يقول فى الحيوان : " وأنا أقول ان الاعراب
يفسد نواذر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب لأن سامع ذلك السلام
انما أعجبه تلك السورة وذلك المخزن تلك اللغة وتلك المادة فإذا دخلت
على هذا الأمر الذى انما أصبح به ففسد من كلام المجمية التى فيه - حروف
الاعراب والتحقيق والتفصيل وحولته الى صورة ألفاظ الاعراب النحاة وأهل العروبة
النحاة انقلاب المعنى مع انقلاب نطقه وتبدلت صورته .. (١)

وفى موضع آخر من الحيوان يقول : " .. وإذا كان موضع الحديث يست
على أنه مضحك وليس بداخل فى باب المزاج والطبيب فاستعملت فيه الاعراب
اللب من جهته وإن كان فى لفظه خفى وأبدلت النخافة بالجزالة عار الحديث
الذى وضع على أن يصر النفوس - يكرهها وأخذ باكتظاظها .. (٢)
ويقول فى البيان والتبيين :

" وإذا سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الاعراب فأياك وإن تحذرها
الامع اعرابها ومغاني ألفاظها فانه ان غيرتها يسبأن تلحن فى اعرابها
وأخرجتها من كلام المولدين والبلدين خرجت من تلك الحكاية عليك فضل كبير
وكذلك اذا سمعت بنادرة من نواذر السموات ولحمة من ملح الحشرة والطفام (٣)
فأياك وإن تستعمل فيها الاعراب أو أن تقهر لها لفظا حسنا أو تجمعن لها من نيك
مخرجها سرا فإن ذلك يفسد الاشاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريد له
وهذه استطاعتهم أياها واستيلاهم لها .. (٤)

ويقول فى البخل : " وإن وجدت فى هذا الكتاب لحنًا أو كلامًا غير مصرح
لفظًا معد ولا عن جهة فاعلموا أنا انما تركنا ذلك لأن الاعراب يهذى هذا الباب
ويخرج من حده الا أن أحكى كلامنا من كلام شماقلى البخل وأصحاء العلماء .. (٥)

(١) الحيوان ج ١ ص ٢٨٢ (٢) الحيوان ج ٣ ص ٢٩

(٣) الطفام ككتاب أوفاد الناصر (٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١١١

(٥) البخل ج ١ ص ٢٨

وقد لاحظ الأستاذ داود البجلي في تجميعه لأغلاط كتاب البهلاء في طبخته الدمشقية الراحمة أن هناك عبارات جاءت في المخطوطة ملهونة وتدرجت في المطبع إلى اللغة المصرية وقد تكرر ذلك في مواضع عدة نبه عليها الباحث وذكر أمثلة لها منها هذا المثال :

"جاء في المطبع قول الجاحظ : (لما أن يكون خالداً أختاه شهيداً) وقد علق عليها البجلي بقوله : هذا يجب إبقاء ما ورد في الأصل على حاله وهو : "خالد أخو" وهذا يكون من قبيل ما ذكره الجاحظ بقوله : وإن وجدت في هذا الكتاب لحظاً أو كلاماً غير مصرح به . . . الخ . (١)

وتقول إحدى الباحثات تطبيقاً على ما أحدثه المحققون كتاب البهلاء " فالجاحظ إذا يريد أن يميز بين لغة عامة البهلاء ولغة مثلكي البهلاء أجتأقلى البهلاء لكن ما يؤسف له حقاً أن "البهلاء" كما وصلنا بشكله الحالي يفرغ علينا كثيراً من الفرصة لأدراك هذه العبرة التي قدس الجاحظ إليها قصيداً والنسب في ذلك أن الكتاب قد أُميد فيه نظر الباحثين ليحقق هدف اللغة النحوي لا هدف الجاحظ الفني عند إثبات المطعون من الكلام " (٢)

(٦) الانسجام الصوتي :

إذا كان الجاحظ قد درس علاقة الألفاظ بالمعاني وأوضح تدرجها لأهمية هذه العلاقة فقد درس أيضاً الألفاظ المفردة والمركبة وحلل أسباب التناثر الثقلي الذي يمتري بعضها فقد يكون الثقلي في بنية الكلمة ذاتها فقد يمتزج لها من وضعها مع غيرها من الألفاظ . . . وكما ربط الجاحظ بين اللفظ والمعنى من حيث التعبير عن المعنى باللفظ المناسب له فقد ربط بين خفة اللفظ في السمع ووضع معنياته في الذهن . ودراسة الجاحظ للألفاظ من هذه الزاوية تستند على معرفة بخصائص الأصوات وتأثيرها في النفوس وعلى دراية بخلاف الحروف وما يمكن اختلافه منها في الكلمة الواحدة وما يتنج وما يثقل . . . يقول في البيان والتبيين :

" ومن ألفاظ العرب ألفاظ تناثر وإن كانت بصيغة في بيت فمصر لم يستطع المندد انشادها إلا بهضم امتزاه فمن ذلك قول الشاعر :

قبر حرب مكان قسيسر
وليس قرب قبر حرب قسيسر

(١) مجلة الجمع العلمي العربي - دمشق المجلد العشرين من سنة ١٩٤٥

(٢) دكتورة ديمة النجم في بحثها بعنوان : الجاحظ والحائرة البهلاء ديمة عيا ٢٠٠٦

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن يشهد هذين البيتين ثلاث مسيرات
في نسق واحد فالتفتت ولا يتلجج وقيل لهم أن ذلك إنما افتراء إذ كان مسن
أشعار الجن يدقوا بذلك . ومن ذلك قول ابن بشر في أحد بن يوسف حسين
استطاه :

هل يمين على البكا والسويد أم يمين على الصاب الجليل

.....

ثم قال :

لم يضرها والحمد لله شيء واتثقت نحو عرف نفس ذهل

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فأنك ستجد معنى ألفاظه يتبرأ من معنى
وأجود الشعر ما رأيت من تلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه أنسى
أفراغا جيدا وسهك سكا واتحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الأذهان ..
فهذا في افتراق الألفاظ . أما افتراق الحروف فإن الهم لا تقارن الطاء ولا القاف
ولا الطاء ولا الضمين بتقديم ولا تأخير والزاي لا تقارن الطاء ولا السين ولا الصاد
ولا الذال بتقديم ولا تأخير . (١)

(٧) المجاز والاعجاز:

أخذت مسألة اعجاز القرآن الكثير من اهتمام العلماء في عصر الجاحظ
وقبل عصره خاصة في بيئة علماء اللغة بالبصرة وهي البيئة التي كان عليها أن تتصدى
للدفاع عن البيان القرآني والاحتجاج لوجوه الاعجاز حينما بدأت تظهر شكوك
المولدين والشعوبيين الذين اتحدت ملكاتهم عن فهم أسرار الاعجاز ولم تمكنهم
معارفهم الضحلة بأساليب العرب وراى كلامهم أن يفهموا الكثير من إشارات
القرآن ومجازاته .. والروايات متضاربة على أن أبا عبيدة مصر بن الحنفى البصرى
كان أول من ألف كتابا في المجاز القرآني جمع فيه بعض ما في القرآن الكريم من المجاز
وذلك بعد أن سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن قوله تعالى : " طلعت سحبا
كأنه رؤس الشياطين " (٢)

وقد شارك أبو عثمان الجاحظ في هذه الحلة البخلصة التي كان الهدف

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٢

(٢) معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٥٨

منها شرح أبعاد الإعجاز القرآني عن طريق تحليل عشر من أسس عناصره وهو المجاز وكانت المباحث نظرات ثاقبة في هذا الباب تدل على ذوق رفيع وتعمق بأساليب العرب وغبرة فريدة بدلوامتهم في التعبير والتدوير . وقد تقلد المباحث فسي الأساليب الصربية وقارن بين أخصار العرب وأثر كلامهم حين ما جاء في القرآن الكريم بما يوضح الأسلوب القرآني ويربطه بأساليب العرب أو ثقي رباط . ولقد عمد وضع المباحث أسس الاحتجاج الدللي على إعجاز القرآن إذ قرأ أن هذا الكلام المعجز قد نزل على العرب الفصحاء ففهموه وأخذوا بهرلته ولم ينكروا شيئاً من أماليه أو تخفى عليها مجازاته . .

ومع الملاحظ السجاز من أهم أبواب التوسيع العربية دليل على ثرائها وماعده على عظمتها كما أنه من دلائل براعة العرب وتميزهم في التعبير عن مختلف الأغراض والمقاصد وقد كانت هذه الفكرة سيطرة عليه وهو يتحدث عن المجازات وحظها في اللفاظ والمعارف فكان يستعملها بمراد الاستعمالات المختلفة التي امتلكت فيها الكلمة ليدل على تعدد المعاني التي تدل عليها في كل موضع توضع فيه .

ونفذ نعان من شرح المباحث وتضميراته للمجاز في الأساليب الصربية وأسلوب القرآن الكريم : أورد في الحيوانات هذا البيت من توب من الله ما أديت : وأدت الأرض متى دلت ما أكلت . فربوا لحساب القبط أعمال في وطن عليها بقوله : " وأكل الأرض لما دار في بطنها : أحالتها إياه إلى جوفها كما شرب المباحث ذلك هو باب في المجاز والتشبيه بالأكل يقول فيه : وهو قوله عز وجل " ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً " وقوله تعالى عز اسمه : " أنالون للمحت " وقد يقان لهم ذلك وأن شربوا بتلك الأموال الأتفة ولعبوا الحلال وركبوا السدواب ولم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل . وقد قال الله عز وجل : " أنا يأكلون في بطونهم ناراً " وهذا مجاز آخر . وقال الداع في أخذ السنين من أجزاء الخمر : أكل الدهر مائتة منها . وفي صياحها المكنونة وإذا قالوا : أكله الأسد فأننا يريدون إلى الأكل المصروف وإذا قالوا : أكله الأسد فأننا يمتنون الشيش واللذخ والعين فقط . (١)

ويذكر الباحث بعد ذلك بابا آخر في مجاز الذوق وهو قول الوجيه
إذا بالغ في عشوة عهد : ذق ! وكيف ذقه ؟ وكيف ودت طعمه ؟ فقال
عز وجل : " ذن انك أنت المميز الكريم " (١) ثم يقول الباحث :

"... وللمررب اقدار على الكلام ثقة منهم بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضا غريبة
أخرى كما جوزوا لقولهم أكل وانما عصى واكن وانما أثنى وأكل وانما أحال...
واكن وانما أهدل عينه جوزوا أيضا أن يقولوا ذقت ما ليس بطعم ثم قالوا لمعت
لفهم اللسان وقال السري :

وان شئت حربت النساء سواكم وان شئت لم أظم نقالا ولا مسردا

وقال الله تعالى : " ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم
يطعمه فانه مني " يريد لم يذق طعمه... وقال علقمة بن عبدة :

قد أصبح أقواما طعما... حمر الزاد طعم فيه تشنيس

يقول هذا طعماهم في المزو والسفر البعيد الشاية في السيف الذي يفير
اللعاب والشراب (١)

"... ولما قرطه عز وجل : " يذنب من بدلونها شراب " قال المتن ليس بـ... شراب
وانما هو من يحوي بالياء شرابا أو بالياء تبيها فساء كما تنو شرابا ان كان يجيب
منه الشراب وقد جاء في كلام المررب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم
وقد قال الشاعر :

إذا نزل السماء بأمر غي رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعوا أنهم يرمون السماء وأن السماء تسقط وتن غي المصل من جهة بطونهم...
وأبوابها فقد خرج في اللغة من بدلونها وأجوافها... ومن حمل اللفظة على هذا المركب
لهيئهم عن المررب قليلا ولا كثيرا وهذا الباب هو مصدر المررب في لغتهم به بأشهاد
اتسمت وقد خاطب بهذا الكلام أس تهامة ونذيل وسواح كنانة وهو لا يحسب
المصل... والاشراب أعرف بك صفة سائلة وسلة سائقة فمن سمعتم أحدا أنكر هذا
الباب أو طعن عليه من هذه الحجة (٢)

وقول الباحث في عن من كناه في النساء :

"... وقد قال مروض الزبير : والله اني لأعشق الدرف كما تمسق المرأة الحسناء

وذكر بعض الناس ربه كان محبها محروما ونحو من الحظ منها فكان ما رأيت
أحدا من الرزق علقه ولا أهله الرزق بفضله فذكر الأول عشق الشرف والعرف
ليس بالبراة وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسم جامع لجميع الحاجات ونحوه
يستعمل الناس الكلمة ربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهروا المعنى
بألفاظ اللفظ أما تنوعها وأما تفننها كما سموا المعزول عن ولايته سمرها والمهمل
عن غيره من حازا * (١)

(٨) القديم والمحدث :

أشرنا ونحن نتحدث النقد عند الأعمى إلى أن مسألة تقديس الأدب القديم
وتفضيله على ما عداه قد استولت على عقول معظم علماء المدرسة البصرية من
الناصريين والنحاة ورواة الأسماء ولم يعلم من ذلك إلا قلة قليلة تحررت في ذواتها
إلى الأدب وحكت ذوقها وحفظها .. ولا حظنا أن الأعمى تأثر بهذه الفكرة
في مرحلة متقدمة من حياته .. وفي حديثنا عن النقد عند ابن سلام لاحظنا .. أيضا
.. أنه أغفل في تعليقاته كل شعراء عصره ولم يذكر منهم من قريب أو بعيد .. ولم يصل
إلى ما حظ كان أسبق نقاد المدرسة البصرية إلى التحرر من طغى النارة المتعمية
المفسر القديم .. وقد رأينا أيضا أنها من حديثه عن شعر الأعراب والسودان وتبنيهم
على الخطأ الذي يقع فيه النقاد الذين يسميهم لشعر الأعراب ويستعقظون
شعر السودين .. وأن الناقد عليه أن يتصرف على مخرج الجديد من كان وفي أعزمان
كان .. وربما يكون ابن قتيبة قد تلقف هذه الفكرة من الجاحظ فتعلق بها وتورعها
في مقدمة كتابه الشعر والشعراء كما هو مشهور ..

وإذا كان الجاحظ قد قطن إلى هذا الأساس التحرر من أسس النقد
فإنه صدر عنه عليا في نقده وتعليقاته على الشعر والأدب بصفة عامة فلم يقتصر
بنقده شعراء أولئك من ألوان الأدب وإنما أرسل أقواله في مختلف
الشعراء وأولى المحدثين عناية خاصة وكان يصحب بشار ويقتن بأدبه يفتش
عنه في الحيوان : .. وكان يفتش بشار أن يثأر حمادا من جهة الشعر
ويأخذ بالشمع لأن حمادا في الحفيظ وشارا مع الميرق وليس في الأرض ملسد

(١) نقس الجاحظ على هامش كتاب الكافي ج ١ ص ١٢٢

قصرى يحد شعره في الحدث الا وشار الشعر منه * (١) وكان يجب ان يشار
 بأبي نواس وقول عنه : " ان تأملت شعره فقلت الا ان تمقرن عليك فيسه
 الصهوة أوترى أن أهدى البدو أهدا الشعر وأن المولدين لا يقاربهونهم في حسن
 فان اعترى هذا الهاب عليه فانك لا تبصر الحق من الباطل مادمت لها * (٢)

وفي البيان والتمهين يتحدث الجاحظ عن البيهقيين على الشعر ميسر
 المحدثين فيذكر شعر " بشار الحفلي والسيد الحميري وأبو المتألمة
 وله يكن في المولدين أعجب بديع من بشار وفيه جرمة والمتألمة * (٣)

باعتبار كان الجاحظ لا يحكم في نظره الى الشعر الا ذوقه واحساسه
 ولم يكن يتأثر بأقوال أحد من النقاد وربما وجد نقدا لا يقبله فوفيقه وصحاح
 الحق فيه وقد يجد في أقوال الشعراء والأدباء ما يتناقض مع الأدب الرفيع
 في احترام من يحقر الدين احترامه وقدان مثالا على ذلك :
 نقد التقيد :

أورد الجاحظ في الحيوان قول حسان بن ثابت :
 لعمرك ان الك في قريش كان الدخيل من رأل النمام (٤)
 وعلق عليه بقوله :

" وقد عاد هذا البيت ثانياً وانما أنه أراد السيد قد ذكر في بيتين قصيد
 يتشابهان من جهة * وحسان لم يرد هذا وانما أراد ضعف نسبة في قريش
 وأنه حين وجد أن في نسب النخس ذلك النسب * (٥)

نقد الراجل السيد الحميري الشاعر في هذا لأم المؤمنين عائشة رضي الله
 عنها وسقن من هذا التقيد على روح الجاحظ الطائفة ونزعة السهوية
 ولعل أراد بها نقد به هذا الشاعر أن ينه على أن الأدب يجب ألا يستهين
 في الموضوعات السراسية أو يجهل أداة وضمة في المباحثات والسباب بين الأحزاب
 يقرب الجاحظ : " وقال السيد الحميري - وذكر سير عائشة رضي الله تعالى عنها
 الى البصرة من شدة والوزير حين شهدت مالم يشهدا وأقربت على ما تكلم عنه :

(٢) الحيوان ج ٢ ص ٢٧

(١) الحيوان ج ٤ ص ٤٥٣

(٤) السقب ولد الناقه ساعة يولد والرائ ولد النعام

(٣) "

(٥) الحيوان ج ٤ ص ٣٦٠

جاءت مع الأشقيين في السجون
كانها في فعلها هــسيرة
تزجي إلى الهيرة أبعثادها
ترد أن تاكل أولاد قسا

يقول الباحث نقداً لهذا الهيرة * وليس ما قال في أم المؤمنين
ونت المديق وقد كان قادراً أن يوحى على قلبه - رضي الله عنه - فضل من غسب
أن يفتي الحواريين وأمهات المؤمنين ولو أراد الحق لمارفها وهي ذكرها
سيرة على بن أبي طالب * فالهوية من عاليا قدوة ولا موعظ للتي على الله عليه
وسيلة حرة * (٢)

ذلك هو تراث أبي عثمان الباحث في النقد وهو - كما رأينا - تراث جاف قليل
بمقومات الأعمال - دلائل لمهترة والنقص * * وقد لسنا من خلال معاشتنا لأنماطه
وقناياه أنه سما بالفن النقدي إلى آفاق جديدة واستحدث له مفاهيم وفيما ذاتها يسمع
موضوعي متعمق وامتد إلى أصول لم يسبقه إلى تفويرها أحد * فكانت له من هذه الدراسة
تأثيرات مهمة في مسار الفكر النقدي عند العرب * * ولقد غدت آراء الجاحظ وأفكاره منطلقاً
لكثير من بحوث النقد العربي وتأرياته * *

ولعلنا نلاحظ أن الباحث قد أعان من قريب أو بعيد إلى أكثر مسائل النقد والج
معظم لقناياه فلم يكن مهتماً كما رأينا - بناحية معينة أو شاملاً بطواهر خاصة من أفاضل
بعد ما يتعلق بالفن الأدبي من * * وأنه المختلفة وتمسق في تحليل أمر جهرية تتمس بالفن
من أساسه وشؤون روا * مناهية العميدة كالمبحث في الملكات والمواهب وشديد طبيعة لا بداع
الفن وتطلعاته * * وهو في كل ذلك يقترب بنا كثيراً من حقبة المفاهيم النقدية الحديثة
كما سيتبين لنا من المقارنة بين نقد المدرسة البصرية والنقد الحديث في ختام هذه الدراسة *

الفصل الرابع

الميرد والنقد الأدبي :

إذا كانت شهرة الميرد مرتبطة في أذهان الكثيرين بتمكنه من علوم اللغوية وتوفره على قواعد أعرابها وتدريبها - فإن ما أسهر به في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية يمثل جانباً مهماً في التراث النقدي لهذه الدراسة المصرية كما يمثل منهجاً من أخذ الصانع في دراسة الأدب المصري وتقييمه وأثرها انتشاراً وأماطها عمراً .

ولكن الرغم من سيطرة النزعة اللغوية على تراث الميرد النقدي واستغراقه في اهتماماته فإن من ينظر النظر في هذا التراث لا يعدم أن يجد من حين لآخر لفتات فنية بارعة ولمحات نقدية صائبة ما يدور على أن الميرد كان يتمتع بحاسة نقدية متوقظة تنفعل بالبيان وتنتدى إلى مواضع وإن كانت - في الغالب - لا تمنى تحليله أو تحديد كتبه وتعيين خصائصه . . . ومع أن الميرد تأخر من حيث الزمن عن سبق أن درصنا من أعلام النقاد المصريين - فالملاحظ - صفة غالبة - أنه لم يتقدم بالنقد الأدبي كثيراً ولم يضيف إلى ما قرره السابقون إضافة ذات شأن . فظلّت مقولاته - ترديداً للآراء شائعة رأينا أثلة لها في نقد الدراسة المصرية من قبل وانحصرت جهوده في الناحية التطبيقية لكثرة ما عثرنا لتحليله من القطع الأدبية . أما المبادئ النقدية والقضايا العامة فحظ الميرد منها غثول ونسيجه فيها هزيل . ولما عثرنا الميرد لقضية أساسية من قضايا النقد الأدبي فشرح أهمادها أو حدد معالمها ووضع لها الضوابط والأسس بن جمل انتظامه بالجزئيات التي لا تهاب لها ولا اطلالار يجسمها وكان تحديد الأسس المسماة وتعيين الخصائص الكلية لم يكن يحميه أو يؤيدها في حينه . .

ولعلنا نلاحظ أن طريقة الميرد من هذه الزاوية تختلف عن طريقة كل من ابن سلام والجاحظ . فابن سلام ساق كثيراً من القضايا والملاحظات النقدية دون أن يمتنى بتطبيقها على التراث الأدبي أو يذكر الأمثلة لها . . . والجاحظ كان يجعل من المثال الجزئي منطلقاً يشرح على ضوءه القاعدة الكلية ويرى الكثير من حقائق الأدب وفماهيه أما الميرد فهو كما أشرنا مهتم بتحديد النصوص والقطع الجزئية كل على حده ولما يصور للأحسن أو البهت . .

وأما كان رأينا في قيمة ما خلف البيرد في مجال النقد الأدبي فإن جهوده في هذا الجانب من الأهمية بحيث لا يسعنا أن نقتلها ونحن ندرك نتائج الدراسة البصرية في نقد الأدب في القرن الثال . . . ومن ثم سننضم في عرض تراثه . . . بمسدد أن نترجم له في ايجاز . . . مرجئين حكما على ذلك التراث الى نهاية هذا القرن حتى تكون قد اتضحت للقارى كل أسماؤه وتواحيه . . .

حياسة البيرد :

* ولد أبوالمها من محمد بن يزيد بن عبد الأكبر . . . الثمالي الأدي المعروف بالبيرد سنة ٤٨٢ هـ وتلقب بالبصرة^(١) ونشأ بها وتلقى على وجه علماء اللغويات والأدب بها فأخذ عن المازني وأبي حاتم السجستاني^(٢) وغيرهما من كبار العلماء وكانت بحوث اللغوية والنحو في بيئة البصرة آنذاك قد بلغت غايتها من النضج والاستواء وتفرت مسائلها واستقصيت معظم قضاياها وأصبح المذهب النحوي مدعما الأركان قسوى البنيان وكان لذلك الوضع تأثير في ثقافة البيرد اللغوية والنحوية وتوجيه نشاطه وجهوده . . . ففي جانب علوم اللغة رأينا البيرد قد استوعب الكثير من غريبها واتسعت حصيلة منها بصورة فذة وذلك نتيجة لكثرة ما خلفه علماء القرن الثاني من بحوث في غريب اللغة ومغاني أصولاتها وتراكيبها والتي جمعوها من البوادى وتلقفوها من شفاة الاغراب فجاء البيرد لينهل من ذلك التراث العظيم الذي حظت به بيئة البصرة وساعده على ذلك ما حياه الله به من حائلة قوة ورفعة صادقة وبيل غالب فبلغ في هذه الناحية القامية حتى أن كثرة معمله من المعارف اللغوية كانت تنير حوله الحكوك فليس بمعنى الأعيان . . . ولمس في تلك الحكاية التي أوردها صاحب تاريخ بغداد ما يشير الى هذه الحقيقة يقول :

* حدثني أبو عبد الله بن الفجاء قال : كان البيرد لعظم حفظه اللغة واتساعه

(١) حيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤١ ، الفهرست ص ٩٤ ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٨٠ ، معجم الأدباء ج ١٩ ص ١١٢ ، انباه الرواة ج ٢ ص ٢٤٢ ، بهية الوعاة ج ١ ص ١٩٦ ، طبقات الفحول واللغويين ص ١١٩ ، أخبار النحويين البصريين ص ١٠٢ ، مذكرات الذهب ج ٢ ص ١٩٠ ، معجم الشعراء ص ٤٤٩ .

(٢) بهية الوعاة ج ١ ص ٢٩٦

فيها يشهر بالكذب فتواجمنا على مسألة لأدب لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب
وكما قبل ذلك قد تبارنا في عروني بيت الشاعر :
أها حذر أنيت لاستيق بعضنا

فقال بعضنا : هو من البحر القلاني وقال الآخرون هو من البحر الثلاثي فقبلنا
وشرود على أنوارنا من عظيمه (ألق بمني) فقلت له أنيتنا - أي لك الله - بمسا
" القبعني " عند الصرب ؟ فقال البيرد : القلن - يعنى ذلك قول أعرابي :
■ كان سنامها حتى القبعنا ■

قال : فقلت لأعرابي : هوذا ترون الجواب والشاهد • إن كان صحيحا فهو
عجيب وإن كان اغتلق الجواب وهل الشاهد فهو أعجب • (١)

وأما في علم النحو فمن أنه كانت للبيرد استنباطات وآراء لم يسبق إليها أحد
فإن السمة الدالة على جهوده تتش في نواحي التحليل والتفسير والشرح والتوضيح
حتى أن أحسن ما اشتهر به البيرد وشبه في ذيق بيته بعد رجاءه إلى شخص سداد
سنة ست وأربعين ومائتين ومائته للشاطب الملى بها • كان فيه كتاب سيبويه
والتمكن من شرحه وتلقيه ولما كنا نتيق من هذه الملاحاة إذا عرفنا أن للبيرد حوالي خمسة
كتب تتعلق بشرح كتاب سيبويه ومناقشته وقد عد كل من ياقوت وابن الخديم للبيرد هذه
الكتب : " المدخل في كتاب سيبويه " شرح كتاب سيبويه " كتاب الرد على سيبويه " كتاب
الزيادة المنتزعة من كتاب سيبويه " معنى كتاب سيبويه " (٢)

وهكذا غلب على تراث البيرد " رايح التعليل والتلقيح " شرح المسائل وشعر
القواعد وتوضيح الأعراس •

مؤلفاته :

ترك البيرد مجموعة كبيرة من المؤلفات تبلغ نيتا وأربعين كتابا (٣) معظمها في علم
اللغة والنحو • وأشهرها على الإطلاق كتاب " الكاس في اللغة والأدب " وهو مرجعنا

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٨٠ (٢) معجم الأدباء ج ١ ص ١٢١ والفهرست ص ١

(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١٢١ والفهرست ص ٨ هذا وقد ذكر الأستاذ رمضان عبد التسويب
محقق رسالة البيرد في الهاتفة أن مؤلفاته تبلغ السبعين وذكر ثبوتها بها رسالة الهاتفة ص ٣

الأساسي لتراث المبرد النقدي بالإضافة إلى رسالته في البائقة وما أوردته مصادر الأدب والنقد من آرائه كالموضح وغيره ..

خاتمة :

* تولى المبرد سنة خمس وثمانين ومائتين بهنداد ودفن بمقابر دار الكوفة * (١)

لقية :

ذكر ياقوت في سبب تاليف أبي العباس بالمبرد - بكر الرازي - أنه " لما رشح النازني كتاب الألف واللام سأل عن دقيقه وخصه فأجاب بأحسن جواب فقال لـ... النازني قم غائت المبرد أي التثبت للحق فحرقه الكوفيون وفتحوا الرازي * (٢) وقد أيسر هذا النبط الشيخ سيد المرتضى في بداية شرحه للكمال (٣) وأيد النبط الآخر وهو المبرد - بفتح الرازي - ابن خلدان واحتج له بحكاية داوية (٤) في سبب تلقيه به وهي بعيدة عن التمديد ..

ملاحظات عامة على منهج المبرد في النقد :

١ -

إذا كانت اهتمامات المبرد قد انصرفت في الغالب إلى التحليل اللغوي والبحث النحوي في مقام ما عرض له من نصوص وقطع أدبية - فإن هذه البحوث اللغوية والنحوية لا تأتي دائما بعيدة عن فائات النقد أو منقطة البداية مع أهدافه فكميرا ما يكون التحليل اللغوي أو التوجيه النحوي متوليا على قيمة نقدية تتعلق بالمعنى أو الميافة ونسك حقيقة يحسن أن نشير إليها في هذا الموضوع ، فكمير من الباحثين يقللون من قيمة البحث اللغوي في نصوص الأدب ويهملون تعليقاتهم على علماء اللغة والنحاة كلية .. مع أن النقد اللغوي أو النحوي يمد جزءا لا يتجزأ من النقد الأدبي بالشعور الصحيح لأن الشاعر أو الأديب إذا أخطأ في قواعد اللغة أو جانيه الجواب في استعمال الألفاظ في نواحيها التي استخدمها فيها الفصحاء - عد مقصرا وإن كان مصيبا فيما عدا ذلك من أ. ون اللون الأدبي الذي ينتجه .

(١) بداية الحياة ج ١ ص ٢٩٦ وقوة مراجع ترجمته (٢) معجم الأدباء ج ١٩ ص ١١٢

(٣) رغبة الأمل ج ١ ص ٤٤٥ (٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٤٥

ومن شئ فينهمى ألا نصير آتائنا عن تعليقات علماء اللغة والنحو أو نغفل عن قيمتها
في تفهم الآثار الأدبية فهى وإن لم تكن كل شئ في النقد الأدبى فإنها دعامه مهمة
من دعائمه أو خطرة أولى لابد للنقاد أن يخطووها في بداية رحلتهم مع الأسس
الأدبى الذى يدرسه ..

وإذا كنا نريد أن تأخذ التعليقات اللغوية والنحوية حقها من الاعتبار وحالتها
من العناية والنظر لدى الباحثين في النقد والمؤرخين له .. فأتينا نؤكد أن المقصد
هو تلك التعليقات التى تكشف عن قيمة طاقى النص الأدبى كأن يكون هناك جمال
في صوغ أحد الألفاظ أو مراعاة في إحدى المهارات أو فائدة من بيان الأصل اللغوى
وضيح الاتفاق أو كشف خطأ يثرب عليه فساد في المعنى أو اضطراب في العبارة
أما النظر في الأدب بقصد التحقق وتصيد الأخطاء وتطبيق الأقاليد والتعامل طمس
الأدباء والشعراء فذلك ما نأباه ولا نسمح بالامساخ له .. ونرى في حديثنا
عن النقد اللغوى في تراث المبرد أشلة للنقد اللغوى الشيد وأخرى للنقد التعامل
الذى لا فائدة فيه ولا قيمة من وراءه ..

- ٢ -

سبق المبرد الى تحرير كثير من مسائل النقد وقضايا الباطنة تلك التى تعاورتها
من بعده قرائع العلماء بالتنظيم والتصنيف والتبويب والترتيب . وكان للمبرد فضيل
الإشارة إليها ورسم معالمها .. ومع أننا لا نستطيع أن نسب كافة هذه الممارف إلى
ثقافة المبرد وحده أو آرائه الخاصة فهو بلا شك أول من حشد لها في مؤلف وأقدم من
كتب فيها وشرحها .. ولا تزال المبادئ والأسول التى صدر عنها المبرد في هذه المسائل
مرعية ومعترفا بها لدى المحدثين في كتاباتهم ورأسماتهم ..

- ٣ -

أورد المبرد كثيرا من التعليقات النقدية التى كانت قائمة في بيئة المصنف
على أئمة علماء أو متأثرة عن النقاد الذين سبقوه وسلكه في هذا المنهج المنهج

ابن سلام إلا أن العبد كثيرا ما كان يدرج الآراء النقدية التي يوردها أو يعلقها عليها بها يزيد في إيضاحها ويبين مغزاها .. وذلك على المكس من ابن سلام الذي ترك مروياته النقدية دون تعليق أو توضيح .. وهذه نتائج من مرويات العبد النقدية وتعليقاته عليها ..

روى صاحب الموشح هشام بن محمد بن يزيد النحوي قال : " حدثتني أن الكيت بن زيد أتتني نسبا فاستسأله فكان فيها أنشد :

وقد رأينا بها حورا غمسة بها تكامل فيها الدل والشنب
نشئ نصيب خضره * فقال له الكيت : ما صنع ؟ قال : أصبى خطأ أنه تعاهدت
في قولك : " تكامل فيها الدل والشنب " هلا قلت كما قال ذو الرمة :

لعمري في مفتيها حيرة لمسى في اللثام وفي أنيابها شنب
..... قال العبد : والذي عهد نصيب من قوله " تكامل فيها الدل والشنب " قبيح جدا
وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ولا في إلى جانب الكامة رايضا كلها وأول ما يحتاج إليه
القارئ أن ينظر على نسق وأن يضع على رسم الدلائل * (١)

وفي الموشح أيضا من محمد بن يزيد العبد قال :

" عيب على الفزدق قوله :

يا أخت ناجية بن سامة انسى ألقى عليك بني ابن عليا دمسى
وقالوا للمتغزلين وذكر الأولاد والاحتجان بطلب الثارات ؟ هلا قال كما قال
جرير : فلتنا لم لم يحيين قتلنا * (٢)

وهكذا يتضح لنا مدى ما يفيد النقد من تلك التفسيرات للآراء النقدية
المتضمنة التي دأب النقاد الأقدمون على إرسالها فكان العبد يتصدى لها
بالشرح والتفسير ..

(١) الموشح ص ٣٠٥

(٢) الموشح ص ١٨٢

المسائل النقدية في تراث المبرد :

انتبه المبرد في بحوثه الأدبية منهجا تحليليا أهم سماته استقصاء النص الأدبي الذي يدرسه من كافة جوانبه حيث يتناول مافيه من لغة وما يذكر به من قواعد النحو والتصرف وما يتعلق به من خبر أو تاريخ وما يتعلق عليه من نكت المبالغة وما يكون فيسمه من مظاهر الجودة أو أسباب التخلف والتفكير .. ومن ثم أخذت تحقيقاته النقدية طابعا جزئيا وتنوعت فيما لتتبع النصوص وتباين الموضوعات فجاءت متناثرة في ثناياها تلك الاستمرارات والانقطاعات .. ومع ذلك فهناك مجموعة من المسائل النقدية لاحظنا أن المبرد كثر القول فيها وحرص لكون منها في مواضع متعددة وشرح وجهة نظره تجاهها بحيث نستطيع أن نتيقن مذهبه فيها بوضوح ونطلع من خلالها على الجهد الحقيقي الذي أسهم به في ميدان النصوص النقدية لبيئة البصرة في القرن الثالث .. وومن تحقيقاتنا بهذه المسائل تقيلا من قيمة غيرها وإعمالا لمعادها من نظرات المبرد النقدية المتناثرة ولكننا نركز على هذه المسائل على أساس أنها تبرز عقلية المبرد النقدية وتحدد أسلوبه في معالجة قضايا النقد وتصوره لحقائق الأدب .. ومن هذه المسائل :

(١) الموازنات الأدبية :

تعد الموازنة بين الآثار الأدبية سورة مادية لفكر الناقد وذوقه وضميره ومصرعا حقيقيا لا اختيارا أمالته وسهرا إمكاناته وقدراته وهي لذلك سلك من أدق سالكه النقد ومرحلة من أنقى مراحله إذ يضلل الناقد فيها بتحليل الآثار الأدبية يشير إلى مافيه من جمال أو قبح وعلى أساس ذلك يدر حكمه بتفضيل بعضهما بالنظر إلى ما يحويه من قيمة وما يستحق به من ميزات .. ومن ثم تصبح الموازنة مسألة الأدبية عملا نقديا متكاملًا تتحقق فيه كل أهداف النقد وقاياته .. وإذا كانت الموازنة الأدبية على هذه السورة من الدقة والأهمية في ميدان النقد الأدبي فليس لنا أن نطعن في أن يحيط المبرد بكل أسسها أو يفتن إلى كافيتها قواعدها وهو فيما نعلم أول ناقد عربي يعرض لها بشيء من التوسع والتشخيص ويرسم لها الأصول ويحدد الأسس .. ومع أننا ربما لا نتفق مع المبرد في أحكامه وموازناته الأدبية فإنه يمكننا أن نطلع على جهوده في هذا الميدان الدقيق

من مرادين النقد وتعرف على المنهج الذى سلكه والأصول التى وضعها
وسدى استفادة النقد المسمى من آرائه وملاحظات ..

ومن الأصول التى وضعها الميرد للموازنة الأدبية ونه على ضرورة
مراعاتها ما يلى :

١ - الاتفاق فى الضرب :

بحيث يكون الضرب الذى قيل فيه الأثران الأدبيان واحسدا
فلوجه للموازنة بين وقت وقرن أو بين مديح وآخر .. يقوى الميرد فى الكاس
" وقد فضل نصيب على الفرزدق فى مرقته عند سليمان بن عبد الملك
وقد لى أنها حذرا فقال سليمان للفرزدق أنشدنى وأنا أراد أن ينشده
مدحاً له فأنشده :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها مرة من جذيبها بالمصائب
مروا يغبطون الريح وهي تلفهم الى عيب الكوار ذات الحقائق
إذا أنسوا نارا يقلبون ليطهروا وقد خصرت^(١) أيديهم نار غائب

فأعزى سليمان كالمضرب فقال نصيب يا أمير المؤمنين ألا أنشدك فى روضها
العله لا يتفح منها فقال : جات فأنشده :

أقول لركب صايرين رأيتهم قفا ذات أوشال وولاء فكارب^(٢)
فقرأ خبير وثق عن سليمان أنسى لمره من أهل ودان طالب
فماجوا فأنشوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أننت عليك الحقائق

وهذا فى باب المدح حسن وتجاوز جود لم يسبق إليه

وليس غمر نصيب هذا الذى ذكرناه فى المدح بأجود من قول الفرزدق
فى الفخر وأنا يفاض بين الشيعين إذا تناسبا^(٣)

(١) خصرت أيديهم : بردت - وفى القاموس الخصر بالتحريك : البردة

(٢) الأوشال : جمع وشل بالتحريك وهو ماء قليل يتحلب من جبل أو سدر : يريد خلف بقية
ذات مياه تسيل من أعراش الجبال فتجتاح فى تماق إلى الزارع : ولأنك تريد نفسه
قارب : طالب للماء ليلا : ودان : قرية قريبة من الجحفة فماجوا : عطفوا أيديهم عليهم
(روضة الآمل ج ٢ ص ٢١٧) ..

٦ - الاتفاق في المعنى :

ولو كانت وسائل التفسير هذه مختلفة كأن يكون معبرا عنه في كلام
 منثور وشعر منظوم وهذا ما جعلنا نستعمل عبارة " الموازنات الأدبية " ^{*}
 بدلا من " الموازنات الشعرية " لأن المبرد لم يفعل في موازنات تصنيفه
 بين الشعر والنثر وهو ما سيوضح لنا بالتفصيل عندما نعرض لرسالة التماس
 في البلاغة بعد قليل : يقول المبرد موازنا بين ما قيل في معنى
 واحد من الشعر والنثر : ^{*} قال قائل للربيع بن خثيم عندما رثى مسك
 اجتهداء وفراقه في العبادة وانهماكه في الدور والجمالة وما فر سهل
 الخمر : قتلت نفسك • فقال : راحتها أطلب • فهذا كلام محيط بالمعنى
 لأنفس فيه عنه • وقال أحد الشعراء لأخيه في هذا المعنى :
 سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتحب عيناى الدرع لتجسدا

يقول : أقربا فأكسب ما يكون به مقابى مدكم وقوى منكم فهذا أحسن والأول
 أوضح • ومن ذلك قول الأول :
 تقول سليمان لو أقتل لسرنا ولم تدر أى المقام أطهر

وهذا الثاني واضح • من وهو أبين من البيت الأول • وقيل
 لربيع بن خثيم بن قبيصة وهو واقف على باب النصارى في الشمس فقال
 لبطون وقوى في الظل • فهذا كلام مكشوف واضح كأنكشاف كلام الربيع
 وأما ما جاء في هذا المعنى وأحسن قول أبي تمام حبيب بن أوس
 الثاني :

أكلمة النحيب كى افتراق أطل فكان داعية اجتماع
 وليست فرحة الأهمسات إلا ليقرب على ترج السجود
 فهذا ما يحسن والأصل ما ذكرنا • ^(١)

ولعلنا نلاحظ أن الاتفاق في الترميز والمعنى اللذين اعترطهما المبرد في
 الموازنة الأدبية بعد أن من أهم أسسها التي يجب أن يوليها الناقد قبل عقد
 المقارنات لأن المقارنة لا تكون إلا بين العتاتين والمتماثلين ومن يهتم

قريب ومماكلة . . . ولعل الأمدى صاحب الموازنة بين الطائفتين قد أفاد من تلك
النهادى التى رسمها المبرد للموازنات الأدبية وإن كان قصورها على الموازنة
الشعرية ضيق نطاقها وأضاف إلى شروط المبرد شروطاً أخرى كالإتفاق فى الوزن
والقافية وأعراب القافية . . . إلخ . (١)

ونستطيع أن نبرز من مقاييس الموازنة الأدبية عند المبرد ثلاثة مقاييس
رئيسية جعلها دعائم لأحكامه بعد أن تكون الشعر متفقاً فى المسمى
والفرس كما قلنا وهذه المقاييس هى :
أ - السبق إلى المسمى . .
ب - إجادة التمجيد نفسه . .
ج - الإيجاز . .

أما السبق إلى المسمى وإجادة التمجيد فهذه فيتحان من كلام المبرد فى
موازنته بين النسيب الثانية : قال لبيد بن ربيعة :
كانت قناتى لا تلين لقدامى سمز فآلتها الأسماع والاسماء
ودعوت ربي بالسلامة طامسدا ليصحنى فإذا السلامة داء
يقول : تقرنى من أجلى وشاء قوم النمر بن تارب :
يسر الفتى بول السلامة والنسبى فكيف شري دنون السلامة يفسس
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة يذو إذا راء القيام وحسب
وقال جرير بن عمرو :
أرى بهرى قد غائى بعد عحة وحسبك داء أن تصح وتسلم
ولا يلبث المصمران يوماً ولياسة إذا طلبا أن يدركا ما تيسر
وقى هذا المعنى قال أبو الحسن : خير لأعرابى : مات فلان أمم ما يكون
فقال : أو صحيح من فى عنقه الموت ؟ وقاى غيره :
إذا هل من داء به ظن أنسه نجا وه الداء الذى هو قاتله
. فبهروا . . . عليهم محسن منى والفضل منهم لأوزنهم كلاماً وأسبقهم الدس
المعنى . (٢)

(١) الموازنة بين نصر لى شعاع والبحتري ص ٤٥ ط - دار المعارف . .

(٢) رسالة الهذلى ص ٦٤ . .

وأما الإيجاز والاختصار فيتنجح من موازنته بين قول الأعرابي :
 " فبرد برد رداء المروى بالصيف زفرقت فيه الصبرا
 وسفن ليلة لا يستطيع أن ينهج الكلب إلا هسرا

يقول المبرد / فنقبل هذا الكلام و نحصن ثم قيل في عيبه أنه أتى به نسي
 بقرين ولون به الخطاب وأجود منه قول الأعرابي :
 يظود البرد بحر ما خسر
 قيل هذا أجع وأخسر (١)

(٢) السرقات الشعرية :

ومن من المسائل التي اجتمعت بها المبرد وكرر القول فيها في مناسبات
 كثيرة بحيث نستطيع أن نعدّها إحدى دعائم منهجه التحليلي في دراسة
 النصوص الأدبية فقد كان لا يفتنه وهو يدل الأثر الشعري أن يشير إلى ما عسى
 أن يكون قيل في مثله من أشعار وتنبه المعنى في تأمل له التاريخي
 حتى يأتي على مثله ما قيل فيه .. وكثيرا ما ينتهي إلى تحديد أجود ما قيل في
 ذلك المعنى .. ولا ريب في أن الحديث عن السرقات الشعرية يعتمد على
 كثرة محصون الناقد من التراث الشعري وقدرته على التمييز بين مختلف
 المعاني ثم هو يعتمد أساسا على تشل الناقد للتاريخ الأدبي ليتبين له
 متابعة المعنى الذي يبحثه ويلاحظ ما يلزم عليه من تدوير من حيث هو مقتضى
 أو رافعة ما يزيد في طرافته وحسنه ..

هذه المبرد للسرقات الشعرية يدل على صحة ثقافته وكثرة محصونه
 من التراث ودقته في التمييز بين الأشعار . وقد لاحظنا أن حديث المبرد عن
 السرقات الشعرية قد ارتبط بأشعار المولدين ودار حولها قلما عثرنا على
 لهج السرقات في أشعار القدماء .. ولعله أدرك أن المولدين يحكمهم
 تأخرهم في الزمن واعتدائهم بالقدماء قد كثر السرق في أشعارهم . إذ تداولوا
 كثيرا من معاني القدماء وحذوا حذوهم في التعبير والتصوير .

ومن النفاق الشعرية التديبة التي بحث المبرد عن السرقات فيها
 تلك القطعة التي أودها في الكامل لم يجعل يكتفى بها معزوم من بني فحول
 ابن دأرم وهي :

أنا بني فحول لا ندعي لأب	عنه ولا هو بالأبناء يشرفنا
إن تبتد رفاية يوما لمكرمة	تلى السوابق منا والمفيدة
وليس يهلك منا سيد أبدا	ألا أفتلينا غلاما سيدا فينا (١)
أني لمن مدبر أمني أو أظلم	قبي الكفاة ألا أين المحارمة
لو كان في الألف منا واحد فدعوا	من فارس خالهم إياه يمتنونا
ولا تراهم وإن جلت رزقهم	مع الكفاة على من مات يكرهنا
أنا لفرخ من الرق أنفصنا	ولو نساها في الآن أفتلينا
إذا الكفاة تنحوا أن يخالهم	حد الثبابة وصلناها بأيدينا
فرض على مكبرنا نيق بذلهم	والجود والعدل في طبع العقلينا
أني ومن كأي يحيى وترسه	لا فخر إلا لنا أن يوازننا

ثم يملأ المبرد على هذه المقذوفة متنها معاني أبياتها وقالته الشعرية
 فيها : يقول : وقوله : " ألا أفتلينا غلاما سيدا فينا " مأخوذ من
 قول أبي الطحان القيني :

* إذا مات منهم سيد قام صاحبه *

وقوله :

لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس خالهم إياه يمتنونا

مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من نتي غلت أمني فنيك فلم أكس ولم أتلهس

ومن قول متم بن نويرة :

إذا القوم قالوا من نتي لم أليمة لنا كلهم يدعي ولكنه الفسقي

(١) أفتلينا غلاما : .. مانع معناه أن يصيد من السادة الأماجد وهو فان هلكه
 مريدا قد مرأ غيره .. يقول المبرد : أفتلينا غلاما سيدا فينا مأخوذ من قولهم
 فطرت الفلور .. إذا أخذت من أبيه .. كاس ج ١ ص ٢٧

بقوله : حد النابذة فالنابذة الحد بعينه .. وأراد بالنابذة ههنا موضع المضرب
 من السيف وأخذ هذا المعنى من قول كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري :
 تصل السيف إذا قصرت بخطوئها قدما وتلحقها إذا لم تلحق

بقوله : أنا لتوخر يوم الرب أنفسنا أخذ من قول الهذلي :
 لقد علمت تسوان عدان أنسى
 له من غداة الرب غير حسدول
 وأبذل في الهيجا وجهي وأنسى
 له في سوى الهيجا غير حسدول

ومن القائل الكلابي حين يقول :
 أنا ابن الأكرمين بني عفسير
 وأخواني الكرام بني كسلا
 تعرض لللعان إذا التقيت
 وجهي لا تعرض للمهاد (١)

أما بحث الجرد للسرقات في أشعار المولد من ناضلته كثيرة ومستفيضة
 وقد عقد في الكامل بابا اختار فيه أشعارا للمولد من : " حكيمة مستحسنة يحتسج
 إليها للتشبه لأنها أشكل بالدهر (٢) وقد تتبع الجرد معاني هذه المخشعات
 وأشار إلى المصادر التي أخذها المولدون منها .. وهذا بعض ما أورده الجرد في
 الباب المشار إليه ..

أني شكرت لظالمى المسمى
 وأيقده أمدى إلى بسدا
 رجعت أسامة عليه وأحسب
 هدوت ذا أجر وحسدة
 وفوت ذاك له على علمسى
 لنا أبا ن هجله حلسسى
 رجعت أسامة عليه وأحسب
 هدوت ذا أجر وحسدة
 هذا بكسب الظلم والاشم
 وأنا السى إليه في الحكم
 حتى يكيت له من الظلم
 فأنما الاحسان كان لسه
 مازال يظلمنى وأرحسسه

على طريقها بقوله :

" أخذ هذا المعنى من قول رجس من قريش لرجل قال له : انسى
 حريت بقوم من قريش من آل الزهري أو غيرهم يفتنوك شتبا وحسبك منه
 قال : أسمعنى أقول لا غيرا .. قال : لا .. قال : إياهم فارحم " (٣)

(١) الكامل ج ١ ص ٦٧ (٢) الكامل ج ٢ ص ٢٣٣ (٣) الكامل ج ١ ص ٢٣٤

أولاً : خلط المبرد في حديثه عن السرقات بين الشعر والقول المأثور والشعر المأثور والحكمة البليغة ولم يكف في بحثه للمعاني التي استقاده من المولدون على ما تداوله الشعراء القدماء منها بل توسع في السألية حتى اعتمد في بعض الأحيان عن حوزة البحث النقدي الذي يهتم به النقاد والذي يمثل في المقارنة بين الأشعار المختلفة التي تدور حول معنى واحد من حيث الصياغة وتنظيم المعنى . . . ولعلنا لاحظنا ذلك في تطبيقه على أبيات محمود الرواق وكذلك حكاية الأخوان والجنات بن حكيم .

ثانياً : غالى المبرد في حكمه بالسرقه على معاني بعض الشعراء المولد بن حسني كاد أن يسلطهم كل معانيهم ويجردهم من كافة فضائلهم ويحرمهم من ابتكاراتهم وتأملاتهم ولم يقطن إلى أن المعنى الواحد قد تنوارد عليه الخواطر وقد يقع الشاعر على معنى من المعاني التي تداولها السابقون دون علم منه بذلك . وتتضح هذه الملاحظة من حكم المبرد على عيسى أبي الصمادية حيث يغفل في الكامل :

" وكان اسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلو شعره ما تقدّم من الأخبار والآثار فينال ذلك الكثر المشهور ويتناول أقرب متناول ويسرقه أخفى سرقة " (١) ثم يورد مقطوعة من زهد ياته وبين ما فيها من سرقة يقول :

قال اسماعيل بن القاسم :

يلعبها للناس لو فكسروا	وحاسبوا أنفسهم أبعد حسروا
وعبروا الدنيا إلى غير هذا	فانما الدنيا لهم مسير
الخير ما ليس يخفى عوالم	مخوف والشر هو المنكسر
والبعد الموت وما بعد الحشر	فذاك المبرد الأكسبر
لا فخر إلا لغير أهل التقى	غدا إذا هم بالحشر
ليعلمن الناس أن التقى	والبر كانوا خير ما يذهب
عجبت لئلاسان في شعره	وموعدا في قبره يقسبر
ما بال من أوله نطقه	وجيفة آخره يفسر
أعجم لا يملك تقدير ما	يرجر ولا تأخير ما يحسد
وأصبح الأمر إلى قصيره	في كل ما يلقي وما يقسدر

وقوله : **ولن البعد عليها بقوله :**

أما قوله : يا عبيد للناس لم فكلروا **وحاسبوا أنفسهم أنفسهم**
فأخذ من قوله : **الفكرة** مرآة ترى فيها حسنك من قبحك ومن قول لقمان لا تنس
يا بني لا ينهض للمواقف أن يخلى نفسه من أرومة أوقات فوجت بناجي فيه **نفسه**
وقت يحاسب فيه نفسه وقت يكسب فيه لمعاشه وقت يخلى فيه بين نفسه
ولذتها ليحتمل بذلك على سائر الأوقات . .

وقوله :

وغيروا الدنيا إلى غيرها **فأما الدنيا** **لها صير**
مأخوذ من قول الحسن : **اجعل الدنيا كالقطرة تدور عليها ولا تضرها**
وقوله : والخير ما ليس يظن هو **الشيء** **مصرف** **والشر هو التكرار**
مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : **يا عبد الله كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت عهودهم** (١)
وأماناتهم صار الناس هكذا وشك بين أسيافهم فقلت : منى يا رسول الله فقال
خذ ما عرت ودع ما أنكرت عليه بخوبة نفسي وإياك وحراسها **وقوله :**
ليعلمن الناس أن الله **والبر كانا خير بألف خير**

مأخوذ من قول أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **إذا حضر**
الناس في عيد واحد تافوا من قبل الموت ليملن أهل الموقف من أهل الكرم
اليوم ليقيم المتقون ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن أكرمكم عند الله
أنتاكم " **وقال قائل أن أقرب ما أخذ منه أبو المصاحبة : ليملن**
الناس أن التقى **الح من قول الخليل بن أحمد :**

وإذا انقشرت إلى الذخائر لم تجد **فغرا يكون كسالح الأعصاب**
لكن قد قال قولا **وقوله :**

ما بان من أوله نطقه **وجيفة آخره يفسر**
مأخوذ من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما ابن آدم والفخر وإنما أوله
نطقه وآخره جيفة لا يوزق نفسه ولا يدفع حتمه (٢)

(١) الحثالة : البقية الردية وأهلها ما يبقى في الأثاء من ردى الطعام وهو عنا مجساز
ومرجت عهودهم : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب (الكامل ج ١ ص ٢٤٠) .

(٢) الكامل ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٤١

وعلى أيضا من المصائل اللادنية التي تحدث المبرد عنها بإفادة وميز
بين أنواعها ووقفنا على مذنبه فيها * والمبالغة أداة من أدوات التصوير الشعرى
لأن احساس الشاعر المبروف بمعانيه وانفعاله بها يدفعه في كثير من الأحيان
الى أن يخلق في مساوات الشبان وتجاوز سميات انحص والواقع اذ لا يجسد
في عالم المحسوس ما يقف للسامع حقيقة احساسه بكونه ما يحسن في جداته ويجيش
بمخاطره * وقد اصابه الأقدمون المبالغة في أفعالهم واحتملوا بهوسا
في تصوير مشاعرهم والتصوير عن معانيهم ..

ولعلنا نذكر أن نقد النابغة لحسان في قوله :

* لنا البختات الفرييل من بالضحى *

كان سببه تصوير الشاعر في موطن الفخر الذي يحتاج الى المبالغة والتضخيم
وتصويره بالجمي الذي يدور على القلة بدلا من جمع الكثرة الذي هو أكبر ملاءمة
لل مقام * ولقد كانت مبالغات القدماء * مبالغة عامة متميزة بالاعتدال والقرب
وقلما تجاوزت الحد أو أسرفت في الإسراف وذلك لاعتمادهم على الداليل والمقارن
تدقيقهم في المعاني وذلك على الحكيم من الرواديين الذين تأثروا بهنالك بسبب
الثقافات والملمصوا على أقران الحكماء وتجريدات الفلاسفة فأثروا ذلك في معانيهم
ودفع بعضهم الى التلو وتجاوز الحد بهلغ في بعض الأحيان حد الاعتدال
وانشبهوا به الى الإسراف والسخرى ..

وقد فطن المبرد الى هذه الحقيقة ونبه عليها بقوله :

* في المحدثين اسراف وتجاوز غلو وخرى عن القدار من ذلك قول بكر

بين النطاج :

تمشى على الخبز من تنصعها	فیشكى رطلها من المسترف
لم يرها روى عما كسره	مارفمت بارفها من السجف * (١)

وبلغنا العبد على مذهبه في المبالغة المتهورة والمرفوعة في الكامل حيث

يورد أعمارا قالها النصارى في النخافة منها قول المجنون :

الآن غادرت يا أرمالك
صدي أينما تذهب به الريح يذهب

ومعقب عليه بقوله : هذا البيت من أعجب ما قيل في النخافة وما يستلزم

في هذا الباب قول عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فربحي وأما بالشيء فيفسر
أخا طر جنوب أرض تقاذفت به قطرات فهو أشعث أشعر
قليلًا على ظهر الحطية ظلمه سوى ما نفي عنه الرداء المحير

ومن هذا الباب قول القائل :

فأسحت في أقصى البيوت يمدني بقية ما أبقين صلا يدانيها
..... ومن الافتراط فيه قوله :

فلو أن ما أبقيت مني مخلص بمرود شأنا وأدعوا ههنا

وهذا تجاوز قول القائل :

* ومنها من أن تطير زمامها *

في يقرر العبد مذهبه في المبالغة - يمد أرواده هذه الأثلة - بقوله :

وأحسن النصارى تأريب فيه القائل إذا شبه وأحسن منه ما أبا به الحقيقة ونه فيه
بخطته إلى ما يخفى على غيره وساقه برع في واختصار قريب * (١)

ولمن العبد كما يتضح من مقاله هذه أراد أن يفتح من جناح النصارى
الذين أسوفوا في الخيال وأشرقا في الوهم وابتعدوا عن الواقع بصورة أسسما
إلى فقه النصارى وقصدت بهم عن مدان الرقى والابتداع - فليس الشعر بالضرورة
انفصا عن الواقع أو تهوينا في أودية الخيال وقد يرقنا الشعر ويثير اعجابنا
لأن العباد اعتدى فيه إلى حقيقة كانت غائبة عنا وحفظ على قيمة في عالمهم
الواقع كانت خافية علينا ..

وسرى عندما نتحدث عن مجلة نقد المدرسة المصرية بالنقد الحديث
أن المبرد قد سبق إلى تقرير هذا المبدأ المبرهن الذي اعتنقه أشعار المدرسة
المجددة في عصرنا الحديث ..

ولقد طبق المبرد مذهبهم في المبالغة على نطاق متعددة من القطع
الأدبية وأشعار الشعراء وهنا هوذا يصرح برأيه في هذا المبدأ فيما يلمس
به على أشعار أبي نواس .. يقول : قد استألف الناس قون أبي نواس في قسدر
الرقاعي - ولا أراء حنوا لأفرادهم وهو :

ودعنا ترسيها رقايا إذا شئت	مركبة الآذان أم عيسا
يخمس بحيز في الموضوعة عذرها	وينفخ ما فيها حمود خصال
يتغلى بذكر النار من غير حرها	وتنزلها عفا بغير جمجال
هي القدر قدر السنين بكرهن واث	ويجي التماس عام كل مسال

قال : وشك قوله :

عقبت حتى لو اتبع سبيها	هلسان ناطق سديم رؤسهم
لاحتبت في القمر ماثل سبيهم	ثم قمت قيمة الأسماء

وبمستجده خلق كثير وليس ندى بالمصروف ناعمة من الانراط * (١)

ثمة وجهة المبرد في هذين النموذجين من شعر أبي نواس وأما
تختلف معه في حكمه عليهما جميعا .. أما وصف قدر الرقاعي فنعتقد أن المبالغة
فيه قد ساعدت الشاعر في تأدية الغرض الذي يريد وهو التهكم والسخرية
والدلو في عدا الناس وهو الذي ضاعف من احساس السامع بالفارقة وأثار فيهم
المعور بالاستهزاء والسخرية من ذلك الشيخ الدعي واليحيى المتعاليين
ومن ثم فهي مقبولة - حسب اعتقادنا - في هذا الموضع ..

والنشان الآخر ما فيه من بعد فقد قرره الشاعر بادخاله كلمة " لو " التي
ترب المعنى من الحقيقة وإن كانت لا تسلكه فيها ..

وهو من أهم البحوث النقدية في تراث البرد فقد عقد في كتابه الكامل بابا طويلا (١) تناول فيه فن التشبيه بالبحث والتحليل بصورة لم يسبق من قبل إليها أحد ولملأها - مع كونها من بواكير الدراسات التي دأبت حول هذا الفن - ما تزال من أهم وأخطر ما كتب فيه . فقد أتى البرد على معاني جوانب هذا الفن حيث عرّف لدقائق الصرب فيه وحدوده في كلامهم مرتبه من حيث القرب والبعد إلى مراتب درجات وحدش عن التشبيهات العادية والاعتبارات الجمالية وحشد كثيرا من أمثلة التشبيه من أشعار القدماء والمحدثين وشرح كثيرا منها - وأوضح أن التشبيه باب كبير من أبواب الكلام عند الصرب أو على حد تعبيره هو " باب كأنه لا آخر له " (٢)

وهي اعتقادنا أن بحث البرد للتشبيه يعد من خيرة ما كتب في هذا الفن وكلامه فيه أشبه بالنقد الأدبي منه بالهائكة إذ لم يصر في التشبيهات والحدود كما هو الحال في بحوث الباحثين التقليديين . بل حاول أن يضع تصوراً سهلاً لذلك الفن الباني الواسع في كلام الصرب من خلال النتائج الكثيرة والمتنوعة التي ساقها . ولن نجد الدارس الذي يبعه أن يلم بفن التشبيسية ويحيط بأهم جوانبه . ليسر ولا أوضح ولا أقرب تناولا لما كتبه البرد في هذا الباب من بين ما كتبه فيه الباحثون الأقدمون . .

بدأ البرد حديثه عن التشبيه بإيراد طائفة من أشعار القدماء وتبويبهم عدليها يقرب امرئ القيس :

كأن قلوب الدابر رطبا وباهسا
لدى وكرها المصاب والحشف البالي

وذكر البرد أن ذلك البيت أحسن ما جاء في التشبيه باجتماع السرولة في كلام مختصر أي بيت واحد من تشبيه " في " في حالتين يشبهون مختلفين (٣) وفي البرد في تحليل البيت السابق بقوله :

(١) الكامل ج ٢ من ص ٣٥ إلى ص ١٠٠ (٢) الكامل ج ٢ ص ٢٠

(٣) الكامل ج ٢ ص ٣٤

" فهذا شهر من الصيف فان اعتراض مبتدئ فقال : لئلا فصل فقال كأنه
 ربطا الحجاب وكأنه يابها الحنف قيل له : انصري الفصح الفطن اللطيف
 يري بالقول شهرا ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا قال الله جل وعز وله الشغل
 الأعلى : " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبتذروا من فضله "
 علما بأن المخاطبين يمشون وقت السكون وقت الاكتساب (١)

على هذا النهج سار المبرد في إيراد أمثلة التشبيه من أشعر
 امرئ القيس والناطقة وذى الرمة وعلقمة بن عبدة وغيرهم . . . موضحا ما فيها من حسن
 تشبيهات عاتية وفوائد لطيفة . . واختيار المبرد لها اختارها من التشبيهات
 يدل على ذوقه وحسن بصره بالتمركزا يدل على اطلاعه الواسع على أشعر
 القدماء واحاطته بترائهم . . ومن التشبيهات التي أوردناها للقدماء قول امرئ
 القيس :

كأن عيون الوحش حول غباقتها
 وأرجلها الجزن الذي لم يتقاسم
 وقوله :

إذا ما الثريا في السماء تموجت
 تصرني اثنا الزجاج البقشيش
 وقول النابغة :

فأنت كالليل الذي هو دركسي
 وإن غلت أن المتأذى عناء واسمع
 وقوله :

خطا طوف حجين في حبان متينة
 تعذبها أيد اليك تشبوازع
 وقوله :

فأنت شمس والنجوم كواكيب
 إذا طلعت لم يبد منهم كوكيب
 وقول توبة بن الحبيب :

كأن القلب ليلة قين يفسدى
 بجلي المامرة أرويسه
 قفافة عزها شرك فها تبيست
 تجاذبه وقد علق الجناس
 وقول ذى الرمة :

بيضا في دعي عطر في نسج
 كأنها فضة قد سها ذهب
 وقول علقمة بن عبدة :

كأن امرئ غيب على شمسوف
 يقدم بها الكنان مكشوف (٢)

(١) المرجع ص ٢٥ (٢) تقدم كمعظم : عليه صفاة . وسها الكنان : أعماد الكنان
 فكانه يقيد أن الصفاة متخذة من هذه الأعماد . .

ومن تشبيهات المحدثين الطريقة التي أوردها المبرد :

قوس بشار بن برد :

كان نوالده كسوة تسترى حذار اليهن أن تفع الحذار

وقوله في نفس القصيدة :

جفت عيني عن التفريق حسرتي كان يفرها عنها قصصا
أقوس وليلقى عزاد طولا أما الليل يمدني نهسا

وقوس مسلم بن الوليد الأنباري في مدح يزيد بن يزيد :

نفس الناي كما تضي أمتته كان في سرجه بدرا وشرفا

وقوس دعلج بن علي في عفة بعلوب :

لم أر عفاش ~~صفا~~ ~~السم~~ ~~سوط~~ تسمين شهر صلبوا في خمط
من كان عال بدمه بالسم ~~سوط~~ كأنه في جذعه العث ~~سوط~~
أخوتهم جد في التطسبي قد خامر النور ولم يفسط (١)

وملاحظ أن هذه الأمثلة التي أوردها المبرد قد تداولها الكاتِبون فسي التشبيه من بعده .. ثم يورد المبرد نتائج من تشبيهات القدماء والمحدثين من بعده يأخذ في بيان أصل التشبيه وحده يقول :

" وأعلم أن للتشبيه حدا فالأشياء تتماهى من وجهين وتباين من وجهين فأنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع فإذا شبه الوجه بالشمس فأنما يراد النية والرواق ولا يراد العالم والاحزان .. قال الله عز وجل : " كأنهن بهائم مكنون " والمرب تشبه النساء ببيوت النساء تريد مقامه ونعمة (٢) لونه قال الراعي كان يهين نعام في ملاحقته ~~سوط~~ إذا ابتادهن فيطليله ~~سوط~~ (٣) ... والمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها قال الأسي : كان عفتها من بيت جار تشبها ~~سوط~~ من السحابة لا ريث ولا عجب ~~سوط~~

(١) الكاس ج ٢ ص ٢٥ - ٤٥ (٢) على المصنف على هذه الكلمة بقوله : هذه إضافة منكبة وذلك أن النعمة اسم للتشبه وانقرض ولا يوصف بها اللون وكان الأجود أن يقول ومقام لونه (رغبة الآمل ج ١ ص ١٢٨) ويرى الأستاذ على البجلي أن العبارة صحيحة على معنى أنه لو كان جديدا غير شاحب .. الخ (فن التشبيه ج ١ ص ٤٤) (٣) ليلته وقد شهد بسدة الحرارة .. يقول : إذا أهرقته من غد ومن ليلة غديدة الحر في صميم الصيف (رغبة الآمل ج ١ ص ١٢٨)

..... والشرب تعبه المرأة بالهمن والآخر والشين والفرزال والبقرة الوحشية
والسحابة البيضاء والدرة والبيضة .. وانما تقصد من كل شيء الى شيء * (١)

حمد أن يقر المبرد هذا الأصل المبرهن من أصول التشبيه ويسرد
طائفة من التشبيهات مثلاً بها لما يقول - يأخذ في تقسيم التشبيه من حيث
الشرب والحمد بقوله :

* "والمعرب تشبه على أربعة أنشرب فتشبه فوط وتشبه مصيب وتشبه
قارب وتشبه بعيد يحتل الى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخاين الكلام * (٢)

ثم يتوسل المبرد في شرح هذه الأقسام الأربعة وذكر الأمثلة التي توضحها
يقول : * فمن التشبيه المبرط المتجاوز قوطم للسفلى هو كالحجر والشمع
كالأسد والشرع ما حتى بلغ النجم * (٣)

وتلج من تقسيم المبرد للتشبيه وحديثه حين يرويه أنه كان يمشي
بالتشبيهات القريبة والأوصاف الدقيقة التي تشبه - أكلة المعاني وتدل على
مدق النظر ودقة التأمل وتكون عورها مألوقة ووجهه الفهم فيها مقتولة ولذلك
نه المبرد على التشبيهات التي لاحظ أن فيها اشراطاً وحداً .. يقول :

ومن التشبيه المتجاوز المبرط قرن القنصاء :
وان صغرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نسيار
فجعلت المهتدي تأتم به وجهه كنار في رأس علم * (٤)

وأورد المبرد الأمثلة التالية : لأبي نواس في عفة الفخر :

فإذا بالمصنوع المهيمن	تمش اللمع ماتبهم الميونس
درس الدهر ماتبهم بنهسا	وتبقى لها بها العكنوس
فهي بكر كأنها كن عي	يتنى مخير أن يكون
في كورس كأنهم نوب	جارسات بروجها أيد ينس
طالمات مع الدقة عي	فإذا ماغرين يثرون فينس

وعلق عليه بقوله : فهذه قائمة من التشبيه غاية على سخط كلام المحدثين * (٥)

(١) الكافي ٢ ص ٤٤ (٢) المرجع ص ٨٧ (٣) الكامل ج ٢ ص ٨٧
(٤) المرجع ص ٤٤ (٥) المرجع ص ٤٥

ولم يبرد لوتنبيه تلك اللوحة الممثلة في الخيال التي رسمها
أبولون من عكس الشمس وحركتها وهي تدور بين أيدي السقاة لتختر لمسح
النهاية في خلق الندامى ولهوات الناريون ... ووقف البرد عنا شبهه بموقفه
من البالسة ونفرت من الخلو فيها فهو يطلب إلى الشاعر أن يكون قريباً
في أوصافه وبهره ..

ذلك هو التشبيه القوي الذي يثار في نظر البرد ... أما التشبيه
الصعب فهو ما يحبر عن الصفي بدقة وفيه إلى ذهن السامع بحد، يتطابق
الوصف فيه مع الحقيقة ... يقول البرد :

ومن التشبيه القوي الصحيح قول النابغة :

ويد أني قاهر في غير كنهه	أثنى وذي راكن فالضواجع
فبت كائن ما يرتني ضليله	من الرقش في أنيابها السم ناعج
يحسد من نور المشا طيهها	لحلى النساء في يديه قماقسع
تناديها الراقون من مؤسها	تطلقه نورا ونورا تراجع

يقول البرد لهذه عفة الخائف المبهمة ومن ذلك قول الآخر :

تبت الهمم الطارقات بعد نسي كما تحترى الأوصاف من المطلق

والمطلق هو الذي ذكره النابغة في قوله : " تطلقه نورا ونورا تراجع " وذلك أن المشووش إذا ألج الجوع به تارة وأمسك عنه تارة فقد قارب أن يواس من بره وإنما ذكر حوله من النمان وما يحترى من لوعة في اثر لوعة والفترة بينهما والذائف لا ينام الا غوارا فلذلك مبهمة بالطرد في السهد وقوله لحلى النساء في يديه قماقسع لأنها كانوا يعلقون حلى النساء على المذود يزعمون أن ذلك من أسباب البر لأنه يجمع تشمقمها فيمنعه النور فلا ينام فيدب فيه السم ويهد لذلك (١)

ومن أشق التشبيه السبب فهو امرئ القيس في ثبات الليل وطوله :

كان الشرا علفت في مصاهبها بأمر من كان إلى علم جندل (٢) وحل زهير :

كان فقات العيون في كس مسيرن تزين به حب الدنيا لم يحطم (٣)
يقول البرد عن عدا البيت : " وهذا من أحسن التشبيه " (٤)

(١) الكامل ج ٢ ص ٨٠ (٢) المربع ص ٦٤ (٣) المرجع ص ٦٤ (٤) الدنيا : شجر يمينه شجر شرا
أحمر يتفرق في هيئة النبق الصفار

أما التشبيه القارب فهو الذي تنتج فيه أوجه التشابه بين أثاره وبين
أشياء التي أوردنا البرد قون عقبة بن ساهق المعنوي :
لله بين حواميمه نسور كئوي القسيب

يقون عنه البرد فهذا مقارب جدا (٦) والشاعر يصف فرسا * والحواميم
نواحي الحافرة ونسور : وأحد ما نسور وهي نكتة داخل الحافر ويحدد الفرص إذا
صلب ذاك منه ولذلك شبه بنى القسيب * والقسيب الثور اليابس (٧)

والقسم الراس والأشعر من أقسام التشبيه هو التشبيه البليد الذي لا يتضح
للسامع المراد منه لأولى وهلة وهو كشول الشاعر :
بن لورأتني أخت جيرانفسا إذ أنا في الدار كأنني حصار
يقون البرد تطبيقا على هذا البيت :

" فانا أراد النجدة بهذا بليد لأن السامع إنما يستدل عليه بشيئه وقال
الله عز وجل : * وهذا اليمين الواضح * (كشول الحمار يحمل أسفارا) * وقال
(من الذين حللوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار) في أنها قد تعاسسوا
عنها وأعرضوا عن حردوها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب
ولا يحمل ما فيها * (٨)

ثم يذكر البرد طائفة من التشبيهات العالوفة في السنة العرب والمندالسة
في أدبيهم كشيء * فمن المرأة والرجل وبين الظبي وأنقرة الوحشية والأنسب
بعد السيف والفم بالعظام والتمسح بالسنائيد والمنق باهريق فضة والفاق بالجار
فهذا كلام جار على الألسن * (٩)

ذلك عرض مختصر لبعض البرد في التشبيه لمجيئ منه أن البرد كان أول من
تحدث بتوسيع وإضافة عن ذلك الفن وأنه ألم بجوانبه وأحاط بأسلوب المريب فسمى
استخدامه ولا حظ كثرته في كلامهم وأشار إلى أن اسمه ويز بين أنواعه ويز جيسده
من رديفه * *

(٢) الكامل ج ٢ ص ٧٩ والقاموس المحيط

(١) المرجع ص ٧٩

(٤) الكامل ج ٢ ص ٩٠

(٣) الكامل ج ٢ ص ٨٩

تدور رسالة المبرد في الهائفة حول سؤال بحث به اليه أحد همن
الواثق يستوضح فيه أي الهائفتين أبلغ ؟ هلقة الشعر أم هلقة الخطيب
والكلام المنشور والمصحح (١) ؟ .. وقد وضع المبرد رسالته في توضيح هذه
القضية النقدية المهمة التي يبدو أنه لم يصرح لها أحد قبله ولمن في همن هذا
التساؤل الذي أثير في عصر المبرد ما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن التشعر
في القرن الثالث بلغ درجة كبيرة من النضج والارتقاء بحيث أصبح الأمر مستحيلا
في أذهان بعض المتأدبين في أفضلية أحدهما .. وقد شرح المبرد رأي همن
في هذه القضية وأجاب عن ذلك التساؤل جوابا مقنعا يدل على فهم لأصناف
النقد وتنش لحقائق الأدب .. ومن سمات هذا الفكر النقدي للمبرد في هذه
الرسالة تطبيقه الرأيد على طائفة من الأعلام والأقوال العائرة في عدة معان موازنة
بين ما قيل في كل صنف منها ..

ولمن رسالة الهائفة هي الأثر النقدي الدال الذي وصلنا من تراث
المبرد إذ جاءت مركزة حول تفسير هذه القضية التي أثارها الداع من همن
تدل على الموضوعية الحقيقية للمبرد ناقد الأدب الفاضل لحقائقه والمتورط على
أصوله ..

بدأ المبرد رسالته بتقرير أهم همن للأريمان تفصيله لا همن أول التشعر
على الإطلاق وإنما يرج بأن مفهوم الهائفة يشمل كلا النوعين وأن هناك خرافة
أخرى يشاع بها الكلام ويغالل بالنظر إليها بيته .. يقول المبرد :

* الجواب فيما سألت : أن حتى الهائفة احاطة القوم بالهمن واختصار
الكلام ومن الغناء حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاودة شكلها وأن يقرب
بها الهمن ويحذف منها النعمان فان استوى هذا في الكلام المنشور والكلام
المرصوف الهمن شعرا فله يفضل أحد القسمين صاحبه فصاحب الكلام المرصوف

أحمد لأنه أتى بشر ما أتى به صاحبه وزاد وزنا وقافية والوزن يحمل على معنى الضرورة والقافية تضطر إلى الحيلة * (١)

وهذا الكلام الجاهل والمنطق السهل يشرح الجرد رأيه في هذه القضية ثم يأخذ في رد الأمثلة التي توضحها وتقرر ما يقول :

" فلما الكلام المشهور والمهزون فسأخبرك بما جاء منها في بعض بيتي فخص أحدهما بما رسمنا أولا على صاحبه (٢) . قال قاتل للفن من الربيعين ابن خشم عندما رثى من ابتهاج وفراقه في السيادة وانهاك في السوء والصلاة وسائر من الخير : قتلت نفسك فقال : راحتها أطلب . . فهذا كلام مجسط بالمعنى لافضل فيه عنه . . وقال أحد الشعراء لأهله في هذا المعنى : سأطلب بعد الدار عنكم لتقرروا وتكبت عيناى الدمى لتجسدا

يقول : لغريب فأكسب ما يملكون به مقامى محكم وقوس منكم فهذا أحسن والأول أوضح ومن ذلك قول الأول :

تقول سليمى لو أقيمت المصنعا ولم تدر أنى المقام : أنا مسوف
وهذا الثانى واضح حسن وهو أبيين من البيت الأول (٣) وقيل لمصنوع
ابن حاتم بن قبيصة وهو واقف على باب المنصور في المعنى فقال : ليظن وتوحيبى
في الظن . . فهذا كذا مكشوف واضح كأنك ما فات كلام الربيع . وأطبع ما جاء في
هذا المعنى وأحسن قول أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي :
ألفية النجيب كم استقرأى
ولمست فرحة الأهمسات الا
أبلى فكان داهية اجتساع
لمشوف على ترج المسوداع
فهذا طبع حسن والأجل ما ذكرنا . (٤)

(١) رسالة البلاغة ص ٥٩

(٢) يلاحظ أن بعض أمثلة الجرد هذه قد سبق لنا ذكرها في حديثنا عن الموازنات الأدبية ورأينا غرورة انتهائها بجملتها في هذا الموضع حتى تنتج لنا رسالة البلاغة على الوجه الصحيح .

(٣) لاحظ حكم الجرد على بيت (سأطلب بعد الدار . .) دقة ومقدار إذ أدرك ما فى البيت من الغموض النسبى وإن كان فيه حسن مقابلة بين الألفاظ ولذلك حكم عليه بالحسن وحكم على ما عداه بالوضوح والحسن أيضا .

(٤) رسالة البلاغة ص ٦٢ .

ولا يستثنى البهره من الحكم العام الذي قاس به المعتقدات في المذهب
والشرع لا ينفك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .. يقول بعد كلامه
السابق مباشرة :

*** وهذا - أعزك الله - مغالطة بين الأفعال والتأثير فإذا جسدنا
قوى الرسول صلى الله عليه وسلم رأيت من كل منطق بائنا وعلى كل قول عاليسنا
ولكن لفظ قاصرا .. نحن ذلك أنه قالوا في باب تصرف الزمان وتصرف الأجسام
أقاص معناها واحد وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فظهم مسافة ما همسرون
الكاذبين واتصل الأقاص عن قوله عليه السلام وإن كانت غايات من قول فمستمره
قال لبيد بن ربيعة :

كانت فتاتي لا تلمن لخاصسز فلأنها إلا صباح والا بسبا
ودعوت ربي بالسلمة جاهسدا ليصحنى فإذا السلامسة داء

يقول : تقريني من أجلي .. ومنه قول النضر بن توب :

يسر الفتى طوى السائمة والفتى فكيف ترى حوى السلامسة يفصل
يجر الفتى بعد اعتدال ومحة ينو إذا را ر الدنيا ويحمد حسن

وقال حميد بن ثور :

أرى بهرى قد دأنتى بعد محة وحميد داء أن تصح وتسلما
ولا يلعت الصبران يوما وللمسة إذا طلبا أن يدركا ماتيسا

وفي هذا المعنى قال أبو الحسن : تين لأعرابي : مات فلان أصبح .. يكون

فقال : أو صحى من في عنقه الموت : وقال غيره :

إذا هل من داء به ظن أنسه فيما به الداء الذى هو قاتله

..... فهو لا كلفه محسن مجمل والفلس فيه لأوزنه كالما وأسفههم

الى المعنى ولكن أين هذا كله من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " كفى
بالسلامة داء " .. فانظر الى هذا الكلام الذى لازادة تيم ولا نقمسمسان
لايطون المعنى ولا يقصر عنه وانما الى لغائه وجزائه يقول : " كفى بالسلامة
داء " فأي كلام أودأ أوزمه في القلب أوقر؟ ان هذا الكلام ليس عن أن يخلصه
وفى أو يحيط به قو .. (١) *

" فإذا جاء أمر القرآن نظرت إلى انفسى الذى هو أوجد والقول الذى هو منبت إلا ترى أن الله بجملة الحجة والبيان والدلائل والبرهان وانما وضع القرآن للبحر المستقى لا لتكسب والمتماهى .. قال أحمد الشعراء فى قصيدته يحلون الشعر ولا يفسهونه قولا أجاد فيه وتقدم كلام كثير من المخلوقين فقال :

رواس للأشعار لا علم عند الله
بهدىها إلا كعلم الأبناء سر
لمصر ما يدري البحر إذا غدا
بأولها قه أرواح مافى الفرائر

فصبيات هذا من قرون الله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ... وقد كان الأولون منا : " القتل أنفسى للقتل " يقول إذا قتل القاتل امتنع غيبه من التعرض للقتل ... فهذا أحسن الكلام من كلام مثله ... ولو اعتربنى صترى فقال من القتل ما بهى القتل ويحدث عليه لكان ذاك له وإن لم يكن ما قصد له القاتل ... فإذا جاء قرون الله عز وجل : " ولكن فى القصص حياة يا أولى الألباس " جاء بالا اعترابى عليه ولا معارضة له بقوله يا أولى الألباب خطر ثان فتبارك الله الذى ليس كمثلهم شئ " (١)

وهكذا نلمس اعتداد البحر بهيئة القرآن الكريم والهدى النبوى الشريف ووزنهما فى مكانة سامية ومرتبة عالية لا تشمل اليها غيرهما من الهالقات والأقواس ..

ذلك عذرة من رسالة البحر فى الهلقة ولعله قد وضع لنا مسيرنا خالها قدرة البحر على مثل القائق النقدية الدقيقة ومعالجته للنقائس الكلية فى النقد وذلك ما افتقدناه فى اتجاه الكامل الذى يبرز فيه النقد الجزئى التطبيقى وانتشرت فيه التعليقات فى مختلف قنایا النقد ومائله .. فرسالة الهلقة من هذه الزاوية تعد من البحوث النقدية البحتة التى خلصت لبحث مسائل النقد ولم تغفلت بهجرها من بحوث اللغوية وقواعد النحو والصرف ..

تلك المسائل الخمس - الموازنة الأدبية والسرفات العمودية والبالغة والتعريف ومقالة المصنف - التي قدمنا القوم فيها هي المسائل الرئيسية في تراث المبرد النقدي والتي يمثل فيها جهده الحقيقي في هذا الميدان على أساس أنها قضايا محددة يحسبها المبرد في مواقع شتى من تراثه وكرر القوم فيها وتناوب مختلف جوانبها وبقي بعد ذلك من تراثه النقدي منهجه في النقد اللغوي وسوقه من قديم القديم والجديد والتوليد والوضع وهو ما سنعرض له فيما يلي :

النقد اللغوي :

أشرنا الى أن بحسب اللغة وتواعد ما أخذت القدر الأكبر من اهتمامات المبرد حتى كادت أن تغلب ماعداتها من بحوث الأدب والنقد والبالغة المتناثرة في ثنايا تراثه الكبير، ومنهج المبرد في التحليل اللغوي يمد من أنفع الطابع وأكثرها سهولة وأغنىها للأدب وأبدعها على الدارس فهو يفسر النص الأدبي ويقره الى فهم القارئ موضحا مافي عباراته من غموض وجافي أساليبه من مجاز مستعينا على ذلك بالأمثلة المختلفة من القرآن الكريم وأثر كلام العرب ولذلك فهو عظيم القيمة في مجال النقد الأدبي لا محالة على كبر من النظريات النقدية وكشفه لكثير من خفايا الأساليب العربية وإزالة الغموض الذي يكثف بين الأسماء أو المصطلحات والتجاذبات التي يضطر اليها الشعراء إلا أن ذلك يأتي متناثرا وموزعا ومن ثم فهو كما عرفت نقد جزئي يتملق بالبيت أو الأبيات والغلبة أو النحل والحكمة .. وهذا مثال من تحليلات المبرد اللغوية المشتملة على فوائد كثيرة .. أورد المبرد الأبيات التالية من شعر عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهي :

رأيت فديلا كان شفا مفسدا	فكشبه التحميم حتى بد اليها
أنت أغنى ما لم تكن لي حاجة	فإن عرضت أيقنت أن لا أخاليا
فلا زاد ما بيني وبينك بعدد	بلوتك في الحاجات إلا ناديا
فلست برا عيب ذي الرد المسه	ولا بعني ما فيه إذا كنت راضيا
فممن الرضا عن كل عيب كليله	ولكن عين السخط تهدي المساويا
كلانا غنى عن أغنيه حياتيه	ونحن إذا متنا أمد تدانينا

فهذا الشعر من مائة من شعور صاك في حجرة حية نابضة ومع ما يشتمل عليه من معنى صحيح وحكمة دائمة لم يستلفت انتباه البهره فيه الا هذه المبارات التي بقيت في ليلها على هذه الصورة ..

" قوله كان شيئا طيفا : يقرب : كان أمرا مفضيا . والتخمين : الاختصاص
يقال : أدخلت الذهب في النار فخرجت أي شيء عنه ما لم يكن منه وخلص الذهب . قال
الله عز وجل : (وليمحى الله الذين آمنوا ويحسب الكافرين) . . . وقال : محسب فسلان
من لدنهم وقوله : " أنت أخي ما لم تكن لي حاجة " : تقرير وليس باستغناء ولكن
محتاج أني قد بلغتك تظهر الأخاء فإذا بدت الحاجة لم أر من أخائك شيئا قال الله
عز وجل : (أنت قلت للناس اتبعوني وامسكوا من دون الله) إنما هو توجيه وليس
بإستغناء وخوجس هذا المالم بأن محسب لم يقله قال علي بن أبي طالب : ثلاثة
لا يخترعون الا في ثلاث : لا يعرف الشجاع الا في الحرب ولا العظيم الا عند الضيق
ولا السديد الا عند الحاجة " (١)

وأشبه التحليل اللغوي في تراث البهره كثيرة ومعينة وكثيرا ما كان يعود الأسماء
الجديدة ويطلق عليها تمايلا لغويا بحيثما كتبت الأبيات الفولية الرائعة من شعر محمد
بن عبد الله بن نير الثقفي وهي قوله :

لتراني من سرب رأيت	خرجت من التميم معجرات
مدن بفتح ش رحت ع	عليين للرحمن مؤججرات
تأخر سكا بطن نيمان أن	به زينب في نسوة عطجرات
وقامت ترابي بين جمع فاخت	برؤيتها من راجع من عرفات
ولما رأيت ركب التيمري أعرست	وكن من أن يلقينه حسرات
دعت نسوة هم المراتين بد نسبا	توابع لا شعنا ولا غسرات
فأدنين لما قمن يحجبن دوشها	حجابها من القس والحسرات

أحل الذي فوق المسرات عرشه أو أفس بالبطحاء ممتصرات
يخشن أطراف البنان من التقس ويخرجن جنح الليل مختصرات

وبن جمان : هذه القطوعة لم يعرض المبرد في تحليله لها إلا كلمات معدودة وهي
السرب بمعنى القطيع ونم المرانين وأسمت . بالانزاع إلى حديثه عن تخفيف الهمزة
والقاء حركتها على الساكن الصحيح قبلها في قوله : وكن من أن يلقينه حذرات * (١)

هذا التحليل اللغوي الذي ذكرنا أمثلة له شيء أشرف النقد اللغوي الذي
يبحث فيه عن الاختلاف اللغوي الذي يقع فيها الأدباء أو يفاضل بين عبارتين من حيث
الصحة اللغوية أو الدقة في التعبير عن المعنى في الموضع الذي وضعتا فيه
أمرنا إلى ليالات المبرد اللغوية لتوضح أنها ذات أهمية في مجال النقد لا متعلقاتها
في كثير من الأحيان على قواعد نقدية وحقائق أدبية مهمة . . . أما النقد اللغوي فليس
تراث المبرد فهو كثير ومتنوع بعضه يدور حول أخطاء وشبهات وقع فيها الشعراء
مخالفين فيها قواعد اللغة أو أصول اشتقاقها واستعمالاتها الصحيحة وبعضه توضح
لمعاني اللفاظ والتعابير وتحديد لأقرب مدلولاتها وأنها لا ياتي من أمثلة النسخ
الأخير تطبيق المبرد على هذه الأمثلة التي أوردناها في الكامل من شعر . . . بدمر التبيين
وهي :

لولا يفارقني عطية لم أفسد ولم أخط أهدائي الذي كتبت أفسد
شجاع إذا لاقى راء إذا رمى وهاد إذا ما أظلم الليل مصدع
سأكونك حتى تنفذ العين ماها ويغنى من الدمع ما أتوجه مصدع

على المبرد على البيت الأول منها بقوله :

(أحسن الانشادين عندى لم أفسد يأخذه من ومن يهن لأنه إذا قال لم أفسد
فهو من الهوان ومن قال لم أفسد نانا هو من الضعف وهو أشبه بقوله ولم أخط أهدائي
الذي كتبت أشع والأخير غير بعيد يقول لم أفسد على أهدائي * (٢)

وتبين لنا من هذا التطبيق أن البحث اللغوي عند المبرد كان يستلزم القيسرة
النقدية في بعض الأحيان هنا في اختيار الانشاد الذي تبيح معه العبارة
وقوى المعنى وتماشت أنباء المعنى . . .

والنقد اللغوي المتعلق بالأخطاء أشبهه كبرة في ثراث النبرد ولمعها الكسر
أنواع النقد اللغوي في ثرائه : من تلك الأخطاء : ما أورده صاحب الموشح عن محمد بن
يزيد قال :

* كان أبو نواس لحانة فمن ذلك قوله :

فما غيرها ألا تكون لجسوس ولا العزى كصب ولا لنسباد

لحن في تخفيفه يا النسيب في قوله (العزى) في نحو النسر وإنما يجوز هذا ،
ونحوه في القوافي كما قالت امرأة شخر بأجد لها من اليمن :

■ هودة خالي ولقيط وطى ■

وقال آخر في يوم النجمل :

قلت عليها وعند الجلوسى وأما لمرحان على دين طمسي * (١)

* ومن محمد بن يزيد قال : أخطأ ابن يسير في قوله :

ولو قدمت أثنى الرزق في دعة أن القنوع الغنى لا كسرة المال

لأن القنوع إنما هو السواحل * والقانع : الساعى قال الله تبارك وتعالى (قتلوا منها
وأطعموا القانع والمعتر) فالعتر : الذى يثمر ولا يسأل - يقال : قنع يفتح قنوعا إذا سأل
فهو قانع لا غير وإذا رضى قيل قنع قناعة فهو قانع وقنع جميعا * (٢)

* ومن محمد بن يزيد النحوى قال : قال حسان بن ثابت يرثى مطعم بن عدي في
أبيات - وهذا البيت رديء عند أهل العربية وذلك أنه قد ركن على الالف ثم لم يسمه
ربما جاء في الضرورة :

فلو كان مجد يخلد اليوم واحدا من الناس أبقى مجده الدائم مطعما

ونظيره قول الآخر :

جزى ربه عني عدي بن حاتم جزاء الكلاب الماديات وقد قمسين * (٣)

(١) الموشح ص ٤١

(٢) الموشح ص ٤٥٢

(٣) الموشح ص ٨٤

فهذه تقود لغوية بحثة تدل على تمكن من اللغة وتمسك في فهم دلالاتها واستعمالاتها الصحيحة .. وقد يظن البيرد في تقدم اللغوي كما هو الحال في كثير من نقد اللغويين وهذا ملاحظه صاحب المقد الفريد وفيه عليه بقوله :

(وأكرما أدرك على الشجرا " إه ميجاز وتوجيه حسن ولكن أبحاث اللغة لا يتبعون
ورما ظنوا عليهم وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها فمن ذلك .. قول محمد
ابن يزيد النحوي المعروف بالبيرد في كتاب الروضة وأدرك على الحسن بن هاني " قوله :
" وبالكر بن واثن عـــــ
الآ بهقائها وكاذبهـــــ

فهم أنه أراد بهقائها " هبنقة " القبيح " ولا يقا في الرجل حقاً " وأنـــــ
أراد " دقة " السبابة " وهجن في بكر صها يضرب المثل في الحق " (١)

القد يسم والجديسد :

على الرغم من انتماء البيرد إلى المدرسة اللغوية فإن موقفه من قضية القديم والجديد قد اتسم بالاعتدال والحكمة يدل على صحة أفق وحسن ذوق في اختيار الأسماء الجيدة للأقدام والمحدثين على السواء .. وقد أعلن البيرد موقفه من هذه القضية بمراحضة في كتابه الكامل حيث يقول :

" وليس لقد المسهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتتم الصيب ولكن يعطى
كل ما يستحق ألا ترى كيف يفضل قون " عبارة " على قرب عهد " :

تهتتم نحى فخير بحكمـــــ	تذيلة نفس كان تمحا مبرهـــــ
ولن يلبث التذمين نفسا كرســـــ	عريكها أن يستمر مبرهـــــ
وما النفس إلا نعلقة بقسمـــــ	إذا لم تذكر كان عفا مبرهـــــ (٢)

(١) المقد الفريد ج ٥ ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٢) تهتتم سخط : يريد تهتتم عن استشارة سخطى والبحث التفحص ، وذيلة نفس : بفتح
فتح البون يريد فخير بحكم نفس مندولة صفاء من ثفن المداوة . والتذمين
مدر حشن مدره إذا أفره السريكة الطليمة . والسرير في الأسفل الجبل الذي يتناول
طاقين فأكثر منه مثلاً لقوة مبره على المكروه . يحذر أعداءه لا يفترقون بحامه (رغبمة
الآبي ج ١ ص ١٢٨) ..

فهذا كلام واضح وقول عذب • وكذلك قوله أيضا :

بنودهم أن يذن عسى فقد مضى حياتي لكم مني ثناء مخلص
بدأتم فأحسنت فأثنت بها وإن عدتم أثنت والصود أحسد (١)

وجد عقد المبرد في الكامل بابين اختار فيهما أشعارا للمحدثين أحدهما
في الجزء الأول بدأه بقوله :

" هذه أشعار اختارها من أعمار المولدين حكيمة مدحمة يحتاج اليه
للتشأن لأنها أشكل بالدهر مستعار من ألفاظها في المخالطات والخطب والكتب " (٢)

ومضى في إيراد الأشعار التي قالها الشعراء في مختلف المعاني موازنا بينها ذاكرة
ما قاله الأقدمون فيها • • وما أورد في هذا الباب قول عبد الصمد بن العمدل :

تكلاني اذلال نفسي لمزجها ودان عليها أن أهان أكرمها
تقوى من المبروخيحي بن أكرم فقلت عليه رب يحيى بن أكرم

وقول بشار :

عليان من كعب أرمنا أذاكنا على دهره أن الكرم مفسد
ولا تبال بخل بن قزعة اتفه مضافة أن يرحى نداء خزيس
كأن سيد الله لم يلق ماجدا ولم يدرك أن العكرات تكسبون
فتن لأبي يحيى متى تترك العمل وفي كرم معروف عليه يعسبون
إذا بختبه في حاجة يد باهه فلم تاقه إلا وأنت كدسبون

وبلغ المبرد على هذه الأبيات بقوله :

" نأير قوله • وفي كرم معروف عليه يعين • قول ربيعة :

ولا خير في حال عليه أليس ولا في يعين عودت بالأمس " (٣)

وفي هذا الباب أيضا أورد المبرد من شعر أبي نواس قوله للغضن بن الربيع :
حامن يد في الناس وأحسده كيد أبو العباسي أولاه
ناب الكرا على نفا بضمهم وصرى إلى نفسي فأحيادها
قد كتبت خنتك في أنس مني من أن أخافك خروك اللسه
فمفوت عني عفو مقسم حلت له نفي فالداعيه " (٤)

بقوله :

أخس ما بان قلبك ليس بنفسى
ألا يا ابن الذين فتوا همداد
وما أحد يزادك منك أحناس
ولا لك غير تقوى اللبس زاد
كأنك لا تظن الموت حسيما
أما والله ما ذهبوا لتقسيما
وما أحد يزادك منك أحناس
إذا جعلت إلى اللوات ترقس

ثم يقول المبرد عن أبي نواس :

وما يستحسن من عمره قوله :

لا أزدو الليل عن شمس
قد بليت العرب من شمسه

فمثل هذا لو تعدى لكان في صدر الأمان (٢) وكذلك قوله أيضا :

نامض لا تمن علي يميني
منك المعروف من كسده

... وفي هذا الشعر أبيات مختارة منها :

وإذا من القنا علقسيما
وإذا من القنا علقسيما
راج في شئى ما يتسببه
أحد يدي عيا ظفسيما
تتأني العيسر غد وشيما
ثقة بالفتح من جسيما
فاسل عن نسو توطسيما
حسبك النما من بطسيما
لا تغلبي عنه مكرسيما
برها واد ولا غيبيما
ذلت تلك الفجاس لسيما
فرو وجتاز علي بهسيما (٢)

وقد علق الشيخ سيد المرتضى في شرحه للكامل على اختيار المبرد لهذه الأبيات بقوله : " ذلك من أبي المباح حسن جميل وقد اختلفت هذه القصيدة توجد فيها

(١) لمن المبرد لا يقيد بهذه العبارة الحكم بتأخير هذا الشعر لتأخر قائله كما قد يقوم منها لأو وهلة واتما يريد أن ينصف قائلها وينبه على رتبها في الجسدية وأعمال النقاد لها بالقياس إلى ما ورد فيها من أشعار المتقدمين ..

(٢) الكامل ج ١ ص ٢٤٣ وثني واحد على شئ وهو اسر لما كتب في طرف الثوب . والمفاضة : الدرع الواسعة . عيا : جمع نهاية وهي من السيف والمناج حد طرفه . تتأني : تتعذر جزره : اسر لقليل اللحم (رغبة الأمن ج ٤ ص ١٢٢)

جامعة بين حسن البادية ورقة الحاضرة في لطف الكناية وملاحاة الاستعارة وحسن التشبي
فلحبت أن أذكرها لجودتها ولتتمل مواقع الأبيات المذكورة منها * (١)

ثم ذكر القصيدة بأكملها وشرحها :

وأما الباب الآخر الذي أورد فيه المبرد أفعارا للمحدثين فهو في نهاية الجزء
الثاني من الكامل وقد جمع فيه أفعارا لطيفة للمحدثين تدل على حاسته النقدية الناجحة
ودقه المصنف * ثبت نحن منها هذا النموذج : يقون المبرد :

" وما استأرقنا من شمر المحدثين قول يعقوب بن الربيع في جارية طالمهمسا
سبع سنين يبدل فيها جاحصمها له واخوانه حتى ملكها فأقامت عنده ستة أشهر ثم ماتت
فقال فيها أفعارا كثيرة أختارنا منها بعضها من ذلك قوله :

لله أنسة فجمت بهما	ما كان أهدها من الدنسى
أنت البشارة والنفسى	يا قرب ما أهدها من الدنسى
يا ملك نال الدنسى فومئذ	فومئذ فإدا غير محمى
كم من دمن لا تجصف و...	نفسى عليك طرفة النفسى
أهيك ما ناحت المرقسة	تحت الظلام تنجى في الدنسى
يا ملك فوك في محمى	ومما يوحى ذاك الأندلسى
ما بعد فرقة بيننا أهدنا	في لذة درك الدنسى (٢)

..... ثم يقون المبرد :

وما استأرقنا من شمر يعقوب قوله :

ليت شمرى بأى ذنب لطيفك	كان شجرى لقبرها واجتباها
الذنب حقدته كان منه...	ألملمى بشغلها من عتابى
ألمنى لخطوبها ورضاها	حين وأريت وجهها في الشراب

... ومن ملجى شمره أيضا قوله :

فجمت بهاك وقد أهد...	وقمت فأعظم بها من ميسرة
فأصاحت متعبرا بعد...	وأصحت بطلوان ملك غريسة

(١) رغبة الأسفل ج ١ ص ١١٩

(٢) الكامل ج ١ ص ٢٠٩

أراني غريبا وإن أصبحت	منازل أهلى عسى قريبة
خلفت على أشتها بعد هــ	فهادفتها ذات عقى أدبية
فأقبلت أبكى وبكى مـ	بكاء كريب يحزن كريبـ
قلت لها مرحبا مرحبا	بوجه الحبيبة أخت الحبيبة
سأعفيك ودى حفاطك لـ	لذاك الخفاء بشهر العذبة
أراك كملك وأنك تكسـ	لك من الناس عندي غريبة (١)

وأما عمدنا إلى اثبات هذه الآثار لنصرف على ذوق المبرد في الاختيار وإعطائه للأشعار حقها من النقد ثم لتلخيص تلك الظاهرة الفريدة في ثراث المبرد وهي اهتمامه بإسراء القطعة الأدبية كاملة أو قريبة من الكمال ما لا نكاد نجد له شيلا - إلا عند الجاحظ - طالما عييت بحوثنا الأدبية القديمة بتركيزها على البيت أو البيتين واكتفائها بموضع الشاهد والنثال الذي يمثل به للقاعدة أو الهدأ وكان القصيدة مجموعة من الأبيات لا رابط بينهما سوى الوزن والتقفية .. فكان المبرد بإيراده هذه المقطوعات والتضامات الناجمة يريد أن ينه على ذلك الأساس المهيمن من أسس البيت النقدي ومعنى يقوم التمسك الأدبي على أساس أنه كـ لا يتجزأ وأخذ ماله وإعطيه وموازن بين ما خلق فيه الأديب وبين ما أخفق فيه ..

وقد أشار المبرد إلى هذا الهدأ صراحة في كتابه الكامل يقول :

.. " وقد يضطر الشاعر المنلق والخطيب المدق والكاتب المبلغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستملق واللفظ المستكره فإذا اتصلت عليه جنبتا (٢) الكلام غفلنا على عواره وسترنا من حيثته وإن شاء قائل أن يقول بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر وجاهوتـ له أشهر كان ذلك له ولكن يشتر المـ للحسن والقريب للبهيد " (٣)

(١) الكامل ج ٢ ص ٣١٠ + ٣١١

(٢) جنبتا الكلام يسكون الثمن : ناحيتاه أوله وآخره (رغبة الأمل ج ١ ص ١٢٦)

(٣) الكامل ج ١ ص ١٢ والموضح ص ١٦١

التعليق والموضع :

أشار الجرد في "الكامل" إلى "أهمية الاعتماد والتزيد في آداب القدماء" و"أسرار أخبارهم" وقد عقد باباً من تكذيب الأعراب حمداً فيه طائفة من الأسماء الموضوعة والأخبار الكاذبة بدأه بهذه الرواية : " قال :

حدثني أبو عمر البهرمي قال : سألت أبا عبيدة عن قول الرازي :
أهدموا بيتك لا أهلكتك وأنا أمشي الدهال (١)

فقلت لمن هذا الشعر فقال : هذا يقوله الضب للحمل أيام كانت الأعيا تتكلم (٢)

ثم يورد الجرد هذه الحكاية الطريفة يقول : تكاذب أعرابيان فقال أحدهما
خرجت مرة على فرس لي فإذا به ظلمة شديدة فرميتها حتى وصلت إليها فإذا قطمعة
من الليل لا تقيته بعد فدا زلت أحمل عليها حتى أنهيتها فأتجأه . فقال الآخر
لقد رميت ظلياً مرة بهيلاً بعدل الظابي يعني بعدل السم خلفه فتياسر الظابي فتياسر
السم خلفه ثم عاد الظابي فعلا التمس خلفه فانحد فانحدر عليه حتى أخذه (٣)

في هذا الباب إشارات إلى الوضع والاضطراب في رواية الشعر منها قوله :

" أنشد المازني للأعشى - وليس ما روى الرواة متصلاً بقصيدة .

فصدقتهم وكذبهم والدم ينقصه كذاهم (٤)

" ودخل عبد الله بن الزبير يوماً على معاوية فقال : اسمي أبا ناس فقتلته وكان واجداً
عليه فقال معاوية : مات فأشده :

إذا أنت لم تحلف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيقه إذا لم يكن هن غفرة السيف من حبل

فقال له معاوية : لقد سمعت بعدنا يا أبا بكر ثم لم ينشب معاوية أن يدخل
عليه ممن بن أوس العزني فقال له : أقلت بعدنا شيئاً قال نعم يا أوس المؤمنين فأشده :

لمسرك ما أدري وأنى لأوجل على أينا تعدر المنية أول

(١) الدهال : مثنى كسبي الذئب يقال هو يد أن في مثبه إذا مثنى كسبية الذئب (الكامل)

(٢) الكامل ج ١ ص ٣٥٦

(٣) الكامل ص ٣٥٧

(٤) المرجع ص ٣٦٤

حتى صار إلى الأبيات التي أتت بها ابن الزبير نقاش له معاوية يا أبا بكر أما ذكرت أننا أن هذا المبرور قال : أنا أصلمت معانيه وبنو ألف الشعر وهو مفسد غشوى فما قال من عني فهو لى وكان عبد الله بن الزبير مسترضما في مزينة (١) تلك إشارات المبرد إلى ظاهرة انتقال الشعر والاضطراب في روايته وهي إشارات كما يتضح من ثناياها ضئيلة بالتحفة إلى إشارات كل من ابن سلام والجاحظ التي عرضنا لها من قبل . .

ذلك علم آخر من أعلام المدرسة البصرية عاش حياته كلها في القرون الثالث وبعد تراثه أصدق شاهد على نوعية الفكر النقدي للمدرسة البصرية في تلك المرحلة وعلى الرغم من انتقال المبرد إلى زمره علماء اللغة واشتهاره بين النحاة - رأينا له نظرات قيمة في قضايا النقد ومعالجته بل لقد وضع لنا ذلك العالم المتبحر كثيرا من أسس النقد التطبيقي عند العرب وظل منهجه التحليلي وأسلوبه في تفسير النصوص والمقائل الأدبية تفسيراً جزئياً - على لا يحقا بالبحث النقدي في أدب العربيين بصورة طويلة بل لحظاً مائزاً تصدر عنه في دراستنا للنصوص الأدبية وشرحها للدارسين في عصرنا الحديث . . ومن ثمرات المبرد رائداً من رواد النقد وحلما من أكبر أساتذته وهو وإن لم يكن عالماً في بحوثه النقدية قضايا كلية أو مسائل عامة لقد كان من أبرز من استطاع ذلك الأسلوب التفسيري في تحليل الآثار الأدبية ونقدوها . .

قد استخلصنا من تراثه النقدي الكبير والعثلى في كتابه " الكاين " - آراءه في مجموعة من قضايا النقد وشرعنا على موقفه حيالها وقد وضع لنا أن البنية النقدية للمبرد كانت ناضجة وأن روحه في تفسير الأدب وتقييمه كانت متحررة وأن له نظرات نقدية دقيقة وحساسة وها أدبها لنا في التعرف على مواطن الجمال والاهتداء إلى أسرارها . . وذلك كله بلا ريب جهد فكري له قيمة الكبرى في التعرف على أبعاد الحركة النقدية في مدرسة البصرة في القرن الثالث وبعدها على فكرنا النقدي على جبهة المعجم . .

المعتزلة والنقد الأدبي :

على الرغم مما بين مباحث علم الكلام التي تشكل الاهتمامات الرئيسية للمعتزلة وبين النقد الأدبي من بعد فإن المعتزلة قد أسهموا في الحركة النقدية لبيئة البصرة بجهود قيمة وحسنوا جوانب لا تقل في أهميتها عما بذله اللغويين أو الرواة أو غيرهم من البيئات النقدية التي أسست الحديث عنها فيما مضى .. ولو أن المعتزلة بفكرهم المطلق وخطباتهم المتحررة وثقافتهم المستنيرة تخصصوا في نقد الأدب أو استلزمته بحوثهم من قريب لتضيق مجال تأريخنا النقدي .. ولكن تيارات المعتزلة النقدية تظل بكل المقاييس ثابته بالنسبة إلى تراثهم في مسائل العقيدة وقضاياها ..

قد يقال : إذا كانت تيارات المعتزلة النقدية ثانوية ولا تشكل أساساً صلباً لمس حركتهم الفكرية فما السر في عدهم بيئة من بيئات النقد ؟ هذا الداعي المسبق ربط الآراء النقدية لهذه الطائفة من العلماء بمدى فهمهم العقدي ؟

وجوابنا على ذلك أننا لم نربط هذه الآراء النقدية بحركة الاعتزال من حيث صدورها عن ينتحون إلى ذلك المذهب الديني وحسب ولكننا لاحظنا أن تلك الآراء متأثرة ببادئ المعتزلة وأن روح الاعتزال سارية فيها بحيث تعد أبرز سماتها وأخص خصائصها وذلك ما يميزها عن غيرها من نتائج البيئات النقدية الأخرى ، ويستنتج لنا من خلال عرض الجهود النقدية للمعتزلة مدى ما فيها من عمق وأصالة في تحليل الظواهر الأدبية والتحليل لها كما سنرى بقدر ما أقامه النقد الأدبي من المنهج المنطقي الذي اعتمدته المعتزلة وصدروا عنه في كافة ما عرضوا له من قضايا ..

ولعل ما تجدر ملاحظته والتنبية عليه أن حركة الاعتزال التي ارتكزت على حراسة الفكر واستلهمت المعنى وولت على المنطق لم يقتصر تأثيرها على بحوث العقيدة أو مسائل الكلام بل سوت روح مبادئها في عديد من القضايا الثقافية والاجتماعية في المصير الذي ازدهرت فيه ..

عنى المعتزلة أساساً بتخليص الفكر الاسلامى من شوائبه وكانت دعوتهم
فى جوهرها شرة على الشين المضطرب فى شيم حقائق الدين والفوضى الفكرية فى تقرير
أصوله ، والانحراف عن الجادة بين تدارف الغالرين الذين سحوا لأنفسهم بتفسير
حقائق العقيدة وفق أهوائهم وحسب ميولهم ونزعاتهم وبين أحجاء المتزمتين الذين
توقفوا عن التأويل والتفكير وأحاطوا سائر العقيدة ببيان من الصمت والتحفظ ..

ذلك بايجاز خالص الجهد الذى بذله المعتزلة فى مجال العقيدة ، أما جهودهم
فى مجال التحرر الفكرى بصفة عامة : فقد حاربوا الخرافات والأوهام وناقشوا كيرا مسن
المعتقدات التى لا تنفى مع مبادئ العقل ولا تنفى مع أصول المنطق المستقيـم
وعملوا على تحرير عقول العامة وأسهبوا فى مختلف فروع الثقافة بأراء قيمة ونظريات
صائبة وبالجيلة كان للمعتزلة نصيب فى تلك الیقظة الفكرية التى تخللت فى مختلف
نواحي الحياة فى المجتمع الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ..

ومع ما قدمه المعتزلة للفكر الاسلامى وما بذلوه فى سبيله فان الظلم الذى وقع
عليهم من قبل المسلمين لا يعد له ظلم والتشويه الذى أصاب مبادئهم لا يعد له تشويه
وقد أشرت فى حديثى عن النقد عند الجاحظ الى أن مذهب الاعتزال كان قد بلغ مبلغ
أبى ازدهاره فى عصر المأمون وأن اقراط ذلك الخليفة فى تحريف المعتزلة ومخالطته
فى نصرة مذهبهم قد جبر على ذلك المذهب أنصارا ومولاة ونقل الصراع حوله من الميدان
الذهي الى الميدان السياسى فما لبثت خمرة المعتزلة أن نكلوا بهم حينما واتتهم
الفرصة فى منتصف القرن الثالث وشوهوا مبادئهم وشرائعهم أيضا تشويه بحيث أصبح تخليص
مذهب المعتزلة الدينى أمرا بالغ الصعوبة بعد الذى ناله من الخلط والافتراء ..

ولحل أسدق شاهد على ما نقول ما يقرره المستشرق " نيبين " فى تقديمه لكتاب
" الانتصار " لأبى الحسين الخياط إذ لاحظ أن مذهب مذهب منسوب الى المعتزلة من مبادئ
منقول عن كتاب " فضيحة المعتزلة " لابن الراوندى وهو زعميق ملحد كان قد انتحل
مذهب المعتزلة ثم انقلب عليهم وأنصف وحل الكتب فى نقض التوحيد وإنكار الرسالة
ودلن نيبين على ذلك بأن البندادى فى " الفرق بين الفرق " أخذ أكبر ما نقله عن
المعتزلة من كتاب ابن الراوندى .. كما يتضح من مقابلة الكتابين .. وأما الشهيرتانى فقد
ورد فى " الملل والنحل " ما يدل على معرفته بكتاب " فضيحة المعتزلة " لابن الراوندى إذ
ذكره فى بعض مواضع ونقل عنه أشياء " (١)

هذا عن القدماء أما المحدثون فمن أمثلة جهلهم بهادي المعتزلة وانفرائهم
للمارغ عليهم ما يقوله جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي " عن المأمون المباسمي
اذ يذكر أنه " تمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه أشياخه كأي الهزيل الملاف واهرائهم
ابن سيار النظام وجالس المتكلمين فتكن من مذهب الاعتزال .. وأخذ يناصر أشياخه
وصح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء وفي جعلتها القسائل
بخلق القرآن أي أنه غير منزل ١١١ " (١) وهذا من لغرب ما رأيناه وأعجب ما سمعناه

يقول أحد الباحثين المحدثين - ذاكر فضل المعتزلة على الفكر الاسلامي :
" كثيرون هم رجال الفكر الحر الذين أساء المجتمع فهمهم فتحامل عليهم -
واضطهدهم منهم المعتزلة أولئك الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الدين وعلى
نصرة مذهب التوحيد وأرادوا أن يتهضوا بالمسلمين بحاربة الجبل وقاوة الجب -
الفكرى من ذلك ارتاب القوم فيهم فبرههم بالزندقة والكفر وخرجوا أقوالهم على الشر -
نسبوا لقتالهم ولعنهم من كل جانب فاستمجلوا بذلك نهايتهم فكان المعتزلة في حياتهم
كوكبا سحريا سطع في أفق الشرق العربي فترة من الزمن وسرعان ما اختفى مخافا وراء ظلمة
تكدت تكون دامية وجيرة تكبيد تكبر مرفوعة " (٢)

وهي أية حال فليس من أهدافنا الكشف عن حقيقة بهادي المعتزلة أو الانتصار -
لمذهبهم وإنما قصارى ما نريد هو أنه قد آن الأوان لكي يعرف الدارسون المحدثون حقيقة
مذهب الاعتزال وروحه وأن نتخلص من النظرة التقليدية إلى هذه الجماعة والتي ترتبط فسي
كثير من الأذهان بالتكفر والالحاد .. وما يؤسف له حقا أن كتب العقيدة التي تدرس في
الآن في المراحل الأولى بالازهر الشريف لا تزال من ذلك النوع الذي وضعه خصوم المعتزلة
الذين ألفوا الحديث عنهم على أنهم كفار أشرار .. ينبغي أن ينشط الباحثون لتخليص
مذهب الاعتزال من افتراءات خصومه وإيضاح الوجه الحقيقي لذلك المذهب الفكري المتميز
على نحو ما كتبه المنصفون أمثال : الشريف المرتضى وأبي الحسين الخياط والفخر الرازي وغيرهم (٣)

وحتى يكون الهدف من بحثنا للمعتزلة في هذا الفصل واضحا نبادر فنحسب
الجوانب التي سندور حولها الحديث في النقاط الآتية :

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤١ (٢) زهدى جار الله (المعتزلة ص ٢٤١)

(٣) تحدث المرتضى عن المعتزلة في أماليه ومختصراته قد را كبيرا من كتابه " النية والأمل

في شرح كتاب الليل والنحل " ولابن الحسين الخياط كتاب الانتصار والرد على ابن
الراوندي وللرازي " اعتقادات فرق المسلمين والمشركين " وهو لا العلماء هم أشر
مؤرخينا أنصافا للمعتزلة وهما لحقيقة مذهبهم ..

- (١) حركة الاعتزال - علمتها بالمفيدة الاسلامية - مبادئها - أثرها في النهضة الفكرية
- (٢) جهود المعتزلة في ميدان النقد الأدبي - تراثهم النقدي وأهمية - أثر ذلك التراث في الدراسات النقدية والمبلاغية ..
- (٣) أعلام المعتزلة ومكانتهم الأدبية ..

أولاً : حركة الاعتزال :

عرف مذهب الاعتزال أول ما عرف في أواخر القرن الأول الهجري واشتهر بين الباحثين أن مؤسسه عمو وأصل بن عطاء الفزال تلميذ الحسن البصري * وكان ذلك في أيام عهد الملك وابنه هراي * (١) وانضم اليه عمرو بن عبيد وجماعة من العلماء وهم بدأت بذور دعوة الاعتزال التي مالت أن أصبحت مذهباً من أهم المذاهب وأبعد ما أثرا في تاريخ الفكر الاسلامي .. ومع أن فكرة الاعتزال - نشأت في بيئة البصرة في وقت مبكر نجد الأبعاد الحقيقية لمذهب الاعتزال قد تبلورت في أواخر القرن الثاني ومداية القرن الثالث وهي مرحلة شهدت تحسلاً أساسياً في الناحيتين الاجتماعية والفكرية للمجتمع الاسلامي ففي الناحية الاجتماعية دخلته عناصر أجنبية من الفرس والعرب وغيرهم وكانت لهذه العناصر عقائدها ونظيراتها وفاداتها التي بقيت لها رواسب في وجدانها لم تستطع التخلص منها بصفة نهائية وفي الناحية الفكرية ترجعت ثقافات اليونان والفرس والهند وكان لها تأثير قوي في المقلية الصورية في تلك المرحلة وقد خلق هذا التحول وضماً فكرياً وقائداً سياسياً جديداً فكان طبيعياً أن تنشط حركة الاعتزال في ذلك المناخ الذي يناسبها - بل ويستأزمها ..

ولعل السبيل للتاريخ السياسي لهذه المرحلة يلحظ بوضوح شيوع الزندقة والاحاد بين من دخلوا بالاسلام من الأعاجم وقد قامت عناصر غريبة بشوات خطيرة هددت أمن الدولة وذلك في سبيل القضاء عليها والضرب على أيدي الداعين اليها الكثير من الأغنياء والأموال .. ولئن كانت السلطة السياسية قد حلت عبء الدفاع عن الدين عن طريق تنظيم الجيوش وحشد المقاتلين للقضاء على الزنادقة ان دفاع المعتزلة كان في ميدان لا يقل أهمية عن ميدان القتال وهو الجهاد بالكلمة وإبطال الشهرة بالحجة ودفع الزعم الباطل باليقين الناصح والحق الصراح ..

(١) الطل والنجل ج ١ ص ٥٧

يقول أبو الحسن الخياط في كتابه الانتصار :

... وهل على الأرض أحد رد على أهل الدهر... سوى المعتزلة

كإبراهيم وأبي الهذيل ومعمرا السمرقاني وأصحابهم ؟ وهل يعرف أحد صحيح التوحيد
وهو القديم بين ذكره واحدا في الحقيقة واحتج لذلك بالحجج الواضحة

والف فيه الكتب ورد فيه على أصناف الملحدين من الدهرية التنوية سواهم ؟ (١)

في موضع آخر يقول عن إبراهيم الخليل : " وهو وأصحابه من علماء المسلمين الذين
شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شغل أهل الدنيا
بمذاهبها وجمع حقائقها " (٢)

وجع أن هدف المعتزلة كان ساميا وأن غايتهم كانت نبيلة فإن الطريق

أماهم كان مثقلا بالمواثيق محفورا بالمخاطر فلم تكن بحوث علم الكلام بما تيسر

عقول السواد الأعظم من العرب المسلمين وكان جمهور العلماء يميلون إلى تقليد

سلفهم في المسئلة آراء مسائل المقيدة والتحفظ الشديد تجاهها . ثم إن

طبيعة البحث في مسائل علم الكلام قادت بعض علماء إلى شطحات فلسفية لا يقرها

الدين ولا ترضاها وجدانات المتدينين الذين لم يجدوا غناضة في رسم المتكلمين

عامة بالالحاد والزندقة . . يقول المرتضى : " وكان الرشيد نهى عن الكلام

وحبس جميع المتكلمين حبسا على ذلك قوم لم يعرفوه والمرء عدو ما جهله وحكى أنه

اجتمع عند رجاء بن يكلبان في مسألة من الكلام فبحث بها إلى الكسائي لينظروا

بأيهما فلما دخلا عليه وكلما ولغا إلى موضع لا يعرفه قال : هما زنديقان يقتلان " (٣)

ويحلل المستشرق نيبين لما يهد وفي أقوال بعض طوائف المعتزلة من تطرف

وشطط بأن كثرة الخصوم الذين انبرى المعتزلة للرد عليهم قد تركت آثارها في آرائهم

ذاتها فرائيا فيها ضعفا وترددا يقول عن المعتزلة : " إن قوما هذا شأنهم

وموقفهم آراء أعداء كثيرين وضع مختلفا متدنية على المناظرة لا بد وأن يكون فاسي

أسلهم شيء من الضعف والتردد والمعدول عن سواء السبيل . إذ من تازل عند

عظيما في معركة فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله وطرزه أن يلاحق

عدوه في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وربما تؤثر فيه روح المدد وحيله كذلك في

معركة الأفكار أيضا . . فللمد وتأثير في تكوين الأفكار ليس بأقل من تأثير الحليف فيه

حتى إن بعض الحنابلة قد شك أن أصحابه انقطوا إلى الرد على الملحدين

انقطاعا أداهم أنفسهم إلى الالحاد . . ولا يزعم زاعم أن المعتزلة بريئة من ذلك

لكن نيقها ظاهرة وهي الذب عن الاسلام والنية انما هي ميزان الاعمال كما جاء في الحديث " انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى " (١)

مبادئ المعتزلة ..

قلنا ان مبادئ المعتزلة قد دخلها غير قليل من الخلط والتشويه وان الصورة العامة التي ارسمت في اذهان الدارسين عن هذه الجماعة فيها عيب شاسع عن الحقيقة ومع ذلك يمكننا أن نشق فيما ذكره الشريف المرتضى في هذا العدد وهو فيما نعلم أكبر باحثينا القدماء انسانا للمعتزلة وأشد هم اخلاصا في تقرير مبادئهم وتفتيحهم حقهم .. يقف المرتضى في النية والأمل : " أصبحت المعتزلة على أن للمعالم محدثا قدينا قادرا عالما حيا لا لسان " ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عينا واحدا لا يدرك بحاسة " عدا حكيما لا يفعل القبيح ولا يريد " كلف تصرفا للشواب مكن من الفسح وازاح البلية ولا بد من الجزاء " وعلى وجوب البعثة حيث حلت ولا بد للرسل صلى الله عليه وآله من شرح جديد أو احيا مبادئ أو فائدة لم تحصل من غيره " وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم " وأن القرآن معجزة له وأن الايمان قور وصرفه هوى " وأن المؤمن من أهل الجنة " وعلى المنزلة بسوى استزلتين وهو أن الناس لا يحسن مؤمنا ولا كافرا .. وأجمعوا أن فعل المبد غير مخلوق فيه .. وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (٢)

صلة الاعتزال بالمسئدة الاسلامية وأثره في الدفاع عنه :

على الرغم مما يبدى وفي دعوة الاعتزال من تحرر وانتمى به مبادئها من وحدة وحدانية فان أصول هذه الدعوة كائنة في عميم المسئدة الاسلامية فليس الاعتزال فلسفة وافدة قدمت بها الدفاع عن الدين وليس تحتاج ضرورة فكرية في مرحلة معينة من تاريخ المسلمين وليس الشريف المرتضى أراد أن يؤكد أن أصول الاعتزال قد حقت في التاريخ الاسلامي واعتنقها السامعون الأوائل قبل واصل بن عطاء وهشرو ابن عبيد اللذين شاع أنهما مؤسسا المذهب ورائداه الأولان .. وقد سلك المرتضى للاحتجاج على ذلك طريقين :

أولها : ما يذكره من أن واصل بن عطاء وهشرو بن عبيد قد : " أخذوا عن محمد بن عيسى ابن أبي طالب وأبيه أبي هاشم عبد الله بن محمد " ومحمد هو الذي روى واصل وعلمه حتى تخزن واستحكم ومحمد أخذ عن أبيه على بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " وابتدأ عن النبي " (٣)

الآخر : عد المرتضى في الطبقة الاولى من المعتزلة كبار الصحابة وعلى رأسهم
الخلاء الأربعة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبو ذر الغفاري
و. هادة بن النخعات . يقول المرتضى موضحا سبق على رئيس الله نفسه
الى القول بهذا المدل الذي اعتنقه المعتزلة : " أما على عليه السلام
فقصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من عشرين أكان السير بقضا اللبس
وقدره - يصرح بالمدن وانكار الجبر . وذلك أنه لما انصرف من عشرين

قال اليد شيخ فقال : أخبرنا عن سيرنا الى السماء أكان بقضا وقسود
فقال عليه السلام : والذي قلن الحق ورأى النسخة ما هيطننا وأدايا ولا علونا
شدة الا بقضا . وقدر فقال الشيخ : عند الله احتسب ثأني ! ما لي من الأجر
في . فقال هل أيتها الشيخ عظم الله لكم الأجر في سيركم وانتم سائرون
في منقلبكم وانتم منتظرون ولم تكونوا في شيء من حالتكم مكوهين ولا اليهسا
مضطربين فقال الشيخ وكيف ذلك والقضا والقدر ساقانا وعنهما كان سيرنا
فقال على عليه السلام لملك تظن قضا واجبا وقدر اجبا ولو كان كذلك لبطل
الشراب والعتاب ومقط الوعد والوعيد لما كانت ثأني من الله لائمة لعذيب
ولا محبة له من ولا كان المحسن بثواب الاحسان أولى من المسيء ولا
المسيء بمقومة الذنب أولى من المحسن . تلك مقالة اخوان الشيطان
بعدة الأثران . . . ان الله تعالى أمر تغييرا ومنه تحذيرا ولم يكلف مجبرا
ولا يمت الأنبياء عشا " ذلك ظن الذين كفروا فيمن للذين كفروا من النار " .
فقال الشيخ وما ذلك القضا والقدر اللذان ساقانا فقال : أمر الله بذلك
وارادته ثم تلا " وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه والوالدين احسانا " .
فنهض الشيخ مسرورا بها سع وانما يقول :

أنت الامام الذي ترجو به اذاعة يوم النشور من الرحمن ربنا
أوضحت من دينا ما كان ملتبسا جزاك ربك بالاحسان احسانا " (١)

ومضى المرتضى بعد ذلك يذكر من أقوال الصحابة ومواقفهم ما يؤيد بهادى
الاعتزال ويشهد بهاحتها . . ونحن أميل الى ذلك الرأي وأشد اعتناقا به وليس معنى
ذلك أن ننكر استفادة المعتزلة منطوق اليونان وفلسفتها أو ننفي تأثيرها بمفاهيم
المضطوب التي امتزجت في البحت الاسلامي وانما قصدنا أن نؤكد أن بهادى
الاعتزال كانت كائنة في أصول المتيدة الاسلامية ومستندة الى حجج قوية من الكتاب
والسنة الصحيحة وأقوال السلف الصديقين ومعطيات المنطق القوي والاحتياط المباحث

يقول نبيي في تقرير أهمية الأثر الذي تركه المعتزلة في الفكر الاسلامي
 " وهم اشد المسلمين دفاعا عن الاسلام في ذلك الزمان وحجة على مخالفيه وانما
 ائبل الى القرون بأنه لم يكن في التاريخ أحد نجح نجاح " النظام " في ابطال
 كلام التنحية ولسقاطهم عن مركزهم وشأنهم في الشرق الاذني ولم يجد هذا الكيد
 من هوى حل بهم ولم يقع عبثا به قامت المعتزلة بأئد ما احتاج اليه الاسلام في
 ذلك العصر وهو الاستعانة بما استمانت به الأديان المحيطة به كلها من أسلوب
 متين وطريق فلسفي لا يراز ماكن في الدين من القوى والفضائل فلم يكن بد من
 الاستشراق في الابحاث والدقائق ليظهر الاسلام في مظهر التحدى وبغير مسا اراد
 نوره ولم يبق بهذا الواجب من الأئد من كانت له كفاءة لما تغرب الاسلام الى
 الاذهان ولما نهض بين الأديان ولما صار له الا سلطة ظاهرة فانية " (١)

ونصل في هذه النماذج التي نسوقها من جدل المعتزلة ما يرجع الابهصاد
 الحقيقية للجهد الذي بذله في سبيل نصره الاسلام والمنهج الذي سلكه
 في ابدال شبه الفسوم والحقائيم " فذكر المرتضى في أماليه وهو يرجع لأجل هذا
 الخلاف هذه الرواية فان : " قيل أن أبا الفيل في حديثه بلغه أن رجلا يهوديا
 قد البصرة وقطع جماعة من متكلميها فقال لمسه : يا عمر امض بي الى هذا اليهودي
 حتى اكله فقام له عنه يابني كيف تكلمه وقد عرفت خبره وأنه قطع مشايخ المتكلمين
 فقال لابد من أن تضي بي اليه فمضى به ، قال فوجد يقرر الناس على نهج موسى
 عليه السلام اذا اعترفوا بها له قال نحن على ما اتفقنا عليه الى أن نجتمع على
 ما تدعون فتقدمت اليه فقلت : أسالك أم تسألني ؟ فقال : بل أسالك : فقلت
 ذاك اليك : فقال لي أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف عماحك ؟
 فقلت : ان كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بنبي وشهد بنوته وبه قد
 فهو نبي صادق وان كان غير من وعفت لذلك شيطان لا أعترف بنوته ؟ فورد عليه
 ما لم يكن في حماه ثم قال لي أتقر ان الثروة حق ؟ فقلت هذه المسألة تجرى
 مجرى الأولى - أن كانت هذه الثروة التي تسألني عنها هي التي تتضمن البشارة
 بنبي عليه الصلاة والسلام فذلك حق وان لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرب بها
 فبست وأفهم ولم يك رمايقول " (٢)

ويقول المرتضى في البنية والأصل عن الخلاف أيضا : " ومن محاسنه أن أتاه
 رجل فقلل له : أشكل على أعيا من القرآن فقصدت هذا البلد فلم أجده عند أحد
 من سالكه كفاء لما أردته فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : ان بشرتك

عند هذا الرجل فائق الله وأقدس .. فقال أبو الهذيل لماذا أنكر عليك ؟
 قال : آيات من القرآن تؤيدني أنها متناقضة وآيات تؤيدني أنها متطابقة ..
 قال لماذا أحب إليك أبيه بالجملة أو تسأني عن آية آية ؟ .. قال بل تجيبني
 بالجملة .. فقال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمدا كان من أوسط العرب وغير
 مطعون عليه في لفته وأنه كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعوناً عليه ؟
 فقال : اللهم نعم .. قال أبو الهذيل : هل تعلم أن العرب كانوا أهل جسد ؟
 قال : اللهم نعم .. قال فليس اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم نعم . فقال
 فليس تلمس أنهم غلبوا عليه بالناقصة أو اللحن ؟ قال : اللهم لا . قال أبو الهذيل
 فتدع قولهم من علمهم باللغة وتأخذ بقول رجس من الأوساط ؟ قال : فأشبههم
 أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ككلامي هذا وأدبرك وتفقه في الدين * (١)

وذكر العوتري في ترجمته للمناقب قال : * وكان يقطع الخصم بأقل كلام
 يقال أنه أسام على يديه زيادة على ثلاثة آلاف رجلا * (١)

٣ - أثر الاعتزال في النهضة الفكرية :

لم يكن نشاط المعتزلة كما أشرنا منه وراء الناحية الدينية
 أو مقصورا على بحث مسائل العقيدة لأننا نجد في تراث أعلامهم تراثا متنوعا من
 التفكير الفلسفي والاجتماعي والعلمي والذي يحمل طابعهم ويمر في روح مبادئهم
 ويحتمل في هذا المجال أن يبرز هذه الأنشطة التي أسهم بها المعتزلة في تفسير
 بيان العقيدة لأن نقد الأدب أحد هذه الأنشطة ونوع من نوعها .. وربما أمكننا
 القول بأن دعوة الاعتزال كانت دعوة فكرية تحررية هدفها تمجيد العقل البشري وتنبيه
 الأمة على ضرورة الاستيقاظ به في حياتها الفكرية والثقافية .. ولا ريب عندنا
 في أن دعوة المعتزلة هذه حرة بأن ترتفع إلى أعلى المراتب ويستحقون بسببها
 كل تقدير وتجييس فلم تكن لهم مآرب مادية أو أطماع سياسية ولم يدعوا لأنفسهم
 ميزات طبقية وإنما كان هدفهم ساميا ودعوتهم إنسانية تحاول أن تتردد كراوية
 الإنسان عن طريق بحث مقوم من أهم مقومات تكريمه وهو العقل الذي اختصه
 الله تبارك وتعالى به ليكون شريفا عن جميع المخلوقات .. ولقد كانت جهته
 المعتزلة في ميدان التحرير الفكري متفلسة في عدة مجالات أهمها :

(١)

البرأة في مناقشة مختلف مسائل العلم وقضايا الفكر في كافة المجالات دون عقيد بالآراء السابقة أو التزام بأقوال العلماء مهما كانت رتبتهم أو منزلتهم في دوس الناس وكان لهذا المنهج خطره في نواح متعددة
 إذ حدثت عملية مراجعة على نطاق واسع لكثير من الآراء المتداولة في علوم الدين على اختلاف فروعها وكذلك غيرها من العلوم والثقافات فقد ناقشوا المحترفة والمفسرين في مسائل كثيرة واختلفوا مع جماعة منهم وحلوا على روافد الحديث وانكروا كثيرا من مروياتهم إذ رأوا لا تتفق مع أسس العقيدة ومقتضيات العقل وناقشوا المحترفة روافد الشريعة والاختصاصين وسخروا منهم لا لاعتنائهم لكثير من المرافعات وقراهم بالأكاذيب التي تتنافى مع الحقيقة والمفهوم باختصار اصطحب المحترفة معهم النظرة الناقدة والروح المتحررة في كافة القضايا التي يحشونها أو يترهبون اليها عظيمها الكبيرة

(٢)

كانت التمايلات الممثلة والدوافع الممنعة هدفا حاما من أهداف الجهد الشكري عند المحترفة ومن ثم فقد كان التصديق ودقة التأمل محتمين أساسيين من سمات منهجهم المتحرر في بحث مختلف القضايا أو التمايلات للظواهر ومن أمثلة ذلك ما يورد الباحث في الحيوان تنويرها بتعلق استنباطه أبي اسحاق النخعي ودقة ملاحظاته يقول الباحث : " وقال مشي بن زهير ذات يوم : ما تلهي الناس بشي من الحمام ولا وجهنا شيئا ما يتخذهم الغام من ريشهم ولهم به يخس من أبواب الهزن إلى أبواب الجند كالحمام وأبو اسحاق حاضر ففهمه ذلك وكظم على غيظه ، فلما رأى مشي سكوتهم عن الرد عليه طلع فيه نقال : يطلع والله من كرم الحمام وفخاه وثبات فهد ، وحينئذ إلى الله أني ربما قدمت الدائم بعد أن نزل عندى وهرأ مشي نيت جناحه كنهاته الأول لي يدعه مو مني إليه إلى الدباب عني
 وربما بحثه فيقصه البهتان حينئذ لما هو إلا أن يجد في جناحه قوة طمسي الشكر حتى أراه أناس جادفا أو غير جادف وربما فعلت ذلك به مرارا
 كبيرة كن ذلك ولا يزداد إلا و قال أبو اسحاق أما أنت فمأراك دائما تحده وتدرك نفسك ولكن كان رجوعه اليك من الكرم ان اخراجك له من الكرم قال خبرني منك حين تقول رجع إلى مرة بعد مرة ولما زهدت فيه كان في أوقب ولما باندهته كان لي أطلب إليك جسا

واليك حق ؟ أم الي عمة الذي دين منه والى وكرة الذي ربي فيه ؟ أرايت
لورجين الي وكرة وبيته ثم لم يجدهك وألقاك غائبا أو ميتا كان يرجع مسج
الي موضعه الذي فيه ؟ ولى أنك تتعجب من هدايته وراك فيه مقال
غيره . فلما شكرك على ارادته لك فقد تبين خطاؤك فيه وانما بقي الآن
حسن الاعتداء والحنين الي الوطن . (١)

(٢) الاهتيا ، بتحرير نفوس العامة وتنحية الدورات المسيطرة على أفكارها
وقد عرفنا في حديثنا عن الباطل نتائج من يهود في هذا المجال
ومن أمثلة تحطيل المستقلة لمقلية العامة واستمرارهم من الجهل الفاس
في معتقداتهم ما يذكره صاحب النية والأمل بنسبها الي ثامة بن أسير
يقول : " ومن ثامة قال : كان الأمر قد هم بلعن معاوية على الناس
وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ على الناس غدا . يحيى بن أكرم عن ذلك وقال :
يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحسن ذلك مما أعل غرامان فلا تأمن
أن تكون لهم نكسة فلا تدرى ما عاقبتها . والرأي أن تدع الناس على ما هم
عليه في أمر معاوية . ولا تظهر أنك تبيل الي فرقة من الفرق فركن البأسرون
الي قوله فلما دخلت عليه قال يا ثامة قد علمت ما كنا فيه يوم برناه في أمر
معاوية . وقد عارضنا عدوهم هو أعلج في تدبير السلطة وأبقى ذكرا فمضى
العامة ثم أخبرني بأن يحيى بن أكرم خوجه العامة نقلت يا أمير المؤمنين
والعامة في هذا الوضع الذي وضعها به يحيى بن أكرم . والله لو وجهت
انسانا على عاتقه مائة مائة لساقي اليه بمائة عشرة آلاف ضريبة
والله يا أمير المؤمنين ما رضى الله أن سواها بالانعام حتى جعلها أهل
منها : فقال : " ان هم الا كالانعام بل أضل سبيلا "
يا أمير المؤمنين لقد مرت منذ أيام في شأن وأنا أريد الدار فإذا انسان
قد بسط كساء وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي : هذا دواء لأمراض الحين
والخماوة والخلة وان احدي عتيقه لمطموعة والأعزى موشكة والناس
قد اجتمعوا قد دخلت في غمار تلك العامة ثم قلت : يا هذا ان عتيقك أحسن
من هذه الأعمى الي الصلبي وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه بقاء الرجوع
الحين فلما لا تستعمله ؟ فقال أنا في هذا الوضع منذ عشرين سنة فلما
مر بي شيخ أجبرني منك . . . قلت وكيف ذلك ؟ قال : يا جاهل أنت ترى أيسر
اشتكت عيني ؟ قلت : لا . قال فقال : اشتكت بصر . عيني اشتكت بصر

ويرى صاحب تاريخ بغداد في ترجمته لشامة هذه الرواية يقسم
 لما عذب الرشيد على شامة دفعه الى سلام الأبرش وأمره أن يضيق على
 ويدخله بيتا وسليم عليه ويترك فيه ثوبا ففعل دون ذلك وكان يد من اليك
 الطمام فبلس سلام عمية يقرأ في المصحف فقرا : " ومن يؤخذ للكذابين
 فقال له شامة انما هو للكذابين ويعمل يشرحه له ويقول : الكذابين
 هم الرسون والكذابين هم الكفار .. فقال قد قيل لي أنك زنديق ولم
 أقبل شاميق عليه أشد الضيق لما قال : ثم رضى الرشيد عن شامة وبالمس
 فقال : أخبروني من أسوأ الناس حالا ؟ فقال كل واحد شيئا فان شامة
 فبلغ القوم الى فقلت : عاقل يجري عليه حكم جاهل .. قال فبينما كنت
 الغضب في وجهه فقلت يا أمير المؤمنين ما أحسننى وقعت بحيث أردت
 قال : لا والله فأخرج فحدثته بحدِيث سلام فعمل يضحك حتى استلق
 وقال بدقت والله لقد كنت أسوأ الناس حالا " (١)

وجملة القول ان حركة الاعتزال بحثت في الفكر الاسلامي روحا
 جديدة ونقلته من طور الى طور واستحدثت له أصولا وقوانين وصححت
 كثيرا من الاخطاء والاعتقادات الزائفة التي كانت شائعة فيه .

ثانيا : بجهود المعتزلة في بيان النقد الأدبي :

لحركة الاعتزال ناحية أدبية لا تقل في أهميتها عن الناحية الفكرية
 التي أسلفنا الإشارة الى خصائصها وتأثيراتها .. ولو أردنا أن نحلل عوامل ذيموع
 مذعب الاعتزال ونتمرف على الأسباب الحقيقية التي أدت الى نجاحه ومكنت له
 حتى غدا المذهب الرسمي للدولة الإسلامية في عصر من أنصر عبورها . لا يمكننا
 أن نتبينها في الجوانب التالية :

يخبرني آراءهم، أو يطلعني من دراساتهم واستنتاجاتهم عن واقع المجتمع
والحدائق فحقيقة آراءهم ونظراتهم، يشاهد يستضيء بها أرباب البعثات
المستفيدة على مر العصور ..

ثانياً : استوجب دعاء الاعتزال لثقافات كثيرة وحصلوا معارف وعلمها متنوعة وكانوا
في مجموعهم أنماطاً فريدة في سعة الثقافة وتعدد الخبرات .. وإن أنماطهم
على هذه الدربة من الوعي والحصافة لمن «فهم» أن تكون لهم وجهات نظر
الخاصة بمواقفهم المستقلة آراء مختلف القضايا التي حذقوها وخبروا دقائقها
مادام منهجهم مساوياً والماسم بالأمور واقعياً .. وإذا كنا نعرض في هذه
الدراسة آراء المعتزلة في النقد الأدبي فلأن من «فهم» أن تدرس آراءهم
تماماً كما تدرس آراء النقاد المتأخرين ..

ثالثاً : كان زعماء الاعتزال - في عصر ازدهار المذهب - ذوي مواهب أدبية فذة
استطاعوا عن طريقها أن يحتجوا في براعة لمنهجهم ويخلصوا باقتدار خصوص
معارضهم وسوف يقتض لنا أن أعلام المعتزلة كانوا على جانب كبير من
الفصاحة وثرة المصارعة والتمكن من البيان وذلك عندما نمرس للحديث عن
مكانتهم الأدبية في نهاية هذا الفصل ..

تلك - في اعتقادنا - أسمى المواقف التي جعلت من حركة الاعتزال مذهباً
تكريماً ذا تأثير بالغ في تيار الحياة الثقافية في بيئة البصرة بصفة خاصة وفي تاريخ
الحضارة الإسلامية على وجه العموم ..

ومهد هذه الحقبة التي أومحنا فيها العلاقة بين الاعتزال والأدب عامسية
تأخذ في عرض جهود المعتزلة النقدية وهي تتمثل في الأمور التالية :

(١) صحيفة بشر بن المعتز في المبالغة :

وهي وثيقة نقدية مهمة سبق بها بشر نقاد عصره وقرر أن محسناً
تدس على بعد نثره وزيادته في ذلك الميدان .. «بشر» هو أبو سهل
بشر بن المعتز الهلالي رئيس معتزلة بغداد (١) وله أشعار كثيرة

أن تلك تعلم ما أنت تعلم
 أو كنت تجهل ما تعلم إذا
 أنت الرئيسة في نفسك
 سميت غيرهم وأنفسهم
 لا تتلبن رياسته
 لولا مقامهم رأيتهم
 ل أن تكون لاهل العلم لا ز
 ازعم رياستهم فإلّا لا يسلم
 من الذي قاسوه حاله
 بالجهل أنت لها مخالف
 ت الدين مضطربا دعائهم (١)

ذلك تصرف صحيح بصاحب الصحيفة والمأخوذ غافله إلى ملكه
 الأدبية . . . أما الصحيفة ذاتها فقد رواها الجاحظ في البيان والتبيين
 ونسبها من سياق روايته لها أنها كانت نمطا فريد في بحوث البلاغة المر
 وشكلها نظرا لم تكن منسوبة ليعلموا الذين من قبل فقد أظهر
 بشر صحيفته كما يحكي الجاحظ " حين مر بإبراهيم بن بطة بن مخرم
 السكوني الفطيب وهو يعلم فتياهم البلاغة توقف بشر فأناب إبراهيم
 أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون راجلا من النخلة فقال بشر أضربوا عما قال
 صفحا وأملوا عنه كشحا ثم رفع إليهم صحيفة من حبيبته وتتميتها . . .

وإذا فان بشرا لم يرتج الطريقة إبراهيم بن جبلة في تقرير مقاه
 البلاغة وتلقين أرباب البراعة في البيان فانتقصها ودعا إلى إهمالها
 وفي الوقت ذاته نشر صحيفته التي تضمن تحليلا وافيا لأهم أسس البلاغة
 والأدب التي ينبغي مراعاتها والحدود بها .

تبدأ صحيفة بشر بتحليل دقيق لمسألة التبيين النفسي للأدب
 وأثره في جودة الغطاء الماد عنه يقول : " خذ من نفسك ساعة ساعة
 وفرا بالذات وأبنتها إياك فان قليل تلك الساعة أكرم جودها وأشرف حسابها
 وأحسن في الأساطع وأحلى في المذود وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل
 عين غرة من الغد شريف ومعنى بديع " واعلم أن ذلك أجدي عليك ما
 يمتنك بوجك الأول بالكد والمطاول والمجاهدة والتكاف والمصارف
 وبها أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصد أو غيفا على اللسان سهلا "

فقد توفى سنة تسع وسبعين ومائتين وتضع من المقارنة بين مقالة كل منهما أن ابن
المدبر كان يحذو حذو بشر حتى ليكاد ينقل فصلاً من عبارته كما هي . . . قول ابن
المدبر : " وارتعد لكتابك راح قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يستحق عليك بالكسر
والثقل لأن مساحة النفس بمكوناتها ووجد الأذهان بمغزونها إنما هو مع الشبه
المنطوق للشيء والمحبة الذاتية فيه . . . " (١) والفارق الوحيد بين المصنفين
أن ابن المدبر كان يقصد بكلامه فن الكتاب كما خرج بذلك في قوله " وارتعد
لكتابك . . . " أما بشر فلم يعب عن جنس أدبي معين وإن كان كلامه يصدق على
الأدب كلها . . . ولعل هذه المقارنة اليسيرة بين عبارتي بشر وابن المدبر تؤكد
لنا سبق بشر إلى تقرير قضايا نقدية والتنبيه على مبادئ مهمة لم تصرف في تاريخ
النقد العربي قبله . .

ومعد أن يفن بشر من هذه القضية التي بدأ بها صحيفته ينتقل إلى مسائل
أخرى وهي التوفر والتعقيد الذي يشين أسلوب بعض المتأدبين وفي هذا الجزء من
الصحيفة يحذر بشر جماعة الأدباء من التعقيد والاعراب ويهيب بهم أن يتوخسوا
المهولة والقرب صيانة لمعانيهم وأبقا على رونق بيانهم يقول : " وإياك والتوفر
فإن التوفر يسلطك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك "

ثم ينتقل بشر إلى الحديث عن الألفاظ والمعاني وضرورة مراعاة التلازم بينهما
فيذكرنا بمذهب الجاحظ الذي عرضنا له في مكان آخر من هذه الدراسة وخلال بحثه
أن الألفاظ خد للمعاني وأدوات لتجليتها وإظهارها ومن ثم فينهى انتقاء الألفاظ
الشبيهة بالمعنى والتي تبرزه في أذهان حلة وأحسن معنى . . . يقول بشر عن الألفاظ
والمعاني : " ومن أراد معنى كريماً فليلتصم له لفظاً كريماً فإن حق المعنى الشريف
اللفظ الشريف ومن حقهما أن تكونيهما عما يفسدهما ويهينهما وما تدور من أحواله
إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تاتسبب إظهارهما وترتد عن نفسك بهاتين
وقضاء حقهما " (٢)

وانطلاقاً من هذا المفهوم السهل الواضح تجاه الألفاظ والمعاني ينصح
بشر الأدباء في مراتب مذاقة تبعا لقدرة كل منهم على الرضا بأسس هذا المذهب

"أول الثلاث أن يكون لفظك رقيقا عذبا وفصحا سهلا ويكون معنينا
 ظاهرا مكشورا وقريبا معروفا أما عند الخاصة أن كنت للخاصة قصدت وأما عند العامة
 أن كنت للعامة أردت .. والمصنف ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة
 وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب
 وأحرار المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقام وكذلك اللبس
 العام والخاص فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وطلاقة قلبك ولطف مدخلك
 واعتدائك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها اللفاظ الواضحة
 التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفون عن الأكفأ فانت البديع النام (١)

ولعلنا نلاحظ من مقالة بشر هذه أن الأدباء عند صناعة أساسها الميسرة
 في عرس المضمون الذي يقصد الأديب إلى تجليته وإيماله للسامع أيما كان هذا
 المضمون بعد أن يراعى الأديب مقامات المخاطبين ومقتضيات الأحوال وتلخيص
 أيضا أن الأدباء في رأي بشر لا يقوم بما في معانيه من سمو أو اتضاع وإنما يقسمون
 بدرى حد في الأدب في التعبير عن المعنى وإعداد اللفظ اللائق به وتلك نظم مرسلة
 نقدية صائبة مبنية عليها بشر النقاد المحدثين ..

المرتبة الثانية :

"فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تمتريك ولا تمنع لك عند أول نظرك
 وفي أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع مرغبتها ولم تنصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها
 المقسمة لها والقافية لم تجد في مركزها وهي تصابها ولم تصل بشكلها وكانت قلقة
 في مكانها نائرة من موضعها فلا تتركها على اغتصاب الأياكن والنزول في غير أوانها
 فإنك إذا لم تتعاطى قرص الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم يميسك
 بترك ذلك أحد .. وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوها ولا محكما لسانك بصيرا
 بما عليك وما لك مدعا بك من أنت أقن عيب منه ورأي من عود وثك أنه فحش ..
 فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تمنع لك التلهاج في أول جملة
 وتمضى عليك بعد اجالة الفكرة فلا تمنجن ولا تضجر ودعه بيان يوحك أو سواد ليلك

وإذا كانت المرتبة الأولى هي مرتبة الأديب المطهر الذي تتنازل عليه
 المعاني وتتسابق في ادعاءه الألفاظ ويستطيع بها منحه الله من حكمة ومهارة أن :
 يعرف القوم أني شيء وكيف أراد - فان همرا لم يقصر صناعة الأدب على ذلك النوع
 من السهوليين ويطرد عنها من عداهم ولكنه يجعل في المرتبة التالية لهم نافذة
 من شغاف الصناعة الذين لا تواتيهم وتسهل عليهم إلا في الفينة بحد الفينة
 ولا يمد طول الفكر ومماودة النظر والتأمل فيضج بهر هذا النوع من الأدباء
 ألا يضجروا ولا يتعجلوا وأن يرفقوا بقرائحهم وسهولها حتى تسمح بمكنونها وطيرها
 عسيها على خريطة إيا يكون هناك اعتماد أدبي ودلائل موعبة حبيسة أمسا
 إذا لم يكن لهذه السهولة و... نأخرى بالماقل أن ينفذ يده من هذه الصناعة
 إذ لن يفيده بتركها أحد ... غليت أدعياء الأدب والمعتطفين عليه - وما أكره
 عسونا - يقتضون بنسيجة بشر إذا لأحسنوا لأنفسهم وللأدب على السواء ..

المرتبة الثالثة:

... فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرس ومن غير طول
 لسان فالمترلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أهمي الصناعات اليك وأخفيها
 عليك فانك لم تمتد ولم تنان اليك إلا حينك نسب والشئ لا يحسن إلا إلى ما يشاكله
 وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها
 من الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا (٢)

بهذا التحليل الواعي والفهم الناضج يلخص بهر بن المصنف في عديته
 أهم مقومات صناعة الأدب وأسس المهارة فيها وصنف الأدباء من حيث
 مراتبهم وقد رتبهم بالنظر إلى ما يحدقه كمن منهم من أصول الصناعة وما هو مركب
 في طهره من ملاقة وسهولة ..

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦

وكشف جوانبها . . . ويأتى بحث الممثلة لهذه القضية جزأ من حملتهم على خراف
العلماء وسخرهم من المعتقدات الزائفة التى يركن إليها الناس دون مناقشة
أعمال نظر . . . وقد أدى بحث أبي إسحاق النظام لهذه القضية إلى تحلي
ظاهرة وضع الشعر على ألسنة المجنون والفيضان . . . ومن ثم كشف لنا النقاب عن جانب
مهم من جوانب اقتحام الشعر والاعطار بأب فيه وقد أثبت الجاحظ فى الحيوان تحل
أستاذ النظام لهذه الظاهرة وهو تحليل يتسم بالمنهجية وصدق النظر وصواب
الاستنتاج . . . يقول الجاحظ مازحا رأى أستاذ النظام فى هذه القضية :

" وكان أبو إسحاق يقول . . . فى الذى تذكر الأعراب من عزيف الجنان وتداول الفيل
. . . أصل هذا الأمر وأبداؤه أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش علمت فيهم الوحش
ومن انفرد وقال مقامه فى البازد والذئب . . . والبعد من الأنس . . . استوحش بالتفكير
والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . . وإذا استوحش الإنسان تشل له الحس
الصغير فى صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أغلاطه فرأى مالا يسرى
وسمى مالا يسمع وتوهم على الشئ اليسير الحقير أنه عظيم جليل . . . ثم جعلوا
ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً
وتشأ عليه الناس ورى به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفياض وتتمل عليه
الشیطان فى الليالى الحنادس فعند أول وحدة خزعة وعند صياح هو وبها صفة
صدى وقد رأى كس باطل وتوهم كس زور وربما كان فى أصل الخلق واللبيمة كذاها
تفاجأ وباحب تنبئ وتوهم فيقولون فى ذلك من الشعر على حسب هذه المفسدة
وعند ذلك يقول رأيت الفيضان وكلمت السملاة . . . يتجاوز ذلك إلى أن يقول رائقها
. . . يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها قال عبيد بن أيوب :

فلله در الفحول أى رفيق . . . لمأحب قفر خائف متق . . .
قال :

أعدا خليل الفحول والذئب والذى . . . يهين بنات الحجال الهراكل . . .
قال :

أخو قفرات جالف اليمين واعتفى . . . من الجن حتم تقضت مسائله . . .
له نسب الأسي يحرف نجله . . . وللجن منه خلقه ومائله . . .

وأما من يقول بأنه شمر صاحب خبر فالرواية كلما كان الأمر
أكذب في شمره كان أطرف عنده وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر
فلذلك صار بعضهم يدعى رواية الشمر أو قتلها أو مرافقتها أو تزويرها وأخيراً
يزعم أنه رافق في مظلة نمر فكان يؤاكله ومشاربه !! ... (١)

وهكذا يتضح لنا أن نظرات المعتزلة النقدية على ضالتها تتميز بالاصالة
والموضوعية .. ولعل هذا التحليل المفصل لظاهرة وضع الشمر على السنة الجاهلية
والفيلان والحديث عن المداورات المعهومة معها يعطينا صورة صادقة عن طبيعة
الحقبة الناضجة لدعاة الاعتزال ومدى ما أدته للفكر العربي في شتى مجالاته

(٣) منهج المعتزلة في تفسير القرآن الكريم وأثره في المفاهيم الالهية :

وذلك جانب مهم من جوانب الحركة الإصلاحية التي أسسها المعتزلة
المعتزلة في الفكر الاسلامي .. ويتميز منهجهم في التفسير باقتناصه على أساس
موضوعية توضح الطريق السليم لفهم النص القرآني وتلمس أهدافه ومبادئه وقد كان
جهاد المعتزلة لرساء هذا المنهج انعكاساً للاضطراب والتناقض اللذين ساد
اجتهادات بعض العلماء والانحراف الذي سارت إليه بعض الفرق المدينية السنية
فسرت القرآن حسب أهوائها ووفق مذاهبها دون سند من الآثار أو دلالة من النصوص
ذاته .. أدرك المعتزلة هذا الانحراف في فهم القرآن الكريم فقاموا بإصلاح
نواحي الخلل فيه وأوضحوا في الوقت ذاته المدلول الحقيقي للنصوص القرآنية
وما في بعض أن يفهم منها فملوا ذلك في كل نص نقده أو رأي عارضه أو قول تمقوه
ويعد منهج المعتزلة في تفسير القرآن الكريم أكبر محاولة تطبيقية لفنون البلاغة
العربية وأوسع تحليل على لقضاياها وذلك لأن المعتزلة بنوا منهجهم على أساس
أن القرآن جاء بلفظ العرب واصطنع أساليبهم في البيان وطرائقهم في التعبير
والتصوير .. وهذا الرباط القوي الذي عقدته المعتزلة بين القرآن الكريم والبلاغة
العربية هو ما يمدفنا إلى عرض منهجهم في التفسير في هذا الموضع من دراستنا

ان المعتزلة تندوا كثيرا من المفسرين واختلفوا معهم في فهمهم لبعض
 النصوص القرآنية وقد اورد الباحث في الحيوان بحثا مستفيضا لاستاذة النظرية
 نقد فيه طائفة من المفسرين وسفه آراءهم وأبان جوانب القصور والتجاوز فيهم
 ونحن نثبت هذه الرواية ثم نتمسكها بأمثلة من تفسير المعتزلة للآيات التي اعترفوا
 النظام على تفسيرها ونستبين لأنفسنا الاستعانة في ذلك بتفسير الكشاف لجسار
 الله الزمخشري المعتزلي مع كونه متلخرا عن المصنف الذي ندرسه لأن تفسير
 يمد أمدق شأن على منى المعتزلة في التفسير . . . وسنرى أن الزمخشري
 صدر عن آراء الدائم في تفسير الآيات التي ذكرتها الرواية وتوسع في شرحها
 يقول الباحث في روايته : " كان أبو اسحاق يقول : لا تترسلوا الى كثير من
 المفسرين وان نصبروا أنفسهم للعامة وأجابوا عن كل مسألة فان كثيرا منهم يقبلون
 بخير رواية على غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن
 عندكم " غرمة " و " الكلبى " و " السدى " و " الضحاك " و " مقاتل بن سليمان " .
 و " أبهكر الأعمى " في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأمكن ان يوافقهم
 وقد قالوا في قوله عز وجل : " وأن الساجد لله " ان الله عز وجل لم يعبأ
 الكلام ساجدا التي نعلني فيها بل انما عني الجباه وكل ما سجد الناس عليه
 من يد ورجل ووجه وأنف وثنية . وقالوا في قوله تعالى : " أفلا ينظرون الى الاصل
 كيف خلقت " انه ليس يعنى الجبال والنفق وانما يعنى السحاب
 وقالوا في قوله تعالى : " ويل للمطففين " الويل واد في جهنم ثم قعدوا يصفون
 ذلك الوادى والويل في كلام العرب معروف وقال آخرون في قوله تعالى :
 " عينا فيها تسمى سبيلا " قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة بمعنى
 قالوا انما هي : سب سبيلا اليها يا سجد فان كان كما قالوا تأين معنى تسمى
 على أى شئ وقع قوله تسمى فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشئ ؟ . . . وقالوا فسمى
 قوله تعالى : " وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا " قالوا : الجلود كناية عن الفروج
 كأنه كان لا يرى أن كلام الجلد من أعجب المجب . . . وقالوا في قوله تعالى :
 " كانا يأكلان الطعام " ان هذا انما كان كناية عن الفم كانه لا يرى أن الجوع
 ما ينال أهله من الذلة والمجز والفاقة وأنه ليس في الحاجة الى الغذاء ما يكفى
 به في الدلالة على أنهما مخلوقان حتى يدعى على الكلام يدعى له شيئا قد أغفاه
 الله تعالى عنه (١)

وأدخل في الاعجاز والبراعة . . . وتنتج من ثنايا تفسير النظام أبعاد منهجية
المعتزلة في فهم القرآن الكريم وتأويل آياته فالنثر القرآني يفسر على ضوء
والقرائن الموضوعية وتحت مبادئ الدين وروح العقيدة . . . أما التأويلات الفقهية
والتفسيرات النثرية التي لا صلة لها بالنثر ولا دليل عليها فالتفسيرات المعتزلة
ولا يعترفون بها . . .

وهذه مقتطفات من تفسير الكشاف للزمخشري نسوقها تأكيداً لمنهج
المعتزلة في تفسير القرآن الكريم وطبيعة العلاقة بين ذلك المنهج وبين بحسب
البلاغة وأسمى البيان يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى : " وقال
اليهود يد الله مذلولة فلتايد بهم ولعنوا بها قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق
كيف يشاء " غل اليد مجاز عن البخل منه قوله تعالى : " ولا تجعل
مذلولة الرقاب ولا تعطها كل البسط " - ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل
ولا بسط ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه لأنها كلامان
متماثلان على حقيقة واحدة حتى إنه يستعمل في ملك لا يعطى عطاءً قط ولا يمنح
إلا بإشارة من غير استعمال يد وقبضها وسطها ولو أعدل الأقطر العنكب عطف
جزئياً لقالوا ما أبسط يد للنوال لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متماثلتين
للبدن والجود وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله :
جاء الحمى بسط اليد بين هواهم شكرت نداءه تالعه وهو ساد

وهو جعل ليد الشان يدا في قوله :

• إذا أصبحت بيد الشمال زماها •

ويقال : بسط اليأس كفيه في عذري فجعلت لليأس الذي هو من العمان
لا من الأيمان كنان . . . ومن لم ينظر في علم البيان عني عن تهمير محجة الصواب
في أمثال هذه الآية ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عشت به " (١)

على أن يرى الله أنه أنصفه : سل سبيلا إليها وهذا غير مستقيم
على ظاهره الا أن يراد أن جملة قوى القائل سل سبيلا جعلت علما للمسيحين
كما قيل تأبط ثمرًا سميت بذلك لأنه لا يشرب منها الا من حأل البها سبيلا
بالعمل الصالح . وهو مع استقامته في البرية تكلف وابتدع وعزوه الى مسلسل
على رضى الله عنه أبدع . (١)

ويفسر الزمخشري آية " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت " فيقول
" أفلا ينظرون الى الابل " نظر اعتبار " كيف خلقت " خلقا عجيبا دالا على
تقدير مقدر شاهدا بتدبير مدهر حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها الى البساتين
الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر شئ تنهش بها حلت وسخرها
شقادة لكل من اقتادها بأزمته لا تمارض صميفا ولا تمنع صغيرا ، برأها لوال الأعناق
لشئ بالأوقار حين أراد بها أن تكون حفاث البر عبرها على احتضان المطر
حتى أن أظماها لترتفع الى المشر فساعد ، وجعلها ترى كل شئ نابت فمسي
البرارى والمنازل مما لا يرعا سائر البهائم ، وعن سعيد بن جبير قال : لقيت
شريحا القاضي فقلت أين تريد ؟ قال : أريد الكتاسة ؟ قلت تمنع بها ؟ قال : أنظر
الى الابل كيف خلقت فان قلت كيف حسن ذكر الابل مع السماء والجبال
والارض ولا مناسبة ؟ قلت : قد انتظم هذه الاشياء نظر المرب في أوديتهم
ومواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظره ولم يدع من زعمهم
أن الابل : السحاب الى قوله الا طلب المناسبة (٢)

وعلى هذا النهج يحضى الممتزلة في تفسيرهم للقرآن الكريم ملتزمين
جانب الحذر والنتيقت حريصين على إعطاء النص القرآنى ^{حقه} التدقيق وانما النظر
ولا جدال في أن هذا المنهج الذى أرساه الممتزلة في التفسير قد مهد لفهم الكتاب
المعجز فهما حقيقيا وفتح الطريق أمام البحث المقل والتأمل الفكرى فى مدلول النصوص
القرآنى وأسرار التنزيل الحكيم فكان الممتزلة أوفى من أمسك بذلك الخيط الدقيق الذى
توصل العلماء عن طريقه - فيما يمد - الى استكناه الاسرار الحقيقية لا يمار القرآن ولطفه
الذروة في الباطنة وارتفاعه على ما عداه من الكلام .

سبق لنا الحديث عن مكانة الملاحظ الأدبية وناهيك بها من مكانة
فقد كان قطبها من أقطاب الأدب وزعيم مدرسة من أعرق مدارس البيان وأبعد حسابها
أثراً في تراثنا الأدبي . . . والمحنة إلى جانب من اهتمامات بشر بن الممتزلة
الأدبية عندما عرضنا لتحليل شخصيته في المائتة منذ قليل . . . ويبقى معنا بعد ذلك
من أعلام الممتزلة البارزين كل من : " أبي الهذيل الملاف " و " أبي اسحاق
النظام " فنخصهما بالحديث في هذا الموضع . .

أبو الهذيل الملاف :

محمد بن الهذيل المبدى . . . شيخ الممتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة
والمناظر عليها (١) كان نسيج وحده وعالم دهره لم يتقدمه أحد من الموافقين له
ولا من المخالفين وكان يقطن الخصم بأقل كلام يقال أنه أسلم على يد نفسه
زيادة على ثلاثة آلاف رجل (٢) قال الهمداني : " ما رأيت أفصح من أبي الهذيل
الهذيل والملاحظ وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة شهده في مجلس وقد استشهد
بثلاثمائة بيت قال ثمانية وصفت أبا الهذيل للمأمون فلما دخن عليه
بجمل المأمون يقول لي يا أبا الهذيل وأبو الهذيل يقول يا ثمانية فكذبت فغضب
فلما احتضن المجلس استشهد في عرس كلامه بصح مائة بيت فقلت إن شئت فكنتني
وإن شئت فسمني وحكى يحيى بن بشر الأرجاني عن النظام قال : ما أشفقت
على أبي الهذيل قط في استشهاده إلا هو قال له الملقب " برفوث " أسألك عن مسألة
فرفض أبو الهذيل نفسه عن مكالمته فقال برفوث :

وما بقيا على تركمان ولكن غفما عرد التمساح

وله أعرف في نقيضه ما يمثل به فبرز أبو الهذيل وقال : لاهل كما قال الشاعر :
وأرفع نفسي عن بجيلة النسي أذل بها عند الكلام وتهدى (٣)

" وحكى سليمان الرقي أن أبا الهذيل لما ورد " سرس " رأى " نزل فمس
غرفة إلى أن يطلب له أرا تملج له قال فسررت به فقلت له يا أبا الهذيل أشر في
هذا المنزل " فأندبني :

النافذة . . روى المرتضى في أماليه قال : " دخل أبو الهذيل على الحسن بن سهل
 بهم الصلح وعنده فتى قد رفع مجلسه فقال أبو الهذيل من هذا الفتى الذى قصد
 رفعه الأمير لنفيه بمرسته حقه . قال رضى من أهل النجوم : قال من أهل صناعة
 الحساب أم الأحكام : قال الأحكام . قال : ذلك عمل يبطل . أنشأ إليه
 قال : سل . سأخذ أبو الهذيل تفاحة من بين يديه وقال : أكل هذه التفاحة
 أم لا ؟ . . قال تأكلها . . فوضعتها أبو الهذيل وقال : لست أكلها . فقال
 فتعيدها الى يدك وأعيد النظر فوضعتها وأخذ غيرها قال : لئلا يقول لى لا تأكلها
 فأكلها خذفا عليه فيقول : قد أصبت فى المسألة الأولى (١) روى أبو الهذيل بسند
 سنة خمس وثلاثين ومائتين وعمره مائة سنة . . (٢)

أبو اسحاق النطاس :

الأديب الشاعر والمال والفكر * شيخ من كبار شيخ الصنعة وأتمهم
 متقد فى العلوم شديد النوص على الممانى . . . كان من صفه يتوقد ذكوره
 وتدفق نصاحه ، حكى أن أباه جاء به ويوصف به الى الخليل بن أحمد ليمسسه
 فقال له الخليل يتحننه . ومن يده قد ج زجاج . يابى صف الى هذه الزجاجة
 قال : يدمج أم يدمج ؟ قال يدمج : قال : تترك القذى ولا تقبل الأذى ولا تستتر
 ماورا . . قال فذمها قال : يرس اليها الكسر ولا تقبل الجبر . قال صف الى هذه
 النخلة وأمرها الى نخلة يداره قال يدمج أم يدمج ؟ قال : يدمج : قال : حلوا عنها
 بأسق منتهاها ناضر أعلاها . . قال فذمها . قال : صعبة المرتضى بمسودة المجتهد
 مخوفة بالأذى فقال الخليل يابى نحن الى التمليهنك أحسن (٤)

ويعلق المرتضى على هذه الرواية فى أماليه بقوله : " وهذه بالغة من النظام
 حسنة لان البلاغة هى وصف الشئ بما أورد حيا بأقصى ما يقال فيه " (٥) ومن كلام
 النظام " العلم شئ لا يعطيك بمضيه حتى تعطيه كلك فان أمانيته كلك فانت مسكين
 أعدائه لك الهمم على خطر " (٦)

(١) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٢٥ (٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٦٥ (٣) النية والأمل ص ٢٦

(٤) سير السوف ص ٢٢٦ (٥) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٦٥ (٦) النية والأمل ص ٢٦

النظام فانه كان مقدما في السلم بالتلام حسن الخاطر شديد التدقيق والخبير
 على المعاني قين للنظام ما الاختصار فقال : الذي اختصاره فساد . . وقال الجاهل
 وذكر النظام عبد الوهاب الثقفي فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف وهو به
 سقم ، وغريب بعد جدي ، وفني بعد فقر ، وطاعة المحبوب ، وفني المكسروب
 ومن الرسل الدائم مع الشباب الناعم . . والنظام شمر كبير صالح فنه :

توسمه طرفي نألم غيبه
 وصافحه قلبي فآلم كسبه
 ومر بقلبي خائلا فبرحت به
 يرفعن لين وحسن تسلسف
 فمار مكان النور من ناسري أشير
 فمن ملج قلبي في أنامله عقتير
 ولم أرجعها قط يجرحه الفكتير
 يقال به سكر وليس به سكرير (١)

ويقول ابن المعتز في طبقاته عن النظام :

" حدثني ابن الكوفي قال : كان مذهب ابراهيم النظام في أول أمره الشعر وانتقل
 الى الكلام ومذهب أبي نواس الكلام وانتقل الى الشعر . . وما يستحسن من شعر
 النظام قوله :

ألا ياخير من رأيت الميسرون
 فضلك لا يحد ولا يمسار
 خلقت بلا مشاكلة لنفس
 كأن الملك لم يك قبل شيئا
 نظيره لا يحس ولا يكسرون
 ولا تحصى حيازته الذنوسون
 وأنت الفوق والثقلان دون
 الى أن قال بالملك الأصمون

..... وهو القائل :

مازلت أشد رجح الدين في لطف
 حتى انشيت لي روحا في جسدي
 وشعره قليل وكان يستقي الشعر من الكلام والجدل (٢)
 واستبج دما من غير مذهب
 والزن مطروح جسم بلا روح . . .

ويقول الجاحظ : " الأوائس يقولون في كل ألف سنة رجح لا نظير له فان كان ذلك
 صحيحا فهو أبو إسحاق النظام " (٣)

وتوفي النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين وله من العمر ست وثلاثون سنة (٤)

(١) أمالي المرتضى ج ١ ص ١٣٦ (٢) طبقات ابن المعتز ص ٢٧٢ (٣) النية والأمل ص ٢٨
 (٤) ...

المساب الثالث

مكتبة جامعة القاهرة

جهود المدرسة المصرية في النقد الأدبي

مكتبة جامعة القاهرة

الفصل الأول : حالة النقد في القرن التاسع عشر

الفصل الثاني : جهود المدرسة المصرية في نهضة النقد الأدبي

الفصل الثالث : صلة النقد في مدرسة المصرية بالنقد الحديث

النقد الأدبي في القرن الثالث مكانة المدرسة البصرية فيه :

وقفنا في الباب الأول من هذه الدراسة وثقة دليولة مع أطوار النقد في عصر ما قبل الاسلام والقرنين الأول والثاني وعاشنا النقد العربي منذ عرف على أيدي الشعراء والحكماء في مرحلة ما قبل الاسلام . . وفي البيئات الأدبية والثقافية في القرن الأول وعلى أيدي العلماء والرواة وفي مجالس الخلفاء في القرن الثاني . . وكان هدفنا من تلك الرحلة أن نتبين مناهج الفكر النقدي عند العرب وكيف كان حال النقد عندما تصهده بيئة البصرة في بداية القرن الثالث الهجري . .

ويأتي هذا الفن الذي نتحدث فيه من النقد في القرن الثالث كمقدمة للهدف الذي نشده وهو التعرف على قيمة الحركة النقدية التي انطلقت بها مدرسة البصرة ومن ثم فليست دراستنا للنقد في القرن الثالث من النقط التقريرية أو التاريخية وإنما هي دراسة مقارنة نحاول فيها إبراز وجوه التأثير والتأثر بين نتائج المدرسة البصرية في النقد والحركة النقدية في القرن الثالث بصورة عامة . . وهناك حقيقة سامان نرى أن نسجلها بادي ذي بدء أن على ضرورتها تتضح لنا أبعاد التأثير الذي أحدثته بيئة البصرة في دراسات النقد في القرن الثالث . .

أولى عاملين الحقيقتين : أن دراسات النقد ازدهرت في بداية القرن الثالث وكان موطنها هو بيئة البصرة إذ استأثرت تلك البيئة بهواكر التراث النقدي المندون فضلاً عن كونها المصدر الذي انتشر منه الفكر النقدي في البيئات الأخرى وفي هذه المرحلة ظهرت مؤلفات الأعمى وابن سائر وفيها عرفت مؤلفات الجاحظ وفيها عرفت عايش زعماء الاعتزال الذين نشروا آراءهم النقدية على أوسع نطاق . . ولعلنا لا يستغنى عن ذلك الحكم بما سوى أبي الصباس المبرد فهو العالم الوحيد بين نقاد البصرة الذي تأخر به الزمن فأدرك جانباً من النصف الأخير من هذا القرن ولذلك فثقلته في تركيبتها النقدي مشهور إليها عندما نتحدث عن التراث النقدي لابن المعتز وأحمد بن يحيى شلب . .

وسلما به وقد عرشنا فيرمرة لهذه المسألة وأشرنا الى أن أعلام النقاد المصريين قد رحلوا جميعهم الى بغداد وتركوا آثارا واضحة في الحياة الثقافية بها . . . وسيتأكد لنا من خلال تحليل التراث النقدي للنقاد البغداديين مدى تأثيرهم بالفكر النقدي في المدرسة المصرية واستنادتهم بما قرروه أعلام تلك المدرسة من قضايا وما انتهوا اليه من آراء . . .

ومجد أن نرغبنا من تقرير هاتين الحقيقتين نستطيع أن نرسم صورة للحركة النقدية في القرن الثامن من خلال تراث نقادها الذين تركوا مؤلفات نقدية وهم يمثلون فسي الشخصيات التالية :

- (١) ابن قتيبة صاحب " الشعر والعمراء " و " أدب الكاتب " .
- (٢) أحمد بن يحيى ثعلب وله " قواعد الشعر " . . .
- (٣) عبد الله بن المعتز مؤلف " طبقات الشعراء المحدثين " و " البديع "

وسنضيف الى تلك البحوث النقدية المدونة آراء وتعليقات لجماعة من الأدباء والعلماء في القرن الثالث ونستشهد بتعليقاتهم على أعمار الشعراء وقد جمعنا طائفة من هذه الآراء من مختلف المصادر . . .

هذا وقد تركنا الحديث عن قدامة بن جعفر البغدادى مع أنه عاش سنوات من القرن الثالث وذلك لاعتبار ابن زهرى سبيلين :

أولهما : أن قدامة أدرك زنا يسيرا من القرن الثالث وامتد به العمر الى ما يقرب من منتصف القرن الرابع ولذا فهو حري أن يدرس ضمن نقاد القرن الرابع . (١)

الثاني : أن منهى قدامة في النقد أهد ما يكون عن روح المدرسة المصرية التي كان عرائشها النقدي متأثرا بالثقافة المصرية الأصيلة على العكس من نزعة قدامة التي سيطرت عليها روح الفكر اليوناني الموقر وهي التقنين والتقسيم والتحديد والتجريد . . . فالملازمة تكاد تكون معدومة بين نقد قدامة ونقد المدرسة المصرية . . . ولا توجد ثمة رابطة بين النزعتين . . .

(١) بعض الباحثين المحدثين الذين كتبوا في تاريخ النقد أدخلوا قدامة في نقاد القرن الثالث . . .

أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري أحد الرواد الذين أسهموا
في وضع لبنات الفكر النقدي عند العرب سواء في فن الكتابة أم في فن الشرح
وقد عرضنا لجهوده في نقد الكتابة عندما حللنا مقدمة مؤلفه الكبير "آداب الكاتب"
وندرس هنا أثره آخر من آثاره النقدية وهو كتاب "الشعر والشعراء" الذي يعد
دعامة مهمة من دعائم تراثنا النقدي ..

وسيتضح من عرضنا لمحتوى النقدي للكتاب مدى تأثير مؤلفه بنقد المدرسة
البحرية فقد كان لنقد هذه المدرسة عداوة في أفكار ابن قتيبة التي ضمنها كتاب
"الشعر والشعراء" وتتلخص ذلك في جانبين :

الأول : أن ابن قتيبة نقل كثيرا من آراء النقاد البصريين ورد في مواضع متعددة
من كتابه ماقروء وانتقوا إليه وسنرى أمثلة لهذا التأثير خلال تحليلنا لتقديم
الكتاب ..

الثاني : كان ابن قتيبة أول من نظرفي تراث المدرسة البصرية النقدية نظرة تأصيل
وتمقيب مجموعة من النظريات النقدية التي شاعت في بيئة البصرة واتخذ موقفا
معارضها لهذه النظريات .. ولئن كان ابن سلام الجصبي قد جمع في كتابه
"مهمات الشعراء" آراء شيوخه من علماء اللغة والرواة فإن ابن قتيبة
قد عارضه في أكثر من قضية واختلف معه في بعض هذه الآراء وأعلن رأيه
فيها عريضا واضحا وإن كان لم يشر إلى ابن سلام بالاسم إلا أن اختلافه
معه لم يتطرق متعددة في كتابه "الشعر والشعراء" فحين يحمل ابن قتيبة
على علماء زمانه المتعصبين للتقديم لتقديمه المزيين بالسحدث لحداثته كان
يعارض ابن سلام الذي لم يشر إلى المحدثين بكلمة ولم يدخل أيا منهم
في طبقاته مع أن منهم من كان من بيتته كشار وأبي نواس وقد طبقت شهرتهم
الاتفاق وذاع صيتهم في كل مكان ..

وحين يسرد ابن قتيبة لشعراء الذين ترجع إليهم دون نظام معين يعارض
ابن سلام في نظام الطبقات الذي اخترعه دون سند قوي من الواقع التاريخي
أو المستوى الفني للشعراء ..

تصرف على مكانة ابن قتيبة بين نقاد القرن الثالث، مقدار ما أسهم به في
أرساء مفاهيم النقد العربي ..

ما استطاعتنا أن نبرز القول في القضايا التي عرض لها ابن قتيبة في مقدم
الشعر والشعراء في النقاط التالية :

أ - القديم والحديث :

كان ابن قتيبة أول من أثار مسألة القديم والحديث وأبرزها في بداية كلامه
عن الشعر والشعراء على أساس أنها قضية أدبية ملحة تستحق من العلماء
في عصره المراجعة وانماء النظر وقد أعلن ابن قتيبة رأيه في مقدمة
القضية في جرأة ومراحة وعلل له تعليلا منطقيا مقنعا يقول موضحا منهجه
في اختيار الأسماء ..

" ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قصد
أو استحسان باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بحسن الجلالة لتقدمه
والى المتأخر منهم بحسن الاحتقار لتأخره بل نظرت بحسن العدل الساسي
الفرق بين وأعطيت كلا حقه وفرت عليه حقه .. فإني رأيت من علمائنا من
يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعفه في متخيره ويرذل الشاعر
الرصين ولا يعبر له عند إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله .. ولم يقصر اللسان
الحلم والشعر والهاجعة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل
ذلك مشتركا مقسوما بين عباد في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره " (١)

وإبن قتيبة بحالته هذه كان يحمل على المتعصبين للقديم أمثال ابن
العرابي الذي نعت شعرهم بأنه كالريحان يشم يوما ويذوي فيومين بسببه

وأشكال ابن سلام الذي أغفل شعراء عصره الكبار ولم يفسح لهم
مكانا في طبقاته ..

والحقيقة ان ابن قتيبة لم يكن أول من أنصف المحدثين أو تذوق
أصنافهم ولكنه أول من عرض مسألة القديم والمحدث بهذا المصطلح الموضوعي
وحلها ذلك التحليل الدقيق ووقف وثقة معتدلة ومتزنة يستحق عليها التقدير
والعرفان .. وقد كان عليها أن يقف ابن قتيبة ذلك الموقف فقد عاش في
بغداد التي احتضنت الشعراء المحدثين وحدثت عليهم وفسحت لهم أنديتها
وقرورها وقدرت أدبهم وفتحت ألبانها ..

ولي الرافض من أن تدين القديم كان منزعا عاما في البيئة الثقافية
البصرية فقد استطاع النقاد البصريون في بيئتهم - أن يتخلصوا من نزعة
التعصب للقديم وأعمال المحدث واتسم موقفهم بالاعتدال إزاء القدماء
والمحدثين على السواء واستثنى ابن سلام الذي أهمل المحدثين ولم يتذوق
أدبهم وبقى على موقفه ذلك لم يمدح عنه .. نجد بقية نقاد البصرة قد تذوقوا
أصناف المحدثين وأعجبوا بها ..

فالأصمعي الذي كان في أول أمره متعصبا للقدماء تدير موقفه - عندما
انتقل إلى بغداد وأطلع على أصناف المحدثين التي راجت فيها وكان متحمسا
لبشار - كما سبق أن عثرنا - مفضلا له على مروان بن أبي حفصة ..

والباحظ كان يبرأ من يفضل القدماء على المحدثين وأعلن في معرض
كلامه عن شعراء بني نواس أن من ينشأ في هذا التيار " لا يعرف الحق من
الباطل " ..

والجبريد مع انتحائه إلى جماعة علماء اللذة والنحاة كان موقفه من القديم
والمحدث معتدلا وقد أورد في كتابه الكامل كثيرا من أصناف المحدثين وأفسرد

ولو اعترضى مختري بأن المبرد قد يكون متأثراً بأبن قتيبة لتأثيره قليلاً إذ أنه توفي سنة خمس وثمانين ومائتين وأبن قتيبة توفي سنة ست وسبعين ومائتين واحتمال تأثير المبرد به قائم - فأننا لا ننكر إمكان التأثير بالنسبة للمبرد ونظـمـهـل مآقره كل من الأصمعي والجاحظ إذا هذه القضية شاهدها على سبيل المدرسة المصرية إلى أن رأى هذه المسألة واتخاذ موقف معتدل وقوم تجاهها . . . وإذا التبدل في كلاً ابن قتيبة هو إبراز القضية وتحديد أبعادها والتبني على أساس مناهي الضرر فيها . .

ب - التكلف والطبع :

وهو أحد الموضوعات الرئيسية في مقدمة الشعر والشعراء وقد أسهب ابن قتيبة في توضيح هذه القضية ورسم حدودها وتمييز ضوابطها ولحق القاري لأول وهلة أن ابن قتيبة متأثر في هذه القضية بالأصمعي بدليل أنه نفسـل مقالته عن عبيد الشعر الذين نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين الخ وذلك مظهر من مظاهر تأثير ابن قتيبة بالفكر النقدي للمدرسة المصرية ، وقد سبق لنا أن عرضنا رأي الأصمعي في التكلف والطبع وأخذنا عليه خلطه بين التكلف الذي هو عيب لا يحسن معه الشعر والتروى والتثقيف اللذين لا يتعارضان مع الجهد الفني والابتكار الأدبي . . كما أخذنا عليه ربطه الطبع بالارتجال وهما أمران مختلفان وقد يكون الشاعر مطبوعاً على الرغم من أنه يحتاج وقتاً لتحرير قصيدة أو السماع بالشعر . . والذي نلاحظه أن ابن قتيبة وقع في الأخطاء نفسها التي وقع فيها الأصمعي من قبله فنقل رأيه دون نقاش وكأنه حقيقة مفروغ منها . . يقول ابن قتيبة :

" ومن الشعراء المتكلف والطبع . . فالتكلف هو الذي قور شعره بالثقاف ونقحه بحلول التفتيش وأعاد فيه النظر بمد النظر كزهر والحطيفة وكان الأصمعي يقول زهير والحطيفة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعراء لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكان الحطيفة يقول : خير الشعر الحولى المحكم وكان زهير يسمى كبرى قصائد الحوليات " (٢)

بدر بيته عجزه هي قاضته قافيته وتبينت على شعره رونق الدبح ووشم
الفرقة (١)

ذلك هو تصور ابن قتيبة للتكلف والمطهر من الشعر " ومع ما لاحظنا
على هذا التصور العام من تجاوز محمد عن الواقع ترى ابن قتيبة قد أصاب
في بعض مسائل فرعية تندرج تحت قضية الطبع والتكلف منها :

أنه حاول أن يحدد بعض سمات الشعر التكلف فقرر أن " التكلف
من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفا " على ذوي العلم لتبينهم
ما نزل صاحبه من طوبى التكر وشدة الحناء وشرح التبيين وزيادة ما بالعنائين
غنى عنه ويقول أيضا : " تبين التكلف في الشعر بأن ترى البيت فيسـ
مقرونا بغير جاره مضمونا إلى غير لفظه ولذلك قال عمر بن لبيد لبعض الشعراء
أنا أشعر منك فإن هم ذلك ؟ فقال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقسـ
البيت وابن عمه " (١)

ومنها أنه قرر أن الشعراء مختلفون في الطبع منهم من يسهل عليه العديس
وييسر عليه الهجاء ومنهم من ييسر له الرأى ويتمذر عليه الغزل (٢) . . . الخ .
وهذا الذى قرره ابن قتيبة سبق أن رأينا كلاً ما قربنا منه قاله الجاحظ في التبيين
والتبيين وإن كان الجاحظ توسع في شرح القضية وتبع جذورها فوجد
بعض مختلف المواهب والتميزات وتعدى على كافة الفنون من الشعر إلى الموسيقى
حتى الحرف كالكتابة والفنونة والحساب هي أيضا مدرجة تحت هذا الحكم
العام . .

ويتوزع الجاحظ عن ابن قتيبة في أنه أدرك أبعاد قضية التكلف والطبع
في الشعر فلم يوافق الأصمعي على ما قاله في شعر زهير والحطيئة بل ساق كلامه
على أنه رأى خاص بالأصمعي واستدرك فقرر أنه بهذا الرأى يخالف الأصمعي
بجمهور الرواة والشعراء (٣)

منها الدمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الدرب ومنها الضرب * ولمحلى
تأثر في مقالته هذه بما قرره يونس النحوي عندما سئل من أضر الناس فقال :

أمرؤ القيس إذا ركب والنابهة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى
إذا طرب * . . . وعلى أية حال فقد كان ابن قتيبة متأثرا في كلامه عن
التكلف والطبع بالشعر النقدي البصري ولعلنا لاحظنا أنه تأثر بكل من الأصمعي
والجاحظ. أما تأثره بالأصمعي فكان في الفكرة الرئيسية التي بنى عليها فهمه
للتكلف والناهج وهي فكرة فيها تجاوز وممد عن الحقيقة كما أوضحنا . . . وأما
الجاحظ فقد تأثر به ابن قتيبة في الجانب المستقيم من حديثه عن التكلف
والطبع وإن كان الجاحظ أهد غورا وأوسع قدما في تقرير ما قرره من حقائق

ج - عسر الشعر :

ومن الموضوعات التي تضمنتها مقدمة " الشعر والسرور " بناء القصيدة
العربية وأسباب النزاع العرب بتقاليد ثابتة في قالب القصيدة لا تكاد تتغير
وقد حلل ابن قتيبة بناء القصيدة العربية وعلل له تحليلا متطقا لعله مسن
أمدق وأدق ما قيل في هذه المسألة يقول ابن قتيبة :

" وسمعت بعض أهل العلم يقول : إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها
بذكر الديار والدمع والآثار فشكا مكنى وخاطب الريح واستوقف الرفيق ليجمع
ذلت سبها لذكر أهلها الطاعنين عنها إذ كان نازلة المدر في الحلول والظلم
مخلاف ما عليه نازلة الحضر لا تجمعه الكلا * وانتقالهم من ما إلى ما * وتبهمهم
مساقت الضيئ حيث كان ثم وصل ذلت بالنسيب فشكا عدة الشوق والوجد
والفراق وفرد النهاية ليمس نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به الصفاء
الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لا شغل بالقلوب لما قد جعل اللسان
في تركيب المهاد من محبة الفزل والفاء النساء فليس يخلو أحد من أن يكسبون
متعلقا منه بسبب وعلما فيه سبب حلال أو حرام فإذا علم أنه استوفى مسن
الأصمعي اللين والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النسيب

المديح فبحثه على السكافة وحزه على الساج وفصله على الأشباه * (١)

ومع أن كلام ابن قتيبة يفهم منه أن تحليل بناء القصيدة العربية كـ
مصرها لبعض العلماء بدليل قوله في بداية كلامه " سمعت بعض أهل
المعلم... الخ " - مع ذلك - فابن قتيبة أول من بسط القول في
التحليل وشرحه شرحا وافحا في مقدمة الشعر والشعراء . .

د - السرقات الشعرية :

وهي من المسائل التي ألح ابن قتيبة إلى أسرارها في مقدمته وفي
من كلامه أنه كان على وهي بالأسس التي ينبغي مراعاتها في الحكم على السرقات
الشعرية . . وقد قرر ابن قتيبة الأسس المشهورة في هذه القضية وهو أن النا
إذا أخذ معنى سبقه إليه شاعر آخر فأحسن الأخير عوفه وسبكه أوزاد في
وأضاف إليه بعد أحق به وأولى من الشاعر السابق أما إذا قصر الشاعر
الشاعر في صياغته ولم يزد على المتقدم فهو مقصر ومحكوم عليه بالتدليس فن
يقول ابن قتيبة مقررًا هذه الحقيقة :

" وكان الناس يستجدون للنفس قوله :

وناس شربت على لسانه
وأخرى تداولته منها بهما

حتى قال أبو نواس :

دع عنك لوى فان اللوى أغسراء
وداوى باللى كانت هي الداء

فسلخه وزاد فيه معنى آخر اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه فلأد
فضيل سبق إليه ولأبى نواس فضل الزيادة فيه * (٢)

وقد لاحظنا ونحن نتحدث عن تراث البيرد النقدي أنه توسع في بحث
مسألة السرقات الشعرية وإن كنا أخذنا عليه بفالاته في الحكم بالسرقات
لأدنى علاقة بين المعنيين كما أنه خلط بين المعاني المتداولة في الشعر

وما يحجبها ما جاء في كلام الحنابلة أو أشال العقلاء أو ما شور القول . ولذلك
نرى ابن قتيبة يمد أحمد نظرا وأدق في فهمه لقضية السرقات من المصير
على الرغم من غمالة ما تحدث به ابن قتيبة في هذا المجال . .

هـ - أقسام الشعر الأربعة :

إذا كنا لاحظنا في إنقاط السابقة وجود تشابه بين ما قرره ابن قتيبة
في موضوعات مقدمته والتراث النقدي لمدرسة البصرية . . نلاحظ أيضا أن محاولة
ابن قتيبة تصنيف الشعر ووضع في مراتب متفاوتة بالنظر إلى جودة الالفاظ
وصحانيه وأوزانه غريبه على الفكر النقدي البصري إذ لا نجد لها مثيلا في تراث
النقاد البصريين حتى عند من تأخر به الزمن أكثر من ابن قتيبة وهو المصنف
فابن قتيبة إذا كان أول من بدأ ذلك اللون من البحث النقدي المبني على أحسن
العقل ورسوم المنطق والذي يتأمل تقسيمه للشعر يلح ذلك بوضوح فالشعر
أربعة أضرب . .

- ضرب حسن لفظه ومعناه .

- وضرب حسن لفظه وتأخر معناه .

- وضرب تأخر لفظه وحسن معناه .

- وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه .

وذلك ما تقتضيه القصة العقلية ومحتنه النظر التجريدي أما تحقق ذلك في
التراث الشعري لسألة أخرى غير واردة في خلد أصحاب التفكير العداقي . .

يقول ابن قتيبة في تقسيمه للشعر :

تدهرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

(١) ضرب حسن لفظه وجاد معناه كقول أبي ذؤيب

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تنسى

(٢) وضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشمت لم تجد هناك فائدة في المعنى

كقول القائل

ولما قضينا من منى كل حاجة
وسبح بالاركان من هو باسم

ومخصصا على تقسيم ابن قتيبة للشعر تسليما إلى حقيقة أساسية هي
حقائق هذه الدراسة وهي أن البحث النقدي في بيئة البصرة احتفظ بطبيعته المبرزة
الأسيلة على الرغم من ارتقائه ونضجه ولما أثر بين أعلام النقاد البصريين من أقبح حسد
المنطق على بحوثه الأبيلا حتى عند أولئك الذين اطلعوا على علوم اليونان والفسوف
وتفخروا على ثقافات الأمم الأجنبية كالإحاطة بغيره من أعلام المعتزلة ..

ويتربص على هذه الحقيقة نتيجة مهمة وهي أن ذلك اللون من البحث النقدي
التأثير من المنطق وأقيسته والذي بدأه ابن قتيبة كان نواة للدراسات البلاغية المستر
تميزت فيما بعد واستقلت عن دراسات النقد فذلك اللون المتأثر بالمنطق هو السبب في
تجزع الدراسات المتعلقة بالأدب إلى نقد صائغة ومع أن تراث المدرسة البصرية النقدية
قد من بين الفتيين فإنه لم يجمع إلى التقنين والتقسيم الذي لبيت إليه الدراسات
النقدية في غير بيئة البصرة ..

قواعد الشعر لأحمد بن يحيى ثعلب :

وهو نمط جديد من البحث النقدي في القرن الثالث أخصى فيه مؤلفه مجموعة كبيرة
من الخصائص التي يتميز بها الشعر الجيد ويخلص بسببها نتائج الشعراء * والكتاب - علوم
الربغ من نبالة حجب - يعد موسوعة تضم مسائل نقدية صائفة متنوعة بعضها يتعلق
بالمعاني الشعرية ومنها يتعلق بالألفاظ والأوزان ومنها يتعلق بألوان المحسنات
الصياغية التي اشتهرت فيما بعد بالبديع ..

وكتاب قواعد الشعر جديد في أكثر من ناحية : فهو جديد من ناحية بروز المنهج
الاستقرائي المنطقي في تأليف الكتاب .. وهو أيضا جديد من ناحية تقسيم الشعر الذي
لم يشترك مع مؤلفه فيه أحد والذي يجعل من البيت المفرد وحدة مستقلة ويقسم الشعر
بالنظر إلى إمكان استقلال أجزاء البيت منه إلى خمسة أقسام متفاوتة في درجات البلاغة ..

ثم إن قواعد الشعر جديد في إحصائه لنوع البديع التي كان مؤلفه أول من حاول
استخلاصها من أعمار الشعراء ودونها في كتابه منها بقيمتها في الصياغة الشعرية .

(١) حد الشعر عن قدامة هو " قوون موزون مقفى يدل على معنى " نقد الشعر ص ١٣

(٢) ...

في "قواعد الشعر" تبدو نزعة الثقنين والتقميد سافرة بحيث تسيطر على الكتاب من بدايته الى منتهاه وقد أصاب ثعلب في تسمية مؤلفه "بقواعد الشعر" فهو مجموعة من القواعد النقدية والاصول المائفة التي استخلصها المؤلف عن طريق الاستقراء والحصر فهو حصاد لمجموعة من الأفكار النقدية التي تداولتها البيئات النقدية المختلفة وكان ثعلب أراد أن يسوقها في ذلك البحث المنظم وضمها في إطار جديد ..

مع ما في "قواعد الشعر" من مظاهر الجدة وما يتسم به منهجه من تنظيم وترتيب نلاحظ أن آراء المؤلف كانت تقليدية بل ومتخلفة في أحيان كثيرة فذكره النقاد أدنى بكثير من روحه العلمية ومقدرته على البحث المنظم . ولذلك مظاهر سنعرض لها ونحن نحلل الكتاب ..

بدأ ثعلب كتابة فذكر قواعد الشعر التي يهدو أنه أخذ منها تسميته للكتاب يقول : "قواعد الشعر أربعة : أمر ونهي وخبر واستخبار ..

أما الأمر فكقول الحائثة :

أقلوا عليهم لا أيا لأبيكـــ
أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا

من اللوم أوسعوا المكان الذي سددوا
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا عاهدوا

والنهي كقول ليلى الأخيلية :

لا تفرين الدهر آل مطرف
قوم رباط الخيل وسط بهوتهم

لا تالما أهدا ولا مالم يهدا
وأسنه زرق يخلن نجومـــ

والخبر كقول القدامى :

يقتلنا بحديث لهم يعلمـــــــــــــــــــــــــــــــــ
فهن ينهذن من قوم يصبون به

من يتقين ولا تكونـــ
مواقع الماء من ذي الدلة الصادي

والاستخبار كقول قيس بن الخطيم :

اني سرهت وكنت غير مسرور

وتقرب الأحلام غير بعيد

ويضمن ثملب بعد ذلك فيذكر أن هذه القواعد تنقل إلى مدح وهجاء ومراثي
واعذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص واخبار (١) ثم يذكر حالا لكل لون من هذه الألوان
والطريف في هذا التقسيم أن ثملب يعد التشبيه أحد الأغراض الشعرية مع أنه ليس
الحقيقة وسيلة بيانية يمكن أن تستخدم في مختلف الأغراض الشعرية .. والملاحظ أن
النماذج التي يسوقها ثملب مثلا بها لأنواع الشعر هي من الأمثلة التقليدية التي سبق
للنقاد الأقدمين أن وقفوا عندها وحرروا جودتها .. فهو يمثل للتشبيه الجيد الخصال
عن التمدد والتقصير بقول امرئ القيس :

كأن دماء الهاديات بنحسره
عمارة حناء بشيب مريـسـل

وقول الحطيئة :

ترى بين لحبيها إذا ماترقت
لها ملاكيت العكبوت المسد
في المدح يذكر قول زهير :

على مكربهم حتى من يستريحهم
وعند المقلين السباحة والنسيـل (٢)

ومعد أن يسرد ثملب أمثلة مختارة للأغراض الشعرية المختلفة يتحدث عن الخلوف في
المعنى والافراط فيه ويمثل له بقول امرئ القيس :

وقد امتدى والدير في وكناتها
بمنجرد قيد الأواهد هيـكـل

وقول النابغة :

بأنك شمر والعلوك كواكـب
إذا طلعت لم يهد منها كوكـب (٢)

والشالا لا غلو فيهما إلا إذا كان ثملب يرى أن يلتزم الشاعر بأسلوب التعبير المادي
الذي لا مكان فيه للخيل أو المبالغة في التصوير .. وعلى أية حال فلم يوضح لنا ثملب
حقيقة الغلو في البيتين ولم يعلل لحكمه عليهما ..

وانتقل ثملب بعد ذلك فتحدث عن لطافة المعنى وهو الدلالة بالتصريح على التصريح
ومثل لها بقول امرئ القيس :

وخليل قد أنار قـبـله
ش لا أهكى على أثـرـه

فما جوا فأتوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثبت عليك الحقائق (١)

ثم ينتقل ثعلب للحديث عن طائفة من ألوان البديع وقد ذكر منها :

أ - الاستعارة :

وعرفها بقوله " أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواء كقول
أمرى القيم :

فقلت له لما تظن به ~~بسمي~~ وأردف أعجازا وناء بكلكل (٢)

" فقول تأبط شرا في شمس بن مالك :

إذا هزم في عظم قرن تهاللت
ولا نواجذ للمنية ولا فم (٣)

وهنا نلاحظ تمثل ثعلب لحقيقة الاستعارة وأدراكه لأبعاد المجاز فيها . .

ب - حسن الخسري :

وتمثل في " حسن خروى الشاعر عن بكاء الطفل ووصف الأهل وتحصيل
الاضطمان هراق الجيران بخير " دع ذا " و " عد عن ذا " و " اذكر ذا " .
بل من " دور إلى عجز لا يعتمد والى سواء ولا يقرنه بخير جاره . . ومثاله قسبول
الشماخ يدح عراة الأوس :

إذا هلفتني وحملت رحلي ~~بسمي~~ عراة فاشرقى بدم التوسمين (٣)

وقول حاتم الطائي :

ان كنت كاربسة لميشتنسا هاتي فحلى في بني ~~بسمي~~ (٣)

ج - مجاورة الأغصان :

" وهو ذكر الشيء مع ما يمد به وجوده كقوله تبارك وتعالى : " لا يموت فيها ولا يحيا " .
وكقول زهير في الفزاريين :

هنيئا لنعم السيدان وجد تما على أي حال من سحيل ~~بسمي~~ (٤)

وهذا اللون هو ما يسمى في عرف المحدثين بالبنياس ..

ومع أن يصرح شملب ألوان الجديع هذه ينتقل الى مسألة نقدية أخرى وهي
جزالة الألفاظ فيحدد الألفاظ الجزلة بأنها التي ليست " بالصرب البدوي ولا السفاسا
العامي ولكن ما اشتد أسره وسهل لفظه ونأى واستصعب على غير المطبوعين مراهم وتو
أمكانه " (٢) ثم يتحدث شملب عن اتساق النظم وهو " ما طاب قريحه وسلم من السنن
والاقراء والاكتفاء ... وغير ذلك من عيوب الشعر وما قد سهل العلماء اجازته من قصر المد
ومد المقصور وضروب أخر كثيرة وإن كان ذلك فعلمه القداماء وجاء عن فحولة الشعراء " (٣)

ونظرة شملب في اتساق النظم نظرة دقيقة وصائبة فالصحة اللفظية وحدها
لا تكفي في الصياغة الشعرية ولا تضمن للشاعر السداد في قرن الشعر لأن الاعلى
العصرى يعتمد على حسن البناء وإفادة الربط والتشام الأجزاء ..

ويختتم شملب كتابه بتقسيم الشعر الى خمسة أقسام مستوحيا تقسيمه من إحدى
الأفكار النقدية التقليدية و هي فكرة البيت المستقل بمعناه والتي أشرنا الى أنها
عرفت في بيئة رواة الشعر بالبصرة في أواخر القرن الثاني وبات شملب فيلتقف هذا
الفكرة ويحورها ليخرج منها تلك الأقسام الخمسة التي تتفاوت في درجات البساطة ..

(١) فأعلامها البيت الذي يستقل كل شطرفيه بمعناه ويصح الوقوف عليه ..

(٢) يليه البيت الذي يستقل صدره بالمعنى دون عجزه ..

(٣) ثم البيت الذي يسلم صدره الى عجزه ويكون عجزه مستلزما لصدره ..

(٤) ومعه البيت الذي تستقل أجزاء صدره وعجزه ..

(٥) وآخرها البيت الذي لا يكمل معناه الا بتامه ..

يقول شملب موضحا هذه الأقسام ومطللاً لها :

أولاً : أبلغ الشعر ما اعتدل مطراه وتكافأت حاشيتاه وتم بأيهما وقف عليه معناه فمن
ذلك قول امرئ القيس :

وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالة تقول الخنساء :
وان صخرًا لتأتم الهداة به
وقول ليلى :

قور رباط الخيل وسط بيوتها
وأسنه زرق يخلن نجومها

ثالثا : الأبيات المحجلة * وهي مانتى قافية البيت من عروضه وأبان عجزه بنية قائله
كحجيل الخيل والنور يقب الليل * * مثالها قول امرئ القيس :
ومأذيتنا أقطا وسنينا
وحسبك من غنى شمع وري
وقول مهلهل :

هتكت به بيوت بني عباد
ومضى القتل أشقى للمدور (٢)

رابعا : الأبيات الموضحة :

وهي * ما استقلت أجزاءها وتماضت فصولها وكثرت فقرها واعتدلت فصولها
فهي كالخيل الموضحة والمهزوز المبرزة والبريد المحبرة كقول زهير :
عبأت له حلما وأكرمت فسيره
وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
وقول الأعشى :

طويل السواد رفيع السواد يحسن المضاف يعطى الفقيرا (٣)

خامسا : الأبيات المبرجلة :

وهي التي يكس معنى كل بيت فيها بتمامه ولا ينفصل الكلام منه بمعنى يحسن
الوقوف عليه غير قافيته فهو أهدأ من عود البثقة وأدملها عند أهل الرواية
إذا كان فيها الابتداء مقرونا بآخره وعدره منوطا بعجزه فلو طرحت قافية البيت
فجئت استجالتا إلى التخليط قائله مثاله قول امرئ القيس :
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواء بخسزان (٤)

(١) المرجع ص ٦٧ (٢) قواعد المعر ص ٧١ (٣) المرجع ص ٧٥

(٤) المرجع ص ٧٥

وتحسب وإن كما ألقينا إلى نظرية البيت المفرد من قبل نرى (١) لنا أن شملنا
لم يكف باعتناق هذا المبدأ بل ولد منه نظرية جديدة جعلت محورها البيت المستقيم
بمعناه كما رأينا في التقسيم المتقدم ..

ومعد فهذا كتاب قواعد الشعر لأحمد بن يحيى شملب لما موضعه بين دراستنا
النقد في القرن الثالث ؟ .. الكتاب كما أشرنا لونه جديد في دراسة الأدب العربي
عالم فيه المؤلف قضايا نقدية متنوعة وجمع حشدا من المسائل التي تهتم دارسي الشعر ونقاد
والكتاب مزيج من الفكر النقدي التقليدي والمحاولات النقدية الجديدة فهو قديم في روحه
وأفكاره قديم في أسئلته التي يطرحها وموضحا بها مافيه من قواعد حتى أن شملب لم يضمن
كتابه نماذج من أشعار المحدثين على الرغم من حديثه عن ألوان البديع التي كان المحدثون
خير من تشتمل في صياغتها .. وقواعد الشعر جديد في تقسيماته وتعاريفاته لأنواع الشعر
لم نرها في مؤلف قبله وجديد في تمثله لألوان البديع ومحاولة حصرها وتبويبها وابتداء
تسميتها .. ولو حاولنا أن نقارن الكتاب بغيره من مؤلفات نقاد القرن الثالث لوضح
أنه كان بداية للاتجاه القاعدي في البحث الشعري والذي بدت بذوره كما أشرنا في " الفن
والشعر " لاهن قتيبة شملب ذلك الاتجاه ذروته بعد ذلك في " نقد الشعر " لقدا
بن جعفر ..

و " قواعد الشعر " وإن كان يشترك مع " بديع " ابن المعتز في أنهما يعرضان
بعض فنون البديع فالشبه بين الكتابين بعيد جدا ذلك لأن شملب أورد فنون البديع
كلاستشارة وحسن الخرج والطائفة وغيرها على أنها ميزات يحسن الشعر بوجودها
وكانه كان يدل الشعر على هذه الأمور وشرح لهم أبعادها حتى يستفيدوا منها فسر
صناعتهم .. أما ابن المعتز فقد كان هدفه كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه (٢) أن يبين
المحدثين على أن تلك الفنون البديعية قد عرفت في تراث العرب الأدبي قبل أن يكتسبوا
من استخدامها شعرا البديعة فأبى نواس بن مسلم بن الوليد وقبل أن يفرط في إسقاطها
أبو تمام الذي وصلت على يديه إلى مستوى يعجز الذوق وتأباه طباع العرب وفطرهم الفنية
ثم إن ابن المعتز اختار أسئلته لفنون البديع من أشعار القدماء والمحدثين على السواء
أما شملب فأسلته بكلمها من الشعر القديم ..

تراث ابن المعتز النقدي وموضعه بين دراسات النقد في القرن الثالث :

تمثل آراء ابن المعتز النقدية انجازا أصيلا في النقد العربي وتدل على حسن فهمه للادب وتعمقه الراعي بحقائقه وقضايا .. والشبه قوي بين تراث ابن المعتز النقدي وراث المدرسة البصرية لما يشير الى امتداداته من هذه المدرسة وتطلعه على أساتذتها وخاصة البهرد الذي ينقل عنه ابن المعتز كثيرا * (١)

وتراث ابن المعتز النقدي اجتاز النقد العربي في القرن الثالث مرحلة مهمة ودخل لورا جديدا لأن ابن المعتز أول النقاد العرب الذين صرفوا اهتمامهم الى بحث أشعار المحدثين والتفرغ لتحليلها ونقدها .. وتكتمل سمات الأعالة في شخصية ابن المعتز الناقد في أنه مع تفرغه على دراسة أشعار المحدثين ونقدها لم يتعصب لها على حساب الشعر القديم ولم يقلل من قيمة التراث الأدبي وإنما كانت نظريته التي للقرنين مترنة ومنهجية ..

وأذا كان ابن قتيبة قد بسط القول في قضية القديم والمحدث فهو لم يطبقها بصورة فعالة في كتابه " الشعر والشعراء " فجاء ابن المعتز ليخفف المحدثين حتى الانصاف ويقول كلمة الفصل في تيارات الشعر الجديدة في عصره .. ومن ناحية أخرى كان ابن المعتز شاعرا رقيق الطبع مرهف الحس والشعير ولذا فإن نظراته في نتاج الأدياء والشعراء تعد لورا جديدا من النقد الذي تدعمه الثقافة والتجربة وتندم الخبرة العملية بأحمر المنافاة وقواتها والحد اللاصق بين ما هو أصيل قيم وما هو زائف مبهج ..

وهنا أن نشير الى أننا سنعرض عن تراث ابن المعتز النقدي للبحوث التالية :

- (١) طبقات الشعراء المحدثين ..
- (٢) رسالته في محاسن شعر أبي تمام وسأويه ..
- (٣) كتابه البديع : ..

(١) من ذلك أن ابن المعتز أورد في الطبقات قصيدة لابي نواس أولها :
لست لدار عمت غيرها .. ضريان من قطرها وحاصرها .. وفيها كثير من الضريب ثم قال
ابن المعتز يمد روايته لها " أنشدني البهرد هذه القصيدة لمصر لي هذا التفسير " وشرح في تفسير
القصيدة وشرحها شرحا لها مطولا (طبقات الشعراء ص ١٩٥)

أولا : طبقات الشعراء المحدثين :

وهو كما يتضح من تسميته خاص بالشعراء المحدثين وقد حدد ابن المعتز لنفسه منهجا التزم به في الكتاب وهو أنه صرف اهتمامه إلى استعراض الأسماء التي لم تشتهر بين عامة المتأدبين والأخبار التي لا يعرفها إلا الخواص ولذلك نجد الكتاب وثيقة أدبية مهمة ومصدرا غريبا عن نوعه لطائفة من أشعار المحدثين . وقد ذكر محقق الطبقات (١) أن ابن المعتز : " قد أوجز فيما اشهر في عهده وقصر اهتمامه على القصائد والأخبار التي انفرد الخامة - بمعرفتها ولهذا كان كتابه من أعظم المصادر التي لا يستغنى عنها مؤرخ أو أديب ولا نجد في غيره ما اشتمل عليه وأنه أثبت أشعارا تزيد على ألف وخمسة مائة بيت لا توجد في كتاب سواه " (٢)

ويوضح ابن المعتز منهجه الذي أوأنا إليه في الطبقات بقوله :
 " من أراد أعمار التزم على الترتيب فان دواوهم موزونة ولا سيما
 هؤلاء المشهورين عند أكثر الناس تأما من ليس يوجد شعره الا عند الخواص
 فنحن الكتاب لهم قطعة سالحة ومصدرا وافرا ليكون أكمل للفائدة عندنا " (٣)

وابن المعتز يسلكه هذا قد حقق للتراث الشعري فائدة كبرى فقد حفظ للأجيال قدرا لا يستهان به من الشعر الشعري التي لا توجد في كتاب سواه

وابن المعتز في الطبقات ناقد ذلاقة تستهويه المعاني الجميلة والصفات المستعرة والأساليب الهميمة وهو لذلك يورد كثيرا من القصائد والنقط والصفات بأكثرها والكتاب مليء بالأحكام النقدية التي تدل على حكمة نقدية أصيلة وذوق سليم ويتضح من ثنايا الكتاب اعتداد ابن المعتز بأسماء المحدثين فهو يطردهم ويصورهم بترائهم في كل مناسبة . . فيقول - مثلا - عن أبي نواس أنه : " كان أدب الناس وأمرهم بكل شعر وكان مطلقا لا يستحسن ولا يخلل شعره ولا يقر عليه ويقول فلسس السكر كثيرا لشعره متفاوت لذلك . يوجد فيه ما هو في الثريا جودة وحسن وقوة وما هو في الحقيقى ضعفا وركاكة " (٤) وقال عنه مرة أخرى :
 " انما نفق عصر أبي نواس على الناس لسهولة وحسن الفاظه وهو مع ذلك كبير الدافع والذي يراد من الشعر هذان " (٥)

(١) الأستاذ عبد الستار أحد خراج (٢) طبقات الشعراء ص ٦ (٣) المرجع ص ٤

(٤) المرجع ص ١٤٥ (٥) المرجع ص ٢٠٤

يقول عن ابن المعتز كان " أحد المطبوعين ومن كاد يكون كلامه شعرا كله
 فزله لين جدا مشاكى لكلام النساء موافق لطباعهن وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة المقرئ
 والمهاجر بن الأحنف وكان أبرز المعاصرية يفضله في عتبة جارية رائحة بنت المهدي
 السفاح وظهر عشقا وكان يجيد الوصف فما قاله في عتبة قوله :

أعلنت عتبة أني	منها على شرف مطرب
وشكيت ما ألقى اليه	ما واليداع تحتها
حتى إذا برمت بها أمكرو	كما يشكو الأذل
قالت: فأى الناس يـ	سلم ما تقول فقلت : كـ

أجمع أحد الأدباء أنهم لم يسموا قافية أحد بكائنها كقوله فقلت " كل " (١)

ومضى ابن المعتز في الطبقات على هذا النحو في إيراد الأحكام النقدية
 المطلقة بالشعر والشعراء المحدثين ووصف الخصائص العامة لشعر كل شاعر والفن
 القالب عليه يرى ابن المعتز أن " هشيارا " يعد زعيم المحدثين ولذلك فهو دائم الإطراء
 له والثناء بكائنه يقول عنه :

" وكان مطبوعا جدا لا يتكلف وهو أستاذ المحدثين وسيدهم ومن لا يقدم عليه
 ولا يجارى في ميدانه " (٢) ويقول عنه في موطن آخر :

" وعصره أنقى من الراحة وأصفى من الزجاجة وأطهر على اللسان من الماء المذب
 وما يستحسن من شعره وإن كان كله حسنا قوله :

أمن تجنى حبيب راح غفائنا	أصحت في سكرات الموت سكراننا
لا تصرف النوم من شوق إلى شجن	كأننا لا نرى للناس أوجاننا
أود من لم يظني من مودتنا	الا سلا يود القلب حيراننا
ياقرو أذن لي من الحى عاشقة	والأذن تمشق قلب المين أـ ياننا

وهذا معنى بديع لم يهفقه إليه أحد " (٣)

ويعد ابن المعتز أول من أنصف للشعراء المحدثين ووصفهم في المكان اللائق
 بهم وهاموذا يوصي الشعراء المطبوعين فإذا كلمهم من المحدثين يقول :

(١) طبقات الشعر ص ٢٨٨ (٢) المرجع ص ٢٤ (٣) المرجع ص ٢٨ (٤) المرجع ص ٢٩

* وأبرعينة أحد المطبوعين الأربعة الذين لم يرد في الباعلية والاسلام
أطعن منهم وهو بنار وأبو العتاهية والسيد وأبرعينة * (١)

ذلك هو من بين الممتر في الطبقات ولما نأج من تعليقاته النقدية
فما طبعه هذه التعليقات وأعلتها بنقد المدرسة البصرية ؟

لعلنا نلاحظ أن ابن الممتر يدري في نقد عن المقاييس الأساسية التي أجمع
عليها النقاد العرب وعلى رأسها أعز مدرسة البصرة ومن شواهد ذلك أنه اختار
الأشعار على أساس سائبة الألفاظ وجلال البحار ودفقة المعاني وهذه كلها
من المقاييس التي اتفق عليها النقاد وكان من أهم ما تميز به الشعراء المحدثون
الذين حكم لهم ابن الممتر بالسبق - كونه من المطبوعين * رسالة الطبع من الأسس
السوية التي اعتدت بها مدرسة البصرة النقدية * وحديث ابن الممتر عن الدهليش
والمطبوعين يؤكد أنه يدرك حقيقة هذه التميز الفنية تمام الإدراك ويخرج ذلك من
مقالته عن أبي نواس التي انتهت بمذاق قليل والتي يقول عنه فيها * وكان مذهبها
لا يستقصي ولا يحل شعره ولا يقو عليه * ولا يب أن الاستقصاء والتحليل من شأن
الشعراء المتصنفين أما الساهجون على الشعر فيمتدون على ما تنلى به وجداناتهم
من شعر وخلجات فيمضونها في سهولة صر داخل قوالب الفن ولوحات البيان *

ثانيا : رسالة ابن الممتر في محاسن شعر أبي تمام وسأويه :

وهي أول وثيقة نقدية تعرض لشعر أبي تمام بالنقد الموضوعي وتفسر
جلك هذا الشاعر الذي انقسم النقاد بسببه وماروا على طرفي نقيض وكان ابن الممتر
نزيهاً عن حكمه على شعر أبي تمام فلم يمتص عليه أو يستغده كما فعل غيره من
الملء بل عرض حسناته وسيئاته ونبه على أخطائه وتجاوزاته * ولا يب في أن الأسدي
أفاد قاعدة عليمية من رسالة ابن الممتر هذه فقد تحدث له الباب وبدأت لتهجسه
الذي ملكه في الموازنة بين أبي تمام والبحتري *

كان رأى ابن المعتز فى أبى تمام صريحا وواضحا فهو يعتقد أنه يلزم غايات الامامة والاحسان وذلك حكم صائب وواقى فقد كان أبوت تمام يأتى بالتمسك بالدليح الرائى فى بعض الأحيان وعندما كانت تهطل عليه سهوة الشصيح والنسوس ورا المعانى تأتى أشعاره حفيضة ملتوية تمتلئ فيها المقول وتجار الأفهام ..

يقول ابن المعتز فى بداية رسالته التى رواها صاحب البوشج :

" ربما رأيت فى تقديم بعضى أحد الأدب الدلائل على غيره الراطا بينا ناطق بسم أن أؤكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلة فى الشعر لما يدعوه اليه من اللجام نأما قولنا فيه فانه بلغ غايات الامامة والاحسان فكاننا محمدا قوله :
ان كان وجهك لى تترى محاسنه فان فعلك لى تترى مساوئنه " (١)

ومضى ابن المعتز يسرد التآخذ التى أخذها هو وغيره من العلماء على عمر أبى تمام ومن تدخل فى الأبواب التالية :

(١) أخلا ممنة : ومن أشلتها قوله فى قصيدة :

تكاد عداياهم يجن بنوهم
إذا لم يصفوها بخشبة طالسب
يقول ابن المعتز " ولم يجن بنوهم عداياهم انتالما فلعليب ؟ يتدنى بالجسود
وسترج " (٢)

وقوله :

" لو لم يمت بين تأطراف الرماح إذا لمت اذ لم يمت من شدة الحزن
فكانه لو نمر أيضا وظفر كان يموت من النهم حيث لم يضر وتقتل فهذا معنى
لم يسهقه أحد الى الخطأ فى مثله " (٣)

(٢) استعارات بعيدة :

ومن أشلتها قوله :

" لو لم تدارك من المجد مذ زمن

بالجود والبأس كان الجود قد خرفنا

نقله : " شش الجود " من البديع القيت " (١)

(١) البوشج ص ٢٧٠ (٢) البوشج ص ٢٧٠ (٣) المرجع ص ٢٢٣

(٤) المرجع ص ٢٧١ (٥) المرجع ص ٢٧٢

قوله :

" كتاب رأسى وما رأيت مشيب الرأس الا من قبل مشيب الفؤاد
 لما سبحانه الله ما أقبح مشيب الفؤاد وما كان أجراً على الاسماع في هذا وأمثاله " (١)

استعمال القريب :

(٢)

يقول ابن المعتز من أبي تمام : " ومن استعماله القريب الذي كان يستشعر
 مثله من المجاز رؤية قوله وهو يصف ثوبه :

تفسروا بأسفله رويلا فضيلة وتبين أعلام كتابنا المؤلف

أراد مطلقا . ويقال للإنسان يقرأ الأرض اذا عار فيها ينظر حالها وأمرها والرسول
 يجمع ريل وهو نبات يسميه يرد الليل وتداءه فهبت بالسر . والكاس موطئ
 الوحش من الظلمة والبقر تستظل فيه . . . ولم تعب عن هذه الألفاظ شيئا غير
 أنها من القريب الممدود عنه وليس يحسن من المحدثين استعمالها لأنها
 لا تجاور بأمثالها ولا تنبئ أشكالها فكانها تشكو القرية في كلامهم " (٢)

وهكذا نرى أن ابن المعتز ليس نواحي التصور في شعر أبي تمام ونبه على
 أخطائه التي أرقم فيها قومه العديد وراء النماذج واستماراته القرية وألفاظه
 الحوشية . . .

ثالثا : كتاب البديع :

فيه تبرز شخصية ابن المعتز النقدية وتشمل جهوده في ميدان النقد عامة
 وهي قضية الصنعة في القرن الثالث هـ في لغة عامة . . . والكتاب يتناول قضية مهمة
 من قضايا النقد في عصر المؤلف وهو من هذه الزاوية يمد كلالا لجهود ابن المعتز
 التي صرفها لنقد أئمة المحدثين وتحليل ظواهرها واتجاهاتها . . . ويهدف ابن
 المعتز من كتابه " البديع " إلى تقرير حقيقة نقدية مهمة لها سندها من التاريخ
 وهي أن ألوان البديع التي غالى المحدثون في استعمالها كانت موجودة ومروغسة
 للقدام . ولها مواحد في أدبهم شعرا ونثرا ولكن الفرق بين بديع القدام
 وبديع المحدثين أن القدام لم يتعمدوا هذه الفنون فجاءت طبيعية لا تكلف فيها
 ولا استكراه . . . أما المحدثون فقد أنشطوا في استخدامها وولجوا الحد بجمالها

«لديهم المنهج» واختارهم المبتدأة... يقول ابن المعتز مقررًا هذه الحقيقة
 وشارحا عدده من تأليف الكتاب : « قد عدنا في أبواب كتابنا هذا بعض
 ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام
 الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي ساء المحدثون
 البديع ليحلم أن يشاروا وسعنا وأبنا نواس ومن ثقلهم (١) وذلك سبيلهم
 لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكم كثر في أشعارهم فصرنا في زمانهم حتى نحس
 بهذا الاسم فأعرب عنه ثم إن حبيب بن أوس الطائي من محدثي شافهم
 حتى غلب عليه وشعر فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض
 وتلك عظمى الانواط وشرة الأسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن العيسيت
 والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحد من قصائد من غير أن يوجد فيهما
 بيت بديع وكان يستحسن منهم إذا أتى نادرا وزداد حذوة بين الكلام المرسل
 وقد كان بعض العامة يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأثر
 ويقولون لو أن عائنا نثر أمثاله في شعره وجعل بعضها فريلا من كلامه لسمعت
 أنه زمانه وطلب على مدائمه وهذا أحد كلام سمته في هذا المعنى * (١)

وهذه الحقيقة التي بنى عليها ابن المعتز كتابه تكشف لنا أمالته فليس
 ميدان النقد وتذائمه في تقويم الاتجاها الأدبية والحكم عليها فهو على الرغم
 من انتكاه لدرسة المحدثين واعتدته بأشعارهم لم يسمع السمات على تلك
 الظاهرة المأداة التي رأها تستقرى بين عصره وعصره وخاصة في شعر أبي تمام
 ولذا وقف ابن المعتز تلك الحققة الدائمة وأعلن رأيه فيها في هذه القصيدة
 وكان لنا من ذلك هذا التحليل الواعي لقضية التذنيع وبيان موقف الأقدمين
 منها... والواقع أن تيار البديع كان أقوى من صوت ابن المعتز وأن غراء الشعراء
 والأدباء بتلك الزخارف اللغوية كان أعظم من أن تهون منه أو تكف عن
 غلوائه جهودنا قد أودعوا صالح فعاليت عشاق البديع أن يماروا كنية وفندا
 السجن والجناس والمقابلة وغيرها قصارى ما يصحون إليه غاية ما يعمدون فيه
 وتسيب كل ذلك في أن تروى الأدب العربي وأحضر وتحدد حسنه ورواه...

(١) ثقلهم : أعجمهم * وفي القاموس يقال : ثقل أباء : أشبههم

(٢) البديع : ١٨

ومنه ابن السمير في البديع شبهه بمنه في الكامل مع ما بين مؤرخي
الكتابين من تباين فف البديع يملك ابن السمير نفس المسلك الذي سار عليه
البيروني في الاحتجاج بالآية الكرسي والحديث الشريف والقول المأثور ثم أتمسك
القدماء والمحدثون على هذا الترتيب . . . وهذا التماثل بين منهج الكتابين يؤكد
تأثر ابن السمير بالبيروني وأعماله بمنهجهم كما يدل على انتباهه إلى ذهنية العلماء العرب
المتسكنين بأصول ثقافتهم والذين لم تتأثر حضارتهم بثقافات الأمم الأجنبية كما حدث
لغيرهم من العلماء أشار ابن شعبة ومطلب وقادة . .

وأبراب البديع الرئيسية التي تحدث عنها ابن الممتر خمسة هي :
 الاستشارة والتجنيس والمذاقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامي
 ويعترف ابن الممتر بعد إيراد هذه الخصة والتشيل لها - يعترف - بأنها ليست
 قائمة لكن ألوان البديع وأن فنون البديع أكبر من أن يحيط بها الخمر وليس لأحد
 أن يدعي الاطّاعة بها لأن محاسن الكلام ليست لها نهاية . . يقول ابن الممتر مقهوراً
 بهذه الحقيقة بعد حديثه عن الأبراب الخمسة المتقدمة :

* ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والعصر وحاشها كثرة لا ينحس للمالم أن يدعى الاحتاط بها حتى يتجرأ من شذوذ بعضها عن طبعه وذكره . . وأحببنا لذلك أن نكرر قواعد كتابنا للتأديين وعلم الناظر أننا اقتصرنا بالهديج على الخمسة الحسنة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا شيق في المعرفة فمن أحب أن يقتدي بنا يقتدر بالهديج على تلك الخمسة فليدس من أضاف من هذه المحاسن أو غيرها حيث إلى الهديج وذريات غير رأينا فله اختياره * (١)

ثم ذكر ابن السمير موصوفة أخرى من القانون البديعة عد منها :
الاشبات والاعتراض والرجس وحسن الفرق وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل
العارف والجهل يراد به الجد وحسن التسمين والتعريض والكناية والافراط في السفه
وحسن التشبيه ولزوم ما لا يلزم وحسن الابتداء ..

ويذكر كتاب البديع على ثقافة ابن السمير وعكس التراث الأدبي كما يدل على تمثيل النواحي لتطور البديع وأسس كل فن منها بحيث جاءت الأشعة التي ذكرها لكن نسج

متفقة مع حقيقته تمام الاتفاق واسترخية لشرطه على كثرة ما حدد المؤلف في كتابه
من أمثلة وشواهد ..

وهذه صورة من حديثه عن أحد أبواب البديع تتضح لنا منها طريقته وتتمسك
على ضحاجه .. وهو باب الاستمارة :

بدأ ابن المعتز نصرب الاستمارة بأنها استمارة الكلمة لشيء لم يعرف بها مسبقاً
من " قد عرف بها مثل لها :

ولا : من القرآن الكريم بقوله تعالى : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " .
بقوله عز من قائل : " واشتمل الرأس شيباً "

ثانياً : من الحديث الشريف بقوله عليه السلام :

" خير الناس رجل يملك بيتان لرمه كلما سمع شيعة طار إليها "

ثالثاً : من كلام الصحابة بقول علي رضي الله عنه في كتابه إلى ابن عباس وهو غاطه على
البصرة : " أرقب رقبهم وأحلل عقد الخوف عنهم " (١)

ومثلت عائشة رضي الله عنها : من كان النبي صلى الله عليه وسلم يفضل
بعض الأتياء على بعض ؟ فقالت : كان عليه ديمة . أي دائماً ..

رابعاً : من كلام حكيم العرب ومثلاثهم بقول الحجاج : " دلوني على رجل سمين الأمانة " .
يقول بعض السالحين في ذي الدنيا " دار غرمت فيها الأحزان وسكنها الشيطان
وذمها الرحمن وجربها الانسان " يقول إبراهيم النخعي : " الفكر مخ المصل " .
وقيل لأعرابي : كم أهلك ؟ قال : " أب وأم وثلاثة أولاد أنا سبيل عيشهم "

خامساً : من الشعر القديم بقول امرئ القيس :

وليل كمن البحر أرض من مد ولسه
على بأنزل الرمي ليتلبي

فقلت له لما تعلق بصلبي
وأردف أعجازاً ونا بكلكل

يقول ابن المعتز : " هذا كله من الاستمارة لأن الليل لا يلعب له ولا عجز " (٢)

سادسا : ينتقل ابن المعتز بعد ذلك فيأتى بأشعة من كلام المحدثين وأشعارهم
فيذكر من أقوال الحكماء : قول مالك بن دينار : " القلب اذا لم يكن فيه فكرة خرب "
وقول النضر لمحمد بن عمران التيمي قاضي المدينة : بلغنى أنك بهيول فقال :
والله ما أجد فى حق ولا أدوب فى باطن " (١) وقول ابن المعتز نفسه فى بعض
الكتاب :

" قد طالت عنتك أوتعالت واشتد سحرنا اليك فمافاك الله ما بك من مرض يد نساك
ولخاوتك ولا أعد منك " (٢)

فيأتى رر الأشعار فيذكر منها قول أبي نواس :

صهبا تغتر من المقبول ثباتى منها بهن سوى المهابت براحا
وقول أبي الشيبان :

رجد أرى مدرس العربيات والبول محبرة الأبيات
خفق الدهر فوقها بجناحه حين موشى بالهلى والشعيات
وقول ابن المعتز :

اسقنى الصراج فى باب النهار وأنف دى بالخند ريس المقار
نكبان الربيع يجلو عروسة وكانا من فخره فى ثمار
وقول النحاس بن الأحنف :

ولى جفون جفاها النوم فامتلت أعجاز دمع بأعناق اندم السرب

ولا يغوت ابن المعتز أن يعلق على ما فى البيت الأخير من تكلف فى التماس
والاستمارة فيقول عنه : " وهذا وأخاله من الاستمارة ما عيب من الشعر والكلام . . . وقال
عبد الله بن زياد يوما وكانت فيه لكثة : انتحوا سيفى يريد سلوه " (٢)

وعلى هذا النهج يعنى ابن المعتز فى عرض أبواب الديدج شتى نادجها فسمى
آيات الكتاب الحكيم والحديث الشريف وفى أقوال الحكماء والعمراء من القدماء والمحدثين
منها فى أثناء ذلك على ما قد يكون فى بعض النسخ من ضعف أو غلو كما أصل مسجع
بيت ابن الأحنف عبارة ابن زياد :

وكما كان كتاب الطبقات مدرا لطائفة من الأعمار الجيلة والقماند الفريسة
فكذلك الديدج يشبه السائدة الشهية التى تحفل بصنوف الأطعمة والأغذية غفيرة الآيسنة
الهليلة والحديث الجامع والحكمة الصائبة والبيت المذهب والرسالة الهلينة . وهو من السادة
الزاوية يمد أوسع بحث تطهق ظهر فى فن الديدج فى القرن الثالث . .

وايهما : النقد في مجالس الأدباء والشعراء :

لم يكن النقد في القرن الثالث وقتا على للنقاد الذين أسرنا إلى تراثهم
وناعجهم فيما تقدم فقد ظلت محافل الأدب ومجالس الشعر سدا من صنادير
النقد هيثة طليعية من بيئاته * ولا يختلف الفكر النقدي المطروح في هذه المحافل
من تيارات النقد الرئيسية التي رأيناها في مؤلفات النقاد معجهم *

وأذا كنا بدأنا بالحديث عن سمات النقد في القرن الثالث فما ذلك إلا لأن
لهم تراثا نقديا مدونا شرحوا فيه آراءهم وخبروا قضايا النقد بتوسع واستيعاب

وتمثل اهتمامات الأدباء والشعراء القديمة في تقويم مذهب الصنعة السدي
أحدث جدلا نقديا واسما واضطربت حوله الآراء كما خبرنا أيضا مسألة السرقسات
الشعرية ورفضوا للأحسن التي يجب أن تراعى في التمييز بين الصانتي الشعرية
المتشابهة * ونستطيع أن تبين من الروايات النقدية التي أثرت عن الأدباء
والشعراء في القرن الثالث أنها دارت حول الموضوعات التالية :

أ - تقويم مذهب أبي تمام :

وهو مذهب جديد على الشعر العربي حافل بالآراء الباطية والسليبيات
بما وقد كان هذا المذهب أحد البدع الشعرية التي أخذت تتجبرأ من
اهتمام الأدباء والشعراء في القرن الثالث روى صاحب الأغاني بسنده عن
محمد بن يزيد النحوي قال :

* قد بعارة بن عقيل بغداد فاجتج الناس إليه فكتبوا شعره وعمر أبيه
وهرموا عليه الأشعار فكان بعضهم : هاهنا شاعر يزعم قوم أنه أشعر الناس طسرا
مؤرم فيهم عند ذلك فقال أنشدوني قوله فأشده :

فدت تستجير الدمع	خوف نوى غد	وقاد قتادا عندها كل	مرفس
وأثدتها من غيرة الموت	أنس	مدود فراق لا صدود	تمس
فأجرى لها الاغراق دمعها	مسودا	من الدمع يجرى لرق غد	مسود
عن البدر يضيها تورده	وجهها	الى كل من لاقت	وان لم شهود

ثم قطع الممد ففان له سارة : زدنا من هذا قول تشيده وقال :

ولكني لم أحوزها جميعا ففرت به إلا بفعل ميسر
ولم تعدني الأيام نوما مكنيا ألد به إلا بنوم مشير

فقال عبارة : لله دره ؟ لقد عقد في هذا المصنى من سبقه إليه على كثرة
القوس فيه حتى لقد حُبب إلى الاغتراب به . فأنشده . . .

وإلى مقام المرء في الحى مخلق لذي حاجته فاقترب تتجسس
فأني رأيت الشمس زدت محبة إلى الناس أن ليحت عليهم بسرمد

فقال عبارة : كمن والله لمن كان الشعر بجملة اللفظ وحسن المعاني
وأطراد المراد واتسان الكلام فان صاحبكم هذا أشعر الناس * (١)

ومن محمد بن أبي كامل قال :

* شهدت أبا تمام الطائي في منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره
وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال له إسحاق : يا فتى ما أشد ما تكثر علمي
نفسك . . . يعني أنه لا يملك مالك الشعر قبله وأنا يحتق من نفسي * (٢)

ب - المواقف الشعرية :

وقد ساد الاعتقاد بين جماعة الأدباء والشعراء أن الشاعر الذي يأخذ
بمبنى سبقه إليه شاعر آخر لابد أن يضيف إلى المصنى جديدا أو يحدث
في الصياغة جمالا يرتفع بها عن صياغة الشاعر المتقدم وإن لم يفعل بحيث
من ذلك فهو مقصور وشعره سقيم بطرح وقد تأكدت هذه النظرية في نقد الأدباء
والشعراء وتغريباتهم ومناظراتهم * . . . روى صاحب الأغاني عن عبد الله العهلبي
قال : كنا في حلقة دعي فجرى ذكر أبي تمام فقال دعي : كان يتبع معاني
فيأخذها فقال له رجل في مجلسه . . . وأي شيء من ذلك أعزك الله ؟
قال قولي :

وإن امرأ أمدى إلى شافع إليه ويرجو الشكر مني لأرحم
شفيحك فاعكر في الحوائج أنه يصونك عن مكروهها وهو يخلص

(١) لغاني ج ١٦ ص ٢٨٥

(٢) الموشح ص ٥٠٢

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيت بين يديك خلوة عطاء الله ولقيت بين يدي من سوء العطاء
وإذا امرؤ أمدى إليك عنقه من جاشبه فكانها من بالسه

فقال له الرجل : أحسن والله . . فقال : كذبت قبحك الله . فقال : والله

لئن كان أخذته منك لقد أجاد فصار أولى به منك وإن كنت أخذته منه لما بلغت
بلغه فقلوب دعين وأشرف* (١)

ج - الموازنة بين الشعراء :

ومن دلائل ارتفاع الفكر النقدي في بيئة العمراء والأدباء أدراكهم لطبيعة

المذاهب الشعرية وتمكنهم من التمييز بين اتجاهات الشعراء وتاريخهم وذلك
جانب دقيق من جوانب النقد الأدبي في تراث القرن الثالث ما يشهد بوجوه
روى صاحب الموضح قال :

* كان أبو أحمد يحيى بن علي النجم قد تلمذ لرجلا يعرف بالمتقن
الموصى في المباس بن الأحنف والمتابي فعمل يحيى في ذلك رسالة وأنفذها
إلى علي بن عيسى لأن الكلام كان بحضرته قال الموصى وقد حضرت أنا ذلك
الجلس فكان ما خاطبه به أن قال : يا أشبل نفس المتابي قطعت يميني
على المباس بن الأحنف في الشعر ولو خاطبه بذلك مخاطب لدفعه وشكره
لأنه كان عالما لا يؤتى من معرفة بالشعر ولو أرا عالما بالشعر قطعت يميني
المباس بن الأحنف والمتابي فضلا عند تقديم المتابي عليه وفي شعر ذلك
قلعة وجسارة وشعر عذا في فن واحد وهو الغزل . فأكثر فيه وأحسن وقد
افتن المتابي فلم يخف في شيء منه عا وعفاه به وإن من شعر قصير
المتابي لقصيدته التي يمدح فيها الرعد وأولها :

يا ليلة لي بحوارين سائسة حتى تكلم في الصبح المصافير

فقال فيها :

في ماقى انقباض من جفونهم وفي الجفون عن الآفاق تفسير

وعذا بيت لأخذه من قول بهار الذي أحسن فيه غاية الاحسان

* وهو قوله :

جئت حينئذ عن التفسير حتى
 لمسخه المتأني على أن يشارا قد أخذ من قور جميل ..
 كان المحب قصير الجنس لم يطل المهام ولم تقصر

الا أن يشارا قد أحسن في أخذه ولم يبلغ جيلا وجاء هذا إلى الحنى
 وقد تعاروه عامران محبتان مقدمان وأحسنا فيه فتأزعاها إياه ناسا .. وحقق
 من أخذ معنى وقد سبق إليه أن يصنع أجود من عنمة السابق إليه أو يزيد
 فيه عليه حتى يستحقه فإذا قصر عنه فإنه من معيب بالسرقة مذموم
 بالتقصير (١)

د - الأخطاء الممنوعة :

وهو باب تقليدى من أبواب النقد العربى وقد رأينا أمثلة له فى نقد
 النقاد وتعليقاتهم فى مختلف المصور ومن أمثله فى هذا القرن ما يرويه صاحب
 الموشح بقور :

" ذكر أحمد بن محمد بن ناصح أنه قال لأبي تمام : أخبرنى عن قولك :
 كأن بنى نيهان يوم وفاته .. نجوى ساء .. خر من بينها البدر

أهت أن تصف حسن حالهم بعدد أو سوء حالهم ؟ قال : لا والله إلا سوء
 حالهم لأن قمرهم قد ذهب .. فقلت : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون
 إلا إذا لم يكن معها قمر ألا قلت كما قال أبو يعقوب الخريزى :

بقية أقطار من الممر لو خبت لظلت مسد فى الدجى تتكع
 إذا قمرنها تفسر أو خبا بدا قمر من جانب الأفق يلوح

قال : فوجى وركت " (٢)

ه - الإعجاب بالمنمة :

وكما كان لذهب المنمة خصومه وحقوقه كان له أنصاره والمعجبون به
 وهذه رواية توضح ذلك : روى صاحب الأغانى : " أن محمد بن موسى النجم
 كان يعجبه التقسيم فى الشعر ويشغف بهجيد الأشعار فكان ما يعجبه يسأل
 نصيب ه

(١) الموشح ع ٤٤٦ ويلاحظ فلاقة ما جاء فى هذه الرواية عن السرقات الشعرية بالنقطة السابقة

(٢) الموشح ع ٤٤٦

أيا بمن ليلى كيف تجمع سلمها
لها مثل ذنبى اليوم ان كنت مذنبها
وخرى وخيما بيننا هبت الحسرب
ولا ذنب لى ان كان ليس لها ذنب

قان : وكان محمد بن موسى ينشد كثيرا للمباس بن الأحنف :
ألا ليت ذات الخان تلقى من الهوى
عبر الذى القى فيلتقم الشجب
إذا رضى لم يهتق ذلك الرضا
لعلنى به أن سوف يقبمه المتب
وأبكى إذا ما أذنت خروف مدججا
وأسالها مرثياتها ولها الذنب
والكم صر وحكم قلبي
وعانكم صد وملكم حدسرب

وقول ما أحسن ما قسم حتى يمل بارز كل شيء غمد والله ان هذا لأحسن
من تعميمات اقليدس (١)

ونلاحظ بصفة عامة على تعليقات الأدباء والشعراء أنها تعبر مؤازرة
للشاعر النقدى الذى بدأته بيعة البصرة ولم تشذ عنها فى شيء سوى نوعىة
الاعجاب بالمنصة فهي عالم ليس له نظير في تلك المدرسة البصرية ..

الفصل الثاني

جهود المدرسة البصرية في نشأة النقد :

عرشنا في الفصول السابقة من هذه الدراسة لأنماط الفكر النقدي عند العرب منذ أشرعهم، كلاً، فيه وتبيننا أطوار النقد في عصر ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثاني وأشرنا إلى خصائص كل طور منها ثم هدانا القول في التيارات النقدية في القرن الثالث وخصبة خاصة في بيئة البصرة التي تخن فيها رواده المبرزون وجهابذته المتقدمون ...

وفي هذا الفصل نمود فتقو جهود المدرسة البصرية في ميدان البحث - النقدي وتعرف على أشرها في وضع قواعده وتحرير قضاياها ومحت مسائله وتيسير قوانينه وتحديد أسسه وتوضيح أصوله ..

وإذا كنا نقول أن المدرسة البصرية قد أسهمت في نشأة الفن النقدي عند العرب فليس معنى ذلك أن نزع خلق الأدب العربي من أية توجهات نقدية هي بالضرورة تلاحقه بل وقد سبقه إذ لا وجود له بدونها - وإنما نقصد أن النقد في مدرسة البصرة عارفاً متميزاً وظل له أصوله وقوانينه وأصبح له أساتذة تواروا على بعده وتمسكوا في تحليل ظواهره والتحليل لأحكامه ..

وحتى يكون حديثنا في هذه المسألة واضحاً وبعيداً نستطيع أن نضع أمام القارئ مجموعة من الدقائق المهمة التي توضح على غرورها الأبعاد الحقيقية لجهود المدرسة النقدية في البصرة وهي :

أولاً : نجحت الدراسات النقدية في البصرة ودخلت طوراً جديداً أهم سماته استيعاب الفن الأدبي من كافة جوانبه والتسقي في بحث ظواهره ورصد تياراته وتبني ظل المدرسة البصرية استطاع النقد العربي أن يتجاوز إطار التحليل الجزئي للنصوص والتعليق البحت على الأسماء .. استطاع أن يتجاوز ذلك وما أشبهه إلى بحث القضايا العامة التي تتعلق بالفن الأدبي من أساسه وذلك ميزة لا تنهيا لأي من تيارات العلم أو الفن إلا في إيمان ارتقاء الفكر في الأمة ولجهاً مساهمة في مرحلة متقدمة من الحضارة والادراك ..

وصلا شك فيه أن ازدهار الثقافة اللغوية والأدبية في بيئة البصرة استتبع
ارتفاع الفكر النقدي وثرائه وذلك لتتوثر الثقافات الأدبية التي أتاحها لها
تلك البيئة للنقاد ما يملأ لنظراتهم في الأدب طابعا متيزا وملكها قوما ..

ولمن الخاصية الأساسية التي تميز نقد المدرسة البصرية عما سبقه
هي أندياء وليد الثقافة المستنيرة والالهام الواعي بأبعاد التراث الأدبي
فالنقد في هذه البيئة ينبثق من الذوق والثقافة يلتقي فيه الفكر المتأمل بالحس
المتذوق والجميل السليم ..

ومضى على النقد لينا قبل القرن الثالث أنه صادر عن الذوق والطبع
في معظم الأحيان .. أما نقد المدرسة البصرية فهو نتاج الذوق الذي عفا عنه
المعرفة وشجنته الدرة ودعته الثقافة .. هذا إذا استثنينا بيئة العراق في
القرن الثاني الهجري إذ هي البيئة الوحيدة التي بدت في تقدمها عتس
الثقافة اللغوية التي ازدهرت في ربوعها وكانت مناطها في أحكامها الأدبية
وتطبيقاتها النقدية .. ومدرسة البصرة امتداد طبيعي لهذه البيئة ونسبي
التي تعهدت نزعها تلك هدرتها وزجت الذوق بالطبع والسليقة بالمعرفة
والثقافة .. وحقت بذلك تحولا أساسيا في مسار التاريخ النقدي عند العرب ..

ثانيا : ومن أبرز ما يميز المدرسة النقدية في البصرة أنها خلفت أول وأهم الآثار النقدية
المدونة في تاريخ الفكر النقدي عند العرب وكان لها فضل تسجيل خصائص
أدبها وتشق قضاياه وتبني حركته .. والباحثون في تاريخ النقد العربي مجمعون
على أن مدرسة البصرة أخرجت أول المؤلفات النقدية المدونة في تراثنا وأغلبهم
على أن "طبقات الشعراء" لابن سلام هو أول كتاب نقدي في تراثنا (١) ومضمون
يعد كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي أول الآثار النقدية المدونة (٢) وليس
أية حاشا للكاتبان جميعا من نتاج المدرسة البصرية وكلاهما يشهد بمراقبة تلك
المدرسة وريادتها في هذا المجال ..

(١) هذا رأي أكثر الباحثين ومنه على ميسر العشان الدكتور محمد مندور في كتابه النقد
المتنهي عند العرب ..

(٢) هذا رأي الأستاذين محمد عبد المنعم خفاجي وطه الزيني وقد أثبتاه في مقدمة
تحقيقهما لفحولة الشعراء الذي أخرنا إليه في بحثنا للأصمعي ..

هذه المؤلفات النقدية التي حفلت بها بيئة البصرة تفيدنا في الكشف عن تاحية نهى دلائل أمالة البحث النقدي في تلك البيئة وشاهد على نضج الفكر النقدي واستوائه .. وقد أسرنا ونحن نحلل مؤلفات أعلام النقاد البصريين إلى ملامح الجدة في التفكير النقدي في كل منها وحرصنا للنظريات النقدية التي انبثقت بتقريبها عن نقد والتي سجلتها في مؤلفه .. فلاحظنا أن ابن سلام الجعفي كان أول من عرض لقضية تحقيق التراث العربي وسط القبول في مظاهر الاضطراب في الرواية موضحا دوافعه وأسبابه .. وانفرد ابن سلام أيضا بنظام التمايزات الذي عتف النصارى على أساسه ووضعهم في مراتب متفاوتة نافلوا إلى مجموعة من المقاييس عددا هو أساسا للتفاضل بينهم ..

ولاحظنا أن الراجح كان أول من أبرز الحقيقة النقدية في بحثه وأنسبه قسما في فهم تراث الأدب وحقائق الفن وتوكل لنا في مؤلفاته مجموعة من النماذج النقدية المتكاملة .. وحرص لنقد الكتابة والخطابة بالإضافة إلى تفسير النصوص الذي كان وحده مثار اهتمام من سبقه من النقاد .. وأسرى إلى أنسه وضع أصول نظرية الاعجاز النحوي التي تلتقيها الباحثون من بعده .. ولقد أسسوا في دراستها وهي تعتمد على إبراز ما في أسلوب القرآن من العجز البديع وتفسير ذلك على ضوء الأساليب السريية التي دبر عليها العرب في بيانهم ومنطقهم ..

وهي بحثنا لتراث الجرد أوضحنا أنه نزع إلى الشطرين الجزئي للذوق وتحقيق في البحث اللغوي والنحوي واستبان لنا مقدار ما في ذلك البحث من قيمة في ميدان النقد وكيف استغنى عنه الجرد في تحقيق الآثار الأدبية وتوجيهها والتفاضل بينها ..

كانت هذه المؤلفات النقدية التي خلفتها مدرسة البصرة - ولا تزال - من أهم الوثائق التاريخية التي عالجت مسائل النقد الأدبي في تراث العرب وسجلت فيها نهى نضج نقدية ناضجة في تاريخنا ومن طريق هذه المؤلفات تبرزت قضايا النقد هزمت وأصحة السمات والحدود .. والدليل على ذلك أن النقاد الذين ظهرتوا في القرن الثالث وابعده تأثروا تأثرا واضحا بأراء النقاد البصريين المدونة في مؤلفاتهم .. ولعلنا لاحظنا التشابه الطموح بين محتويات كتاب النصارى والنصارى لابن قتيبة وما اعتملت عليه مؤلفات النقاد البصريين

كاتبين سلام والباحظ... وقد أشرنا الى مظاهر هذا التأثير فيما سبق وأشرنا أيضا الى تأثير ابن المعتز بآراء المدرسة البصرية والمحن كذات الى تأثير الأسمسي في مسألة الموازنات الأدبية بما غره الجرد في الكائن ..

إذا كانت المدرسة البصرية أو بيئة ثقافية تتمهد النشأة الحقيقية للنقد المبري ونسبهم اسهاما فعالا في وضع قواعد وأراء مفاهيمية ..

ثالثا : تناولت مدرسة البصرة فن الأدب بالبحث الموضوعي المستوعب ولم تدع قضية من قضايا الأساسية الا محصتها وضممتها على ساط البحث التأمل والتفكير العظيم وحتى تتضح حقيقة ما أسهمت به مدرسة البصرة في هذا المجال نصرنا أبرز القضايا النقدية التي أثيرت في أوساط تلك المدرسة وكان لها الفضل في استنباط القوانين التي تحكمها والتنبيه على الأسس المنهجية يجب أن تراعى بها أنها .. من هذه القضايا :

(١) تحقيق التراث :

وهي أكثر قضايا الأدب المبري تعقيدا وقد واجهها النقاد المبرسون وخطوا الى مغالرها ونهبوا عليها .. وابن سلام أول من بدء هذه القضية بحثا موضوعيا عندما قرر في مفتح كتابه "مطبقات الشعراء" أنه في الشعر المبري مضمون كبير ... الخ .. وفي بحثه ظاهرة اقتسام الشعر هذا كشمس دوالها من حياة المبري السياسية والفكرية ووقف ابن سلام يدافع عن المبري القديم ويؤكد عنه ما هو دغين صنوع وساق على ذلك الحجج القوية والأدلة الدامغة .. فدفع ما أثبتته محمد بن اسحاق في سيره وخازنه ما هو مشوب الى القبائل البائدة .. وفيه على ما وضعت انبثاق المبرية في صدر الامم لالشكر والانتشار بدافع العصبية وذلك عندما راجعت تراثها المبري فوجدته غشيا لا يثبت قدسية ولا يدن على سابقه ، وأشار ابن سلام أيضا الى عيب الرواة واستهتارهم وما أصاب رواية الشعر على أيديهم من زيف وانقراض (١)

في حديثنا عن تراث الجاحظ عرضنا صورة لجهود في قضية التوليد والوضع ورأينا كيف فطن الى أن من العلماء من كان يحلو له أن يسوق الخبر الذي يرويه عن المبري في غالب الشعر أو الرجز لينفي عليه طابع الحقيقة ويدخله

(١) سبق بحث هذا الموضوع في رسالتنا هذه ص ٢٢٠ واجدها ..

ومن السامع أنه صحيح .. وحمل الجاحظ بعض ما لا يقبله العقل من التفسير القديم على السبيل واجتهد في تخريب كثير من الشان الشعرية التي جسمه الى ذكرها سياق الحديث في كتابه " الحيران " ولم يقتصر نظر الجاحظ في هذه القضية على الشعر بل رأينا ينظر في فنون الأدب الأخرى بحسب ما يحققه وقد حققنا تعليقه الذي تذكر فيه في الخطبة المضممة الى مخطوطة والتي لاحظ الجاحظ أنها لا تتفق مع ما عرف من ميله ولطيفه ..

ولاشك أن هذا البحث الناقص في قضية تحقيق التراث جديد على الأدب العربي ويعد بداية لمؤلفين من أشرار النقد وهو ظهور البحث المنهجي والتحليل المستوفي وذلك ما نقصده بهتأة النقد ..

(٢) الموازنات الأدبية :

ومن من أدام ما أسهمت به مدرسة البصرة في مجال النقد وتمت مساهمة الفكر النقدي الناضج بها ، لأن هذا اللون من البحث النقدي كما سبق أن أشرنا من أدق المايير النقدية وأصدقها في تصوير ذوق الناقد وثقافته وسير ملكسته النقدية وحسه النقي .. والموازنات الأدبية تتطلب ثقافة عميقة واطلاع واسع على نتاج الأدباء والعصر حتى يتمكن الناقد الفاضل بين هذه النماذج وتحديد أجودها وأحقها بالنقد .. وقد كانت البيئة البصرية كما هيبت في أن أنحنا صدرا فريدا للثقافة الأدبية إذ كانت قوامة عليها وكانت هي التي نشرتها فيما جاورها من الحواضر والأصوار ..

وأعدهم النقاد البصريين الذين درستم وحملنا آثارهم كانوا في جملتهم نساء فذة في القصور على تراث العرب والآباء بأديهم ومعارفهم وثانهمهم .. ولعلنا على ذكرها كان عليه أبو سعيد الأرمي من خبرة بالسترات الأدبية واستجاب لاشين له لأشعار الأعصر وأخبارهم وتوارد الأعراب وأقاربهم .. ولعلنا على ذكر أيها الثقافة أبي طهوان الجاحظ والتي كانت جازال مضرب الأمثال وكذلك العار بالنسبة لابن سلام والبرد ..

عندما ذكر يحيى البرمكي أن أحسن الناس تشبيهاً الناهضة في قوله :
 نظرت اليك بحاجة لم تقضها
 نظرت العقيم إلى وجوه المصروع

في قوله :

لأنك كالليل الذي لا يمد ركبي
 وإن قلت أن العنتاى عندك واسع

في قوله :

من وحش وجرة عوى أروع
 فلا يرى الصخر كيف المقل الفرد

قال الأعمى : أما تشبيهه مرعى الطرف فحسن إلا أنه دجته بذكر المصلحة
 وتشبيهه المرأة بالمليح وأحسن منه قول عدى بن الرقاع المأمل :

وأنتها بمن النساء أثارها
 عينية أخور من جأدر جاسم
 وستان أقصد النعام فترت

في عينه سنة طيس بنائس

.....

في الفصل الذي عرضنا فيه لقراءات الصرد النقدي وقفنا عند بعض
 للموازنات الأدبية وتمررنا على الأسس التي وضعها لها وفي :

الاتفاق في القرن : أي أن يكون الغرض الذي قيل فيه الأثران
 الأدبيان واحداً فلا وجه للموازنة بين وصف فذل أو بين مديح وفخر . . يقول
 في الكاين :

وقد نض نصيب على الفرزدق في موقفه عند سليمان بن عبد الملك
 وذلك أسهما :

حضرا فقال سليمان للفرزدق أنت عدني وإنما أراد أن يثمه مدحا له فأثمه :
 وركب كأن الريح تطلب عند حسم
 لها شرة من جذعها بالعصا شبيب
 سبوا يخطون الريح وليس تلقى
 إلى شبيب الأكوار ذات الحفا شبيب
 إذا أنسوا نارا يقولون ليثها
 وقد غصرت أيديهم نارا فالحسب
 فأعزى سليمان كالمغضب فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ألا أنشدك في رويها
 ما تملك لا يتضح منها فقال : هات أثمه :

أقول لركب صادرين وأثمه
 قفا ذات أوائل يولاك قارب
 قفا خبروني عن سليمان أنسى
 لمروحه من أن ودان وطالب
 فعدجوا فأنثوا بالذي أنت أهله
 ولو سكتوا أثمت عليك الحفا شبيب

وهذا في باب المدح حسن وتجاوز ويتدع لم يمتدح إليه وليس
شعر نصيب هذا الذي ذكرناه في المدح بأجود من قول الفرزدق في الفخر
وانما يفاضل بين النخبين اذا تناسبا (١)

قد أشرنا الى أن هذين الشرطين اللذين شروهما المبرد للموازنة
الأدبية بعد أن من أهم أسسها لأن الموازنة لا تكون إلا بين التقاطعين
والمتشابهين وأشرنا أيضا الى أن الآسدي صاحب "الموازنة" قد أثار عسرين
البيادى التي رسمها المبرد للموازنة الأدبية وإن كان قد مرها على الشاعر
وميق نطاقها حيث انحصر فيها بالانغاف الى ماحوطه المبرد الاتفاق في الوزن
والقفية ودراب القافية إل ..

وهذا التعريف الذي وضعه المبرد لأسس الموازنة الأدبية أصبحت
بذرة المسألة واضحة المعالم أمام النقاد والتأديين وهذه الايضاحات
والتوجيهات الصريحة أصبحت الدراسة البصرية رائدة فن النقد وواضحة أصولها
وهادئة سيرتها ..

(١) السرقات الشعرية :

وليس لون من البحث الموضوعي الذي تبرز به الدراسة النقدية في البصرة
ويستمد الحديث عن السرقات الشعرية على المحصول الأدبي للنقاد وقد ارتسب
على التمييز بين مختلف الصانين والتصق في فهمها ثم عو يمتد قبل ذلك على
نقل النقاد للتأنيح الأدبي ليتمنى له متابعة المعنى في تسلسله التاريخي
ويلاحظ ما يطرأ عليه من تغيير من حيث ميلاته أو إضافة ما يزيد في طرافته وحسنه

وقد ذكرنا في بحثنا للمبرد أن مسألة السرقات الشعرية كانت إحدى
دعائم نهجه التحليلي في دراسة النصوص الأدبية إذ كان لا يفتره ويوظف
الأثر الأخرى أن يشير الى ما يرى أن يكون قيل في معناه من أن أشعار
مقتبها الياء في مختلف الأمثلة والسواحي في الباب الذي عقدم في التامس
واعتارفه أشعارا للمحدثين توسع في بيان ما فيها من سرقات وهذا عسرين
ما قاله المبرد في الباب المشار اليه :

أورد البيهقي التاليين وهما المتنبي يذكر ابننا له مات يقول :
 أضحت بخدي المدمع ريسـور أفا عليك وفي الفؤاد كـسـور
 والمهر يحد في المصائب كلـهما ألا عليك فانه مذـسـور

ثم طلق عليهما بقوله :

" وأحسب أن حببا الداعي مع هذا فاسترقه في بيتين أحدهما غزله في أدريس
 ابن بدر الشامي :

دمع أهباب دأى الحزن الضعيف نوس منا عن قلوب تقطـر دمع
 وقد كان يدعى لابن المير - أرمـا فأصبح يدعى حازما حين يجزع

والآخر غزله :

قالوا الرحيم لما شككت بأنـها نفى عن الدنيا تريد رحيمـلا
 المير أجمل غير أن قلـسـدا في الحب أخرى أن يكون جيمـلا (١)

(٤) نقد الكتابة والخطابة :

وقد كانت اهتمامات المتأدبين قبل منقبة على الفن المصري الذي كانت
 له الهيمنة والسيادة على ماعداء من الفنون .. وفي القرن الثالث ارتقت الكتابة
 الفنية وزاحت السحر وأصبحت مقدسة عليه في بعض الأحيان .. وقد ألحنا
 إلى أن الجاهل اهتم بكس من الكتابة والخطابة وكانت له فيهما نظرات نقدية
 صافية .. وذكرنا أن لاعتقاده بهذين الفئتين دوافع وأسباب فبالنسبة للكتابة
 أوردنا إلى أنها كانت صنعة التي حذقها واستلذ أزمتها ومن التي ردت عنه
 وأوجلتها إلى ذرى المجد والشهرة .. وأما الخطابة فقد كانت إحدى مآثر
 العرب الأدبية التي جعل منها الباحث حجة قوية دليلا ناصحا على عيباتهم
 القوية وطمعهم الأصيل حينما شرع يدافع عنهم في " البيان والتبيين " وسيط
 اللثام من غزوات التهمة ودعاواتهم الباطلة ..

(٥) القديم والحديث :

لم يكن النشاط النقدي في مدرسة البصرة موبها إلى الأدب القديم
 فحسب بل استند ليشيد أدب الحديثين وتاريخ تياراته وتطور مآلحه ومصرف

على سبيل المثال * وقد رأينا موقف الأسماء من عصر المحدثين وقد وقع آثارهم
ولا حثنا تأثره بالوسط الهندى بعد أن انتقل إليه وسجلنا أعجابه بهشت او
رأى نواص وثناء عليها * *

وعرفنا أيضا موقف الباحثين من العصر المحدثين وأثبتنا مقالة عن
القديم والمحدث وألصقا على نظرية المحدثين إلى كل منهما * * رأينا في تسويات
السرور اعتمادا ملحوظا بأدب المحدثين الذى كان له مكان بارز في مؤلفاتهم
"الكاس" والمحا إلى إدارته القديمة حول قضية القديم والمحدث وتأكيد
على حقيقة أنه ليس لقدم المحدث فضل الناقول ولا لحدثان عهد يستقيم المصير
ولكن يعطى كل ما يستحق * (١)

تصحيح مسار الأدب :

كانت المدرسة البصرية هي حامية الأدب الرفيع القوام على تقاليد
وموسم الباحثة عن أهداف ومبادئ الرائدة لحركته الذاتية عن حياته
ولقد قامت تلك المدرسة الشعرية عن أصول الفن والمهدين لكاتبه السامية
وقد لبنا هذه الغاية في تراث الباحثين التقدي عندما عرضنا لرأيه في عصر
الديج وحطته على أسبق والتفاني اللذين يستحقان فيه * * فقد دعا الباحث
إلى أن يكون الديج عادرا عن اقتناع حقيقى واحساس صادق وحيل المدحجين
مسئولة امتحان هذا الباب المهم من أبواب الشعر العربى فأعلن أن من يشجب
الامر الكاذب بعد شريك له في الاساءة إلى الفن وميناله على ذلك الخطأ
الرسى يقوى :

* وغير الديج ما وافق جمال المدح وأمدى الصفات مشاكل مذاهب
المصروف وشهد له أصل النجاة والخير المتأخر متى غالف هذه القضية
وبنايب الحقيقة غمار المدح ولم ينش السدج * * * ومن قبل لنفسه مدحها
لا يعرف به كان كمدج نفسه ومن أتاب الكذابين على كذبهم كان شريكهم
في أثمهم وشقيقتهم في سخطهم من كان المحتجب لكبره المحتمل لوزره ان كسان
الشجب عليه والدافى إليه * (٢)

(٧) التحليل للظواهر والأحكام :

برزت في أوساط المدرسة النقدية في البصرة نزعة التحليل للظواهر الأدبية وتحليل القضايا وتوجيه الأحكام وهذه الأمور من أديم خصائص المصطلح النقدي المتنامي وكما كانت الأحكام النقدية مطلقة وبالأروحة كانت دليلاً على موضوعية البحث النقدي ومنهجية ..

وقد لفتنا هذه النزعة بوضوح في ترات الجاحظ وأوضحنا أنها أساسية من حيث نتائجها الفكرية كلها .. ومن موانع ذلك تمليقه على البيت المنسوب إلى النابغة وهو :

فأنتيت الأمانة لم تخفها ..
كذلك كان نوح لا يخشون
بقوله :

" وليس لهذا الكلام وجه وإنما ذلك كتلبيح كان داود لا يخشون وكذا لم يكن
كان نوح لا يخشون طبعها السلام .. وعلم أن لم يكنوا في حال من الحالات أبحاب
خيابة ولا تجوز عليهم فإن الناس إنما يخشون الله بالحق * النادر من نص الرجال
ومن جابر أسرارهم كما قالوا : عيسى بن مريم ربي الله * موسى كلم الله وإبراهيم
خليل أترحمون على الله عليه وسلم ..

ولو ذكرنا ذكر المير على البلاء فقال : كذلك كان أيوب لا يخشون كان قسراً
سحبها ولو قال كان كذلك نوح عليه السلام لا يخشون لم تكن الكلمة أعانت حقيقتها
ولو ذكر الاستعانة بتجن الخيف فقال : وكذلك كان مبراة لا يسهل وكان حاتم
لا يخشون لكان كائناً مدبرها عن جهته ولوقا : كذلك كان حاتم لا يخشون
لكان كائناً مدبرها ولكان القوس قد وقع مرقعه وإن كان حاتم لا يعرف بظلمة
الاحتساب والتس إلى الكفاة (١)

وهكذا اغتنى تحليل الجاحظ النقدي حول هذا البيت على مروج هذا
مهم من مبادئ البيان ولت الأثر إلى خاصية أساسية من خصائص العرب
في التعبير وتجاهل المعاني ..

وقد أشرنا ألبتة في دراستنا للميرد إلى النزعة التحليلية في دراسة النصوص والتي كانت أمراً معة في تراثه وأوضحنا أنه التزم مضيقاً تفسيرياً في معالجة ما عرّف له من نصوص وقطع أدبية. وألحنا إلى أهمية هذا المنهج في تاريخ البحث النقدي. وقلنا أنه من أفرق النماذج وأطولها عمراً وأن له أكبر الأثر في إرساء مفاهيم النقد في مختلف العصور ..

في تحليلنا مقدمة "طبقات الشعراء" لابن سلام لاحظنا أن مؤلفه قد كان أول باحث عربي يمثل التاريخ الأدبي وتكون له فيه زيارات عامة فقد رسم لنا مقدمة كتابه شعراً موجزاً لحياة الشعر القديم وتاريخه وهدايته وتحدث عن نزعات الشعراء واهتماماتهم ومن تنقل الشعر في القبائل وتأثير البيئات المختلفة في - السخرية وضعفاً وكثرة رقلة .. كما تم معروف مشهور ..

وجملة القول أن المدرسة البصرية كانت أبرز البيئات الثقافية التي تمهد فن - النقد في القرن الثالث الهجري بحسبانها رائدة البحث الأدبي في تاريخ النكسر العربي وقد صار النقد في تلك البيئة علماً تميزاً أثرت فيه الثقافة فأكسبت عقلاً وأماله ونقلت من حيز التأمل الذاتي والتذوق الفطري إلى حيز البحث الموضوعي والتفكير المنهجي .. وفي هذه المدرسة تميزت قنابل النقد ووضعت معالم بحث أعلام النقاد المصريين جوانب فنية وتاريخية متنوعة في التراث الأدبي وتحقروا تسياس الأدياء والشعراء بالتحليل والتنظيم وأفرقوا المسائل النقد الكتب والرسائل التي تسمى أقدم ما عرف فيه .. وكان نقاد هذه المدرسة هم أماندة النقد في القرن الثالث ورواد على مر العصور فمنهم أخذت مبادئه وأولاه وفعلهم غفرت مسائله وتميزت قضاياها وظهرت هدى ثقافتهم الواسعة وفكرهم المستنير تنبأت أشكاله واتسع مداه ..

الفصل الثالث

علاقة النقد في مدرسة الهجرة بالنقد الحديث :

لن ننهي التي يتناول اليها الباحث المتخصص من وراء دراسة لأي مسكن قضايا العلم أو الفن هي أن يكون للجهد الذي يبذله في مجال بحثه هدف يخدم المجتمع من حوله أو قيمة علمية تناف إلى الفكر الانساني وتسهم في تأليفه وإثرائه .. فمطلبة دراستنا هذه بحياتنا الأدبية ؟ وما القيمة الحقيقية التي تتلوى عليها ؟

للإجابة على الجانب الأول من هذا السؤال نقول :

إننا بحاجة إلى أن نرى حاضراً البحث الأدبي عندنا بما فيه وأن نحكم العلاقة بين النزعة الأدبية المعاصرة والرواد التي كانت معينها المتدفق ونهجها الفكري وأنه لمن الجيف وجانية القصد أن تبقى العلاقة بين تراثنا النقدي المرموق وفكرنا النقدي الحديث ونظل نركن إلى أدبيات الثقافة الغربية ونسرد دون على أسامتنا أن النقد الأدبي من العلوم الحديثة التي اقتبسها العرب من الأوربيين وأن أسلافنا لم يعرفوا النقد بمعناه الصحيح وكل ما لهم فيه لا يعد وتأملات سطحية وأفكاراً عادية جسيمة

وإذا كنا ما تزال نذكر فضل العرب على الحضارة الأوربية ونعدد جهودهم في بحوث الطب والفلسفة والفلك والرياضيات وكيف استلذوا من تراث اليونان وتخلسوا وأغافوا إليه إضافات ذات شأن ثم حظوا بذلك كله للفكر العربي وأغذوا عنهم الأوربيون فكان الأساس الراسخ لنهضتهم .. إذا كنا نفعل ذلك في ميدان البحث العلمي .. فما أجددنا أن نجر تراثنا النقدي ونبحث ونجدد نهجه لنرى .. ونجسرها بمننا غيرنا .. كيف كان للعرب نشاط نقدي يواكب النزعة الأدبية السائدة فيهم ..

والبحث عن علاقة النظريات النقدية الحديثة بتراثنا النقدي القديم كان .. ولما كان .. أحد الموضوعات التي تراودنا فكرة دروسها لما له من أهمية في إحياء تراثنا وكشف ملامح الأعمال وحقائق الحياة الكامنة فيه .. ولما كنا في أننا عندما ننفرد بمقارنة بين نقد المدرسة البهرية والنقد الحديث نكون قد خطونا خطوة على طريق تحقيق ذلك الهدف الكبير ..

ولو تأملنا قليلاً في مهمة النقد الأدبي بصفة عامة لوجدنا أنها تتلخص في
تحليل الأثر الأدبي وإبراز انتمائه المصنعية والأسلوبية التي ينفرد بها مع مقارنته
بمثالين من نتاج الأدباء الآخرين والانتباه من ذلك كله إلى تحديد موقعه بين تلك
الأثار والحكم عليه أما بالجودة وما بالرداءة .. تلك هي المخطوط الرئيسية لأي نشاط
نقدي .. فهل حققت الحركة النقدية في مدرسة البصرة هذه المهمة ؟ وما وسائلها
إلى ذلك ؟ .. ثم ما الفرق بين منهجها في النقد وسائر المحدثين فيه ؟

الحق اننا من خلال دراستنا للتراث النقدي البصري نستطيع أن نقسم
في نقدة وإلثنان أن مدرسة البصرة تعد علامة بارزة على تضح الوعي النقدي
عند العرب وأن الحركة النقدية في هذه المدرسة قد حققت أهداف النقد بدمسائه
الأشمل إذ بحث التراث الأدبي من جوانبه المختلفة وتبنت طوابعه وتياراته
وأشارت إلى خصائصه ونزعاته وعلى النقاد البصريين نتاج الأدباء شارحين ومفسرين
وأرشدوا إلى مواطن الجودة وقبحات الباطل وسهروا على أسباب الخلل ودواعي التفسر
وكانت لهم مزايرهم النقدية الجديدة .. ولقد نقدوا الموازنات والمقارنات وانتقروا إلى
تعدد أجناس ما قبل في مختلف الصناعات ..

وكانت وسائلهم إلى كل ذلك أدواقهم العربية الأصيلة وثقافتهم الأدبية الواسعة
وقد أشرنا إلى معالم النشاط الثقافي في بيئة البصرة والذي بلغ ذروته في القرون
الثالث الهجري ولقد كانت هذه الثقافة المزدهرة هي الدعامة التي بنى عليها
النقاد البصريون ذلك المرح الفكري الفاضل في تاريخ العرب ..

وناقداً الأدب إذا توفرت له الثقافة الأدبية الواسعة وكانت لديه حاسة فنية
يحتلج على تمييزها أن يتشرب أبعاد الجمال في النماذج الجيدة ومواقع الخلل في
الصورة الرديئة .. اكملت له أدوات النقد وممارستها وآرائه ونظراته في الأدب قيمة
التي تكفي لحماية المتذوقين عن خواص ضالجه وتبرز قضاياه وأعداءه وتوجيه المتأدبين
إلى وسائل الارتقاء بينهم وضع لهم المعالم وتبين أساليب الطريق ..

لما نصيب أعلام النقاد البصريين من دعامتي النقد هاتين ؟
لعلنا لا يختلف اثنان على أن مسألة التدقيق الفني أو " الحاسة الفنية " كما
كما أسميناها من المواهب الفطرية التي ترثها أساساً على القدرات الذاتية والبيئات

الفردية التي تختلف من شخص لآخر فهي أهد من أن تحدد وأوسع من أن تتوسع لها الضوابط ومن ذلك فهي لازمة للنقاد ولاغنى اه عنها .. وقد لاحظنا ونحسب نحن أن دور النقد العربي أنه امتد في مراحل الأولى على تلك الحاسة الانبساطية وهدرت عنها معظم أحكامه وان تصبح الثقافة عنسرا فيه الا في القرن الثالث الهجري وعلى الأخص في بيئة البصرة .. النقاد العرب على هذا الاساس لم يهتموا بهذه الركيزة المهمة من ركائز انهم النقدي في أية مرحلة من مراحل حياتهم الأدبية ومن ثم فإن نقاد المدرسة البصرية كانوا بتأريب أصحاب التدقيق وكانت لديهم ملكات أدبية من نوع خاص والا لما تمكنوا من التناول الأدبي ذلك النظر المتأسل الواسع ولما شهبوا إشارات وأدركوا خباياهم .. ولما بالذات نوى بن أعينهم النقاد البصريين في تلك الخاصة ناسها بظهورها تشارت من نقد لآخر .. ولقد قد لاحظنا من قبل عتمة السوية الفنية وتألفها عند الباحثين ولاحظنا أيضا بدرجة أقل عند الأسمى والبريد وأمرنا الى فمقها التنبى عند ابن سلام ..

هذا عن التدقيق الفني وسدور النقد في اسيرة عنه أما عن الثقافة فقد تهوينا لنا من خلال دراسة النشاط الثقافي في البصرة حتى القرن الثالث أنها كانت مركزا مهما للثقافة العربية وقد شهدت نشاطا علميا متجا ونبهة فكرية واحدة .. فلى هذه البيئة وضمت قواعد اللغة واجتهد علماءها في تدوين التراث الأدبي القديم الذي كان صدرا أساسيا من مصادر بحوث اللغة والقواعد وقد كان محفل السرد يدانسا خصها لعلم العرب ومعارفهم وتاريخهم وروايتهم كما كان صدرا لذلك التفسير من الثقافة الأدبية المتروكة .. وقد أمرنا الى أن هذه الخبرة من المبرقة الأدبية أتاحت للعلماء البصريين قربة الاطلاع على التراث الأدبي والتسكن من فنه المختلفة وقد ألبنا الى أن الأسمى كان يحفظ ستة عشر ألف أربعة ..

باختصار كانت هذه الثقافة المتنوعة من الطابع السيز لجهود أعلام المدرسة
المصرية في النقد والتي عددنا منهم من أجلها مدرسة نقدية ..

ولعلنا نلاحظ أن الثقافة الأدبية المستوعبة كانت وراء التراث النقدي الذي
خلفته لنا مدرسة البصرة . فأبو سعيد الأعمى أمكنه ثقافته الواسعة وخبرته
بالشعر القديم أن يقف على أبعاد ما قيل من الشعر في مختلف المسمات والأغراض
كما سبق أن ألمحنا . كما أتاحت له هذه الثقافة عقد الموازنات الأدبية وانضمام
النظر في المسمات المختلفة كما سبق أن رأينا في المجالس الأدبية التي كان
يتمدها الأعمى في بغداد .. وكانت الثقافة والخبرة بالتراث الأدبي وراء بحث
ابن سلام لطوايف الشعر العربي وتحليله لثقافته وبيئته ونقله في القبائل وأسباب كثرته
ودواعي اختلافه أدقته ..

وكانت الثقافة كذلك محور الجهد النقدي الذي أسهم به الجاحظ في الحركة
النقدية بالبصرة وقد قررنا أن ثقافته لم تقف عند علوم اللغة والأدب بل تجاوزتها
إلى غيرها من العلوم العقلية والثقافات المتنوعة .. ولذا اكتسب بحوثه النقدية
طابع العمق والبصيرة واعتدت على التحليل الفتح والحكم السليمة والرأي السرج .

وكانت الثقافة اللغوية ذات تأثير ملحوظ على بحوث البصرة النقدية وقد رأينا
كيف طوينا للحقيقة الأدبية فكانت تحليلاته اللغوية تنطوي على فهم فنية ومبنية مهمة
في مجال البحث النقدي ..

تلك إشارة موجزة إلى تسمية البحث النقدي في مدرسة البصرة لما الفرق إذا بين
النقد في تلك المدرسة والنقد الحديث ؟

قلنا ان النقد يقوم على دافعتين رئيسيتين هما : الحاسة الفنية والثقافة الأدبية
قلنا ان الحاسة الفنية جوهرية بالنسبة للممثل النقدي ولا تقوم لأى نقد بدونهما
فهي اذا مفروضة الوجود في النقاد أيا كان وفي أى زمان وجد . . ومن ثم فان الاختلاف
بين النقد القديم والحديث يأتي تبعا لاختلاف الثقافة السائدة لكل منهما لأن الثقافة
هي التي تتمركز للتفسير وتماقب عليها مؤثرات مختلفة ثم هي دائمة التجدد والتطور . .

وليس من شك في أن البحث النقدي في مدرسة المهجورة كان متأثرا الى حد كبير
بالثقافة المزدهرة في تلك البيئة . . غير أن تأثير النقد الحديث بالثقافة المعاصرة
يلوح في النص والكم تأثير النقد القديم بها . . ولوقارنا بين نوعية الثقافة التي تأثر بها
النقد القديم والأخرى التي تأثر بها النقد الحديث لوضح لنا أن النقد القديم يسم
تأثر بثقافات هي بطبيعتها وثيقة الصلة بالأدب كعلوم اللغة والشعر والرواية والتاريخ
أما النقد الحديث فقد تأثر بثقافات متنوعة وطول مختلفة وأعاد إليها أفادة من نتائج
الأبحاث المتطورة التي انتشر اليها الباحثون في العلوم الانسانية وفي الأخص بحوث
علم النفس والاجتماع والدينامي . .

ثم ان هناك خاصية أخرى تمتد جوهرية في طبيعة البحث النقدي لدى القدماء
والحديثين . . فقد كان اهتمام النقاد القدماء موجها في الأعم الأغلب الى نتائج الأدباء
فصرا وثائرين وتمحيزا لظاهره ولا يلمح وصف أبعاده وخصائصه . . أما النقاد الحديثون
فقد اتسع ميدان بحثهم ونظروا في دراسة جوانب لم يكن للقدماء عهد بها كالبصيرة
من ماعية الأدب ومن الابداع الفني وصدر الالهام عند الأدباء ومن مكونات النص الأدبي
الشكلية والمعنوية وكلها بحوث متعلقة لا تتعلق بالنتائج الأدبية مباشرة ولكنها تدور حوله وتصل
به وهي في جللتها أمور قلما تمرر لها القدماء . . وان كنا سنلاحظ أنماطا منها تسمى

تراث الجاحظ وابن سلام إلا أنها على أية حال تعد منطوية إذا ما قورنت بالبحوث
المتعمقة التي يحض بها النقد الحديث وتدخل حيزا كبيرا فيه وهي أخرى أن تدعى
" فلسفة النقد " ..

ومن هذه الفروق الأساسية بين شاطئ النقد القديم والجديد فإنا نجد أن النقاد
الأقدمين قد سبقوا إلى تقرير أسس كثير من النظريات النقدية الحديثة وكانوا عندما
يشعرون في شئ من تلك الأسس الأدبية وقوانينه يقتربون كثيرا من الفكر النقدي الحديث
وقد لاحظنا نماذج كثيرة من هذا النوع ونحن نعرض تراث المدرسة المصرية النقدية
وطول بنا القبول لواقعنا عند كل أصل نقدي وضعه القدماء لنرى كيف يتغير في النقد
الحديث ولكننا سنلج إلى أبرز الأفكار النقدية التي قررها القدماء والتي لها أهميتها
في النقد الحديث .. وسنركز أساسا على تراث المدرسة المصرية في القرن الثالث ..

- ١ -

في حديثنا عن أطوار النقد العربي في القرن الثاني ذكرنا أن من مقاييس النقد
التي استخدمها نقاد ذلك القرن في أحكامهم قياس " حق التجربة الشعرية " ^(١)
واسندنا في ذلك إلى ما قرره أبو عمرو بن العلاء في حكمة المشهور على شعر ذي الرمة
والذي يقول فيه :

" إنما شعر ذي الرمة نقط عروس تفصل عن قليل وأبصار ظاهرا لها شعر في أول شعرها
ثم تعود إلى أرواح البحر " ^(٢) وقد علق أبو سعيد الأسدي على هذا الحكم بقوله
" إن شعر ذي الرمة حلوا أول ما تسعه فإذا كثرت انشاده ضعف ولم يكن له حسن " ^(٣)

فهذا أحد نقاد القرن الثاني الهجري يقيس الشعر على نحو ما يتركه في النفس
من أثر ما يندوي عليه من قيمة ولا تستهيمه خلاصة اللفظ أو جمال الجرس أو رقة الصبغة

ولم يكن أدب خاصية تجعل الأهمر الشعري متجددا على الدوام من كثرة ما يدخله
من خواطر وأحاسيس وشاعر تأملات ..

ولمنا نؤمن أن لها صبر ومن النبلاء كان على من تأمل بفهم التجربة الشعرية
كأنه لدى النقاد المحدثين ولكنه سبقهم إلى ادراك هذا الأصل المهم من أصولها ..

- ٢ -

في دراستنا لقراء الأعمى الناقد وقفنا على كثير من الأفكار النقدية التي اقترحت
لها كثيرا من ماعيم النقد الحديث .. وقد ذكرنا أن من ماعيم النقد عند "الأصالة"
على المذهب الشعري "وعرفنا من يدل على عمق الفكر النقدي عند الأعمى ونجح الخاصة
النقدية لديه .. فهو يرى أن الشاعر البدير بالتقدمة الحقيقي بلقب الشاعر هو ذلك
الذي تكون له شخصية أدبية متميزة تكون نتاجه الشعري نطقا فريدا ينطق بالإنسانية
ومشهد ببراعة الخلق والابتكار ..

ولاشك أن النفس المتأثرة تضم بين أجناسها عالما زائرا بالشاعر والاحاسيس
والخواطر والتميمات والشاعر الذي يحذر في صوره عن احساس صادق ومثابة حقيقية
جدير بأن يظلمنا في كل تجربة من تجاربه على ما هو جديد وعجيب .. وقد فطنت
الأصمى إلى أن الشاعر الذي يحذر في صوره عن نزعة أعلية ولا يتأثر بهذه المسببات
شعري معين أو يضع نفسه في إطار مرسوم لا يحيد عنه ، هذا الشاعر يعد جديرا بالتفوق
حقيقا بوصف المتأثرة - يقول الأصمى في معرض حديثه عن كل من هشام وروان وأبيها
أشعر ليما يحكيه أروحات السجستان بقوله : "قلت للأصمى : أباشار أشعر أم مسروان ؟
قال : هشام أشعرها قلت وكيف ذاك ؟ قال : لأن مروان ملك طريقا كثر سلاكه فلم يلحق

بمن تقدمه وإن بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحد فانفرده به وأحسن فيه وهو أكرم
فنون شعر وأقوى على التصرف وأقزر وأكثر بهما وروان أخذ بهالك الأرائس * (١)

ونذره الخاصة التي فتن الأصمعي من أجلها بشارا تعد من أهم ما يطلبه النقاد
الحديث في الشعر ولقد كانت الأبيات والبدق في التمييز من أهم الهادي التي تادت
بها المدرسة النقدية المجددة في عصرنا الحديث وعلى مدرسة الديوان وقد كان أخطب
ما وجهه المقاد لشعر أحد شرقى أنه لا يسمو شخصية شاعر متميز له طابعه الخاص
وهو الحياة ولا يدن على ربح صاحبه أو نفسيته بل كن مافيه لا يعدو غروها من
الصنعة والروا من البهني .. يقول المقاد :

" في أحمد شرقى ارتاح شعر الممددة إلى ذروته انمليا وهبط شعر الشفيعية
إلى حيث لا تتبين لوحة من الملامح أو قسمة من القسمة التي يتميز بها انسان عديم
سائر الناس .. وإذا قرأت شعره كله وحاولت أن تستخرج من ثناياه انسانا اسمه
شرقى يخالف الأناس الآخرين من أبناء طبقة لأعيان العشوة عليه ولكنه قد تجسس
خلق تسويهم ما شئت من الأسماء وشرقى اسم واحد من عدة الأسماء

والفرق بين شعر شرقى وشعر الشخصية أن الشخصية تعطيك الطبيعة كمسا
تحسها هي لا كما تنظيها بالسمع والمجاورة من أبناء الناس الآخرين .. وهذه هي
الطبيعة عليها زيادة جديدة تطلبها أبدا لأن الحياة والنس على حد سواء مكلان بطلب
" الفرد " الجديد أو التوفيق الحاد وأنت حين تقرأ شعر الشخصية تقول أجل
هذه هي الطبيعة ثم تقول أجل هذا هو فلان ثم لا تسمى ملامح فلان هذا ولم طريق
الموسوعات التي يشترط فيها بسني الناس * (٢)

(١) الموضع من ٢٩١ (٢) شعراء مصر وبحثاتهم في الزميل السابع من ١٥٦ و ١٥٧
(بصرف واختصار)

وحيث المقاد على سبيل الجبين الماضي كشرقي وحافظ واسماعيل صمصاني
 وغيرهم ... ويرى فيهم التشابه المقيت حتى يغيب الى الناس في نتائجهم أنهم
 كلهم خلقوا واحدة صفت في قلوبهم يميزها النور والبر واليعزها مربي من أعزها النفوس
 أو سر من أسرار الحياة ... فهو سواسية في وصف النبي وتأييد الورود بالحمدود
 والبلابل بالقيان والأزهار بالاعتبار ما الى ذلك من الصيغ المحفوظة والصفات المعهود (١)

- ٢ -

وتربنا أيضا من شاييس النقد عند الأسمى لقياس " حرية الشاعر ولا متركسبال
 بلا قيود " وذكرنا حكمه المشهور على غير حسان بن ثابت في الجاهلية والاسلام بالاحكام
 عليه من ضعف حيث قال :

" سبق الشعر اذا أدخلته في باب الخير لان ألا ترى أن حسان بن ثابت
 كان غلا في الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره في باب الخير - من مراثي النسيبي
 صلى الله عليه وسلم وحمة ويحفر رموان الله عليها وغيرهم - لان شعره " وارتقى
 الشعر بموتريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والناخبة من صفات الديسار
 والرحس والبهجة والديج والتشبيب بالنساء وصفه الحمر والخيل والحروب والانتصار
 فاذا أدخلته في باب الخير لان " (٢)

نقد فطن الأسمى الى أن حسان حين كان مشجرا من كافة القيود قبل الاسلام
 جاء منه الشعر جيدا وانما وكذلك ابن حنابل الاسلام أيام احتدام الله وسنة
 بين فريش والأنصار فلما انتهت كلمة الحرب المسلمين بعد فتح مكة ولم يبق لشعر
 حسان من مقومات الاثارة على ضعف شعره وفت جذوة التقيد بالضح الخلق

الذي أرساه ابن الحنفية .. وما يدعم هذا انهدا النقد الذي أراد الأسمعي
أن يفروه حكمه على موليد بن ربيعة لما يروه أروحات الميسثاني بقوله
" سألت الأسمعي عنه مرة فأن لي : كان رجلا عالما كأنه يفتي عنه جسد
الشعر " (١)

وملاحظة الأسمعي هذه تذكرنا بقضية الالتزام التي أثير حولها جدل كبير في النقد
الحديث وكان الأسمعي فطن إلى أن قيمة الشعر لا تقاس بالهادي التي يدعو اليها
الرائع أو الشيء التي يفتي بها وإنما تكمن قيمته في الدلالة على حقيقة متاعه نجاة بها
يعرف له ، أحداث ..

والنقاد المحدثون مجمعون على أن الحرية يجب أن تكون مقاجة لكافة على أوسع
نطاق حتى أولئك الذين يتنادون بالالتزام نأب غاية ما يبالهون الأديب به أن يكون
مماركا بحده ومحدوره في قضايا مجتمعه وقضايا الإنسان في عصره ولا يقصر نشاطه على
التأمل في المبررات التي لا صلة لها بالواقع .. وإلى أية حال فليس من أغراضنا المصروف
في تفاصيل هذه القضية التسمية ولكننا نقدر سبق الأسمعي إلى إدراك تلك الحقيقة
الخالدة من حقائق النقد .. يقول أحد نقادنا المحدثين :

" إذا كان الأديب يفتقر فالأدب لا يفتقر ومعنى أصح أن الأديب لا يستطيع
أن يلزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها لا إذا توسل إلى ذلك بالقيم الأدبية
الرفيعة .. فالأدب لا يمكن أن يضع في راتبه العليا أديبا استخدم أديبا رخيلا أو
فنا رديفا مهما يكن معروف الموهبة الذي يهدى إليه .. فالأدب لا يضع حسان
من ثابت في حقيقة التنبه من أن حسانا دافع بشعره عن الإسلام ولم ينظم التنبه

الاداعي اكتساب المال والطمع في جوائز الدنيا * (١) يقول أيضا : * على من أن
الالتزام في الأدب على شرف غايته ومن مقدّمه دلالته على سمو الأدب هو واجبه تحسره
جماعته وعصره - لا يكافئ * الأديب في كل الأحيان من المجيب أن الأدب أو الفنون
بقياسه المعايير عن نيلها البهجة والسجود قلما يلتفت الى الدافع الكريم القائل
الى القيمة الأدبية والفنية الخالصة * (٢)

- ٤ -

وفي عرضنا لخدمة * انبثاق الشعراء * لابن سلام رأينا تحليله الموهب في طبيعة
العمل النقدي والطمعنا على بحثه المستوجب في الملكات النقدية وافتقاره * من تنسج
الخبرات الثنية لدى المعر وأن لكل عناءة أناس لهم مقدرة على معرفة أصولها وتمييز
جيدها من رديتها وفي ثنايا ذلك سبق ابن سلام الى تقرير مبدأ نقدي مهم خلاصته
أن معايير الجمال قد تتحقق في نموذجين مختلفين وتكون متساوية فيها ومع ذلك
يدرك من له ذوق متروس أن أحدهما بالغ الدرجة راجح الميزان اذا تامل عن سبب ذلك
أعيان ادليل وهو يحفظه القليل * * وهذه الحقيقة النقدية لا يزال النقد الحديث يؤمن
بها على انهم من كثر ما توصل اليه النقاد المحدثون من مقومات الجمال وسبباته * * وتدل
مقالة ابن سلام كذلك على أن النقد القديم لم يكن مهتما فقط بتمييز الجيد من الرديء بل
كان من مهامه أيضا المفاضلة بين الآثار الجيدة وتحديد أحفظها بقرينات الجيدة
وأولها بالسبق تلك مهنة دقيقة تحتاج الى ادراك أوسع ملكة أسمى لأن ادراك
نواحي التقصير أو ملامح الاجادة آمنون على الناقد من المفاضلة بين الآثار الجيدة * *
يقول ابن سلام في حديثه عن اختلاف الملكات والمواهب ومن بينها ملكة الشعر * *

(١) الامتداد تحقيق الحليم في كتابه * فن الأدب * ص ٢١٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٢١

• ولنفسه صناعة وثقافة يعرفها أدنى العلم كماثر أمتان العلم والمناجات
 منها ما تشقته المين ومنها ما تشقته الأذن ومنها ما تشقته اليد ومنها ما تشقته
 اللسان •• من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون العناية من يصره
 من ذلك الجبهة بالدخار والدردم لا تعرف جودتهما بلون ولا من ولا طراز ولا موسم
 ولا صفة ويعرفه الشاهد عند العناية فيعرف بهرجها وزايفها وشرقيها •• وكذلك يصر
 الرقيق شحوف البارية فيقال : ناصمة اللون نقة الثمر حنة العين جيدة التهود
 غريفة اللسان تكون في هذه الصفة ستة دينار ومئتي دينار وتكون أخرى بالسف
 دينار وأكثر ولا يجد واصفها بهذا على هذه الصفة ••••• وكان للرجل والبراة نفسى
 القراءة والكتابة : أنه لندى للموت والخلق بل الموت طول النفس صيب اللحن
 ويصف الآخر بهذه الصفة ويثبها من يمد يصر ذلك العلماء عند العناية
 والاستماع له بلا صفة ينشئ اليها ولا علم يعرف عليه • (١)

يقول الأستاذ عباس العقاد حول هذا المعنى :

••••• تعرف السعر الزائف من السعر الصحيح ؟ سؤال جوابه عندى كجواب
 من يسان كيف تميز بين شروب الاحساس ؟ فالاحساس القهم الباطل موجود ينعى به
 أو ينفى أناس كثيرون •• والسعر الجديد الرخيص موجود كذلك يقوله الصراة وقبائل
 الفارثون ولكن التمييز بين احاسين كالتمييز بين شربين أمر يرجع الى شخص المميز
 ومكانه وأحواله وما انما له وليس الى قلعة مرسومة ومخرطة كالصورة الرياضية التى
 لا تختلف بين عارف ومارفح والتعليم فى هذا الأمر حظه الذى لا يفكر وأثره السبى
 لا يذهب سدى • فأتت تستطيع أن تعرف الأثان وتبين للشعالم الحق الجيد والمثل
 الردى فيهم عنك ما يفهم ويستمين بالأثان على القياس والمقابلة •• ولكنك لا تستطيع
 متته حسه الى حد يختلف فيه نظره وتترك ويتعاد فيه حكمه وحكمك ولن تستطيع
 أن تعلمه كل وسائل احساسك بالحياة •• فان هذا يحتل الى خلق جديد وذلك كهذا
 أيضا يحتاج الى خلق جديد • (٢)

وكان أبرز ما استرعى انتباهنا ونحن نهتكم تراث الجاحظ النقدي أنه تسلسل حائل بمفاهيم الحيوية والخلود واستبان لنا أن فكرة النقدي ينبغي شأها قوسا على أن الاعتدال إلى خائف الفن والرواية ليس وقفا على جنس من أجناس البشر أو حضارة من الحضارات ولكنه من نتائج العقلية المستنيرة والاحساس المرتفع في أي عصر كان وفي أي جنس وجد .. ولا يجب في أن تراث الجاحظ النقدي يمثل عطفة مشرقة في تاريخ الفكر النقدي عند العرب ومثل أي مذهب نقدي متكامل وأسبق نزعة فنية أصيلة في تراثنا الأدبي ..

ولقد ألقينا في حديثنا عن تراث الجاحظ النقدي إلى سمات الأمانة التي يحفل بها وأثرنا في موانع متعددة إلى الصلة الثمرة التي تربط فكره النقدي الخالد بالنقد الحديث .. ونعمد هنا لنفهم ما أطلناه هناك ..

من المبادئ النقدية التي سبق الجاحظ إلى تقريرها مبدأ " المدق الفني " وقد رأينا أنه اعتمد عليه في تقويمه لشعر المديح وفكره على الفوضى التي أحدثتها فيها أدعياء الفن والمتلفعون على حيائهم الأدبي .. وشعر المديح كما قلنا من أوسع أبواب الشعر العربي وقد استغنى الجاحظ في تقريره لتجانس الشعراء المادحين ذلك القيساس النقدي السديد وحاول بذلك أن يضع في أيدي النقاد العرب ذلك الميزان الدقيق ليقسروا به الآثار الأدبية .. وبدأ " المدق الفني " وهو محور البحث النقدي الحديث بلعله الذاية التي يتطلى إليها الناقد الحديث من وراء تحليله للمحتوى الفني السعدي تنطوي عليه الشان الأدبية .. وقد يكرر الكلام في النقد الحديث عن " التجريسية الشعرية " وأغنى النقاد في تحليل عناصرها ومكوناتها وهي تنطوي في انقسام الداعية بموضوعه انفعالا مادقا تجهل له نداء وعلى به وزاد انه فتتلمذ في أعماقه مجموعة من

الأفكار لتخزين أخيراً في صورة نية خاصة هي ذلك التكوين اللغوي الضخم الذي ينقل
إلى المطلق حياً الشاعر والأساسيين ويخلق به في الأجزاء التي يمد إليها الشاعر
والحوال التي ارتادها خياله وسيت إليها روحه ..

يقول الباحث مؤكداً أهمية الأدب في عصر المدح :

"خير المدح ما وافق جنان المدح وأصدق الصفات ما تراكب مذهب المومنين
ومشهد له أدب الحيان الثائر والخير المتظاهر متى خالف هذه القضية وباناسيب
الحقيقة ضار المدح ولم يثن المدح * (١)

ويقول الأستاذ العقاد مؤيداً موقف المدرسة النقدية المجددة من عصر المدح :

"..... والذي نعتقد أن عصر المدح من أفضل المقاييس لقياس حساسية
الأمة والشاعر والأدب في وقت واحد .. فيخطئ من يظن أن الأمم المتقدمة لا تستخدم
ولا تفهم المدح من شعرائها .. إذ المدح جائز في كل أمة ومن كل عالم فلا يهر على
أدباء الشعراء أن يصروا القصيدة في مدح عظيم يوجب به ويؤمن بتأنيده ولا يهر على
الأدب أن يشتمل على باب المدح بين أبوابه الكبيرة التي يصرها الناصيون أولاً وقبسون
وأما الخلاف في نبي المدح لافي موضوعه على الإطلاق فمدح الأمم المتقدمة غير مدح
الأمم الجاهلية والشاعر الذي يملك أمره يتبع في مدحه أحلامها غير الذي يتبعه شاعر
مخلوب على أمره .. مكانة الأدب في الأمة تليها أمر الظهور من أساليب الشعراء
في شائين الحائزين فلم يقل أن للأدب مكاناً في الأمة والشاعر مضطرب فيها ليس
أفلا علة وتسخير كرامته في مدح لا تضيفه العقول ولا يلبق بالرجل الحر السعد
لما في * (٢)

(١) مجموعة رسائل الباحث ص ١٧٤

(٢) شعراء مصر حديثاً، في الجيل العاشر ص ١٨

ومن القياس النقدية التي قوم الجاحظ بمعارضة الشعراء على عمومها قياس :
 " غزارة الخواطر الشعرية " . ومنه نعلم أن الجاحظ كان على حق بقولاته المبررة
 النحوية ودلائل الشعرية .. فالشاعرية عنده لا تقاس بتعدد الموضوعات التي طرقها
 الشاعر أو كثرة ما قاله في مختلف الأغراض ولكن تقاس بمدى ما في شعره من خواطر مرسومة
 وأحاسيس ولم كان نتاجه كله في باب واحد لا يتعداه .. ولا شك أنه من أهم
 الدلائل على ثراء الملكة الفنية عند الشاعر - أو الأديب عامة - أن يحسن التفاضل بين
 لغته منذ بداية الأثر الذي يتذوقه إلى منتهاه أنه أمام قيم فنية جديدة وخواطر مرسومة
 أدبية طويلة ونهضات شعرية مؤثرة تنفذ أحاسيسه وتضاف من امتاعه وتذكر في نفسه
 الأحاسيس بالجمال .. ولقد أدرك الجاحظ أن الشعر يحلو ويمدح إذا كبرت فيه
 التهورات والطرائف وجمدت فيه الهسات والخواطر .. يقول في معرض حديثه
 عن العباس بن الأحنف الشاعر فيما أورد صاحب الأغانى :

" لولا أن العباس بن الأحنف من أخذق الناس وأعبرهم وأوسعهم كلاما
 وخواطرا ما قدر أن يكره شعره في مذهب واحد لا يجاوزه لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يثقب
 ولا يتدبر وما نعلم شاعرا لزم لنا واحدا لمزجه فأحسن فيه وأكثر " (١)

وفي حديث الجاحظ عن القيمة الفنية في الشعر اهتمدى إلى أهم خاصية من
 خاصياته وأدراك النهاية الحقيقية له فليس الشعر - كما يؤخذ من كلام الجاحظ -
 أداة مبتذلة لنشر الحكمة أو صحيفة يخطبها أرباب الثلوث الفضائل ولكنه في الأساس
 فن جميل وفيه تستند من فنيته التي تتلذذ في صدق التعبير وجمال الصياغة ودقسة

التصوير وهذه الايقاع قد عرغنا بالتخصيص لرأى الجاحظ في هذه السألة ودغمنا ما فيه البعض خطأ من أن الجاحظ كان من أنصار الصياغة اللفظية استنادا الى مقالته الشهيرة "...." والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها المعجم والعربى والبسندى والقروى .. وانا الشأن في القامة الوزن وتخبر اللفظ وسهولة المخن وكثرة الماء وهي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر مناعة وضوب من النسيج وجنس من التصوير. * (١)

- ٨ -

وعندما نتابع حديث الجاحظ عن التكلف والطبع نجد أننا أمام حقائق نقدية راسخة لا يزال النقد الحديث يصدر عنها ويمتد بها نقد آمن الجاحظ - كما سبق أن قررنا - بأن المواهب الفطرية هي أساس النهج في الفنون الأدبية وغير الأدبية .. فلى مجال الادب يكون لأديب ملكة في قرض الشعر ولاخر ملكة في الكتابة ولثالث موهبة في الخدابة والشعر قد يظهر نبوغه في لون معين من ألوان الشعر مثل الغزل أو الجوف ولا يحسن ما عداه كالهجاء أو المديح وقد يبدى في القريض ويحقق في الرجز وقد يحدث له المكسب وقد يجيد فيها معا .. والجاحظ عندما يخلط بهذه الظاهرة السبعة من ظواهر المواهب والملكات التي هي الروافد البعيدة للفعال الفنية - يريد أن يلفت نظر المقلاد الى أن من واجبه أن يتمرزا على نواحي النفس التي تكن في طابعهم ويصلوا على تمييزها وإثرائها بالتعلم والاكساب فتقبل الانسان الا على اللون الذي يحس أنه متوائم مع ميوله وتوازعه وما يتحرك في دميته نفسه .. وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين - مجموعة من الاخبار المنسوبة للشعراء حول هذه القضية ولاحد أنها تتناقض مع الأصل الذي تدور عليه دليومة المواهب والملكات وأعلن رفضه لهذه الأحكام الخادكة ومسط القول في تحليل القضية .. يقول :

” قال مسلمة بن عبد الملك نصيب : يا أبا الحجناء أما تحسن الهجاء ؟
 قال : أما تراني أحسن مكان عافاك الله - لا عافاك الله ؟ ولا برا الكيت بن زيد على
 الأبدالة فقال : أنا على القصار أجدر وقيل للحجاج مالك لا تحسن الهجاء ؟ قال : هل في
 الأرض سائق إلا وهو الأغصان أقدر ؟ قال ربيعة : الهد رأس من الهباء ثم يقول
 الجاحظ بعد ذلك صاعرة :

وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب والكيت والحجاج روية إنما ذكروها على
 وجه الاحتجاج لهم وهذا من جهل - إن كانت هذه الاختيار صادقة - وقد يكسبون
 الربح له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكائن ويكون له طبيعة في التجارة وليس
 له طبيعة في المصنعة ويكون له طبيعة في الحداء أو في التفسير أو في القراءة بالاحسان
 وليس له طبيعة في الغناء وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحن ، ويكون
 له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السوتاي ويكون له طبيعة في قنينة الراعي وليس له
 طبيعة في القصبتين الضمومتين ، ويكون له طبع في صناعة اللحن ولا يكون له طبع في
 غيرها ويكون له طبع في تأليف الخطب والرسائل والاسجاع ولا يكون له طبع في قرينة بيت
 شعر وإن هذا يخرج جدا وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد ومنها
 من يجمعها ... وفي الشعراء من يخطب ومن لا يستطيع الخطابة وكذلك حال الشطرنجاء
 في قرينة الشعر (١)

ولمنا نلاحظ أن تحليل الجاحظ للملكات الفنية يقترب كثيرا من بحوث النقاد
 الحديث التي يدور جانب كبير منها حول تحديد طبيعة الإبداع الفني ومعرفة النابع
 التي ينحدر منها ... ولملهميات صامتا لدى النقاد المحدثين أن الفنون - عاصمة -
 تتركز على المواهب الفطرية التي تختلف من مجتمع لآخر ثم يكون للاكتساب أثره في تنمية
 المواهب وحقها ...

من قضايا النقد التي وضع الجاحظ أولها قضية " لغة الفكاكة والنادرة " التي ذكرناها قبل . وأدراجه الجاحظ لأولها يدور على فكره الثاقب وذوقه الساج كما يدل على اعتداده بالرباط الوثيق بين الأدب والمجتمع وتلخيص مذهبه بصدق هذه القضية فمن أن الأديب إذا روى نادرة من نوادر الأعراب فيمنهض أن يحافظ على قلبها اللفظي الذي خرجت به من فم قائلها .. وإذا كان أخذاً في حكاية ملحقة من ملح المولدين - أو نادرة من طرف الدهماء - فعمله كذلك أن يصوغها في لغتها البلحونة ومارتوسها الدارجة فان خالف الأديب أو الحاكي هذا المبدأ في أي من اللذين فقد فوت على السامع وجد الاستماع بما يحكيه وفقدت حكاياته مفرزها وتهدد حسناتها ..

يقول في كتابه الحيوان :

" وأنا أقول ان الأعراب يحد نوادر المولدين كما أن اللحن يفقد كلام الأعراب لان سامع ذلك الكلام انما أعجبت تلك الصورة وذلك اللفظ وتلك اللفظة وتلك العبادة فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي انما أضحك به يخفف بعض كلام المجبة التي فيه - حروف الأعراب والتحقيق والتثقل وحولته الى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأحسست المرأة النجباء انقلب المعنى مع انقلاب نظم وتبدلت سريره " (١)

ويقول في موضع آخر :

" وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وله بداخل في باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الأعراب انقلب عن جهته وان كان في لفظه سخف وأبدلت المخالفة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يبر النظم - يكرها وأخذ بالكلامها " (٢)
 ويقول في كتابه البهلاء : " وأن وجدت في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير محرب والمطامع بعد ولا عن وجهته فاعلموا أنا انما تركنا ذلك لأن الأعراب يهضم هذا الباب ويخرج من حد إلا أن أحكى كلاماً من كلام شعاع البهلاء وأشحاء الملأ " (٣)

وقد ذكرنا هذه المسألة عن قضايا النقد عند الجاحظ لأنها تعد أماما لأكثر آراء النقاد المحدثين شيئا في قضية " لغة المسرح " تلك القضية التي استحوذت على اهتمام النقاد المحدثين وقتا طويلا واختلطت مواقفهم تجاهها فمن يطالب باستخدام الفصحى لأنها اللغة القوية التي تشكل لأدب الخلود وتجعله صالحا لكل زمان ومكان ومن دأب إلى العامية على أساس أنها اللغة التي ينسجم بها جوه المسرح الذي يقدم العمل المسرحي إليه . وذهب جماعة من النقاد إلى أن المسرحية إذا كانت تصور شخصيات من عامة الناس فيجب أن تتنطق بلغتهم وإذا كانت تصور شخصيات تاريخية أو كانت مترجمة من أدب أمة أخرى فيجب أن تتنطق بالفصحى وهذا الرأي هو أكثر الآراء انتشارا وأقربها إلى الصواب وسوكتنا نرى صورة مبتسرة من رأي الجاحظ في طريقة حكاية الكاهنة والنادرة . . . يقول أحد النقاد المحدثين (١) لقد بدأ المنار إليه في لغة المسرح

" إذا عصر " فلان " بأن تميمه لن يكون كاملا ولا تاما ولا حيا وأن أداءه ليس من يكون سليما إلا باستعمال أسلوب من الأساليب فإنه يحتمر عليه أن يستعمل هذا الأسلوب أما في المسرح فالأكثر شيئا على المؤلف فالفراقة قد تجعل من الصهل على القاري أن يترجم نفسه لنفسه لغة الإبطال ولكن المسرح لا يتيح للممثل فرصة التأمل بل هو يتلقى كلام الأبطال مباشرة من أفواههم فكر تتأثر بين مظهر الأبطال على المسرح واللغة التي يتفوقونها يحدث في الحال شعورا باختلال الصورة الفنية بالدعوى . لذلك كانت الروايات المترجمة التي تمثل أشخاصا أجانب في المكان أو الروايات التاريخية والامطورية التي تمثل أحداثا أجانب في الزمان لا بأس في جعل لغتها فصحى أو عميقة لاغلافة لها بالواقع الذي يعيشه المشاهد " (٢)

(١) الامتداد تطبيق الختم .

(٢) الأدب والفن عند عز الدين اسماعيل ص ٢٤٩

وفوق ناند آخره.

* ان الكاتب المسرحي يخطر بهاله أن وهلة أن روايته للتشيل على المسرح وأنسه
سيخاطب الجمهور على تهاين طبقاته فحتم عليه أن يطور الآذان بها ألفت من الخساسة
وبلوا للجمهور ما عرفت من ما ناهد حتى يأخذ على القنى صهيله الى أعناق القلوب لا تردده
وحشة ولا تبرقه غرابية .. فان تغللت رواياته كلمات يتمذرتهمها على الذائرة في الجطة
كانت الملة بينهم وبين المثلين غير مأونة الانقلاخ ومنى انقطعت الملة فرب التأشير
وضاعت الفائدة المروية من الأدب المسرحي * (١)

ونحن لا نطعن بتأثير النقاد المحدثين الذين بقنا كمنهم - برأى الجاحظ وإن كان
ذلك ليس بهميد - وإنما قصارى ما نريد أن نقره هو أن الجاحظ قد فطن الى الأساس
الذى يحكم هذه القضية وهو أن الحكاكي - وتأثيره الكاتب المسرحي في المصير
الحديث - يجب أن يكون أمينا في تصوير شخصيه وانطاقهم باللغة التي يتفوقونها
في الواقع حتى تحدث حكايات الأثر اللغى المتكبر ..

... ١٠ ...

ومن الساحات الجاحظ الفنية التي لها معلقا نقد الحديث ما ذكره في كتابه
البلاء حول هذه الحكاية قال :

* ولم أر مثل أبي جعفر الطوسي : زار قوما فأكرمهم وطيبهم وجماوا لمسبى
بماره وسبلته غالية فحكته الملبأ فأدخل اسمهم فحكها من باطن الشفة خافسة
أن تأخذ اسمهم من الغالية غيبا اذا حكها من فوق * (٢)

ثم يقول معلقا عليها : " وهذا مثله انما يطيب جدا اذا رأيت الحكاية بهينيك
لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه .. " (٣)

(١) الاستاذ محمود تيمور في كتابه دراسات في القصة والمسرح ص ٢٧١

(٢) البلاء ج ١ ص ١٠٨

وكانى بالجاحظ فى تعليقہ على هذه الحكاية قد سبق جماعة النقاد
المحدثين الذين ربحوا بين المسرحية والمسرح وقد ذلك الأصل النقدى المسمى
والمعروف أن النقاد المحدثين يكادون يجمعون على أن المسرحية لا تعد تأثيراً
الفنى الكامل إلا بعد أن تمرن على المسرح لأنها تستفيد من وضعها على المسرح
" أن يشاهد المتفنن الحركة بعينيہ وحمى بالموادف التى ترجعها وهو بذلك
ينتقل الى أن يصبح كأنه واحد من أولئك السائلين الذين يتحركون أمامه .. هذه
النظرية تحتم أن تكون علاقة بين المسرحية وبين أداء السائلين لها على المسرح
وأما المتفرجين وهى نظرية لها قوتها ولا شك ولعلها تكاد تكون قاعدة يمتد عليها
كل ناقد مسرحى .. ولكننا نجد نظرية مقابلة تضع أساساً آخر للنقد المسرحى يقول بها
النقاد " اسبنجسارن " حين يقرر أن كاتب الفن المسرحى لا يحاسب على أساس غرض
الأساس الذى يحاسب عليه أى " فنان " مدح آخر وهو : ما الذى الذى حاول أن يعبر
عنه وكيف عبر عنه " (١)

- ١١ -

فى دراستنا لثراث المبرد النقدى عرضنا لموقفه من المبالغة فى التشبيهات
والمصور وتبينه بين ما يقبل منها وما يستقل بعده وقلوبه وأثبتنا مقالة :
" أحسن المصور ما قارب فيه القائل إذا شبه وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة
ونبه فيه بفظته على ما يخفى على غيره وساقه بريف قوى واختصار قريب " (٢)

لقد أراء المبرد أن يكبح من جماح الشعراء الذين أسرفوا فى الخيال وأغرقوا
فى الوهم وابتعدوا عن الواقع بصورة أساءت ^{الى} أنفسهم النحوى وقعدت بهم عن سداد
الرقى والابتداع ، فليس المصور بالضرورة الخصاصا عن الواقع أو غريباً فى أودية الخيال فقد

(١) الادب ونحوه عزاندین اسماعیل ١٩٦-١٩٥ (٢) الكامل ج ١ ص ١٧٢

يروقنا الشعر وشعر أعبائها لأن الداعر اعتدى فيه الى حقيقة في عالم الواقع كأنه است
خافية علينا . .

ولعلنا نلج الشبه القوي بين مضمون كلام المبرد وما يقوله أحد نقاد المدرسة
المجددة في نقدنا الحديث وهو الشاعر عبد الرحمن شكرى حول التشبيه والخيال يقول :
" بعض القراء يرى أن الشعر مقصور على التشبيه مهما كان الشبه الذي يفسره
متوحها مثل الشاعر الذي يرمى بالتشبيهات على صحيفته من غير حساب مثل الرسام
الذى تفرغ مظاهر الألوان ليمثلها رسمه من غير حساب . . وليس الخيال مقصورا على
على التشبيه فإنه يشمل رمى القصيدة وموضوعها وغواظها وقد تكون القصيدة ملأى
بالتشبيهات وهي بالرفق من ذلك تدل على غلبة خيال الشاعر . . وقد تكون خالية من
التشبيهات وهي تدل على غلبة خياله . . . وان أجل الشعر هو ما خلا من التشبيهات
الهميدة والمغالطات المعنوية انظر الى قول " مولك " يرش امرأته وقد خلفت لسممه
بنقا مشير فقال بعف حالها بعد موت أمها :

فلق قد تركت صديرة مرحومة	لم تدر ما جزع عليك فتجسز
فقدت سائل من لزامك حلوبة	فحببت تسهر أعلها وتفجسج
وإذا سمعت أنينها لى ليلها	طلفت عليك عشون عيني تد مسج

فهو لم يطمأئنها شيئا جديدا لم تكن تعرفه ولم يبهز خيالك بالتشبيهات الفاسدة
والمغالطات المعنوية ولكنه ذكر حقيقة وسهارة في تخيل هذه الحالة ووصفها بدقة * (١)

(١) النقد العربي الحديث : د . محمد زحلول سلام في ١٢٣ هـ ١٢٤

خاتمة

قلنا ان الحديث عن جهود المدرسة البصرية في نشأة النقد الأدبي بمسند
إسهامات في تجلية قضية كبرى من قضايا تراثنا الأدبي وهي إبراز القيم الفكرية السليمة
تطويع عليها به وث علمائنا الأوائل حول قضايا الأدب وما أرسوه في ذلك المجال مسند
أسس وبادي لا تقف في أساليبها وأصالتها عن أحدث ما وصل إليه الفكر النقدي
الحديث ..

وعمد تناول هذا الموضوع طلبية لضرورة فكرية ملحة نذكرها - ودرجها معنا -
الدارسون لحقائق تراثنا والمتعصبون بهجته والفاقهيون لقيمه ومثله ... وقد اخترنا
نحن جانباً محدداً رأينا أن نجعل منه مثلاً على أسالة الفكر النقدي عند المصنفين
واسهامهم الفعال في بحث قضايا ..

وقلنا أيضاً أن مدرسة البصرة في القرن الثالث شهدت بداية البحث العلمي
لسائل النقد فليس بدأ التأليف فيه بجهود علمائها تجرت قضايا واضحت أبعادها
ومع أن كانت الأحكام النقدية تنمى بالمعقبة وتخلو عن التحليل والتعليل أصبحت لدى
بيئة البصرة في القرن الثالث تعتمد على الذوق والثقافة وتتميز بالتعمق وترتكز على
أسس وبادي وتحكمها أصول وضوابط ..

وحتى يتضح لنا مقدار ما أدته المدرسة البصرية للبحث النقدي وثمة ما يخصه
أعلامها من أسس ونظريات فقد قارناها بغيرها من بيئات النقد في مرحلتين :
الأولى : تمرنا فيها على أنماط النقد في عصور ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثاني
ثاني : في القرن الثالث في غير بيئة البصرة وقارنا الفكر النقدي في تلك المرحلة
بتأثير المدرسة البصرية واتضح لنا أن مدرسة البصرة تمتد نقطة تحول في تاريخ

النقد المصري فقد انتقلت بالنقد الى طور جديد لخص خصائصه التمسق والتحليل
وعقد التوازنات والمقارنات وارساء الأسس ووضع المعايير كما لاحظنا تأصيل
الفكر النقدي لتلك المدرسة على البحث النقدي بصفة عامة في القرن الثالث وأوليه
من القرون ..

الأخرى : عندما عقدنا مقارنة بين تراث المدرسة المصرية في النقد ونظريات النقد الحديثة
وفيها تأكد لنا أن نقاد البصرة في القرن الثالث سبقوا الى ادراك الكثير من
نظريات النقد وأصوله ونسبوا عليها وأشاروا الى الأسس التي تحكمها وقد وضع
لنا من خلال ذلك أن أدبنا المصري في عبوره الزاهرة كانت تتواكب حركسة
نقدية ناجحة تنهج تياراته وتتفرع ظواهره وتكشف فيه وتصحح مساره ..

ولما كان البحث النقدي في هذه المدرسة مختلطاً بغيره من بحوث الأدب واللغة
فقد صرفنا اهتمامنا الى التراث النقدي لأعلام المدرسة البصرية الذين تناولوا فنى
الأدب ونظرات ذات قيمة وتناولوا قضايا النقد من زوايا مختلفة وكان لهم نقاد
تميز فأوردنا كثير منهم بالحديث وحللنا تراثه النقدي تحليلاً مستوعباً واستغلنا السمات
العامة التي اتسمت بها اتجاهاتهم والاهتمامات الخالصة على كل منهم والمؤثرات المختلفة
التي أثرت فيهم .. كما ناقشنا آراءهم وقولنا نظرياتهم وألحنا الى مكانة كل منهم
في مجال النقد ووصفنا مكانتهم النقدية وعرّفنا على ذوق كل منهم لى فهو الأدب ..

ومع أننا لاحظنا أن هناك مجموعة من القضايا النقدية التي أدارها النقاد المصريون
الحديث حولها كالتوازنات الأدبية والسراقات الشعرية والتقديم والتأخير وغيرها
فقد نهينا في بداية هذه الدراسة على أننا لا نقصد من الحديث عن المدرسة المصرية
في النقد الأدبي - أن هؤلاء الأعلام يمثلون مدرسة بالفهم الدقيق لذلك الاصطلاح
في عرف المحققين .. وأن كان يمكن عدّهم مدرسة نقدية من زاوية أخرى وذلك إذا -

رابعنا تأثرهم بالثقافة المصرية القديمة ومدورهم عن الذوق المتمرس بحلول المصريين
 وأساليبها .. وذلك في مقابلة مدرسة التقنين والتقسيد التي تزعمها "قدامة بن جعفر"
 والتي كانت بصمات الثقافة اليونانية واضحة على تراثها .. هذا بالإضافة إلى إسهام
 المدرسة المصرية في أوساط الباحثين وإن كانت شهرتها مرتبطة ببحوث اللغة وقواعد
 النحور والتصريف فأردنا نحن أن نبين جهودها في ميدان البحث النقدي لئلا يرى
 أي مدى كان إسهامها في وضع قواعد ذلك الفن في تراث العرب ..

ويمكننا أيجاز النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث المنشوب لذلك
 الموضوع في النقاط التالية :

أولاً : إن تراثنا الأدبي على "بالنظريات الجديدة والآراء السائدة وأن أسلافنا من علماء
 السريية - وخاصة أعلام المدرسة المصرية الذين تناولنا في هذه الدراسة
 قد سبقوا إلى إدراك كثير من أسس النقد وقواعده وأن أصول كثير من النظريات
 النقدية الحديثة موجودة في تراث أولئك الأعلام وقد اتضح لنا ذلك بمسما
 لا يقلل انتم في الفصل الذي تحدثنا فيه عن صلة النقد في مدرسة البصيرة
 بالنقد الحديث ولا حثنا فيه تبعاً الأفكار النقدية التي قرونا عليها البصيرة
 بالنظريات النقدية الحديثة وقد سبقنا أمثلة كثيرة على ذلك كالذي قدسره
 ابن سلا حول صناعة النقد وخبرة الناقد وثقافته وافتراء الجاحل حول المراءب
 والفتكات والطهي والتكلف وحول القيمة الفنية في النمر والتحرر اللغوي
 واقترابه في ذلك من قضية اللغة في السرح الحديث وما أشار إليه الأصمعي
 في تعليقته المشهورة على شعر حسان بن ثابت صلة ذلك بقضية الالتزاف في
 النقد الحديث وعنه بحث البيرد في المبالغة والتشبيه ومالته بالحد مسمن
 الأسراف في التشبيه والخيال ..

ثانيًا : ان الابتداء الى حقائق النقد ونظريات ليس وقفًا على شعب من الشعوب أو حضارة من الحضارات وإنما هو من نتائج العقل المستنير والذوق المثقف في أي عصر كان وفي أي جنس من أجناس البشر وبعد .. وقد اكملت للأعلام المصريين الذين عرّفنا لهم في دراستنا هذه بقوات البحث النقدي العلم مدسّن ذوق متعمق بأدب العرب الى ثقافة واسعة استوعبت بفكر الأمم الأخسرى التي دخلت في نطاق المجتمع الاملاى ومن ثم لثقافتهم النقدي المسجل لأن يدرس ويكشف وأن نقف عنده ونؤخيه ما يستحقه ..

ثالثًا : أن النقد في بيئة البصرة في القرن الثالث كان مادرا عن الثقافة المصرية الخالصة والذوق الطيعى الأسيل ولم يتأثر تأثرا مباشرا بثقافات الأمم الأجنبية أو يستلج أعمالها في البحث والتقنين ومن ثم ان اندماج التيارات النقدية لدرسة البصرة في القرن الثالث يمد ابراراً لجهود بيئة عربية أصيلة تسمى ميدان البحث النقدي نطلع منه على مدى ما خلفه الفكر المصرى في ذلك المجال من نظريات ومبادئ حتى تدفع الانتباه الزائف الذى يحاوش أدعاء الثقافة الأوربية الإيحاء به وحجواه أن العرب لم يعرفوا النقد ولم يمارسوه وأن آراءهم فيه ضحلة واستهوائية في قضاياهم محدودة فهذا تواتر بيئة عربية خالصة الموهبة في القرن الثالث الهجرى اطلعتنا منه على قيمة الفكر النقدي للمغرب وتأبعنا نظرياتهم فيه وأوضحنا صحتهم الى تقرير كثير من أمولم وأدراك أبعاد قضاياهم ..

رابعًا : اننا ينبغي أن نعود الى تجميع تراثنا النقدي وأن نشاق بذلك التراث ونتمسك به ونسلمن الى ما يخلو عليه من قيم وأفكار وأن ننقى عنه ما ران عليه من أعمال في عصر الاستعمار الفكرى الذى فرض علينا سنوات طويلة بفرس في عقول الكثرين منا بهذا الشكل في تراثنا الحضارى والفكرى ..

فأحرى بنا وقد تعلمنا من برائن الاستعمار في واقعتنا
وأوطاننا أن نطيع بقايا سموم الفكرة الهداية والنجاح في ذلك
الميدان ومن هم المدللين من باحثينا وعلمائنا الذين نرجو أن ينهضوا
لتحقيق هذه الغاية النبيلة ..



المراجع

الترتيب	اسم المرجع	المؤلف	رقم الطبعة وتاريخها	الملاحظات
١	ابراهيم بن سيار النظار	محمد عبد الهادي أبو ريحة	١٩٦٤م	مطبوعة لجنة التأليف والترجمة والنشر دار الطباعة المصرية
٢	أبو عثمان البياض	محمد عبد المنعم خفاجي		دار الطباعة المصرية
٣	الآداب المصرية قس	محمد عبد المنعم خفاجي		دار الطباعة المصرية
٤	أدب الكاتب	أحمد فتيفتح تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد		الطبعة الرحمانية
٥	أدب المترجم	عبد الحكيم بلبيس	الطبعة الثانية - ١٩٦٩م	دار النهضة مصر للطبع والنشر
٦	أدب الجاحظ	حسن السيد	الطبعة الأولى - ١٩٣٦م	الطبعة الرحمانية
٧	الأدب والفنون	عز الدين اسماعيل	الطبعة الأولى - ١٩٦٨م	دار الفكر العربي
٨	أحسن التقاسيم	الشيخ علي المعروف بالداري	الطبعة الثانية - ١٩٠٩م	بريل بلبيس
٩	أمالى السيد المرتضى	الشيخ الشريف المرتضى	الطبعة الأولى - ١٩٠٧م	مطبوعة الخانجي
١٠	أمالى السيد	أبو علي القائل	١٩٦٠م	دار الكتب
١١	أنباء الرواة على أنباء النحاة	علي بن يوسف القفطي / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم	١٩١٣م	مطبوعة بريل بلبيس
١٢	الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد	محمد بن عثمان الخياط المترجم تحقيق د. نعيم	١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م	دار الكتب
١٣	الانصاف في مسائل الخلاف	عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري	١٩١٣م	مطبوعة بريل بلبيس
١٤	أسرار النقد الأدبي عند العرب	د. أحمد أحمد حسني	الطبعة الأولى - ١٩٥٨م	
١٥	أسواق العرب قس	سعيد الأفندي	الطبعة الثانية - ١٣٢٩هـ	دار الفكر بدمشق
١٦	الأمم حيا وناما	د. محمد الجبار الجهمي	١٩٥٥م	طابع دار الكتاب العربي
١٧	الأمم حيا وناما	الأبسي تحقيق أحمد محمد شاكر عبد السلام عسارون	١٩٦٤م	دار المعارف

الناشر	رقم الطبعة وتاريخها	المؤلف	اسم المرجع	٤
مطبعة أكاك بالرباط		مارن بيمسلا	أيلة الجاحظ	١٨
المطبعة الكاثوليكية بيروت	١٩٢٦ هـ	أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيراني نشر وشهد ياب فرقتي كركسو	أخبار النحويين	١٩
مطبعة الاستقامة	الطبعة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م	حسن السند	أخبار المراقبين	٢٠
دار الكتب	الأولى ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م	أبو الفتح الأصفهاني	الأغاني	٢١
مطبعة حيدر آباد الدكن	١٣١٦ هـ	أحمد بن يحيى المرتضى تصحيح توما أرنل	باب ذكر المعتزلة	٢٢
مطبعة المسماة	الأولى ١٣٤٨ هـ	ابن كثير	كتاب النية والاصل	٢٣
مطبعة البابي الحلبي	١٣٦٩ هـ / ١٩٤٥ م	ابن المعتز تحقيق محمد عبد النصير خطا	البيان والنهاية	٢٤
الدار المصرية		ابن عبد البر الفرغاني	بهاجة العباسي	٢٥
للتأليف والترجمة		تحقيق مرسى الخولي	البيان والتحصيل	٢٦
مكتبة الأنجلو المصرية	الأولى ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م	أبو عثمان الجاحظ تحقيق حسن السند	البيان والتحصيل	٢٧
مكتبة دار العربية	الأولى ١٩٦٥ م	د. هادي طهاني محمد بن يزيد المسيرد	البيان والتحصيل	٢٨
مكتبة الأنجلو المصرية	الأولى ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م	تحقيق رمضان عبد التواب بالغة أرسطو بن المبريد والبيان	بهاجة أرسطو بن المبريد والبيان	٢٩
مطبعة المسماة	الأولى ١٣٢١ هـ ١٩٦٥ م	الميرزا محمد أبو الفضل إبراهيم	بهاجة الجاحظ	٣٠
دار المعارف	١٩٦٢ م	د. طه الجارحسي	الجاحظ حياته وأثاره	٣١
دار المعارف	١٩٤٨ م	عفيق جسيميري	الجاحظ ملامح عقول الأدباء	٣٢
دار المعارف	١٩٦٤ م توابع الفكر العربي	حنان الفاخري	الجاحظ	٣٣

رقم الترتيب	اسم المؤلف	المؤلف	رقم التمهيد وتاريخه	الناشر
٢٤	البحر...	د. أحمد كمال زكي	١٩٦٧، سلسلة أعلام المصرب	
٢٥	البحر والحاضر والمباني	د. مديحة طه القجس	١٩٦٥	مطبعة الارصاد / بغداد
٢٦	البحر في البصرة وقادش وسامراء	د. مكارم هلال - ترجمة إبراهيم الكيلاني	١٩٦٦	دار القفلة المصربية دمشق
٢٧	جبهة أنساب المصرب	ابن حجر الأندلس تحقيق ليلى بروفيسور		دار المصرب
٢٨	جبهة وهران المصرب	أحمد زكي عفت	الاولى ١٩٥٦ ١٩٦٢	مطبعة المصرب / بيروت
٢٩	دائرة معارف البستان	البستان	١٨٨٢	مكتبة المصرب
٣٠	ديوان البستان	أبو بكر المصرب	١٢٥٢ هـ	مكتبة الانوار المصربية
٣١	دراسات في نقد الأدب المصربي	د. دوي طيان	الثالثة	المطبعة المصربية
٣٢	دراسات في القيمة والمصرب	محمد تيم		المطبعة المصربية
٣٣	الوزراء والتكسيب	محمد بن عبد و... تحقيق عبد الله السقا وآخرين	الاولى	مطبعة الحلبي
٣٤	وحيات الأعيان	ابن خلكان تحقيق محمد موسى اند بن عبد الحيد	الاولى ١٣٦٧ ١٩٤٨	
٣٥	زهر الآداب وثمر الألباب	الحصري القيرواني تحقيق زكي مبارك	الثانية	المكتبة التجارية بحمص
٣٦	الحياة الأدبية في البصرة	د. أحمد كمال زكي	الاولى ١٣٨١ ١٩٦١	دار الفكر بد دمشق
٣٧	الحياة...	البحر... تحقيق بد... مكارم	الاولى ١٣٥٦ ١٩٣٨	مطبعة مصطفى البالي الحلبي
٣٨	طبقات فحول الشعراء	ابن سائر... تحقيق محمد محمد شاكس		دار المصرب
٣٩	طبقات الشعراء	ابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد السمران		دار المصرب
٤٠	الملك والمنعة في الشعر	محمد البهيبي	١٣٥٨ هـ	مكتبة النهضة المصرية
٤١	الكاس في اللغة والأدب	المسيود		مطبعة الاستقامة
٤٢	الكاس في اللغة والأدب	الكاس في اللغة والأدب	الاولى ١٣٢٣	مطبعة التقدي

١	اسم المؤلف	المؤلف	رقم الطبعة وتاريخها	المصدر
٧١	معجم البلدان	ياقوت الحموي		دار صادر / بيروت
٧٢	معجم الأدباء	ياقوت الحموي / نشر أحمد فريد الرضا		دار الجامعة
٧٣	معجم الشعراء	المرواني تحقيق عبد الستار أحمد ديب	١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م	دار احياء الكتب العربية
٧٤	مرآة الجنين	الشرعبي	١٢٠٠ هـ	طبعة بولاق مصر
٧٥	موسى الدهلي	المعزدي / تحقيق محمد سعيد الدين عبد الحميد		
٧٦	المفاتيح	النجي تحقيق احمد محمد مكرم عبد السلام هارون		دار المعارف
٧٧	المعز لسيرة	زكي حسن بنار الله	١٩٤٧	القاهر
٧٨	مظاهر التوفيق الادبي	محمد نبيه حجازي	الاولى	مكتبة النهضة مصر
٧٩	الناخلة الذهبية	عمر الدين	الثانية ١١٥١	
٨٠	نزهة الألبان في طبقات الأدباء	جميل جبر	١٩٥٥ م	دار بيروت
٨١	نقد النعمان	قدامة بن جعفر	الاولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٤ م	مكتبة الانجلو المصرية
٨٢	النقد المنهجي عند العرب	د. محمد مصطفى		دار النهضة المصرية للطبع والنشر
٨٣	النقد الادبي الحديث	د. محمد غنيم هلال	الرابعة ١٩٦٦	دار النهضة المصرية
٨٤	النقد الادبي	أحمد أمين	الرابعة ١٩٧٢	مكتبة النهضة المصرية
٨٥	النقد العربي الحديث	د. محمد زقون		مكتبة الانجلو المصرية
٨٦	نشأة الكتابة الفنية	د. حسين نصار	الاولى ١٩٥٤	
٨٧	النثر الفني في القرون	د. زكي مبارك	الاولى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م	دار الكتب
٨٨	التراب الهجري	د. محمد محمود المقاد	الرابعة ١٩٦٨	مكتبة النهضة التجارية
٨٩	النثر الفني والنثر الجاهل في	د. محمد الحكيم		مكتبة الانجلو المصرية
٩٠	سيرة النبي صلى الله عليه وسلم	ابن هشام / تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد	١٩٣٧	المكتبة التجارية

اسم العرجة	المؤلف	رقم الديرة وتاريخها	الناشر
٩٢ سكينة بنت الحسين	د. عائدة عبد الرحمن		دار النهضة
٩٣ شرح الميسر	ابن نباته تحقيق محمد ابو النخس ابراهيم	١٩٦٦	دار الفكر العربي
٩٤ غبار النصارى	ابن طباطبغا العلوى تحقيق طه الحاجرى ومحمد زغلول		المكتبة التجارية
٩٥ الصمد السبلى الأول	د. شوقي غيف	الثانية ١٩٦٠	دار المعارف
٩٦ الصمد فى صناعة الشعر ونقد	ابن رشيق القيروانى	الأولى ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥	مطبعة أمين عطية
٩٧ المحقق الرئيس	ابن عبد الرحمن	الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨	لجنة التأليف والترجمة والنشر
٩٨ اعتقادات فرق المسلمين واندركسين	الرازى تحقيق سامى اندا	١٩٣٨	مكتبة النهضة المصرية
٩٩ الفهرست	ابن اندلس		مطبعة الاستقامة
١٠٠ فخر الاسلام	أحمد أمين	الطبعة ١٩٥٤	مكتبة النهضة المصرية
١٠١ فى الادب الجاهلى	د. طه حسين	الطبعة	دار المعارف
١٠٢ فى الادب النبلى	د. طه الزبيدى		
١٠٣ فى تاريخ النقد والادب العربى الادبى	د. طه الحاجرى		
١٠٤ بحرولة النصارى	الألمنى تحقيق محمد عبد الصمد خفاجى وطه الزبيدى		
١٠٥ فى الادب	توفيق الحكيم	الثانية ١٩٧٣	دار الكتاب العربى ببيروت
١٠٦ فى التاريخ	أبو بكر الصمكى	الأولى ١٣١٦ هـ	الأمثلة
١٠٧ فى التاريخ	ابن طاهر البغدادى	١٣٢٨ هـ	دار المعارف
١٠٨ فى القرن بين الاسرى	د. بدوى الهان	الثانية	مكتبة الأنجلو المصرية
١٠٩ قدامة بن بشار والنقد الادبى	أحمد بن يحيى تحقيق تحقيق محمد عبد الصمد خفاجى	الأولى ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨	
١١٠ قواعد النصارى	لاسى آبر كرمى - ترجمة محمد عوض محمد	١٩٥٤	لجنة التأليف والترجمة والنشر
١١١ قواعد النقد الادبى			

الناشر	رقم الطبعة تاريخ النشر	المؤلف	اسم المؤلف	العدد
مكتبة دار الكتب العربية الكبرى	١٩١٣هـ ١٣٣١	محمد كرد علي	رسائل البلخي	١١٢
دار الكتب المصرية	١٣٥٠هـ ١٩٣١	ابن المدير تحقيق زكي مبارك	الرمالة المذراة	١١٣
مطبعة النهضة المصرية	١٣٤٦هـ ١٩٢٧	سيد بن علي الحروف	زفة الآمل من كتاب الكاس	١١٤
دار المعارف	١٩٦٦	ابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر	الشعر والشعراء	١١٥
مكتبة النهضة المصرية	١٩٥٠هـ	عبد الحميد المقاد	عصره عصر هيتانهم في الجين الماغسي	١١٦
مكتبة دار المعرفة		الحسن بن الحسن السكري تحقيق عبد الستار أحمد فراج	شرح أسرار الهدايين	١١٧
دار المعارف	١٩٦٣	محمد بن القاسم الانباري	شرح القواعد المهيبة	١١٨
مطبعة بولاق	١٣٠٠هـ	أحمد بن محمد المؤمن القيسري	شرح المقامات الحزبية	١١٩
مكتبة القدس	١٣٥٠هـ	ابن القبطان الدمشقي	مذرات الذهب	١٢٠
مكتبة مكتبة ستان الطرية	الاولى ١٣٢٦هـ	ابن قتيبة	تأويل مختلف الحديث	١٢١
الطبعة الاميرية	الاولى ١٣٣٢هـ ١٩١٤	الضروب للجاحظ تحقيق أحمد زكي باشا	القال في أخبار الطوك	١٢٢
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر	١٩٣٧هـ	طه أحمد إبراهيم	تاريخ النقد الادبي عند العرب	١٢٣
دار المعارف	١٩٦٤	د. محمد زقزل ملأ	تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري	١٢٤
مكتبة النهضة المصرية	١٣٨٧هـ ١٩٦٧	محمد نجيب الهبيتي	تاريخ الشعر العربي	١٢٥
		د. أحمد الناييب	تاريخ النقائض في الشعر العربي	١٢٦
دار المعارف	١٩٥٦	د. علي حسن الخروطلي	تاريخ المراقبي ظل الحكم الاموي	١٢٧
مطبعة التقيين/مطبعة ان	١٩٥٧	د. جواد طلسي	تاريخ العرب قبل الاسلام	١٢٨

الناشر	رقم الكتاب وتاريخها	المؤلف	اسم المرجع	العدد
	الثالثة ١٩٦٤م	د. أبو زيد غنيم	تاريخ الحضارة الإسلامية	١٢٩
دار المعارف	الثانية	ثاسيلي بارتولد : ترجمة	تاريخ الحضارة الإسلامية	١٣٠
مطابع عويدات بيروت	١٩٦٤م	اندريه بارهوت : ترجمة خزعة طاهر ترجمة أحمد عويدات وآخرين	تاريخ الحضارات المما	١٣١
مطبعة الهلال	الرابعة ١٩٢٧م	جرجي زيدان	تاريخ النقد الإسلامي	١٣٢
المطبعة القلازهرية المصرية	الاولى ١٣٠١هـ	ابن الاثير	تاريخ الكائنات	١٣٣
مطبعة الاستقامة	١٩٣٩ و ١٣٥٧	محمد بن جرير الدبيري	تاريخ الامم والملوك	١٣٤
دار المعارف	١٩٦٣	د. محمد مصطفى جدارة	اكتشافات العصر المرمي في القرن الثاني الهجري	١٣٥
دار النهضة المصرية	١٩٦٤	الازهرى	تهذيب اللغويات	١٣٦
مطبعة المعارف - بيروت	١٩٥٣	د. صالح أحمد لعل	التنظيمات الاجتماعية في الحضارة	١٣٧
مكتبة النهضة المصرية	١٩٤٠م	د. راسات لكهاراند شرقين	الثقافة اليونانية في الحضارة الإسلامية	١٣٨
دار العلم للملايين بيروت	الاولى	ابن خلدون	تاريخ الحضارة الإسلامية	١٣٩
دار الكتب المصرية	١٩٥٢ و ١٣٧١	ابن خلدون : تحقيق / محمد علي النجدي	تاريخ الحضارة الإسلامية	١٤٠
مكتبة النهضة المصرية	الطبعة	أحمد أمين	تاريخ الحضارة الإسلامية	١٤١

دوريات :

١ مجلة سوسر : اعداد دورية الآثار بالمراق

٢ مجلة : مجمع الملى المرمي : دورية

الفهرست

القدمية : من أ - ت

أ - أهمية الموضوع وقيمه ب - لم يسبق بحثه - هـ المصنف - د - النتائج
الباب الأول : البصرة ودورها في الدراسات الادبية والفنية
من ١٥٥ - ١٥٥
الفصل الأول : البيئة البصرية وتأثير النشاط الثقافي بها
من ٢٩ - ٢٩

١ - مدينة البصرة - تصويرها - هـ - التسمية - هـ ١ - الدوران في البصرة
٢ - السفينة البصرية هـ ١٢ - غياث المثلثة البصرية - هـ ٢١ - علوم اللغة والأدب
٢ - خواص المذهب - هـ ٢ - الفرق بين مذهب البصريين
والنكفيين ٢٥ - علم الأدب .

الفصل الثاني : الاهتمام بالبحر وتطور الدراسات حوله

من ٤٠ - ٨٠

٤٠ - أهمية البحر بالنسبة للبحر - هـ ٤١ - أسواق البحر وحافظه - هـ ٤٢ - البريد
٤٨ - جمع البحر وقد هـ ٤٩ - متى بدأ تدوين البحر وآراء الباحثين في ذلك
٥٢ - كتب الاختيارات البصرية - هـ ٥٦ - دراسات البحر والبحر - هـ ٥٩ - تحليل
كتاب معاني البحر للأستاذ - هـ ٦٦ - طبقات البحراء - هـ ٦٦ - الدراسات
المتعلقة بالرواية وتحقيق التراث - هـ ٦٨ - مظاهر الاضطراب في الرواية
٧٦ - تنبيه القدماء عليها - هـ ٧٧ - الزهري أو قضية الشك في البحر - هـ ٧٨
٧٨ - رأي مصنف في إدارة هـ ٧٩ - رأينا في دعوى الزهري .

الفصل الثالث : الكتابة الفنية ووضع القواعد النقدية لها :

من ٨١ - ١١٦

٨١ - ازدهار فن الكتابة في القرن الثالث هـ ٨٢ - عواش ازدهارها - هـ ٨٨ - خواص
الكتابة في القرن الثالث هـ ٩٠ - نتائج من كتابات القرن الثالث هـ ٩٢ - نقد الكتابة
وأدب الكاتب لابن قتيبة رأى زكي مبارك في قيمته النقدية هو والرسالة السدرا
٩٤ - تحليل مقدمة أدب الكاتب الأصول النقدية في مقدمة أدب الكاتب
١٠١ - الرسالة السدرا لابن عدي - هـ ١٠٢ - تصنيف صاحبها ١٠٢ - قيمتها النقدية
١٠٣ - تحليل الرسالة . .

الفصل الرابع : أدوار النقد في عصر ما قبل الإسلام والقرنين الأول والثاني من ١١٥ - ١٥٨

١١٦ - سور اعتقد فيما قبل الإسلام تنقيح الشعر وتجويد هـ ١١٧ - النقد في العملي
١٢٠ - نقد النابغة لحيان - ١٢١ - نقد أم جندب لاسرى القيس وعلقمة
رأى الدكتور عبد الرحمن عثمان في هذه الرواية رأينا لبها - ١٢٢ - النقد المصان
أو الانطباعي - ١٢٣ - غياث في نقد عصر ما قبل الإسلام . .

١٢٥ النقد في القرن الأول ، مسرحية الشهرة والاعتلافة الرشيدة وحالة النقد فيها
 ١٢٦ بيعة الحجارة - ص ١٢٦ خصائص النقد فيها - ١٢٤ ابن أبي ميثاق
 ١٣٥ موقفه من شعر عمر بن أبي ربيعة - ذوقه النقدي - ١٣٧ سكوته وذوقها في
 النقد الأدبي - ص ١٤٠ بيعة الصغار - ١٤٢ عبد الملك بن مروان - ٤٤ أخوان
 النقد فيها - ١٤٤ بيعة المراق ، شعر النقاشين - ١٤٥ الحركة العلمية
 ووضي قواعد اللغة والتصرف - ١٤٦ مقارنة بين البيئات الثلاث - ١٤٨ النقد
 في القرن الثاني - عوامل ارتقاء الفكر النقدي - ١٤٩ المقاييس النقدية في القرن
 الثاني . .

الباب الثاني

أعلام النقاد البصريين

١٥٩

٢١٣-١٥٩

الفصل الأول : الأعمى ورائه النقدي

١٦٠ شخصية الأعمى ونسبه - ١٦٣ ثقافته ورحلاته - ١٦٧ اتصاله بالرشيد
 ١٧١ عوامل نجاحه في بغداد - ١٧٣ حكاياته ونواديه - ١٧٦ أخلاقه وأقوال
 التامر عليه - ١٨٢ مؤلفاته - ١٨٣ وفاته - ١٨٤ التراث النقدي للأعمى مكانة
 الأعمى في فن النقد والنظرة فيها رأينا في كتاب فحولة الشعر - ١٨٦ المرحلة
 الثالثة للفترة النقدي - مبدع نقدي - رواء الشرطي شارح المقامات . .
 ١٩٤ قيمة الرواية في شعر فكر الأعمى النقدي - ١٩٥ اهتمامات الأعمى
 النقدية - خبرته بالعصر القديم - ١٩٧ نقد لأوساف الحيوان - ١٩٩ نقد
 لشعر المحدثين - مقالته عن ساقية الشعراء وتوجيهها لها - ٢٠٢ إعجابه بالشعراء
 المحدثين - ٢٠٤ ثناؤه على أبي نواس وروايته لشعره - ٢٠٥ المقاييس النقدية
 عند الأعمى - ٢١٠ مظاهر التخلف في فكره النقدي . .

الفصل الثاني : ابن سلام الجهمي ورائه في النقد العربي - ٢١٤ - ٢٤٥

٢١٥ حياته ومكانته - ٢١٦ مؤلفاته - ٢١٧ ابن سلام والنقد الأدبي .
 ٢١٨ تحليل مقدمة طبقات الشعراء - ٢٢٠ دافع اهتمام الشعر - ٢٢١ امتداد
 ابن سلام بأهوارات ابن سلام - ٢٢٥ التاريخ الأدبي العربي - ٢٢٦ نزعات الشعراء
 القدماء - ٢٢٧ شعر ابن سلام في طبقاته - ٢٢٨ المقاييس النقدية في طبقات
 الشعراء - ٢٣٤ ملاحظات عامة على طبقات ابن سلام - ٢٤٠ رأينا في مكانة ابن
 سلام النقدية - ٢٤٢ مأخذ المحدثين على ابن سلام رأى الدكتور مندور - ٢٤٣ رأى
 الاستاذ طه ابراهيم - ٢٤٤ رأى الدكتور زغلول حلا . .

الفصل الثالث: الجاحظ والتراث النقدي

٢٤٦

٢٤٧ ترجمته - نسبه - مولده - ٢٤٨ نشأته - دعوته وفكره - ٢٤٩ ثقافته
 ٢٥٠ صلته بمذنب الاعتراف - ٢٥٢ رحلته الى بغداد وعوامل نجاحه بهيما
 ٢٥٣ مؤلفاته - ٢٥٤ فكر الجاحظ وفلسفته - ٢٦٠ الجاحظ المناقد الذواق
 ملاحظات على تراثه النقدي - ٢٦٤ ملاحج منهجه النقدي - ٢٦٦ المقاييس
 النقدية في تراث الجاحظ - ٢٧٦ التباين النقدية في تراث الجاحظ - الأدب
 المؤثر - ٢٧٩ الالفاظ والسماني - ٢٨٢ التكلف والطبع - ٢٨٤ التوليد والوضع
 ٢٨٧ لغة الفكاهة والتندرة - ٢٨٩ الانسجام السمعي - ٢٩٠ الجار والاعجازه
 ٢٩٢ القديم والمحدث .

الفصل الرابع: المبرد والنقد الادبي

٢٩٦ - ٣٣٥

٢٩٧ حياة المبرد - ٢٩٨ مؤلفاته - ٢٩٩ ملاحظات عامة على منهجه النقدي
 ٣٠٧ المسائل النقدية في تراث المبرد - الموازنات الادبية - ٣٠٦ السرفسات
 الشعرية - ٣١٢ البالغة - ٣١٥ التمهيد - ٣٢١ رسالة البلاغة - ٣٢٥ النقد
 النثري - ٣٢٦ القديم والجديد - ٣٣٤ التوليد والوضع .

الفصل الخامس: المعتزلة والنقد الادبي

٣٣٦ - ٣٦٠

٣٣٩ حركة الاعتراف - ٣٤٤ أثر الاعتراف في الشهمة الفكرية - ٣٤٧ جهود المعتزلة
 في مجال النقد الادبي - ٣٤٨ محيفة بشر بن الصنوبر - ٣٥٢ تحليل النظام
 لطائفة اعتدال الشعر - ٣٥٤ منهج المعتزلة في تفسير القرآن الكريم
 وأثره في الطائفة الباقية - ٣٥٨ اعلام المعتزلة ومكانتهم الادبية - أبو الهيثم
 الملاف - ٣٥٩ أبو اسحاق النظام .

الباب الثالث

جهود المدرسة البصرية في النقد الادبي ٣٦١ - ٤٢٢

الفصل الأول: النقد الادبي في القرن الثالث ومكانة المدرسة البصرية فيه ٣٦١ - ٣٩٢

٣٦٣

٣٦٣ تحليل كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة - ٣٧٢ قواعد الشعر لاحد بن زحبي
 ثعلب - ٣٧٩ تراجم المختار النقدي وموضع بين تراث النقد في القرن الثالث
 طبقات الشعراء المحدثين - ٣٨٢ رسالته في محاسن شعر أبي تمام وساميه
 ٣٨٩ النقد في مجالس الأدباء والشعراء .

الفصل الثاني : جهود المدرسة المصرية في نشأة النقد ٣٩٤ - ٤٠٣

٣٩٤ نفى الدراسات النقدية في بيئة البصرة - ٣٩٥ أول المؤلفات النقدية

ظهرت بها - ٣٩٧ القضايا النقدية في نوات المدرسة البصرية تحقيق التراث

٣٩٨ الموازنات الأدبية - ٤٠١ المبرقات البصرية - ٤٠٢ نقد الكتابة والخطابة

الفصل الثالث : صلة النقد في مدرسة البصرة بالنقد الحديث ٤٠٦ - ٤٢٢

٤٠٧ مهمة النقد وموقف المدرسة البصرية منها - ٤١٠ الفرق بين نقدنا

النقد ونقد الحديثين - ٤١٢ الفكر النقدي في عصرنا وتأثيره في النقد الحديث

٤١٦ ابن سائده والنقد الحديث - ٤١٨ الجاحظ والنقد والحديث

٤٢٦ الجبر والنقد الحديث

خاتمة الرسالة :

المراجع :

الفهرست :

٤٢٢ - ٤٢٨

٤٢٣ - ٤٤٠

٤٤١ - ٤٤٤